حركة التبليغ دعوة عالمية

ليست فرقة عقدية ولا طريقة سلوكية ولا جماعة حزبية

بقلم

د/ أبو إلياس طه بن إبراهيم القلموشي

وفقه الله تعالى لمحابِّه ومراضيه ، وغفر له ذنوبه ولوالديه وبارك في ذريته إلى يوم الدين، ءامين

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

تتلاطم الأمواج في بحر الأمة الإسلامية ، وتتعدد المشارب في منابع الدعوة، وفي خضم هذا المد والجزر، يبرز جدلٌ قديمٌ متجدد حول بعض الجماعات والحركات الإسلامية، التي تباينت الرؤى حولها محدثة شقاقا كبيرا لا يليق بصف المسلمين، نتج عنه تنازع شديد لا يُعين على تحقيق مقاصد الدين. ومن بين هذه الحركات، تقف "حركة التبليغ والدعوة" في مرمى سهام النقد والتقييم، خاصة من قِبل بعض التيارات السلفية المعاصرة، التي وسمتها بـ "**جماعة التبليغ**"، لا بقَصْد التعريف، بل بقَصْد الذمّ والتشويه.

إن مصطلح "الجماعة" في سياق النقد المُوجه لحركة التبليغ، لم يُرَد به مجرد الإشارة إلى طبيعة عملهم الجماعي المنظم، بل حُمّل دلالات أبعد وأشد وطأة في أذهان العامة ، فلقد قُصِدَ به تصوير هذه الحركة الدعوية العالمية كفرقة ضيقة الأفق، منغلقة على ذاتها، خارجة عن سواد الأمة الأعظم، بل ومُتّهمة بتبعيتها الكاملة لـ "مجموعة منحرفة من الرجال الوافدين من بلاد أعجمية تعبد القبور" !! ؛ تهمةٌ ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، ولا تُسعفها حقائق الواقع، ولا يُصدقها مسارهم الواضح الذي لا لبس فيه.

ومع ظهور بعض أبناء دعوة التبليغ في بلاد العرب المتأثرين بأفكار معينة ، رافعين راية التبعية الكاملة لمشايخ التبليغ في شبه القارة الهندية في كل مناهج التلقي والاعتقاد والتفقه والسلوك ، زاعمين أن منهج (جماعة التبليغ) - هكذا قالوا – أشعري ماتريدي حنفي سلوكي ، مناغشين للأفكار الأخرى في قضايا خلافية

، مخالفين بهذه المسالك آداب وتوجيهات كبار مشايخ التبليغ عبر العقود بعدم التعرض للخلافيات ولا مناقشة الأفكار الأخرى ، محدثين شقاقا وخلافا وعصبية بين أبناء حركة التبليغ .

من هنا، انبثقت شرارة هذا البحث ، لا دفاعًا عن أشخاص بذواتهم، ولا عن تنظيمات بعينها تُخطئ وتُصيب، ولكن دفاعًا عن الحق الذي طاله التشويه، ودفاعًا عن الحق الذي شوه بضباب الجهل وسوء الفهم، وطلبًا لجمع كلمة المسلمين التي مزّقتها سهام التبديع والتفريق ، فلم يكن الهدف من الكتابة فيها أبدا إذكاء نار الجدل بل إخمادها بماء الحجة البارد ، وبلسم البيان الشافي وذلك لمن طهر قلبه واستقام فهمه وطلب الحق في مظانه ، فلقد عقدنا العزم على أن نُبين للقارئ المنصف، والمتحري للحق، أن الصورة النمطية التي أُلصِقَت بحركة التبليغ الدعوية العالمية، هي صورةٌ مُجانبةٌ للحقيقة، وأن كثيرًا مما يُشاع عنها، هو محض افتراء في كثير من الأحيان ، أو سوء فهم ، وتضخيم لأخطاء جزئية قد تقع من أي جماعة بشرية في أحايين أخرى .

ولقد تحملنا في هذا البحث مهمة تجلية الحقائق الآتية :

أولاً: بيان أن حركة التبليغ ليست جماعة حزبية ضيقة الأفق بالمعنى التنظيمي الذي يُنافس على السلطة أو يُغلق الأبواب في وجه غير أتباعه ، حيث إن عملهم، وإن كان جماعيًا ومنظمًا، إلا أنه يهدف في غايته إلى إقامة المسلمين على أصول الدين المشتركة، دون الولوج في دهاليز السياسة أو الصراعات المذهبية المعقدة ، فهم جماعة عملٍ لا جماعة تنظيمٍ حزبيٍّ يبتغي السلطة أو التفريق.

ثانياً: توضيح براءة منهج أهل التبليغ مما يُشيعه غلاة التبديع عنهم من عقائد باطلة أو ممارسات شركية ، حيث سعينا إلى تفنيد دعوى التصوف العصري الخفي الذي زعمه بعض أصحاب الأفكار السلفية المعاصرة ، وبينا أن منهجهم، وإن كان يركز على تزكية النفوس، إلا أنه لا يتبع الطرق الصوفية المتأخرة بانحرافاتها أو

شطحاتها، بل هو أقرب إلى منهج السلف الأول في بساطة الدعوة وعمليتها وتركيزها على الجانب الإيماني والعبادي.

ثالثاً: إبراز مواطن القوة والتميز في منهج التبليغ، كاعتمادهم على التمويل الذاتي الذي منحهم استقلالية نادرة، والتزامهم بالأخلاق الحسنة التي فتحت لهم أبواب القلوب، وكذلك منهجهم في عدم التصادم مع الآخرين، مما ضمن لهم انتشارًا وصمودًا في وجه أمواج الصراعات المتلاطمة في بلاد العرب والعجم والغرب على حد سواء.

رابعاً: كشف التناقضات الواضحة في موازين بعض المنتقدين لهذه الحركة الدعوية ، فهم الذين يكيلون بمكيالين في الحكم متأثرين بالكثرة والقلة، وعلى المناهج والتوجهات بالهوى والحالات النفسية والمزاجية ، والرغبة في تعزيز الذات على حساب الآخر.

خامسا : بيان غلط مسالك شباب تربوا في دعوة التبليغ وتعلموا فيها وأخذوا مبادئها ، ولكنهم خالفوا منهاج المشايخ في بعض الأصول ، فوقعوا في شراك الشطط والغلو وسوء الفهم أحيانا ، ولم يطبقوا منهاج مشايخ التبليغ في البعد عن تلك الخلافيات! ولو أنهم تناولوها في المجالس العلمية كمدارسة علمية بحته بآداب وأصول أهل العلم لكان حسنا ، ولكنهم أقحموها في منهج التبليغ وهو ما لم يفعله علماء ومشايخ التبليغ عبر العقود المنصرمه !! ودعوا الناس إليها وأصلوا لها أصولا وأنشأوا مدارس علمية تخرج دعاة للتبليغ بنفس مناهج بلاد أخرى كالهند وباكستان ! وزادوا عليها أن شحنوهم بالعصبية لذلك والولاء والبراء عليه ، وهو ما يتعارض تعارضا تاما مع روح وسماحة وشمولية دعوة التبليغ ، فضلا عما يؤدي إليه من شقاق وخلاف بين أبناء الدعوة الواحدة .

ولقد كان هذا البحث، في جوهره، دعوةً إلى الإنصاف والعدل والرحمة في التعامل مع إخواننا المسلمين، وإلى إعادة بناء جسور التفاهم التي هدمتها سهام التراشق بالاتهامات لأن الأمة اليوم أحوج ما تكون إلى عقولٍ تجمع لا تفرق، وإلى قلوبٍ تتآلف لا تتنازع، وإلى أيادٍ تتعاون لا تتقاتل ، فلتكن أقلامنا وألسنتنا معاول بناء، لا فؤس هدم ، مستحضرين دومًا أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، وأن عداوة الكفار والمنافقين تتربص بنا أجمعين ، فإلى الله المشتكى وهو المستعان، وعليه وحده التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتبه د/ أبو إلياس طه بن إبراهيم القلموشي المصري

عامله الله تعالى بعفوه ولطفه وكريم فضله وأنزله منازل الصديقين .

الفصل الأول : تعريف بالحركة الدعوية :

بين يدي بحثنا نقدم تعريفا مختصرا عن تلك الحركة وماهية التسمية التي صارت علما عليهم وماهية العمل الجماعي العالمي والفرق بين حركة التبليغ والدعوة في عملها الجماعي المنظم وبين الجماعة التنظيمية المعلنة .

المبحث الأول : حركة التبليغ والدعوة رؤية شاملة :

تُعدّ حركة التبليغ والدعوة، المعروفة بين أوساط الخصوم والناقدين والمصنفين أيضاً بـ " جماعة التبليغ"[1]، من أبرز الحركات الدعوية الإسلامية المعاصرة التي انتشر صيتها وذاع في مشارق الأرض ومغاربها ، حيث تأسست هذه الحركة في أوائل القرن العشرين في شبه القارة الهندية، وذلك في منطقة ميوات بالهند، على يد الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله ، ولم تكن نشأة هذه الجماعة وليدة لحظة أو من فراغ، بل جاءت استجابة لواقع مرير كانت تعيشه الأمة الإسلامية في تلك الحقبة في شبه القارة الهندية ، حيث تفشت الأمية الدينية، وبعد الكثيرين عن الدين ، وضعف الالتزام بالفرائض، وتآكلت الهوية الإسلامية في ظل مؤثرات استعمارية وثقافات دخيلة.

فقامت حركة التبليغ بشكل أساسي مركزة على إحياء روح الإسلام في قلوب المسلمين، وإعادتهم إلى الالتزام بأصول الدين وفروعه، وتصحيح مفاهيمهم وسلوكياتهم، وذلك من خلال منهج دعوي يقوم على الحركة على الناس في محالهم وأماكن تواجدهم وانتشالهم من بيئاتهم للخروج في سبيل الله ، متخذة سبيل الدعوة الفردية

---

[1] اعلم بارك الله فيك أن التسمية ب (جماعة التبليغ) ليست في قاموس مشايخ الحركة الدعوية ، وجريان هذا اللفظ على ألسنة بعض دعة التبليغ ليس إلا مجاراة لواقع فرض من قبل الخصوم الناقدين ، وإلا فلم يؤثر عن شيوخ الدعوة أنهم وسموها بجماعة . فتنبه .

والجماعية وسيلة أساسية لدعوتها ، مركزة في دعوتها على ستة أصول رئيسية تشمل أصول الدين ويتفرع عنها شعب الإسلام وهي : كلمة التوحيد، والصلاة، والعلم والذكر، وإكرام المسلم، وإخلاص النية، والخروج في سبيل الله ، حيث مثلت تلك الأصول اللبنات الأساسية لمنهجهم الدعوي والتربوي.

تتجلى الوسائل التي تستخدمها الجماعة في تحقيق أهدافها في اللقاءات الدعوية، والاجتماعات الدورية وهو ما يسمى التشكيل ، والخروج في "الجماعات" الصغيرة والكبيرة لمدد تتراوح بين ثلاثة أيام وأربعين يوماً وسنة، فضلاً عن الملتقيات السنوية الكبرى وهي الاجتماعات السنوية ، ويُعتبر الخروج في سبيل الله بطريقتهم هو جوهر عملهم، حيث يرى أفراد تلك الحركة الدعوية أن هذا الخروج يمثل تدريباً عملياً على الدعوة، وتزكية للنفس، وتقوية للإيمان، وفرصة للتواصل المباشر مع الناس.

وكان من أبرز رجال هذه الحركة الدعوية على مر تاريخها، بالإضافة إلى المؤسس الشيخ محمد إلياس، ابنه الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، والشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وغيرهم الكثير من العلماء والدعاة الذين حملوا على عاتقهم نشر هذه الدعوة في مختلف أنحاء العالم. هؤلاء الرجال وغيرهم أسهموا في صياغة وتطوير المنهج الدعوي للجماعة، وترسيخ أصولها، وتوسيع نطاق عملها لتصل إلى ما يقرب من مائة وثمانين دولة حول العالم.

ويُلاحظ أن تلك الحركة تركز في دعوتها على الجانب العملي والسلوكي للإسلام، بعيداً عن الخوض في المسائل العقدية التفصيلية أو الخلافات الفقهية الجزئية، وذلك بهدف توحيد الصف وجمع القلوب على ما لا يختلف عليه المسلمون من أصول الدين ، وهذا التوجه جعلها محط أنظار العديد من العلماء والباحثين، بين مؤيد ومعارض، ومحل جدل ونقاش حول طبيعتها وأهدافها وموقعها ضمن المشهد الإسلامي المعاصر.

المبحث الثاني : حركة التبليغ والدعوة بين العمل الجماعي المنظم وبين الجماعة التنظيمية .

تُعدّ حركة التبليغ المعروفة أيضاً بجماعة التبليغ والدعوة من أبرز الحركات الدعوية الإسلامية المعاصرة التي انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها في القرن الماضي ، فحينما تأسست هذه الحركة في أوائل القرن العشرين في شبه القارة الهندية لم تكن نشأتها بلا هدف ولا وليدة الحظة ، بل جاءت استجابة للواقع المرير الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية الهندية في تلك الحقبة ، ومن المهم جداً توضيح نقطة جوهرية تتعلق بطبيعة "جماعة التبليغ والدعوة"، فالتسمية الشائعة بـ "جماعة التبليغ" هي في حقيقة الأمر تسمية أطلقها الناس عليها وخاصة خصومها ، لمجرد أن عملها قائم على الجهد الجماعي والتعاون المشترك، وليس لأنها أسمت نفسها بهذا الاسم أو تعتبر نفسها "جماعة" بالمعنى التنظيمي أو الحزبي الضيق ، بل هي أقرب ما تكون إلى "حركة إسلامية إصلاحية شاملة"، وليست جماعة تنظيمية مغلقة.

ولفهم الفرق بين "الحركة" و"الجماعة التنظيمية" في هذا السياق نقول :

- **الحركة:** هي تيار فكري أو منهجي واسع الانتشار ، يهدف إلى إحداث تغيير أو إصلاح في مجال معين (كالجانب الديني أو الاجتماعي). ويكون عملها جماعياً ومنظماً، ولكنها لا تتقيد بهيكل تنظيمي صارم، ولا تتطلب بيعة أو انتساباً رسمياً، ولا تسعى لفرض ولاء مطلق، وتكون أبوابها مفتوحة لعموم الناس ، يدخل من شاء وقتما شاء ويخرج من شاء وقتما شاء ، فهو اعتناق فكري ، لا مؤسسة تنظيمية ، فالحركات أشبه ما تكون بـ "مدرسة فكرية عملية" يتبنى أصحابها منهجاً معيناً للدعوة والإصلاح.

- **وأما الجماعة التنظيمية**: فهي كيان له تنظيمي له هيكل إداري صارم، وقيادة محددة، وعضوية رسمية، وقد يكون لها أهداف سياسية أو فكرية ضيقة، ويتطلب الانضمام لها ولاءً خاصاً لأفرادها، وغالباً ما يكون له أدبيات ومنشورات خاصة تُعد المرجع الوحيد لأعضائه.

وأما بخصوص حركة التبليغ والدعوة ذاتها كـ "حركة":

فإن الشيخ محمد إلياس (رحمه الله) لم يؤسس "جماعة" بالمعنى التنظيمي الذي نعهده اليوم ، بل كانت رؤيته إطلاق **"حركة إيمانية"** تحرّك الأمة كلها للدعوة إلى الله تعالى ولإحياء دين الإسلام في القلوب والسلوك ، فهو لم يطلب من الناس الانتساب لاسم معين أو الانضمام إلى "تنظيم" بحد ذاته ، بل كان يدعو كل مسلم لأن يكون **"داعية إلى الله"** ويخرج في سبيل الله لتعليم الناس دينهم.

والأمثلة لتوضيح الفرق بين جماعة وحركة كثيرة منها :

- **حركة "أهل السنة والجماعة":** إن منهج أهل السنة والجماعة لا يُقال عنه "جماعة أهل السنة والجماعة" بالمعنى التنظيمي، بل هو في الحقيقة **حركة فكرية وعقدية واسعة** تشمل غالبية المسلمين الذين يتبعون منهج السلف الصالح ، فهي ليست تنظيماً له قيادة واحدة تتبعها ، بل هي منهج يتبناه أفراد وعلماء من مختلف الأقطار.
- **حركة "الإصلاح الديني" في العصور الماضية:** عندما قام أئمة الدين كابن تيمية رحمه الله في زمانه ومحمد بن عبد الوهاب رحمه الله في زمانه بحركات إصلاحية ، لم يؤسسوا "جماعات تنظيمية" بالمعنى الحديث، بل أطلقوا **حركات فكرية دعوية** أثرت في الملايين وتبنت منهجاً محدداً للإصلاح، وانضم إليهم من شاء من

الأفراد ، وحركة التبليغ التي حركها الشيخ محمد إلياس رحمه الله في زمانه لم تكن بعيدة عن هذا المنحى ، فكلهم دعا إلى الرجوع إلى المنبع الصافي والمنهج الإسلامي الأصيل .

وأما في السياق الدعوي ، فعندما يخرج الأفراد في "جماعة" أي في (مجموعة من الناس)، فهذا يعني اجتماعهم المؤقت والمُنظم لأجل الدعوة، وليس انضمامهم لكيان حزبي دائم ، كل مسلم يمكن أن ينضم إلى هذه "الجماعة" المؤقتة للدعوة ، ثم يعود إلى حياته العادية، دون أن يُطالب ببيعة أو ولاء تنظيمي خاص ، فهم يرون أن كل مسلم هو في الأصل "داع إلى الله " أي: مُبلغ لدين الله.

وأما من ناحية الأهداف والوسائل:

فإن هذه الحركة تهدف بشكل أساسي إلى إحياء روح الإسلام في قلوب المسلمين ، وإعادتهم إلى الالتزام بأصول الدين وفروعه، وتصحيح مفاهيمهم وسلوكياتهم، وذلك من خلال منهج دعوي يقوم على "الحركة على الناس" والخروج في سبيل الله لدعوة الناس بالطريقة الفردية والجماعية.

كما تتجلى الوسائل التي تستخدمها تلك الحركة في تحقيق أهدافها في اللقاءات الدعوية، والاجتماعات الدورية المسماة لديهم اصطلاحيا بـ (التشكيل)، والخروج في "الجماعات" الصغيرة والكبيرة لمدد تتراوح بين ثلاثة أيام وأربعين يوماً وسنة، فضلاً عن الملتقيات السنوية الكبرى (الاجتماعات أو "الاجتماعات السنوية"). فيعتبر الخروج في سبيل الله بتلك الطريقة الحركية جوهر عملهم وهو جائز لأنه اجتهاد في وسيلة موصلة للغاية الواجبة ، حيث يرى أفراد الحركة أن هذا الخروج يمثل وسيلة لا غاية ، وسببا للعبادة لا عبادة في حد ذاته.

وأما من ناحية منهجها الفكري :

فتعتمد الحركة في دعوتها على ستة أصول رئيسية ليست كل الدين وإنما هي أهم فرائضه وأسمى أركانه وهي : كلمة التوحيد، والصلاة، والعلم والذكر، والإكرام ، وإخلاص النية، والخروج في سبيل الله. فهذه الأصول الست تمثل اللبنات الأساسية لمنهجهم الدعوي والتربوي ، ويندرج تحتها كل شرائع الدين أصوله وفروعه ، لا يخرج عنها شيء ، فلا يقال إن دينهم ست صفات ! بل منهج دعوي ينطلق من ست صفات وينتهي بالدين كله جملة وتفصيلا .

الفصل الثاني : تباين آراء العلماء حول حركة التبليغ والدعوة في المملكة العربية السعودية:

إن تقييم أي جماعة أو حركة دعوية من قبل العلماء أمر أساسي لضمان توافقها مع أصول الشريعة. الإسلامية ،ولكن هذا التقييم لابد أن يكون مستنده إلى أسس علمية ، إلا أنه غالبًا ما يتأثر بتباين في الرؤى ، واختلاف في الأولويات الدعوية، حتى وصل تأثره بالسياقات المحلية. وهذا ما يتضح جليًا في تباين آراء العلماء الرسميين السعوديين ومن تأثر بهم من تلامذة أو مقربين من دوائر الحكم هناك حول حركة التبليغ والدعوة.

المبحث الأول : الأساس الشرعي لتقييم الجماعات والدعوات.

إن الواجب على أهل العلم أن يستمدوا أحكامهم وتقييماتهم من مصادر الشريعة الإسلامية الأساسية: الكتاب والسنة بصورة وسطية معتدلة منضبطة ، لأنهم علماء أمة لا علماء قطر أو دولة ، فالله تعالى يأمرنا برد كل نزاع إلى حكمه عز وجل وإلى حكم رسوله صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: "فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" [1] . فهذه الآية الكريمة تؤكد أن أي جماعة أو فرد يدعي الانتماء للإسلام أو العمل له والدفاع عنه ، يجب أن يَعرض منهجه على ميزان الشرع الحكيم.

---

[1] (النساء: 59)

كما أوجب الله تعالى على العلماء بيان الحق وعدم كتمانه ، فقال سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ"[1]. وهنا يظهر جليا دور العلماء في النصح والتوجيه، وبيان ما يرونه صوابًا أو خطأً في مناهج الجماعات الدعوية.

المبحث الثاني : مواقف العلماء الرسميين في السعودية.

وتفريعا على ما قدمنا فإن مواقف العلماء الرسميين في السعودية تجاه حركة التبليغ والدعوة تباينت تباينا واضحا واختلفت اختلافا ظاهرا ما يؤكد أن المنطلقات والدوافع إلى تلك الرؤى مختلفة . ورغم أن الموقف الرسمي حاليًا يميل نحو التحذير والتنفير والتبديع والتفسيق ، إلا أن التاريخ يشهد بمواقف متنوعة بين العلماء السعوديين أنفسهم، فمنهم من أثنى عليهم خيرا ودعا إلى دعمهم والوقوف إلى جانبهم ومنهم أيضا من تحفظ على بعض التصرفات وانتقد.

1. جانب التحفظات والانتقادات .

فأما من نظروا لهذه الدعوة بعين النقد والنقض والتبديع والتفسيق ، فتتركز انتقاداتهم على عدة نقاط يزعمون أنها منهجية وعقدية، مستندين إلى فهمهم الشخصي للمنهج السلفي وتأويلهم لكلام رموزه قديما وتنزيلهم لتلك النصوص على أهل هذا العصر ! مع التباين الشديد بين العصرين ! الأمر الذي يعتبر أساس الفارق الجوهري في الفهم والتنزيل ، ويقود هذا الفكر المؤسسة الدينية الرسمية في المملكة حاليا هادفة إلى توطين وتوطيد مبدأ الفكر الواحد الراكع للحاكم الموافق لكل توجهاته ورؤاه ، وكل من خرج عن هذا الخط فإنه يمنع ويحظر

[1] (البقرة: 159)

بالمراسيم الملكية والقوانين الوضعية والفتاوى المؤيدة لكل ذلك ، ولابد لهؤلاء الشيوخ أن يعضدوا فتاواهم بما يوهم القارىء أنهم منطلقون من ناحية شرعية لا من توجيهات ملكية فيزعمون أن منطلق تحذيرهم من التبليغ هو : .

- أولوية التوحيد والعقيدة الصحيحة :

حيث يرى هؤلاء العلماء – كما نرى وكما يرى علماء الأمة كلها - أن أساس الدين هو التوحيد الخالص لله ونبذ الشرك والبدع ، ويستدلون بحديث النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة..."[1].

وهذا الحديث يؤكد أن البدء بتصحيح العقيدة والتوحيد هو الأولوية القصوى في الدعوة. ثم يسقطون لوازم هذا الفهم زاعمين أن حركة التبليغ لا تولي هذا الجانب الأهمية الكافية ، أو أنها تتسامح مع بعض الممارسات البدعية، خاصة تلك المنتشرة في شبه القارة الهندية والمتأثرة ببعض الجوانب الصوفية التي تُعد بدعًا أو شركًا من منظورهم السلفي المدعى ، ولا شك أن دعواهم هذه مردودة وشبهاتهم مردود عليها في غير موضع .

فإذا دعا شخص من أهل التبليغ شخصا آخر إلى الصلاة بينما كان المدعو واقعا في بعض البدع أو الشركيات ، فإنه لا شك أن الأولوية القصوى لدعوته تكون منصبة لتصحيح التوحيد أولاً قبل أن يعلم الصلاة، ذلك لأن التوحيد هو أساس قبول الأعمال ، وهذا المنحى متفق عليه بين عامة أهل الإسلام قاطبة وليس هو

---

[1] (متفق عليه)

معتقد سلفيي السعودية وحدهم ! ، ولكن على أرض الواقع فإن دعاة التبليغ قد يتساهلون في مثل تلك المواقف كمرحلية مؤقتة لجلب هذا الشخص المدعو إلى بيئة نقية نظيفة يخلو فيها بنفسه وبربه ويستشعر حلاوة الإيمان في قلبه ويجلس في البيئة الصالحة ويجالس رفقاء صالحين ، نتيجة ذلك - المجربة آلاف المرات – أنه ينخرط في البيئة وينسلخ مما كان عليه سالفا من بدع ومخالفات وشركيات ! ، ولكن هؤلاء السلفيون المتشددون يرون أنه لا يجوز لك أن تدعوه أصلا إلى الصلاة ولا أن تترفق به إلا إذا دعوته أولا لترك ما هو عليه من بدع وشركيات – في نظرهم وقد تكون من المختلف فيها ولكنهم أخذوا برأي الشدة ! – ثم ينتقلون به إلى الصلاة ، فإن قبل التوحيد قبلناه وإلا كان هذا فيصل بيننا وبينه ! هذا ما يريدونه وما يحاكمون أهل التبليغ عليه ويبدعونهم على أساسه ، ويرمونهم بأنهم لا يهتمون بالتوحيد ولا يجعلونه من أولوياتهم ! وهم لا شك مخطئون كما أوضحنا كيف يدلسون على العامة والشباب .

- المنهجية في الدعوة (البصيرة):

كذلك ينتقد بعض هلاء العلماء ما يرونه أو يزعمون أنه غياب للعمق العلمي الكافي لدى بعض دعاة التبليغ، ويرون أن الدعوة يجب أن تكون على بصيرة تامة بجميع جوانب الشرع ، مستدلين بقول الله تعالى: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[1].

ومعنى "على بصيرة" أي على العلم الصحيح والفهم المستنير لدين الله ، فيرى المنتقدون أن الدعاة يجب أن يكونوا علماء متخصصين قبل أن يقوموا بالدعوة، وأن المنهج العملي لحركة التبليغ، الذي يعتمد على الحركة

---

[1] (يوسف: 108)

وتركيزه على العموم، قد لا يُخرِّج دعاة بالعمق العلمي اللازم للرد على الشبهات أو معالجة المسائل المعقدة ، ولا شك أنهم مخطئون ومغلطون ، نخطئهم من حيث كونهم زعموا أن أهل التبليغ يدعون على جهل وهذا باطل فهم لا يدعون إلا إلى ما يعرفون ، وأما مغالطتهم فهي زعمهم أن لا يخرج إلا العلماء لأنه حينما خرج العلماء ثارت ثائرتهم ووقعوا في هؤلاء العلماء ورموهم بالجهل لأنهم سكتوا عن بدع وجهالات التبليغ – زعموا – فعلم من مسلكهم الصد عن المنهج أصلا والمنع عن الحركة ابتدءا وانتهاءا !

- تجنب مسائل الخلاف:

فيرى بعض العلماء أن تجنب دعاة التبليغ الخوض في مسائل الخلاف العقدي والفقهي، بحجة عدم إثارة الفرقة والفتنة أو لعدم تأهلهم للانخراط في تلك النقاشات ، قد يؤدي إلى إبقاء الناس على عقائد أو ممارسات خاطئة ، فيزعمون أن هذا المسلك يتعارض مع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحقائق الشرعية ، مستدلين بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[1].

فمن وجهة نظر المنتقدين، أن عدم معالجة الأخطاء العقدية أو البدع الصريحة فوريا وصراحة بطريقة سلفيي المنابر والخطب الرنانة يُعتبر تقصيرًا في واجب البيان، حتى ولو كان القصد هو توحيد الصف أو العجز عن التصريح علانية للعامة – لعدم القدرة على ذلك لأنك لست مخولا من المؤسسات الرسمية إنما أنت مجرد متطوع - فيرون أن بيان الحق أولى من جمع الناس على باطل – زعموا - أو سكوت عن منكر – زعموا - ،

[1] (رواه مسلم)

والحق أن أهل التبليغ ينكرون المنكر بل ويغيرونه بطريقة لا تؤدي إلى جلبة ولا إثارة للعامة ومنهم الحاقد على الدعوة والصاد عن سبيل الله والكاره لمنهاج السنة ! فمعنى مجابهة كل هؤلاء مرة واحدة هو إغلاق هذا الباب الدعوي وللأبد من قبل المؤسسات الرسمية التي تساند كل هذه الطوائف والطرق الصوفية بكل ما أتيت من قوة ، فلا حكمة مطلقا في استثارتهم ولا فائدة من استجلاب حربهم .

إلى غير ذلك مما يأخذونه على أهل التبليغ بغير وجه حق ، وقد رددنا على كل تلك التهم الباطلة والمفاهيم الخاطئة ، وكمثال على الموقف الرسمي الحالي في المملكة فإنه وفي سبتمبر 2021 أصدرت وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد في السعودية توجيهًا لخطباء المساجد للتحذير من حركة التبليغ والدعوة علانية على المنابر ، واصفة إياها بأنها "إحدى بوابات الإرهاب" وأنها "منحرفة عقديا وضالة " وتقوم على "التحزب والانغلاق" ! ، كل هذا مع أنها لا مدخل لها في لعبة السياسة ولا تدخل في شئون الناس ! ولو كان لها توجه ولو طفيف في السياسة أو ما له علاقة بحال الراعي والرعية لما نفدوا من الاعتقالات الجزافية والأحكام الجائرة التي طالت علماء السلفية الآخرين في المملكة ، فالتبليغ بهذا التوقيف أخف ضررا بكثير ممن تم اعتقالهم ومصادرة كتبهم وحبس حرياتهم ، وبهذا الموقف يتبين لك الرؤية الرسمية للمؤسسة الدينية في المملكة حاليًا، ويُبرز مستوى التحفظ تجاه تلك الحركة الدعوية المسالمة .

2. الجانب الذي يرى الإيجابيات .

وفي المقابل، يرى بعض العلماء (خاصة في فترات سابقة أو من خارج المؤسسة الرسمية الضيقة) حاليا أن حركة التبليغ لها جوانب إيجابية مهمة من خلال المشاهدة والتتبع تستحق التقدير والإشادة ، خاصة في جانب تحريك الهمم وإعادة الناس إلى العبادات ، كالتالي .

- إحياء الشعائر الظاهرة:

فلا ينكر كثير من العلماء أن دعوة التبليغ أسهمت بشكل ملموس في عودة أعداد كبيرة من المسلمين في بلاد الإسلام إلى المساجد وكان لهم اليد الطولى في الالتزام بالصلاة وتلاوة القرآن وحسن الخلق إلى غير ذلك ، وهذه من مظاهر تقوى الله تعالى وعلامات الإيمان ، قال تعالى: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"[1] ، فإعمار المساجد بالصلاة والذكر والاعتكاف من شعائر الإسلامي العظيم ، وقد حفزت حركة التبليغ كثيرًا من الناس لتحقيق هذا الهدف العملي، وهذا يُعد إنجازًا عظيما إيجابيًا من إنجازاتها يُحسب لها لا عليها .

- الدعوة الفردية والجماعية:

إن منهج أهل الدعوة في الخروج هو الدعوة المباشرة للناس والاحتكاك بهم ومخالطتهم وزيارتهم والكلام معهم بما يفهمون ، سواء كان ذلك بشكل فردي في محيط كل فرد من هؤلاء الدعاة أو جماعي بالترتيب المعهود لديهم ، وهو تطبيق عملي لمبدأ الدعوة إلى الله ، قال تعالى: "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[2]. فيرى هؤلاء العلماء أن هذا العمل الجماعي المنظم للدعوة يسهم في نشر الخير وإيقاظ الناس من غفلتهم، وهو يمثل جانبًا حيويًا من جوانب الدعوة المطلوبة شرعًا، لا سيما في عصر كثرت فيه المغريات والملهيات.

---

[1] (التوبة: 18)

[2] (آل عمران: 104)

فعندما يذهب أفراد التبليغ إلى قرية معينة لا يعرف أهلها الكثير عن الإسلام، فإن مجرد دعوتهم للصلاة، وتوضيح فضلها، وحثهم على حضور جلسات الذكر والعلم في المسجد، يُعد خطوة أولى مباركة قد تُخرج هؤلاء الناس من الغفلة إلى الالتزام بالفرائض الأساسية وهذا ما يحدث بالفعل ويؤثر في ملايين المسلمين وبالتالي يحمد لهم هذا الفعل ولا ينكر عليهم أبدا .

وخلاصة ما ذكرنا أن التباين في الآراء حول عمل حركة التبليغ يعكس في جوهره اختلافًا في تحديد الأولويات الدعوية (وهل الأولوية لتصحيح العقيدة ثم العمل، أم لتحريك العمل ثم تصحيح العقيدة تدريجيًا؟)، وكذلك في المنهجية المثلى للدعوة الجماهيرية واسعة النطاق، وكذلك في التعامل مع التنوع المذهبي داخل الأمة ، فكلا الجانبين يقدم أدلة شرعية تدعم وجهة نظره، هذا الاختلاف يجعل القضية أكثر تعقيدا ما يدعوا إلى دراسة متأنية بإنصاف، وتوازن في التقييم كان مفاده أن قواعد الفريق المنكر على التبليغ دعوتهم غير منضبطة وأن منطلقاتهم غير سوية ونفسياتهم غير نقية .

المبحث الثالث : ما الذي يهدف إليه السلفيون السعوديون وماذا يريدون منها؟

يهدف هذا الفصيل - كما يزعمون - إلى حماية المنهج السلفي الصافي الذي قامت عليه الدولة السعودية، والذي يرى نفسه امتدادًا لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في محاربة الشرك والبدع والتأكيد على التوحيد الخالص ، هم يرون أن أي حركة دعوية تنتشر في بلادهم أو تؤثر على شبابها يجب أن تكون متوافقة تمامًا مع هذا المنهج وأن لا تخرج عنه قيد أنملة ضمانا لأمن بلدهم واستمرار نظامها على ما هو ، فاتخذوا لذلك سبلا منها :

- **حماية الساحة الدعوية من التعدد المنهجي الوسائلي :** فيرى أهل هذا الفصيل أن أي منهج دعوي لا يركز على العقيدة السلفية بمفهومهم وتصحيح التوحيد أولاً بطريقتهم وبشكل صريح، قد يؤدي إلى اختلاط المناهج وفتح الباب أمام بدع أو انحرافات عقدية – كذا يزعمون - . لذا، فهم يسعون إلى ضمان سيطرة المنهج السلفي الرسمي الموالي لولاة الأمر موالاة كاملة والخاضع لها خضوعا تاما على المشهد الدعوي سيطرة كاملة في المملكة ، وإلا فهناك علماء سلفيون بالمئات قيدت حرياتهم وانتهكت حقوقهم لأنهم ليسوا خاضعين للتوجهات المنحرفة التي يسكت عنها علماء السلطان .
- **التخوف من التأثيرات الخارجية:** كما أسلفنا أن حركة التبليغ نشأت في بيئة غير سعودية (وهي شبه القارة الهندية) ولها ارتباطات علمية وتاريخية بمدارس فكرية هناك (مثل ديوبند) وبشخصيات هامة في بلاد الهند وباكستان ،وكما هو معلوم أن بعض تفاصيل دراسات العقيدة والفقه تختلف عن المنهج السلفي المتبع في المملكة . هذا يولد تخوفاً من أن يؤدي انتشارها في المملكة إلى إدخال مفاهيم مختلفة أو ممارسات قد لا تتوافق مع الخط الرسمي للدولة في الجانب العقدي ، والتخوف الأكثر هو ما يؤدي إليه ذلك من التأثير على العامة وما يؤدي إلى علاقتهم بالسلاطين والأمراء .
- **الحرص على وحدة المنهج الرسمي للدولة :** فالدولة السعودية تسعى للحفاظ على منهج ديني موحد، ولذلك فأي حركة ذات انتشار واسع ولا تخضع لإشرافها المباشر أو تتبع منهجاً مختلفاً ولو في الأولويات، قد تُنظر إليها بحذر كنوع من التهديد لتوحيد أمن المملكة أولا وليس خوفا على الصف الديني الرسمي كما يزعم شيوخهم وعلماؤهم والدليل على ذلك ما فتحه ولاة الأمر هناك للفجور والفسوق من أبواب وما أنفقوه من مليارات على نشر الفسوق بين الناس وفي ذات الوقت قيدو العلماء المنادين بالإسلام ! وأطلقوا عنان علماء السلاطين الساكتين عن فجورهم والموافقين على

أفعالهم ! وهنا تعلم أن منطلقاتهم ليست كما يزعمون بأن ولاة الأمر يخافون على دين الناس ! بل يخافون على ملكهم من أي تجمع أو توحد لفئات من الناس خارج قبضتهم !

- **ربطها بالإرهاب والتحزب** :ففي بعض الأحيان، يتم ربط حركة التبليغ بالتحزب أو حتى بالإرهاب كما ذكرنا سابقا في بيان وزارة الشؤون الإسلامية السعودية في سبتمبر 2021 ، الأمر المخالف مخالفة صريحة لواقع تلك الدعوة وتاريخها ، هذا الربط بين دعوة التبليغ على بساطتها وبين الإرهاب والتحزب ، وإن كان يثير جدلاً واسعاً، إلا أنه في حقيقته يعكس تخوفاً شديدا لدى ولاة الأمر والمؤسسات الأمنية من أي حركة ولو بسيطة غير خاضعة للسيطرة الرسمية، وربما تكون جزءاً من استراتيجية أوسع لمكافحة ما تعتبره الدولة تطرفاً أو حركات ذات أجندات خفية ، فهذا الربط مبني على دلائل قوية ، حيث إن حركة التبليغ الدعوية المعروفة معروفة تاريخياً بأنها حركة سلمية تماماً ، لا علاقة لها بالعنف ولا بالسياسة ولم يؤثر عنها أن كان من كوادرها ناشط سياسي أو خارج عن النظام العام في البلد – ما دام منتظما في دعوتها أما من تركها فلا علاقة لهم به ولا يحاكمون بجريرته فانتبه - . ولكن في سياق الأمن الفكري والسياسي للدول فإنه قد تُصنف أي حركة خارج السيطرة الرسمية بأنها "غير آمنة" أو "تحتوي على بذور قد تؤدي إلى الانحراف."

المبحث الرابع : موقف غالبية الطوائف والحركات الإسلامية والحكومات من أهل التبليغ :

وفي المقابل فإن حركة التبليغ ولما لها من أياد بيضاء في جهود الدعوة إلى الله تعالى فإنها تحظى بقبول واسع في غالبية بلاد المسلمين الأخرى ، من الشرق الأقصى إلى شمال إفريقيا، مروراً بآسيا الوسطى وأوروبا بين كل الاتجاهات الإسلامية والمؤسسات الدينية الرسمية منها وغير الرسمية ، بل وتحظى باحترام الساسة والقادة والحكام في كل هذه البلاد لما لديها من حكمة في التعامل مع الولاة في كل بلد ومسايرة نظام تلك الدول

وعدم تأليب الناس علي الحكام وعدم الدخول فيما يثير حفائظهم أو يهيج العامة عليهم ، بل جل تركيزهم على موضوع واحد هو دعوة الناس إلى الله تعالى ودلالتهم على طريق المساجد وإحياء الدين في قلوب الناس ، وهذا والله لو فهمه علماء السعودية الرسميين لأراحو واستراحوا ولكنهم لا يريدون فهم ذلك ولا يقبلون به أصلا مهما كنت مسالما ، هذا القبول لهذه الدعوة المباركة يعود لعدة أسباب نذكر منها :

- **إحياء الشعائر الظاهرة:** فلا ينكر كثير من العلماء والمسلمين أن دعوة التبليغ أسهمت بشكل ملموس في عودة أعداد كبيرة – تعد بالملايين - من المسلمين إلى المساجد والالتزام بالصلاة وتلاوة القرآن وحسن الخلق ، فدلالة أهل التبليغ جموع المسلمين على المساجد لتحقيق الإيمان ولإقامة الصلاة والإيمان باليوم الآخر وإيتاء الزكاة وخشية الله من دلائل تقوى الله تعالى ومن دلائل الهداية ومن علامات الإيمان كما في قوله تعالى " :إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [1] فجماعة التبليغ قد حفزت كثيرًا من الناس لتحقيق هذا الهدف العملي، وهذا يُعد إنجازًا إيجابيًا يُحسب لهم في نظر أغلب المسلمين والحكومات التي ترى فيها عامل إصلاح مجتمعي.
- **الدعوة الفردية والجماعية البسيطة :** فمنهجهم في الخروج والدعوة المباشرة للناس، بشكل فردي و جماعي، هو تطبيق عملي لمبدأ الدعوة إلى الله. قال تعالى" :وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [2] فيرى هؤلاء العلماء وكذلك الحكومات أن هذا العمل الجماعي المنظم للدعوة يسهم في نشر الخير وإيقاظ الناس من غفلتهم،

---

[1] التوبة: 18 .

[2] آل عمران: 104

وهو يمثل جانبًا حيويًا من جوانب الدعوة المطلوبة شرعًا، لا سيما في عصر كثرت فيه المغريات والملهيات ، فمنهجهم البسيط في الدعوة يجعله قابلاً للتطبيق من قبل أي مسلم ، مما يُسهم في انتشار الخير دون تعقيدات.

- **البعد عن السياسة والصراعات الحزبية:** فمعظم الحكومات الإسلامية تتقبل حركة التبليغ وذلك لأنها **ليست حركة سياسية أصلا ولم يكن لها يوم انشغال بالسياسة** ولا تتدخل في شؤون الحكم في أي بلد تواجدت فيه من قبيل ولا دبير ، ولا تسعى إلى الانقلابات أو الثورات. وهذا ما يجعلها بعيدة كل البعد عن أي تهديد للسلطة القائمة وهذا أمر متفق عليه ويؤكده كل فرد من أفراد هذه الدعوة عظم قدره أو قلَّ ، بخلاف ما يزعمه الساسة والولاة والمؤسسات السعودية تشويها للحركة الدعوية بباطل وبلا أدنى دليل ، وبالتالي فإنها تُمنح مساحة للعمل الدعوي الخالص كما في باكستان وبنغلاديش والهند ومصر ودول إفريقية وأوروبية، فإنها تعمل بحرية نسبية لأنها لم تُعرف بالتدخل في السياسة أو العنف.
- **التركيز على المشتركات بين المسلمين :** إن حركة التبليغ تتجنب الخوض في مسائل الخلاف العقدي والفقهي بكل أنواعه مما يُساهم في لم شمل المسلمين على ما يتفقون عليه. وهذا يُعد نقطة إيجابية كبرى في نظر الطوائف والحركات الأخرى التي تسعى لوحدة الصف الإسلامي، ويجعلها محط قبول لدى المذاهب المختلفة (من الأشاعرة، والماتريدية، والصوفية غير منحرفة، وحتى بعض السلفيين من غير التيار المدخلي أو الرسمي السعودي).

ومما سبق يظهر جليا أن التباين في الآراء حول دعوة حركة التبليغ يعكس في جوهره اختلافًا في تحديد الأولويات الدعوية ، وفي المنهجية المثلى للدعوة الجماهيرية واسعة النطاق، والتعامل مع التنوع المذهبي

داخل الأمة، حيث أن كلا الجانبين يقدم أدلة شرعية يستند إليها تدعم وجهة نظره ، ولكن الملاحظ أن الموقف السعودي المتحفظ بشدة يعود بشكل أساسي إلى اعتبارات أمنية وسياسية تتعلق بالتحكم في الحركات الشعبية الواسعة لا كما يزعم علماؤها والمنافحون عنها من حرصها على نقاء المنهج السلفي المعتمد في البلاد وتخوفها من أي تباين منهجي قد يؤثر على هذا النقاء أو على وحدة الخطاب الديني الرسمي ، مع أن جل الاتجاهات الاسلامية والحكومات أيضا ترى في الجماعة حركة إصلاحية ذات تأثير إيجابي في المجتمع، ولا تشكل أي تهديد سياسي أو فكري عليها .

الفصل الثالث: منشأ الخلاف حول حركة التبليغ بين التعصب وضيق الفهم :

قد يُعزى جزء كبير من الخلافات والانتقادات الموجهة لحركة التبليغ والدعوة خاصة ولكافة الصحوات العلمية والدعوية عامة ، خاصة من قِبل بعض العلماء الرسميين في المملكة العربية السعودية ، إلى عوامل تتجاوز مجرد التقييم العلمي الموضوعي ، وهذه العوامل قد تشمل التعصب للمناهج المحلية أو للمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها هؤلاء العلماء ، ولا يبعد أن يكون هناك محاولات لإرضاء الحكومات أو التماهي مع سياساتها وهو أمر لا يصح أن يستعلن به المتكلم غير أنه يظهر من خلال تناوله لقضايا مماثلة بطريقة غير التي يتناول بها ما له علاقة بهؤلاء الولاة ما يقطع بأن هؤلاء المتكلمون ليسوا على درجة واحدة من العدالة أو الشدة أو الصراحة في كلا الموضوعين ، فضلاً عن ضيق في فهم شمولية الرسالة الإسلامية وما تتطلبه من تنوع في الوسائل والأساليب لنشرها ، نبين فيما يلي بعض تلك الأسباب بشيء من التفصيل :

1. التعصب المنهجي والمحلي:

فليس غريباً أن يميل كل عالم أو شيخ إلى المنهج الذي تربى عليه ونشأ ، وتشرب أصوله وفهمها ، وتعمق في فهمه مداخله ومخارجه . فعلى سبيل المثال في المملكة العربية السعودية، يمثل المنهج السلفي (أو الأثري) بالصبغة المعروفة والأنماط المشهورة العمود الفقري للمؤسسة الدينية الرسمية ، وهذا المنهج يركز بشكل كبير على نقاء العقيدة، ومحاربة البدع، والعودة إلى فهم السلف الصالح ، وهذا في ظاهره – أو في حقيقة معنى ظاهر الادعاء – رائع بل هو المطلوب وهو المنهج السوي الصحيح ، ولكن الغلط في جعل هذه الراية البيضاء النقية ستارا لتمرير أيدولوجيات معينة لن يتم تمريرها سوى بطريقة كهذه .

ويكمن خطر التعصب في إلباس هذا اللباس الشرعي ، إذ يؤدي إلى عصبية جاهلية وانتقائية مغرضة عواقبها وخيمة ، قال الله تعالى: "كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ" [1]. ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التحزب والتعصب بقوله: "دعوها فإنها منتنة" [2] .

فالتعصب المنهجي يعني التشبث بمنهج واحد واعتباره الوحيد الصحيح، وإقصاء أو تبديع كل ما سواه ، فعندما تُقيّم دعوة مثل التبليغ، التي نشأت في سياق مختلف (وهو شبه القارة الهندية وهي بالبطع مختلفة تماما عن واقعنا وحالاتنا) ولها منهج دعوي يركز على العمل والسلوك، دون الغوص التفصيلي في قضايا العقيدة الدقيقة (مقارنة بالتركيز السلفي المعاصر)، فمن الطبيعي أن تنشأ نقطة احتكاك بسبب هذا التعصب مآلها الاختلاف والتباغض .

فبينما يرى شخص تربى على منهج يركز على التدقيق في كل صغيرة وكبيرة في العقائد، أن أي جماعة أو منهج أو دعوة لا تبدأ دعوتها بتحقيق التوحيد النظري الدقيق بنفس طريقته ومنهجه وتقعيداته ، هي جماعة ناقصة أو منحرفة أو مبتدعة أو ضالة ، حتى ولو كانت تلك الدعوة أو الحركة أو الجماعة تحقق إنجازات عظيمة في مجالات أخرى أو تقف على ثغر آخر أو تخدم الدين بشكل آخر مثل إرجاع الناس لصلاتهم وأخلاقهم أو خدمة المسلمين في جانب معين ، فهذا يسمى تعصباً للمنهج الذي اعتاد عليه مذموما شرعا ممقوتا عقلا وطبعا .

---

[1] (المؤمنون: 53)

[2] (رواه البخاري ومسلم، في سياق العصبية الجاهلية)

2. إرضاء الحكومات والبعد السياسي:

ولا يمكن إغفال البعد السياسي في تحليل مواقف بعض العلماء الرسميين في بلادنا العربية ، فالمؤسسات الدينية في كثير من الدول، وخاصة في السعودية، ترتبط بشكل وثيق بالسلطة الحاكمة. وبالتالي، فإن أي حركة شعبية واسعة الانتشار، لا تخضع للرقابة المباشرة أو لا تلتزم بالخطاب الرسمي للدولة يتوجسون منها خوفا ، وينظر إليها بحذر شديد بل ولا يسمح بوجودها أصلا .

ولذلك غلا أهل العلم هناك في قاعدة شرعية لها أصلها في الدين وضوابها التي تضبطها وهي طاعة ولي الأمر في غير المعصية: فحيث يرى علماء السلف وجوب طاعة ولي الأمر في المعروف، ولا يجوز الخروج عليه، وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام لا يكاد يخالف فيه أحد وذلك لحفظ الأمن والاستقرار. ولكن طاعة ولي الأمر لا تعني موافقته في كل شيء أو كتمان الحق الشرعي أو شرعنة باطله أو الترويج لفساده أو الصمت عن ضلالاته أو تحليل شيء أو تحريمه ليوافق توجهه وحكومته ! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" 1 .

ولذلك قد يكون هناك بعض الضغوط غير المباشرة على العلماء لإصدار فتاوى أو بيانات تتوافق مع التوجهات السياسية للدولة، والتي قد ترى في مثل هذه الحركات تهديداً محتملاً لـ "الوحدة الوطنية" أو "الأمن الفكري" أو ربما تخرج عن نطاق سيطرتها ، ولذلك فإن الانتقادات الموجهة لحركة التبليغ ليست مبنية على أسس شرعية بحتة فقط، بل هي متأثرة بضرورات سياسية وأمنية، ما يدفع إلى تضخيم بعض النقاط السلبية أو

---

[1] (رواه أحمد)

إبرازها بشكل يخدم أجندة معينة، حتى لو كانت أهداف الجماعة والحركة دعوية بحتة ولا تسعى إلى التغيير السياسي.

3. ضيق فهم شمولية الرسالة الإسلامية وتنوع الوسائلالموصلة إليها:

فمن المقرر شرعا أن الرسالة الإسلامية رسالة عالمية شاملة، تخاطب جميع أصناف البشر على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم الفكرية ولهذا كان الأمر عاما شاملا لجميع الأمة في قوله تعالى "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [1] . ومن لوازم فهم هذه الآية الكريمة وجوب تنوع الأساليب الدعوية حتى تصل إلى المقصود ، ومتى لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بخلاف من يوجب تثبيت وسائل معينة وعد غيرها وكل ما سواها بدعا محدثة لمجرد أن القائمين بها معاصرين أو أقران !

ومن قواعد الدعوة الإسلامية قاعدة "تنوع الوسائل" في الدعوة ، مفادها أن الوسائل الدعوية تتعدد وتتنوع حسب الزمان والمكان والمدعوين ، فليس كل الناس بحاجة إلى نفس المنهج أو نفس البداية في طريق الهداية.

ولذلك من الخطأ الجسيم - وهو سبب في كثير مما نحن فيه من اختلافات - الاعتقاد بأن هناك منهجاً واحداً لا غير لنشر الإسلام أو لتربية المسلمين ، فالنبي صلى الله عليه وسلم استخدم أساليب متنوعة في دعوته، من الدعوة الفردية السرية، إلى الدعوة الجهرية الجماعية ، إلى الوعظ، إلى التعليم، إلى المناظرة ، كل هذه الأساليب كانت ضرورية لمواجهة تحديات مختلفة ، ولكن بعض العلماء يضيّقون من مفهوم الدعوة،

---

[1] (النحل: 125)

ويحصرونها في إطار معين (مثل التركيز على العقيدة فقط بطريقتهم ، أو على التعليم الأكاديمي الذي يرونه ، أو على الإصلاح السياسي الذي يسلكونه)، ويغفلون أن هناك مساحة واسعة لأنماط مختلفة تتناسب من الدعوة مع الدعاة تلائم شرائح متنوعة من المجتمع.

فدعوة التبليغ على سبيل المثال ، بمنهجها العملي الحركي الذي يركز على إحياء الشعائر الظاهرة وتحريك الهمم في قلوب المسلمين ، قد تكون أكثر فعالية في الوصول إلى فئات معينة من الناس الذين قد لا يستجيبون للمناهج التقليدية الأكاديمية أو الخطابية أو الذين لا يذهبون أصلا لتلك المجالس ولا يسمعون للخطب والأشرطة وما شابه ذلك ، فيظل الواحد منهم سنوات طويلة يسكن في نفس الحي الذي يسكنه أو في نفس العمارة التي يسكنها شخص يتبع فكر السلفية العصرية الغالية في التبديع مثلا ولكنه لا يدري عن الدين شيئا ولم يُدعَ يوما إلى شعيرة من شعائر الإسلام ! ولكن آخر من أهل التبليغ حينما يسكن في عمارة فتجده يتزاور مع كل من حوله ويكلمهم عن الله تعالى وعن رسوله ويدعوهم لحضور بيانات دينية ومناصرة جماعات خارجة في مسجد الحي أو حضور جولة دعوية أو حلقة تعليم وخلافه ! وهذا فارق عظيم في اختلاف الطرق الدعوية يجب أن يثمن لا يبدع .

وكذلك في حالات بعض الأشخاص الأميين أو الشباب الغافلين عن دينهم، قد لا يستفيدون كثيرًا من محاضرة في دقائق العقيدة، ولكنهم قد يتأثرون جدًا بمرافقة جماعة من الدعاة الذين يعلمونهم الوضوء والصلاة ويحثونهم على ذكر الله ببساطة ومحبة. فعدم تقدير هذا التنوع والتركيز على طريقة واحدة للدعوة يعتبر قصوراً في فهم شمولية الرسالة الإسلامية.

ولذلك فالخلاف حول دعوة التبليغ، وإن كان له جوانب علمية قليلة تتعلق بمسائل العقيدة والمنهج، إلا أنه لا يمكن إغفال أن جزءاً كبيرا منه ينبع من تعصب منهجي، أو تأثر بالتوجهات الرسمية، أو ضيق في الأفق الدعوي الذي لا يستوعب تعدد سبل الدعوة وأساليبها في إيصال رسالة الإسلام إلى العالمين.

المبحث الأول : لماذا يتشدد السلفيون المعاصرون في تعاملهم مع خصومهم مع أن بعض الخصوم قد لا يمثل خطرًا أصلاً على الحكومات؟

يتشدد السلفيون المعاصرون (وخاصة التيار الرسمي المرتبط بحكومة الدولة في السعودية) في تعاملهم مع الخصوم ويرمونهم بالانضمام إلى فكر الخوارج ، فتلك تهمة مغلفة لكل من خالفهم ، حتى ولو كان الخصم ممن لا يمثلون خطرًا سياسيًا مباشراً ولا غير مباشر على الحكومات، وذلك لعدة أسباب متداخلة كما ذكرنا ، فالتعصب المنهجي والرغبة في السيطرة على المشهد دافعهم ، فتجد هذا التيار يسعى سعيا حثيثا لرسم صورة حوله أنه حامي حمى المنهج السلفي وأن أي انحراف عن المنهج السلفي الصرف، ولو كان بسيطاً أو غير مباشر، هو خطر على العقيدة الصحيحة التي يجب المحافظة عليها ، وعلى الجانب الآخر يستخدمون كل هذا الاعلام ليخدم سيطرتهم وسيادتهم الدينية على العالم كله ، فإذا كانت دعوة لحركة التبليغ مثلاً، في نظرهم، لا تُولي أهمية كافية لمسائل التوحيد الدقيقة، أو تتسامح مع بعض الممارسات البدعية (حتى لو كانت منتشرة في بيئاتها الأصلية)، فإنهم يشهرون بين الناس ويشيعون أن هذا المسلك يمثل خطراً شديدا على الإسلام أكثر من خطر اليهود والنصارى ! ، بغض النظر عن كونها لا تتدخل في السياسة أو غيرها ، فيتسترون وراء دعاية أن الخطر الأكبر هو الخطر العقدي، وليس بالضرورة الخطر السياسي ، وحقيقتهم هو لي أعناق كل مخالفة مع خصم لتخدم الواقع السياسي ، فحقيقتهم أنهم لا يخشون على "عقائد الناس" كما يزعمون بل يخشون على "أنظمة الحكم" من كل فكر إسلامي إصلاحي حتى ولو لم يكن له تعامل مباشر مع قضايا الحكم ، لأن

العقيدة الإسلامية توصل في النهاية إلى ترابط المسلمين ووحدتهم فلا شك أن من كان من التبليغ يخدم الإسلام ففي النهاية سيقدم خدمات جليلة لمن يتعاملون مباشرة مع قضايا الحكم وغيره فيسعون إلى قطع هذا الطريق من بدايته وهذا هو الأساس عندهم.

ضيق فهم شمولية الرسالة وتنوع الوسائل فعندما يحصر السلفي المعاصر فهمه للدعوة والإصلاح في إطار منهجي ضيق يركز بشكل صارم على ترتيب الأولويات التي وضعها محورا للأمة تدور في فلكه لا يقبل مخالفة لها ، فإنه يجد صعوبة في تقبل المناهج الاجتهادية الأخرى التي قد تُقدم "بعض العمل الظاهر" (كالصلاة وإحياء الحياة الدينية في المساجد) كبوابة لإصلاح القلوب وتصحيح العقائد لاحقًا. فهذا "القصور في فهم التنوع والاختلاف كرد طبيعي لاختلاف وتنوع الفكر البشري" يجعله يرى أي منهج مختلف عنه بلا نقاش "خطأ وبدعة وخطر " يجب مقاومته والتحذير منه ، حتى لو كان يحقق نتائج إيجابية في جوانب أخرى لا يركز عليها هو.

فالخوف من فقدان السيطرة الفكرية حتى لو لم تكن تلك الحركات ممثلة خطراً سياسيًا، إلا أن انتشارها يعني وجود تيار فكري جماهيري خارج السيطرة المباشرة للمؤسسة الدينية الرسمية فهذا في حد ذاته يقلل من سلطة العلماء الرسميين ويُضعف من تأثير خطابهم الموحد، وهو ما لا يرغبون فيه.

المبحث الثاني : لماذا يفتعل السلفيون الخلافات مع الحركات الإصلاحية الأخرى ويفترون عليها ولا يتعاملون معاملة وسطية؟

في ضوء ما ذكرنا لابد أن نعلم أن التعصب المنهجي والتشدد في التعامل مع الآخرين يصل إلى حد "افتعال المشاكل" و"الافتراء" أحيانًا بل و " الكذب عليهم " ، كل ذلك عندما يتحول التعصب للمنهج إلى "عصبية

فكرية" ، فإذا رأى العالم أن منهجه هو الحق الوحيد المطلق ، وأن أي منهج آخر باطل أو فيه ضلال، فإنه قد يُبالغ في نقد الآخرين، ويُحَمِّل أقوالهم أو أفعالهم من السوء ما لا تحتمل، أو يُفسرها بأسوأ الاحتمالات ، هذا التعصب قد يدفعه لتصوير "الاختلاف المنهجي" الذي استساغ مثله السلف القدامى على أنه "انحراف عقدي خطير" أو حتى "تحزب منهي عنه"، بينما هو في حقيقته مجرد تباين في الأولويات أو الوسائل.

ولما يسيطر الخوف من المنافسة الدينية على النفوذ الديني في الساحة الدعوية على هؤلاء الأشخاص لأن كل حركة أو جماعة بالطبع تسعى لنشر فكرها وتأثيرها ، تؤدي هذه المنافسة إلى تضخيم العيوب وتجاهل الإيجابيات، بل وتصل إلى الافتراء أحيانًا لتشويه صورة الخصم، كنوع من الدفاع عن "نفوذهم المنهجي" وتأكيد "صوابية" طريقهم وحده.

فعندما تظهر حركات إصلاحية أخرى ولها انتشار جماهيري (مثل حركة التبليغ)، ساعتها يرى بعض هؤلاء السلفيون المعاصرون في ذلك منافسة على "سوق الدعوة" أو على قلوب وعقول الناس ، ما يحملهم على معاداتهم ، وإن كانت الغايات في ذات الوقت واحدة .

المبحث الثالث : لماذا يعظمون الصغير من خصومهم ولا يغفرونها كما يفعلون مع أصحابهم؟

هذا السلوك الوسخ ينبع بشكل أساسي من الأوساخ الذين يكيلون بمكيالين ! حيث يتعاملون مع أصحابهم ومن ولائهم لهم ولمشايخهم ورموزهم بطريقة مختلفة تماما عمن خالفوهم في بعض الوسائل أو الطرق الدعوية ، فالولاء المنهجي الذي اجتمعوا عليه يحتم عليهم ازدواجية في المعايير ، فترى المتعصب منهم لمنهجه يُطبق معايير صارمة على "الآخرين" بينما يتساهل كل التساهل مع "أهل منهجه" أو "أصحابه" ، فعندما تكون هناك ذرة خطأ أو شبهة في كلام أو عمل "الآخرين"، يتم تضخيمها وتعظيمها وتصويرها كأنها انحراف

خطير ، فهذا يخدم بالطبع هدف تبديع أو إقصاء المخالف ، فمثلاً، لو صدرت زلة لسان من داعية معاصر في العقيدة، قد تُتخذ ذريعة لتبديع الجماعة والدعوة والحركة بأكملها، وتُركز عليها كل الانتقادات، حتى لو كانت زلة فردية لا تمثل منهج تلك الجماعة أو الدعوة أو الحركة ، وفي المقابل، عندما تصدر أخطاء أو زلات أو حتى ممارسات قد تُعتبر بدعية من أفراد أو جهات محسوبة على "المنهج الواحد" (السلفي التبديعي الغالي)، يتم تجاهلها، أو تبريرها، أو تصغير شأنها، أو اعتبارها "خطأ فرديا" لا يمثل المنهج ، وهذا يعكس انحيازًا واضحًا ناتجًا عن التعصب المنهجي، الهدف منه هو حماية "المنهج الخاص" وتبرئته من أي عيب، بينما يتم البحث عن العيوب في المناهج الأخرى لتبرير مهاجمته، كل ذلك لخدمة السياسة من غير تصريح ، فإن العلماء الرسميين قد يضطرون إلى البحث عن أي "صغيرة" في تلك الحركة لتعظيمها وتبرير الموقف الرسمي تجاهها، أو من جهة بعض أفراخهم وأذنابهم ، بينما يتم غض الطرف عن أخطاء أخرى في جهات لا تثير حفيظة الدولة.

الفصل الرابع : جهود علماء الإسلام العالمية لا يحصرها جنس ولا مكان :

إن رسالة الإسلام العظيم رسالة عالمية، لا تقتصر على شعب بعينه ولا عرق بذاته ولا منطقة جغرافية بعينها، وقد أُرسل الله تعالى النبي محمد صلى الله عليه وسلم "كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" 1 . فبناءً على هذا المبدأ القرآني، تكون مهمة خدمة الدين ونشر رسالته غير مقتصرة على العرب أو على السعوديين فقط ، بل هي مسؤولية تقع على عاتق علماء المسلمين ودعاتهم في كل بقاع الأرض، بغض النظر عن جنسياتهم أو أصولهم العرقية.

المبحث الأول : عالمية الإسلام وعالمية العلم:

إن العلم الشرعي ليس حكراً على أحد، فكم من أئمة عظام لم يكونوا عرباً، ولكنهم خدموا الإسلام خدمة جليلة وصارت لهم مكانة راسخة في تاريخ الأمة.

فقاعدة العلم الثابتة أنه " ليس حكراً على جنس" ، فلقد جاء الإسلام ليرفع من شأن العلم والعلماء أياً كان أصلهم أو منشؤهم قال تعالى: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" 2 . فالآية الكريمة لم تخصص الرفعة بعرق أو جنس أو لغة أو سن ، بل هي عامة تشمل كل من أوتي العلم وعمل به وقام بحقوقه ، وفي التاريخ الإسلامي شموس ساطعة وأقمار لامعة من العلماء غير العرب الذين تركوا بصمات خالدة في مختلف العلوم الشرعية وظلت علومهم قرونا بعدهم ، فعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر الإمام البخاري

---

[1] (سبأ: 28)

[2] (المجادلة: 11)

رحمه الله صاحب الجامع الصحيح فارسياً من بخارى وكان الإمام مسلم رحمه الله صاحب الصحيح فارسياً أيضاً من نيسابور وكان الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله (إمام المذهب الحنفي) فارسياً وكذلك الأئمة الترمذي ، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم رحمهم الله من أصحاب كتب الصحاح والسنن، كان أغلبهم من بلاد فارس وما وراء النهر (آسيا الوسطى) ، هؤلاء الأئمة وغيرهم كثير، من مشارق الأرض ومغاربها، أسهموا في حفظ السنة، وتأصيل الفقه، ونشر العقيدة، وأثروا المكتبة الإسلامية بكنوز لا تقدر بثمن.

المبحث الثاني : تعدد مراكز العلم والتأثير عبر التاريخ :

فعلى مر التاريخ الإسلامي، لم تكن هناك مدينة واحدة أو منطقة بعينها تحتكر العلم والفتوى والدعوة ولا ريادة الإسلام ومعقله ، بل تغيرت من مدينة إلى مدينة عبر التاريخ الإسلامي

فبينما كانت المدينة المنورة ومكة المكرمة مركزين هامين للوحي والعلم في صدر الإسلام، ازدهرت مراكز علمية أخرى بمرور الزمن في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والقيروان ، ثم انتقل مركز الثقل إلى بلاد ما وراء النهر وشبه القارة الهندية والمغرب العربي وغيرها.

ففي كل هذه المراكز، نشأ علماء أفذاذ، ودونت علوم شتى، وخرج دعاة نشروا الإسلام في أصقاع الأرض محاولة حصر خدمة الدين في جهة معينة أو بلد محدد ، أو التقليل من شأن جهود علماء ودعاة من مناطق أخرى، يعد تقصيراً في فهم طبيعة الإسلام العالمية ، كل عالم مجتهد، وكل داعية مخلص، يسعى لنشر الخير والهداية، له فضله وأجره عند الله، بغض النظر عن جنسيته أو محل إقامته.

المبحث الثالث : العلماء الرسميين وغير الرسميين سواء في خدمة الدين:

وقد قامت بفضل الله الدولة السعودية على منهج سلفي يدعو إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع على يد الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ولها جهود مقدرة في خدمة الحرمين الشريفين وطباعة المصاحف ونشر الدعوة خاصة في مواسم الحج ولعلماء السعودية مكانة واحترام في العالم الإسلامي على طول التاريخ ، وجهودهم في خدمة السنة والعقيدة واضحة. لكن هذا لا يعني أن جهود العلماء آخرين في البلدان الأخرى لا قيمة لها، أو أنها يجب أن تماهى بالضرورة مع الموجهات الرسمية للدولة السعودية خاصة في عصرها المتأخر ، فالعلماء في مصر، والشام، والمغرب العربي، والهند، وباكستان، وإندونيسيا، وماليزيا، وتركيا، وحتى في الغرب، كلٌ في بلده وبيئته، يعملون جاهدين لتعليم الناس دينهم، وتصحيح مفاهيمهم، ومواجهة التحديات المعاصرة ، وبعضهم قد يكون ضمن مؤسسات رسمية، والبعض الآخر قد يعمل بشكل مستقل، ولكن الهدف واحد: خدمة دين الله.

المبحث الرابع : أثر الدعاة غير الرسميين على الحالة الدينية في البلدان العربية:

إنّ السؤال عن دور الدعاة غير الرسميين ومدى الحاجة إليهم في ظل وجود المؤسسات الرسمية، يحمل في طياته رؤية مهمة لتكامل الأدوار في خدمة الدين، وكما أشرنا إلى أن التخصصات الطبية المتعددة - من طب باطني، وجراحة، وطب أطفال، ونساء وتوليد، وعيون، وأنف وأذن وحنجرة، وجلدية، وطب نفسي، وأشعة، وغيرها الكثير - كلها تصب في خدمة المريض، فإن التخصصات الشرعية المختلفة، والدعوة

الإسلامية بشتى صورها، يجب أن تُرى بنفس المنظور: تكامل وتنوع يخدم الهدف الأسمى، وهو خدمة دين الله.

كذلك للدعاة غير الرسميين وهم غير التابعين للمؤسسات الرسمية، أثر واضح ومهم على الحالة الدينية في البلدان العربية، ويمكن ذكر بعضها في النقاط التالية:

1. سد الفجوات والقيام بواجب الدعوة : فكما هو معلوم ومشاهد قد لا تمكن المؤسسات الرسمية أحيانا ، لأسباب متعددة (بيروقراطية في بعض الدول ، القيود مالية، أو التركيز على قضايا معينة)، من الوصول إلى كل شرائح المجتمع، أو معالجة كل القضايا الدينية التي تهم الناس. وهنا يأتي دور الدعاة غير الرسميين في سد هذه الفجوات، وتقديم النصح والإرشاد لمن لا يصله صوت المؤسسة الرسمية.
2. المرونة والتجديد: فغالبًا ما يتمتع الدعاة غير الرسميين بمرونة أكبر في طرح الأفكار، وتبني أساليب دعوية مبتكرة تتناسب مع تحديات العصر، واستخدام وسائل التواصل الحديثة بفعالية. وهذا التجديد يمكن أن يجذب فئات من الشباب وغيرهم ممن قد لا يتفاعلون بالضرورة مع الخطاب التقليدي للمؤسسات الرسمية.
3. المصداقية أحيانًا: ففي بعض الأحيان، قد يُنظر إلى الداعية غير الرسمي بمزيد من المصداقية أو القرب من "الشارع"، لأنه لا يُنظر إليه كجزء من مؤسسة حكومية قد تُتهم بتبعية السلطة أو التزام أجندات معينة. وهذا الاستقلال يمكن أن يمنحه تأثيرًا أكبر لدى بعض الجماهير.
4. التخصص في قضايا معينة: فقد يتخصص بعض الدعاة غير الرسميين في قضايا محددة (مثل الدعوة للتدين الأخلاقي، أو محاربة الإدمان، أو قضايا الأسرة، أو التحديات الفكرية المعاصرة)، مما يسمح لهم بالتعمق وتقديم حلول أكثر تفصيلًا وملاءمة.

5. الوصول إلى الفئات المهمشة: فيمكن للدعاة غير الرسميين الوصول إلى فئات مهمشة دينيًا أو اجتماعيًا، والتي قد لا تكون المؤسسات الرسمية قادرة على الوصول إليها بفعالية.
6. تعدد الآراء وثرائها: فوجود دعاة مستقلين يُساهم في إثراء الساحة الفكرية والدينية، وتقديم زوايا متعددة لتناول القضايا، مما يُشجع على التفكير النقدي ويُعمق الفهم الديني.

وبالنظر إلى ما سبق، يمكن القول إن المؤسسات الرسمية وحدها ليست كافية بالمطلوب ولا تؤدي الواجب الكامل في خدمة الدين والمجتمع. على الرغم من جهودها المقدرة والمهمة في ضبط الخطاب الديني، وتقديم الفتاوى الموحدة، وتنظيم الشعائر، والإشراف على التعليم الديني، إلا أن الواقع المعاصر وتعقيداته يتطلبان تضافر الجهود.

فالمؤسسات الرسمية والدعاة غير الرسميين يمثلون وجهين لعملة واحدة، كلاهما يسعى لخدمة الدين، ولكن بأدوات ومساحات مختلفة. ثم إن العلاقة المثلى بينهما يجب أن تكون علاقة تكامل وتعاون، حيث تدعم المؤسسات الرسمية جهود الدعاة المستقلين بما لا يتعارض مع الثوابت الشرعية، ويستفيد الدعاة من توجيهات المؤسسات لتجنب الشطط والتطرف.

فالحاجة إلى الداعية المتطوع أو المستقل كدعاة حركة التبليغ وغيرهم ليست مجرد رفاهية، بل هي ضرورة لضمان وصول رسالة الإسلام لكل فرد، ومواجهة التحديات المتجددة بمرونة، والحفاظ على حيوية الخطاب الديني وتنوعه ، فكما أن المريض يحتاج إلى تضافر جهود مختلف الأطباء للحفاظ على جسده، فإن الأمة الإسلامية تحتاج إلى تضافر جهود كل الدعاة، رسميين كانوا أم مستقلين، لخدمة دين الله تعالى.

المبحث الخامس : واجب الوقت التعاون والتكامل لا التناحر والإقصاء:

يا من تتبعون نهجًا يُفرق ولا يجمع، ويهدم ولا يبني، وتُجيزون تضليل إخوانكم المسلمين وذمهم بدعوى حفظ الدين! تدبروا في عظمة الخَلْق، وفي حكمة الله البالغة التي تتجلى في أدق التفاصيل حولنا ، انظروا - على سبيل المثال - إلى علم الطب، هذا العلم النبيل الذي يهدف كله إلى غاية واحدة وهو خدمة جسد المريض والعمل على شفائه ووقايته من الأمراض .

هل رأيتم يومًا طبيب قلب يذم طبيب أعصاب؟ أو جراح عظام يطعن في اختصاص طبيب العيون؟ كلا! بل كل منهم يعلم أن تخصصه، مهما بدا مختلفًا، هو جزء لا يتجزأ من منظومة متكاملة لخدمة جسد الإنسان. ففي المستشفى الواحد، نجد تخصصات طبية لا حصر لها، تعمل بتناغم مذهل:

فالطب الباطني بفروعه المتعددة كأمراض القلب والجهاز الهضمي والكلى والجراحة العامة بتفرعاتها الدقيقة كجراحة الأوعية وجراحة المخ والأعصاب والعظام وطب الأطفال بعنايته الفائقة بالصغار وطبيبات النساء والتوليد في رعاية الأمومة وأطباء العيون والأنف والأذن والحنجرة في حواس الإنسان وأطباء الأشعة التشخيصية وعلم الأمراض في كشف خبايا الجسد وغيرها الكثير الكثير من التخصصات التي تصب جميعها في هدف واحد: صحة المريض وعافيته.

كل هذه التخصصات، رغم اختلاف مناهجها وأدواتها ومواضع اهتمامها، تجتمع على غاية نبيلة واحدة ، فلو تخاصمت هذه التخصصات وتنافرت، لضاع المريض وهلك!

فكيف بكم، وأنتم تدّعون خدمة الدين، وتجعلون من التخصصات الشرعية مادة للتناحر والتبديع والذم؟! ألا تدركون أن علوم الشريعة هي أيضًا تخصصات متنوعة، كلها تخدم الدين الإسلامي العظيم، وكلها تهدف إلى هداية الناس وصلاحهم؟!

فقيهٌ يبين الأحكام، ومحدّثٌ يحفظ السنة، ومفسّرٌ يوضح آيات الكتاب، وأصوليٌّ يقعد القواعد، وداعيةٌ يبلغ الرسالة، ومُزكٍّ يُربي النفوس... كل هؤلاء، رغم اختلاف مجالاتهم وطرق تناولهم للعلم، يعملون لخدمة الدين! اختلافهم ليس مدعاة للتبديع والتفرق، بل هو تكامل وثراء، يثري الفهم ويُعلي من شأن الإسلام.

ياإخوة الدين عودوا إلى رشدكم، وتدبروا في هذه الحكمة واجعلوا غايتكم وحدة المسلمين ونصرة الدين، لا تفريقهم وتبديعهم ، فديننا واحد، وقبلتنا واحدة، ونبينا واحد، وكتابنا واحد، وربنا واحد. فما لكم تزرعون الشقاق وتبحثون عن الخلاف ؟!

ثم إن التبليغ مثالاً حياً على الجهود الدعوية التي انبثقت من خارج العالم العربي، وتحديداً من شبه القارة الهندية ، وقد أثبتت هذه الحركة قدرتها على الوصول إلى ملايين المسلمين في مختلف أنحاء العالم، بمنهج يتناسب مع واقعهم وثقافتهم ، إن تقييم جهود هذه الجماعة، أو غيرها من الجماعات الدعوية، يجب أن يتم بميزان العدل والإنصاف، بعيداً عن أحكام القيمة المبنية على الجنسية أو الموقع الجغرافي أو الانتماء المنهجي الضيق.

فخدمة الإسلام ليست حكراً على أحد، والباب مفتوح لكل من أراد أن يخدم هذا الدين العظيم والواجب على المسلمين جميعاً، وخصوصاً العلماء منهم، هو التعاون والتكاتف على البر والتقوى، وتقدير جهود بعضهم

البعض، وتجاوز الخلافات الفرعية التي لا تمس أصول الدين، من أجل تحقيق المقصد الأسمى وهو رفعة الإسلام والمسلمين.

الفصل الخامس : ذكر لأشهر الفرق العقدية في التاريخ الإسلامي:

لم تعرف الأمة الإسلامية الانقسام العقدي إلا بعد فترة من الزمن من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان المسلمون في صدر الإسلام على عقيدة واحدة صافية مستمدة من الكتاب والسنة. ولكن مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، واختلاط المسلمين بثقافات وحضارات مختلفة، ومع دخول عناصر جديدة إلى الإسلام، منهم المستسلم للإسلام ومنهم الحاقد عليه المضطر للإستسلام وإظهار إسلامه ومنهم أيضا المتعصبة لبعض ما كانوا عليه وغير ذلك من الأسباب ، برزت قضايا عقدية وفكرية أدت إلى نشأة فرق ومذاهب مختلفة ، وهذه الفرق لم تكن مجرد مدارس فقهية، ولا آراء مستندة إلى أدلة قوية ، بل كانت تمثل اختلافات في فهم أصول الدين والعقيدة، مما أثر على وحدة الأمة.

المبحث الأول : نظرة السلف للفرق العقدية وأثره على المعاصرين :

لمحة عن أشهر الفرق العقدية وتناولها في المؤلفات :

متى ما تتبعت الكتب التى تتناول مسائل العقيدة والإيمان وتتعرض لذكر الفرق الإسلامية، تكاد لا تجد عددا محددا وثابتا للفرق ولكن يُشار إلي الفرق بـ "العدد الإجمالي لجميع الفرق الإسلامية" ، والسبب في ذلك يعود لعدة نقاط :

فحديث الافتراقعلى سبيل المثال ، لا يذكر تفصيلات عن كنه تلك الفرق وحدودها ولكنه يذكر خطوطا عريضة يقاس عليها وهذا الحديث هو الأساس الذي تتناوله كتب الفرق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة

على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي"..

واما من حيث تصنيف تلك الفرق فلا تكاد تجد سردا للثنتين وسبعين فرقة بالاسم والتفصيل لكل واحدة منها ، بل تركز تلك المصادر الأصلية على الأصول الكبرى للفرق الضالة والتي انحرفت عن منهج أهل السنة والجماعة في مسائل العقيدة الأساسية ، فكل فرقة من هذه الفرق الكبرى قد تفرعت عنها فرق أخرى أصغر منها تعتقد بعض عقيدتها وتزيد عليها ! ففي كل فرقة تجد عموم وخصوص .

ومن حيث التركيز على المخالفات ذاتها فإن غالب الكتب تناولت المخالفات الكبرى للتحذير منها ، وفي ذات الوقت تركز على بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، ثم تتطرق إلى أصول المخالفات العقدية للفرق الأخرى، مثل :

- المعتزلة :الذين خالفوا في مسائل الأسماء والصفات، والقدر، والمنزلة بين المنزلتين، ووعد ووعيد.
- الجهمية :في نفي الصفات، والقول بخلق القرآن.
- الخوارج :في التكفير بالذنوب، والخروج على الحاكم.
- المرجئة :في القول بأن الإيمان مجرد تصديق، وأنه لا يدخل الأعمال في مسمى الإيمان.
- الشيعة بفروعها المختلفة .
- القدرية وهم نفاة القدر .
- الجبرية وهم الذين يقولون إن العبد مجبور على أفعاله .
- الملاحدة بجميع طوائفهم كالحلولية والاتحادية وغيرهم .

في بعض أجزاء الكتب، قد يشار إلى عدد من الطوائف ضمن كل فرقة كبرى ، ولكن هذا لا يعني أنه يسرد اثنتين وسبعين فرقة بالتفصيل. بل هو يوضح الأصول التي تخرج بها الفرق عن المنهج الصحيح ، فلا يحدد كتاب واحد في العقيدة عددًا دقيقًا لكل الفرق الإسلامية المنصوص عليها في الحديث (73 فرقة)، بل يركز على الأصول الكبرى لهذه الفرق التي خالفت عقيدة أهل السنة والجماعة، ويشرح أصول ضلالاتهم في مختلف أبواب العقيدة ، فالتركيز ليس على حصر العدد، بقدر ما هو على بيان منهج أهل السنة وتمييزه عن مناهج الفرق الأخرى.

أثر هذا العموم الخطابي بلا ضبط على السلفيين المعاصرين :

لقد أثر هذا العموم في ذكر النصوص المتعلقة بالفرق على بعض السلفيين المعاصرين (أعني الغلاة في التبديع والتفسيق وتجريح علماء الأمة) من ذوي العصبيات لشيوخهم أو بلدانهم ، وأميز صفاتهم أنهم يعملون عقولهم في تنزيل تلك النصوص العامة الواردة في الفرق المخالفة لأهل السنة في قضايا عظيمة وأصول ثابتة على كل مخالف لهم من أبناء السنة ويرمونه بتلك التهم ، وهذا التنزيل الخاطئ لا شك أنه يؤدي إلى :

1. **التوسع في التكفير والتبديع**: وهذه ظاهرة منتشرة اليوم لا ينكرها بصير ، فبدلاً من التركيز على المخالفات العقدية الجوهرية التي تخرج عن منهج أهل السنة والجماعة، يتم توسيع دائرة "الفرق الضالة" لتشمل كل من يخالفهم في فروع المسائل، أو حتى في الاجتهادات الفقهية، أو في بعض القضايا المعاصرة ، حتى وصل الأمر إلى إدخال كل السلفيين المعاصرين في تلك الفرق ! .

2. **الخصومة والفرقة**: وهذا أوضح نتيجة لمسلك هؤلاء المنحرفين ، حيث يؤدي هذا التنزيل السقيم إلى تصنيف المسلمين إلى "فرق" كثيرة، مما يولد الشقاق والنزاع والعداوة بين أبناء الأمة الواحدة، ويهدم مبدأ الوحدة والتآلف الذي أمر به الإسلام وهذا مشاهد ولا حول ولا قوة إلا بالله .

3. **إهمال الأولويات**: حيث يركز هؤلاء على تتبع الأخطاء وتصنيف المخالفين، فيظل الواحد منهم منشغلا بالرد على فلان وعلان في مسائل قتلت بحثا منذ قرون ولا مردود منها على واقع الأمة وفي ذات الوقت يهملون قضايا أهم وأولى في الدعوة والتربية وبناء المجتمع ورفع راية الأمة ودفع كلاب الأرض عنها أو تحرير مقدساتها إلى غير ذلك من المهمات الضروريات .

4. **الجمود الفكري**: وهذا من لوازم مسالكهم الردية ، حيث يؤدي هذا النهج المنحرف إلى الجمود والتحجر في الفكر، وعدم القدرة على التجديد والاجتهاد، وذلك خشية الوقوع في "بدعة" أو "ضلالة" حسب تصنيفهم ، وهم يقصدون ذلك .

5. **الابتعاد عن مقاصد الشريعة**: حيث إن المقصد الأساسي من بيان الفرق هو التحذير من الانحرافات العقدية الكبرى التي تضر بأصل الدين، وليس تتبع كل خلاف جزئي أو رأي مخالف لرمي المخالف بكونه من الفرق الضالة المذمومة في الحديث الشريف .

ففهم النصوص المتعلقة بالفرق ينبغي أن يكون قائمًا على التركيز على الأصول العقدية الكبرى التي تميز منهج أهل السنة والجماعة، مع الحذر الشديد من تعميم تلك النصوص لتشمل كل خلاف جزئي أو رأي مغاير، وذلك حفاظًا على وحدة الأمة وتجنبًا للفرقة والنزاع.

مدى قرب وبعد السلفيين المعاصرين من الحق في فهم وإسقاط النصوص :

إن إسقاط هؤلاء الغلاة من السلفيين المعاصرين للنصوص الشرعية التي تتناول الفرق العقدية من القرون الأولى على أناس وشيوخ معاصرين يعيشون في ظروف مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت سائدة في الماضي فيه قصور شديد وبعد عن الحق والفهم والإنصاف ، فالشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم. وتنزيل النصوص المتعلقة بالفرق كان يهدف في الأساس إلى حماية العقيدة الصحيحة وبيان الانحرافات الجوهرية. فعندما يتم إسقاط هذه النصوص بحذافيرها على الواقع المعاصر، دون فهم للمقاصد العامة للشريعة، يؤدي إلى نتائج عكسية تمامًا، مثل تأجيج الخلافات، وتكفير المسلمين، وتمزيق وحدة الصف. فمقصد الشارع هو توحيد الأمة، وليس تفتيتها.

كما أن أهم ما يميز فقه العلماء الراسخين هو قدرتهم على فهم الواقع والتعامل معه بمرونة ، فالنصوص الشرعية عامة وشاملة، ولكن تطبيقها يتطلب فهمًا عميقًا للظروف المحيطة، وفهم لتغير العادات والتقاليد، ومراعاة لتطور العلوم والمعارف. فعندما يتم إغفال هذه الجوانب، يصبح التناول جافًا وحرفيًا، ولا يحقق معالجة قضايا العصر بفعالية.

إضافة إلى أن استخدام مصطلحات مثل "الفرق الضالة" و"أهل البدع" و"كلاب أهل النار " و"الخوارج" على نطاق واسع ليشمل كل من يخالفهم في الرأي، حتى لو كان ذلك في مسائل اجتهادية، يؤدي إلى تضييق واسع على الأمة ، فبدلاً من التركيز على المشتركات التي تجمع المسلمين، يتم تضخيم نقاط الاختلاف، مما يرهق الناس ويصعب عليهم ممارسة دينهم بحرية واطمئنان ، فهذا التنزيل الحرفي للنصوص، دون مراعاة لتغير الزمان والمكان والظروف، ينطوي على مخاطر عديدة ذكرناها في الفقرة السابة (أثر هذا العموم الخطابي)

نزيد عليها ذكر أمثلة على جواز الاختلاف من الشخص الواحد في المسألة الواحدة متى ما تغيرت المعطيات ! :

المبحث الثاني : اختلاف تعامل السلف الصالح مع الأحداث باختلاف معطيات العصر :

إن الناظر بعين التحقيق والانصاف في تاريخ الفقه الإسلامي سيجد الأمثلة التي تُظهر كيف تتغير الفتاوى بتغير الزمان والمكان والعرف ، وهذا ليس ضعفًا في الشريعة ولا قصورا في التكيف مع الأزمان ، بل دليل واضح على مرونتها وقدرتها على التكيف مع مختلف الظروف لتحقيق مقاصدها وبدون ذلك يكون هناك مشكلة كبرى وهي كيف لا تستطيع شريعة الإسلام أن تحتوى التغيرات في أحوال الناس ولا أن تتوافق مع تغيرات العصور المتعاقبة ! وهذا أمر غير موجود في شريعة الإسلام ولله الحمد ، بل إن مرونة الشريعة الإسلامية وقدرتها على التكيف مع تغيرات الزمان والمكان هي من دلائل كمالها وصلاحيتها لكل عصر ومصر. هذا التكيف لا يعني التنازل عن الثوابت، بل هو فهم عميق لمقاصد الشريعة وروحها، مما يسمح للفقهاء بالاجتهاد في الفروع بما يحقق المصلحة ويدفع المفسدة. يظهر هذا بوضوح عند مقارنة الواقع المعاصر بعصر الأئمة الأوائل كالإمام الشافعي، حيث أن الإسقاط الحرفي لأحكام وفتاوى نشأت في بيئة مختلفة تمامًا، دون مراعاة لتغير الظروف، يؤدي إلى فتاوى غير واقعية، لا تحقق مقاصد الشريعة، وتضعف الأمة ، إليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك باختصار :

مسائل الحدود والتعزير :

إن الحدود هي العقوبات المقدرة شرعًا على جرائم معينة، والتعزير هو العقوبة غيرال مقدرة يحددها القاضي أو الحاكم بما يراه رادعًا ومصلحًا.فالأصل في تطبيق الحدود هو تحقيق العدل وحفظ الأمن والنظام في المجتمع

، ومع ذلك، يميل الفقهاء إلى التخفيف في تطبيق بعض الحدود أو تعليقها في ظروف استثنائية، خاصة تلك التي تتعلق بالسرقة إذا كان الدافع إليها حاجة ماسة أو اضطرارًا.

ومن الواقائع الأشهر في هذا السياق ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة. حيث اجتاحت الجزيرة العربية مجاعة شديدة، أدت إلى انتشار الفقر والحاجة. في هذا الظرف الاستثنائي، عطل عمر رضي الله عنه حد السرقة، فلم يقم بقطع يد السارق في هذا العام لما لحق بالبلاد والعباد من ضرر وشر ، وقد فسر العلماء فعله هذا بأن السرقة في تلك الظروف لم تكن بدافع الإجرام، وإنما كانت بدافع الاضطرار الشديد الذي يرفع الإثم أو يسقطه، استنادًا إلى القاعدة الفقهية: "الضرورات تبيح المحظورات" و"الضرورة تقدر بقدرها". ويكأن عمر رضي الله عنه رأى أن مقصود الشارع من حفظ المال قد يتعارض مع مقصود حفظ النفس في هذه الحالة القصوى من الجوع ، فقدم الأهم. وهذا الموقف يدل على أن تطبيق الأحكام لا يكون بمعزل عن الظروف المحيطة وحالة المكلفين. فالمقصد من الحدود هو حفظ الأمن والنظام، وزجر الجناة، وليس مجرد تطبيق النص بحذافيره في كل الأحوال دون مراعاة للسياق، وهذا يتوافق مع روح الشريعة المطهرة التي جاءت لجلب المصالح ودفع المفاسد، ورفع الحرج عن الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [1] .

وقد اتفق الفقهاء على أن الحدود تُدرأ بالشبهات، استنادًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم : "ادرؤوا الحدود بالشبهات" [2] ، وإن كان في إسناده ضعف، إلا أن معناه صحيح ومعمول به عند الفقهاء . وهذا ينسجم مع

---

[1] [الحج: 78]

[2] (رواه الترمذي)

قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] . وقد رأى الإمام أبو حنيفة رحمه الله أن حد السرقة يسقط بالشبهات والضرورات، ولذلك نجد المذهب الحنفي من أكثر المذاهب التي توسعت في درء الحدود بالشبهات. وكان الإمام مالك رحمه الله يقر مبدأ درء الحدود بالشبهات أيضا ، ويرى أن سبب التعطيل هو الاضطرار الحقيقي وكذا الإمام الشافعي رحمه الله يرى أن حد السرقة لا يسقط إلا بالشبهات القوية أو الملكية المشتركة ، ويذهب بعض الشافعية أيضا إلى أن عمر رضي الله عنه عطل الحد لكون السرقة لم تكن من حرز، أو لشبهة في أن المال الذي سرقوه لم يكن مالًا معصومًا تمامًا في تلك الظروف من شدة المجاعة، أو أن الجوع الشديد ينزل منزلة الإكراه، أو أن الحاكم يملك التعزير دون الحد في بعض الظروف. ووافق الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله على درء الحدود بالشبهات حيث رأى أن الجوع الشديد يعد شبهة أو اضطرارًا يسقط حد القطع. وهذا اتفاق من الأئمة رضوان الله عليهم على مبدأ درء الحدود بالشبهات الواضحة ، ومع أنهم اختلفوا في تفاصيل تطبيق ذلك على واقعة عام الرمادة، لكنهم أجمعوا على أن فقه عمر رضي الله عنه كان قائمًا على مراعاة الظرف الاستثنائي ورفع الحرج.

أخذ الأجرة على تعليم القرآن أو الأذان أو الإمامة:

إن قضية أخذ الأجرة على تعليم القرآن، أو الأذان، أو الإمامة، هي من المسائل الفقهية التي شهدت تطورًا في الاجتهاد عبر العصور الإسلامية. وعلى الرغم من أن الأصل في هذه الأعمال أنها قربات خالصة لله تعالى، وأن السلف الصالح كانوا يؤدونها احتسابًا للأجر، إلا أن تغير الظروف والحاجات المجتمعية دفع الفقهاء إلى إعادة النظر في بعض تفاصيلها، مع الحفاظ على جوهر العبادة.

---

[1] [البقرة: 173]

لقد كان تعليم القرآن والإمامة والأذان في صدر الإسلام يُعد قربة خالصة لله تعالى. وقد كره كثير من السلف أخذ الأجرة عليها، لأنه من باب أخذ الأجرة على العبادة، وكان معلمو القرآن ومحفظوه والأئمة والمؤذنون يقومون به احتساباً للأجر من الله تعالى، مدفوعين بدافع الإيمان والتطوع والحسبة.

ولقد كانت الأدلة مانعة من أخذ الأجرة على مثل هذه العبادات والأفعال ودرج عليها موقف السلف والأئمة الأوائل:

استدل المانعون عن أخذ الأجرة على تعليم القرآن بحديث: "اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به، واعملوا به ولا تجفوا عنه"1. هذا الحديث يُشير إلى أن القراءة والتعليم ينبغي أن يكونا لوجه الله، لا لطلب الدنيا. وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : "اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به" 2،

واما عن الإمامة والأذان ، عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: "آخر ما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتخذ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجرًا"3. هذا نص صريح في النهي عن أخذ الأجر على الأذان. وورد عن بعض الصحابة، أنهم كانوا لا يأخذون أجرًا على الإمامة، وكانوا يعتبرونها وظيفة دينية لا دنيوية.

---

[1] (رواه أحمد في مسنده)

[2] (رواه أحمد)

[3] (رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد)

ومع مرور الوقت وتغير الظروف، ندر المتطوعون القادرون على أداء هذه المهام، وأصبحت الحاجة ماسة إلى تفرغ بعض الأشخاص لها لضمان استمراريتها. هنا ظهرت فتاوى تجيز أخذ الأجرة، بناءً على مبدأ المصلحة والحاجة.

أدرك الفقهاء المتأخرون أن المنع المطلق من تقاضي أجرا على تعليم القرآن سيؤدي إلى انقطاع تعليم القرآن وضياع جزء من الدين. لذلك، رأى كثير من الفقهاء، وخاصة الإمام الشافعي والإمام أحمد في بعض الروايات، جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لأن الحاجة دعت إلى ذلك، ولضمان استمرارية تعليم الدين. واستدلوا بحديث: "إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله" (رواه البخاري في قصة الرجل الذي أراد الزواج ولم يجد ما يدفعه مهراً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "قد زوجتكها بما معك من القرآن" وفي رواية أخرى: "إذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن فعلمها". وجاء في بعض الروايات "علمها ما معك من القرآن"). ورغم أن هذا الحديث ورد في سياق الرقية بالقرآن، إلا أن بعض الفقهاء عمموا حكمه ليشمل التعليم، قياسًا على حفظ الدين. هذا التغيير كان ضروريًا للحفاظ على هذه الفريضة الكفائية، وهو من باب المصلحة المرسلة التي لم يرد فيها نص بالمنع بعد تغير الظرف، ويتفق مع قاعدة "الحاجة تنزل منزلة الضرورة".

كما في تعليم القرآن، فإنه قد تندُر الكفاءات القادرة على القيام بالأذان أو الإمامة على الوجه الأكمل تطوعًا. فلو مُنع الأجر منعًا مطلقًا، لتعطلت هذه الشعائر أو قام بها غير المؤهلين. فلذلك أجاز الفقهاء المتأخرون من المذاهب الأربعة وغيرهم، أخذ الأجرة على الأذان والإمامة، خاصة إذا كان المؤذن أو الإمام لا يجد ما يكفيه من الرزق، ثم درج الناس على أخذ الأجر على هذه الشعيرة. وقد ذهب بعضهم إلى أن الأجر هنا ليس مقابل "العبادة ذاتها" ، بل مقابل "الحبس" أي التفرغ للقيام بهذه المهام، أو مقابل الجهد والوقت الذي يُبذل فيها. وهذا يتماشى مع فقه المصلحة والحاجة.

ووفي عصرنا يُجمع علماء العصر على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والأذان، والإمامة، بل ويرون أنه قد يصل إلى درجة الوجوب في ظل توقف من يؤدي تلك الشعائر أو ضعف أدائها بدون مقابل مادي. مثل الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله ومجمع الفقه الإسلامي الدولي حيث يؤكدون على جوازها لأسباب : هي الضرورة والحاجة: حيث إن تفرغ الأشخاص لهذه المهام يتطلب توفير مصدر رزق لهم، خاصة مع تعقيد الحياة وتكاليفها. والمصلحة الشرعية: فالحفاظ على القرآن الكريم وتعليمه، وضمان إقامة الصلوات في المساجد بانتظام، وإبلاغ وقت الصلاة عبر الأذان، هي من الضروريات الدينية التي يُمكن لأخذ الأجر أن يضمن استمراريتها وجودتها. والأجر مقابل الحبس أو العمل: حيث يُفهم الأجر هنا ليس مقابل جوهر العبادة (الذي هو لله وحده)، وإنما مقابل تخصيص الوقت والجهد اللازمين لأداء هذه الوظائف الدينية على أكمل وجه.

ولذلك فالموقف المثالي هنا هو الجمع بين روح الاحتساب الأخروي، وواقع الحاجة الدنيوية. يُشجع العلماء على أن يبقى دافع الأجر الأخروي هو الأساس، لكنهم يُقرون بجواز الأجر المادي لضمان استمرارية هذه الشعائر الحيوية في المجتمع. كما يدعون إلى تنظيم هذه المسألة ماليًا لضمان الشفافية، وتقديم رواتب كريمة للمؤهلين لكي يتفرغوا لأداء هذه المهام الجليلة بكفاءة واحترافية.

مرونة الفقه في مواجهة الضائقات الاقتصادية ، "بيع الوفاء" مثالا :

"بيع الوفاء" أو "بيع الأمانة"، وهي معاملة مالية تُبرز كيف يتفاعل الفقه الإسلامي مع الظروف الاقتصادية المتغيرة والحاجات الملحة للمجتمع.

ظهر عقد بيع الوفاء في بعض البلاد الإسلامية، خاصة في أوقات الشدة الاقتصادية ونقص السيولة المالية ، وفي ظاهِرِهِ يوحي بأنه عقد بيع عادي لسلعة (غالباً عقار)، ولكن مقصد المتعاقدين الحقيقي منه هو الرهن أو القرض بفائدة ضمنية.

فلو أن شخصا (وهو المريد البيع) يحتاج إلى المال بشكل عاجل، فيقوم بـ"بيع" عقاره لشخص آخر (وهو المشتري) بمبلغ معين ، لكن هذا البيع ليس بيعًا نهائيًا، بل يُشترط فيه اتفاق ضمني أو صريح على أن يرد المشتري العقار إلى البائع إذا قام البائع برد المبلغ نفسه (أو مبلغًا أكبر) في فترة زمنية محددة ، وخلال هذه الفترة يستفيد المشتري من العقار، إما بسكناه أو باستغلال غلته (إيجاره أو الاستفادة من محصوله إن كان أرضًا زراعية).

التناقض مع أصل الشريعة (الربا):

ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية تُحرم الربا تحريمًا قطعيًا بنص القرآن الكريم: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [1] . والمقصود به أيُّ عقد يؤدي إلى الربا أو يتضمنه ، فأي زيادة غير مشروعة في القرض، تكون ممنوعًا شرعًا.

وقد نظر الفقهاء الأوائل إلى بيع الوفاء بتحفظ شديد أو منعوه منعًا باتًا لعدة أسباب:

- شبهة الربا: فهذه المعاملة تُشبه بحد كبير كأنه قرض ربوي ؛ فالمال الذي يدفعه المشتري هو في الحقيقة قرض، واستفادته من العقار هي بمثابة الفائدة على هذا القرض.

---

[1] [البقرة: 275]

- عدم حقيقة البيع وإرادته : فالبيع الحقيقي يكون بنقل الملكية بشكل دائم من البائع إلى المشتري ، بينما في بيع الوفاء، تبقى نية البائع والمشتري هي استعادة البائع لعقاره، مما يجعل البيع صورياً ومقصدًا للتحايل.

مرونة الفقه وتغير الظروف:

وعلى الرغم من هذا التحريم الأولي، ومع انتشار هذه المعاملة نتيجة للحاجة الشديدة للسيولة وغياب البدائل التمويلية الشرعية الواضحة في أوقات معينة (مثل الشام ومصر)، أجاز بعض الفقهاء المتأخرين في بعض المذاهب (مثل بعض فقهاء الحنفية والشافعية) بيع الوفاء ولكن بضوابط معينة.

وقد تغيرت الفتوى أو اجتهدوا في جوازه لأسباب هي:

- الحاجة المُلحة لتلك المعاملة : فحينما يكون الناس في ضائقة اقتصادية حقيقية، فهذا العقد يوفر لهم وسيلة للحصول على التمويل عندما كانت الأبواب الأخرى مغلقة.
- المقصد والآلية لا محاكمة الصورة: فقد نظر هؤلاء الفقهاء إلى المقصد من العقد (وهو تلبية حاجة الناس) وصورة البيع الجائزة ظاهريا ، وليس فقط إلى صورته الظاهرة التي تتضمن نية الربا في صورة البيع. فقد حاولوا تكييف العقد ليخرج من دائرة الربا، فاعتبروه رهنًا (إذا لم يستفد المشتري من العقار) أو بيعًا فاسدًا يصح بالقبض، أو عقدًا يُبنى على نية الوفاء بالوعد بالبيع مرة أخرى.
- تحقيق المقاصد الكلية للشريعة: وهي تيسير حياة الناس، ورفع الحرج عنهم، وجلب المصالح ودفع المفاسد.

مواقف المذاهب الفقهية من بيع الوفاء:

على الرغم من أن بعض الفقهاء في بعض المذاهب أجازوا بيع الوفاء للحاجة، فإن الغالب على المذاهب الأربعة هو المنع، أو النظر إليه بتحفظ شديد، خشية الوقوع في الربا. ومع ذلك، فإن مجرد ظهوره ومحاولة بعض الفقهاء تكييفه، يُظهر مرونة الفقه الإسلامي في التفاعل مع الحاجات الاقتصادية للمجتمع، ومحاولته الدائمة لإيجاد حلول شرعية للمشكلات المستجدة، حتى لو كان ذلك بتكييف العقود أو الاستناد إلى مبادئ الحاجة والمصلحة.

- فكان المذهب الحنفي من أوائل المذاهب التي عرفت "بيع الوفاء" ، حيث إن بعض فقهائه المتأخرين (خاصة فقهاء بخارى) أجازوه للضرورة والحاجة الماسة، رغم شبهة القرض الربوي ، واعتبروه في حكم الرهن الذي يُمكن للمرتهن أن يستفيد من منفعته باتفاق.
- والمذهب المالكي بشكل عام، يميل إلى المنع الشديد من هذا النوع من البيوع، لكونه يؤول إلى قرض بزيادة، وهو من باب "العينة" التي تُعد من حيل الربا ، لكنهم قد يُجيزونه في حالات الضرورة القصوى وبتضييق شديد جدًا، وهذا يعكس تحرزهم البقهي الشديد.
- ويميل المذهب الشافعي إلى المنع المطلق لبيع الوفاء، لأنه يُعد بيعًا بشرط الرد، وهو شرط يُفسد العقد ويجعله في معنى القرض الربوي ، حيث يرون أن الصورة الظاهرة للعقد يجب أن تتوافق مع المقصد الشرعي الحقيقي.
- كما يميل المذهب الحنبلي إلى المنع ، ويعتبرون بيع الوفاء من البيوع الفاسدة أو المُحرمة لأنه يؤول إلى قرض ربوي.

اختلاف الفتاوى في مسائل العبادات المرتبطة بالأعراف كمقدار الصاع والمد وزكاة الفطر :

حتى في العبادات التي تبدو محددة بدقة، يمكن أن يؤثر العرف في تفاصيل تطبيقها، خاصة فيما يتعلق بالمقادير أو الأوزان التي كانت تُحدد بوسائل معينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك تحديد مقدار الصاع والمد في زكاة الفطر، والكفارات، والفدية ، فكانت هذه المقادير تُحدد بناءً على الأواني المستخدمة في عصر النبوة، مثل "المد النبوي" و"الصاع النبوي". المد هو ما يملأ كفي الرجل المتوسط، والصاع أربعة أمداد. هذه كانت وحدات حجمية معتمدة على العرف السائد في ذلك الزمان والمكان.

وقد ورد في السنة النبوية الشريفة مقدار الصاع والمد ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين"1. ويُقدر الصاع بثمانية أرطال عراقية عند السادة الحنفية ، ويرون جواز إخراج القيمة في زكاة الفطر بدلًا من الطعام، نظرًا لمصلحة الفقير. وأما عند السادة المالكية يُقدر الصاع بما يعادل أربعة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم، ويُشدد على إخراج الطعام ذاته لا القيمة في زكاة الفطر . وأما عند السادة الشافعية فيرون أن الصاع والمد هما مد النبي صلى الله عليه وسلم، ويُقدر الصاع بخمسة أرطال وثلث رطل عراقي، ويرون إخراج الطعام ولا يجيزون إخراج القيمة إلا للضرورة القصوى. وأما عند السادة

---

[1] (رواه البخاري ومسلم)

الحنابلة فيُقدرون الصاع بأربعة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم، ويرى أن إخراج الطعام هو الأصل، ولا يُجيزون إخراج القيمة إلا لحاجة.

ومع اختلاف هذه الأواني وتغير الأوزان والمعايير في العصور المتأخرة، وتوحيد المقاييس عالمياً بالوزن (الجرامات والكيلوجرامات)، اضطر الفقهاء إلى تقدير الصاع والمد بما يعادلهما بالأوزان المعاصرة لضمان صحة الأداء وتيسيره على الناس. فمثلاً، اتفق الفقهاء على أن الصاع يعادل تقريبًا 2.176 كيلوجرام من الأرز أو القمح، وهذا التقدير جاء نتيجة اجتهاد لمواكبة تغير العرف في القياس. هذا التغيير لا يغير أصل العبادة أو وجوبها، بل يغير وسيلة قياسها لتتناسب مع الواقع الجديد، مما يضمن استمرارية تطبيق الحكم الشرعي بطريقة مفهومة ومتاحة للناس في كل عصر. وهذا يؤكد أن العرف، إذا لم يصادم نصًا صريحًا، يُعد من القواعد التي يُبنى عليها الاجتهاد، وفقًا للقاعدة الفقهية: "العادة محكّمة"، أي أن العادات والأعراف الصحيحة يُحتكم إليها في المسائل التي لم يرد فيها نص قاطع.

الفصل السادس : أمثلة لقضايا معاصرة يختلف القول فيها باختلاف الواقع :

إن فهم الواقع المعاصر وتحدياته مقارنة بعصر الأئمة الأوائل كالإمام الشافع رحمه الله ي، يُعد حجر الزاوية في الاجتهاد الفقهي والدعوي السليم. فالإسقاط الحرفي لأحكام وفتاوى نشأت في بيئة مختلفة تمامًا على بيئات أخرى ، دون مراعاة لتغير الظروف، يؤدي إلى فتاوى غير واقعية، لا تحقق مقاصد الشريعة الإسلامية ، وتُضعف الأمة ، فمرونة الشريعة الإسلامية وقدرتها على التكيف مع تغيرات الزمان والمكان هي من دلائل كمالها وصلاحيتها لكل عصر ومصر ، وهذا التكيف لا يعني التنازل عن الثوابت، بل هو فهم عميق لمقاصد الشريعة وروحها، مما يسمح للفقهاء بالاجتهاد في الفروع بما يحقق المصلحة ويدفع المفسدة ، فهذا المنظور الفقهي الذي يراعي تغير الزمان والمكان والظروف، والذي أظهرناه في تحليلنا السابق لتصرفات الصحابة واجتهادات الأئمة، هو نفسه المنظور الذي يجب أن يُطبق على المسائل المستجدة في عصرنا، خاصة تلك التي تسببت في خلافات شديدة بين الجماعات الإسلامية، ويتخذها البعض (مثل الفصيل المدخلي الغالي في التبديع والتفسيق) سبيلاً للطعن في "الصحوات الإسلامية المعتدلة " أو "الحركات الإصلاحية الأخرى" ، فهذه المسائل تحتاج إلى فهم عميق لواقعها المعاصر، بعيدًا عن الإسقاط الحرفي لنصوص ووقائع تاريخية مختلفة. وهذه أمثلة لتلك القضايا ، ليترسخ الفهم لدينا بأن لكل حادثة حديثا ولكل مستفت فتوى :

المبحث الأول : مسائل الحدود والتعزير في فقه الواقع :

إن حادثة عام الرمادة ليست مجرد واقعة تاريخية تُروى، بل هي منهج فقهي يُحتذى به في تعاملنا مع النوازل والقضايا المعاصرة. كما تعامل عمر مع ظرف استثنائي غير الأداة (تطبيق الحد) من أجل مصلحة عليا (حفظ الأنفس)، يجب على علماء العصر أن يُطبقوا هذا المنهج على القضايا المستجدة.

يمثل الموقف المثالي لعلماء العصر في التمييز الدقيق بين أصل الحد الثابت في الشريعة وبين ظروف وشروط تطبيقه في الواقع المعاصر، ولذلك يُؤكد علماء العصر، وعلى رأسهم الشيخ يوسف القرضاوي ومدرسة المقاصد الشرعية، أن الحدود الشرعية هي أحكام ثابتة لا تتغير في ذاتها، ولكنهم يدعون إلى مراعاة المقاصد الشرعية الكبرى عند تطبيقها. هذه المقاصد تشمل حفظ النفس، ورفع الحرج، وتحقيق العدل الشامل.

إن بعض علماء اليوم ينادون بضرورة عدم التسرع (في الخطاب) في تطبيق الحدود في بيئات لم تُهيأ لها الظروف الاجتماعية والاقتصادية العادلة التي تكفل لكل فرد حقه في الحياة الكريمة. فهم يرون أن تحقيق العدالة الاجتماعية والتنمية الشاملة هي مقدمة أساسية وضرورية لتطبيق الحدود بالشكل الذي يحقق مقاصدها الحقيقية. فالموقف هنا يتجاوز مجرد درء الحدود بالشبهات ليُعمّق الفهم بشروط "التمكين" و"الاستقرار" و"العدالة "اللازمة لتطبيق أحكام الحدود بشكل كامل.

في غياب هذه الشروط، يركز الفقه المعاصر على العقوبات التعزيرية البديلة التي تتناسب مع الجرائم في هذه الظروف وتُحقق الردع المطلوب دون إحداث مفاسد أكبر. إن هذا التوجه يُجسد الفهم الصحيح لروح الشريعة، ومرونة الفقه الإسلامي في التعامل مع النوازل، تمامًا كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مواجهة مجاعة الرمادة، مقدماً نموذجاً خالداً لفقه الواقع والمقاصد.

المبحث الثاني : قضية جمع القرآن وكتابته:

لقد حفظ الله القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهما المصدران الأساسيان لتشريع أمة الإسلام ، تبلورت عملية حفظ هذين المصدرين عبر مسارين متوازيين ومختلفين في بدايتهما: جمع القرآن الكريم وكتابته، التي كانت مشروعة وضرورية منذ فجر الإسلام، وجمع الحديث النبوي الشريف وكتابته، التي مرت بمرحلة

أولية من المنع النصي الصريح قبل أن تصبح ضرورة ملحة ، أدت هذه الجهود المتتابعة والمتقنة إلى صيانة الدين من التحريف والضياع، وتقديم مرجعية خالدة للأمة.

نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث من حيث المعطيات والسياقات :

لقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث في بداية الإسلام لمعطيات وسياقات محددة، كان الهدف الأساسي منها هو حماية القرآن الكريم من أي التباس أو اختلاط ، من أهم هذه المعطيات:

- حداثة عهد الصحابة بالقرآن: فقد كان الصحابة رضي الله عنهم ما زالوا في طور تلقي القرآن الكريم حفظًا وكتابة، وكانوا يعيشون نزول الوحي آية آية ، وكانت كتابة الحديث في نفس الصحائف التي يُكتب فيها القرآن ستؤدي إلى التباس كبير، وخاصة وأن الخط العربي في ذلك الوقت لم يكن منقوطًا ولا مشكولًا والقراء - من يقرؤون المكتوب ويكتبون - من الصحابة قلة ، مما يزيد من احتمالية الخلط بين نصوص القرآن ونصوص الحديث النبوي.
- قوة الحفظ عند العرب: فكانت الأمة العربية تمتع بملكة حفظ استثنائية، وكان الاعتماد الأول في حفظ القرآن والسنة على الصدور ، فالحفظ كان هو الوسيلة الأساسية لنقل العلم.
- خشية الانشغال عن القرآن: فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينشغل الصحابة بكتابة الحديث عن حفظ القرآن وتدبره، خاصة وأن القرآن هو الوحي الأساسي الصريح النازل من السماء المتلو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو المصدر الأساسي للتشريع والسنة مفسرة له وموضحة ومعضدة.

- قلة عدد الكتبة وندرة الأدوات: فكانت أدوات الكتابة نادرة ومحدودة (جلود، عظم، حجارة، سعف النخيل)، وعدد الكتبة قليلًا، مما جعل التركيز على كتابة القرآن أولوية قصوى.

لذلك، جاء قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[1].

تغير الحال أدى إلى جمع القرآن وكتابته:

وعلى الرغم من النهي عن كتابة الحديث، إلا أن القرآن الكريم حظي باهتمام بالغ في الحفظ والكتابة منذ البداية، ولكن بطرق تطورت مع الزمن:

المرحلة الأولى: الكتابة المتفرقة في عهد النبوة:

قد كان القرآن يُكتب متفرقًا على مواد مختلفة (صحف، أكتاف، ألواح، عسب النخل، الرقاع) ويكتبه كُتّاب الوحي بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الاعتماد الأكبر على الحفظ في الصدور.

المرحلة الثانية: جمع القرآن في مصحف واحد (عهد أبي بكر الصديق):

فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واستشهاد عدد كبير من حفاظ القرآن في معركة اليمامة (حوالي 70 من القراء)، أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بضرورة جمع القرآن في مصحف واحد خشية ضياعه ، فتردد أبو بكر رضي الله عنه في البداية لأنه أمر لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه اقتنع بعد أن شرح الله صدره لذلك.

---

[1] (رواه مسلم)

وكانت هذه الخطوة اجتهادًا عظيمًا من الصحابة رضي الله عنهم ، غيّروا فيه الوضع السابق وهو الاعتماد على الحفظ والكتابة المتفرقة، لمواجهة خطر حقيقي يهدد أصل الدين. كانت هذه فتوى جماعية مبنية على المصلحة الراجحة والضرورة الملحة ، تم تكليف زيد بن ثابت لجمع القرآن من الصحف والعظام وصدور الرجال، وتم مراجعة ذلك بدقة بالغة.

المرحلة الثالثة: توحيد المصاحف ونسخها (عهد عثمان بن عفان):

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية واختلاف القراءات بين الأمصار، وخشية الفتنة في كتاب الله، قرر عثمان بن عفان رضي الله عنه توحيد المسلمين على مصحف واحد يُعرف بـ "المصحف الإمام". أمر بجمع لجنة من كبار الصحابة (منهم زيد بن ثابت رضي الله عنهم) لنسخ مصاحف متطابقة من الصحف التي جمعها أبو بكر، وإرسالها إلى الأمصار مع تعليمات بإحراق ما سواها من المصاحف المتفرقة والتي قد يكون خالطها تحريف من النقلة والكتبة ضمانا لتوحيد المصدر المتفق عليه من الصحابة العدول الحفظة النقلة للوحي.

وكان هذا الاجتهاد أيضًا تغييرًا جذريًا في التعامل مع القرآن الكريم، حيث تم إحراق المصاحف الأخرى للحفاظ على وحدة المسلمين وتجنب الخلاف في كتاب الله ، وهذا يظهر بوضوح كيف أن المصلحة العامة والحفاظ على وحدة الأمة يمكن أن يبررا تغييرًا كبيرًا في منهج سابق.

المرحلة الرابعة: تطور كتابة المصاحف في العصور اللاحقة:

ومع مرور الزمن، وبعد رسوخ كتابة المصحف، بدأت تطورات في طباعة ونسخ المصاحف استجابة لحاجات القراءة والتعليم منها :

1. النقط والشكل: كانت المصاحف – بل والحروف العربية نفسها - في البداية خالية من النقط والشكل (أي الضبط)، ومع اتساع الإسلام ودخول غير العرب، ظهرت الحاجة لضبط القرآن لتجنب اللحن. فقام أبو الأسود الدؤلي رحمه الله بوضع علامات للإعراب (النقط الحمراء)، ثم الخليل بن أحمد الفراهيدي بوضع علامات الشكل (الفتحة، الضمة، الكسرة) التي نعرفها اليوم، إلى جانب علامات المد والسكون والشدة ، وكان هذا اجتهادًا ضروريًا لتيسير القراءة على عموم المسلمين وبخاصة من ليسوا من العرب.
2. الألوان والإشارات: وحديثا بدأ استخدام الألوان في المصاحف لتمييز أحكام التجويد (مثل لون للغنة، ولون للإدغام، ولون للمد) ، كما أُضيفت علامات الوقف، وأرقام الآيات، وأسماء السور، وأجزاء القرآن، وخطوط لضبط التلاوة.
3. الطباعة الحديثة والتصنيع: ثم تطورت عملية طباعة المصاحف بشكل كبير، من النسخ اليدوي إلى الطباعة الآلية بكميات هائلة، وبأحجام وأنواع خطوط مختلفة، مع إضافة وسائل مساعدة للمتعلمين مثل تفسير الكلمات الغريبة أو بيان أحكام التجويد في هوامش المصحف.
4. تعدد الروايات: ومع انتشار القراءات المتواترة (مثل قراءة حفص عن عاصم، ورش عن نافع، قالون عن نافع)، أصبح اليوم يتم طبع مصاحف مخصصة لكل رواية، لتوحيد الرسم القرآني مع القراءة المعتبرة. ، وهذا لم يكن موجودًا في بداية الإسلام حيث كان الأمر يعتمد على التلقي الشفوي بشكل أكبر.

الدرس المستفاد هو العرف والمقاصد في توجيه الاجتهاد:

تُظهر قصة جمع القرآن وكتابة الحديث بشكل جلي أن العرف والظروف المحيطة تلعب دورًا حاسمًا في الاجتهاد الفقهي وتغيير الفتاوى.

فقد كان النهي عن كتابة الحديث لحكمة بالغة في وقتها لحماية القرآن ثم جمع القرآن اجتهاديًا من الصحابة رضي الله عنهم وكان ذلك ضروريًا للحفاظ على أصل الدين من الضياع بعد تغير الظروف ، ثم تطورت كتابة المصحف استجابة لحاجات الأمة المتغيرة (من انتشار الإسلام، دخول غير العرب، الحاجة لضبط التلاوة) لتيسير قراءة القرآن وحفظه.

هذه الأمثلة تؤكد أن الشريعة الإسلامية مرنة وواقعية، وأن المقاصد الكلية (حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ المال) هي التي توجه الاجتهاد، وأن الوسائل قد تتغير وتتطور لتحقيق هذه المقاصد. من هنا، فإن من يتمسك بحرفية تطبيق نصوص معينة من عصور سابقة دون فهم سياقها ومقاصدها وتغير الظروف، قد يقع في تضييق غير مقصود على الأمة، ويتجاهل روح الشريعة ومرونتها.

المبحث الثالث : قضية جمع السنة وتدوين الحديث ، رحلة من المنع إلى التدوين الشامل:

تُشكل السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني للتشريع في الإسلام بعد القرآن الكريم ، وقد حظي حفظها وروايتها بمراحل متتابعة وتطورات جوهرية، بدأت بمنع كتابتها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لحكمة بالغة، لتصل إلى عصرنا الحالي حيث تُطبع وتُحقق بكميات هائلة. هذه الرحلة تُجسد دقة المسلمين في حفظ دينهم وتكيفهم مع مستجدات العصور.

المرحلة الأولى: المنع من كتابة الحديث في عهد النبوة إلا لضرورة:

في بداية الدعوة، كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن كتابة حديثه الشريف ، وقد ورد ذلك صراحة في بعض الأحاديث، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه"1.

وكان هذا المنع لحكمة بالغة يقصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي :

- حماية القرآن الكريم: وذلك لئلا يختلط القرآن بالحديث في الأذهان أو في الصحف، فيُلبس الأمر على الناس ، فالقرآن هو وحي الله المتلو، والحديث هو وحي غير متلو (وحي بالمعنى واللفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما عدا الحديث القدسي).
- الاعتماد على الحفظ والوعي: لتربية الصحابة على قوة الحفظ والاتقان، ولضمان تمييزهم بين الأمرين، وأن يكون اعتمادهم الأول على حفظ القرآن وكتابته.

وقد أذن النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة بالكتابة في وقت لاحق، مثل: "اكتبوا لأبي شاه"، وقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص: "اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق". هذا يدل على أن المنع لم يكن مطلقًا أو دائمًا، وأن الحاجة دعت إلى الإذن بالكتابة لبعض الأشخاص.

---

[1] (رواه مسلم)

المرحلة التالية: النقل الشفهي في المجالس:

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وخلال عصر الصحابة والتابعين، استمرت السنة النبوية تُنقل بشكل أساسي عن طريق التحديث الشفهي في المجالس ، فكان الصحابي يروي الحديث لتابعه، والتابعي يرويه لتابعه، وهكذا ، وكانت المجالس العلمية هي المحاضن الرئيسية لنشر السنة، وكان الاعتماد على الرواية الشفهية والإسناد الشفوي هو السمة الغالبة ، وقد اشتهر الصحابة بضبطهم الشديد للرواية وتحريهم في النقل، فكان التثبت من صحة النقل يعتمد على عدالة الراوي وضبطه.

المرحلة التالية: الرحلة في طلب الحديث (السماع المباشر من الشيوخ):

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتفرق الصحابة والتابعين في الأمصار، أصبح الحصول على الحديث يتطلب الرحلة في طلبه وسماعه من حامله ،فكان طالب العلم يُسافر لمسافات طويلة، يقطع الصحاري ويُجوب البلاد، ليسمع حديثًا واحدًا من صحابي أو تابعي مباشرة ، وكانت هذه الرحلات شاقة، ولكنها كانت ضرورية لضمان السماع المباشر والإسناد المتصل.

وقد اشتهر العديد من الأئمة برحلاتهم الطويلة، من ذلك :

أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وهو من كبار الصحابة الذين لازموا النبي صلى الله عليه وسلم ورووا عنه أحاديث كثيرة، سمع بحديث وصل إليه أن صحابيًا آخر، وهو عبد الله بن أُنَيس الجهني رضي الله عنه، كان قد سمعه مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم. هذا الحديث يتعلق بقضية القصاص يوم القيامة، وتحديدًا ما يرويه ابن أُنَيس عن النبي صلى الله عليه وسلم، عندما وصل جابر إلى مصر، قيل له إن عبد الله بن أُنَيس

ليس موجودًا في منزله. فأرسل إليه جابر من يخبره بقدومه. فلما علم ابن أُنَيس بوجود جابر، سارع إليه واحتضنه. فسأله جابر: "حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المظالم، خشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه منك". فحدثه ابن أُنَيس بالحديث : "يحشر الله العباد -أو الناس- عراة غرلًا بهما، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب: أنا المَلِكُ، أنا الديّانُ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وعنده مظلمة لأحد، حتى أقُصَّهُ منه"[1].

- قال الإمام أحمد بن حنبل: "كان الرجل إذا أراد العلم في زمانهم رحل".

المرحلة التالية: كتابة الحديث متفرقًا (التقييد الشخصي):

ومع مرور الوقت وتزايد عدد الأحاديث وكثرة الرواة، أصبح الاعتماد الكلي على الحفظ الشفهي والرحلة يواجه صعوبات، لذا، بدأ بعض الصحابة والتابعين في كتابة الحديث بشكل متفرق لأنفسهم، كنوع من التقييد والمذاكرة، لا كنشر للكتب المدونة ، وكانت هذه الكتابات غالبًا غير منظمة، تُكتب على صحف أو رقاع، وتُعرف بـ"الصحف" أو "المجموعات الخاصة" ، ومن أمثلة ذلك:

- "صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة".
- "كتاب عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده".

---

[1] (رواه أحمد)

المرحلة التالية: مرحلة التدوين الرسمي وجمع أول كتب السنة والحديث:

وفي أواخر عصر التابعين وبداية القرن الثاني الهجري، أدرك العلماء والخلفاء خطورة ضياع الحديث بوفاة الحفاظ واندثار الروايات، فصدرت الأوامر بتدوين السنة بشكل منهجي. تُعد هذه المرحلة هي البداية الفعلية لجمع السنة في كتب جامعة.

أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت 101 هـ) بجمع الحديث. قال: "انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء". وقد قام الإمام محمد بن شهاب الزهري (ت 124 هـ) بهذا الدور، ويُعد أول من جمع الحديث بأمر رسمي فكانت جهوده هي البداية الحقيقية لتدوين السنة النبوية في كتب جامعة.. بعد ذلك، تتابعت جهود التدوين في مختلف الأمصار، ومن أوائل المصنفات الجامعة:

- كتاب "الموطأ" للإمام مالك بن أنس (ت 179 هـ): ويُعد أول كتاب جامع للسنة والفقه.
- كتاب "مصنف عبد الرزاق الصنعاني" (ت 211 هـ).
- كتاب "مصنف ابن أبي شيبة" (ت 235 هـ).

المرحلة التالية: العصر الذهبي للتدوين وانتشار الكتابة وتأليف الكتب لحفظ السنة:

شهد القرنان الثالث والرابع الهجريان العصر الذهبي لتدوين السنة، حيث انتشرت الكتابة وتأليف الكتب المتخصصة في الحديث بشكل واسع، مع التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة. في هذه المرحلة، وُضعت قواعد الجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث، لضمان صحة المتون وسلامة الأسانيد ، ومن أبرز الكتب الجامعة في هذه المرحلة:

- "صحيح البخاري" للإمام البخاري (ت 256 هـ).
- "صحيح مسلم" للإمام مسلم (ت 261 هـ).
- "سنن أبي داود" (ت 275 هـ).
- "سنن الترمذي" (ت 279 هـ).
- "سنن النسائي" (ت 303 هـ).
- "سنن ابن ماجه" (ت 273 هـ).

هذه الكتب أصبحت المرجع الأساسي للسنة النبوية، وشكلت أساسًا لا يُمكن الاستغناء عنه.

المرحلة التالية: كتب لتنقيح الكتب السابقة وبيان صحيحها وضعيفها:

وبعد ظهور الكتب الستة وغيرها من دواوين السنة، ظهرت الحاجة إلى تنقيحها، وبيان صحيحها من ضعيفها، ودرجات الأحاديث ، فقام علماء كبار بجهود ضخمة في تصنيف وتخريج الأحاديث، وخدمة هذه الدواوين ، ومن أمثلة ذلك:

1. "صحيح ابن خزيمة" (ت 311 هـ) و "صحيح ابن حبان" (ت 354 هـ) اللذان حاولا جمع الصحيح فقط.
2. جهود ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) في شرح صحيح البخاري في "فتح الباري"، وتخريج الأحاديث في "تلخيص الحبير".
3. جهود الإمام النووي (ت 676 هـ) في شرح صحيح مسلم في "المنهاج شرح صحيح مسلم".
4. كتب التخريج مثل "نصب الراية" للزيلعي و"البدر المنير" لابن الملقن.

المرحلة التالية : كتب تتناول رجال الأسانيد (علم الرجال):

لضمان سلامة الإسناد، وهو عمود السنة، تطور علم عظيم يُعرف بـ علم الرجال أو علم الجرح والتعديل. هذا العلم يختص بدراسة أحوال رواة الحديث، من حيث عدالتهم وضبطهم، لتمييز الثقة من غير الثقة، وتحديد درجة قبول رواياتهم ، ومن أبرز كتب هذا العلم:

- "التاريخ الكبير" للإمام البخاري.
- "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم الرازي.
- "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" للمزي (ت 742 هـ) وتلخيصاته مثل "تهذيب التهذيب" لابن حجر.

هذه الكتب هي التي أثبتت منهجية علماء الحديث الدقيقة في حفظ السنة، وبيّنت أن السند جزء لا يتجزأ من المتن.

المرحلة الحديثة: الطباعة الكثيرة بالطرق الحديثة والتحقيق العلمي :

وفي العصر الحديث، ومع التقدم الهائل في تقنيات الطباعة والنشر، دخلت السنة النبوية مرحلة جديدة من الحفظ والنشر ، حيث أصبحت كتب السنة تُطبع بكميات هائلة، بأسعار معقولة، وبجودة عالية، مما سهل انتشارها ووصولها إلى أيدي عامة المسلمين وطلاب العلم في كل مكان.

- التحقيق العلمي: تُرافق هذه الطباعة الحديثة غالبًا جهود التحقيق العلمي المتقنة، حيث يقوم المحققون بمراجعة المخطوطات، وتصحيح الأخطاء المطبعية، ووضع الفهارس الشاملة، مما يُسهل دراسة الأحاديث والبحث فيها.
- الرقمنة والموسوعات الإلكترونية: تطورت الأمور لتشمل رقمنة كتب السنة ووضعها في موسوعات إلكترونية وقواعد بيانات، مما يُتيح البحث السريع والمقارنة بين الروايات بسهولة لم تكن متاحة من قبل.

هذه الرحلة الطويلة تُظهر التزام الأمة الإسلامية بحفظ سنتها النبوية، وكيف أنها تكيفت مع الظروف المتغيرة، مُستخدمةً كل الوسائل المتاحة لضمان بقاء هذا المصدر العظيم للدين نقيًا ومتاحًا للأجيال.

المبحث الرابع : أخذ الأجرة على تعليم القرآن بين الاحتساب والحاجة:

تُعد مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن الكريم مثالًا بارزًا على تطور الفتوى الفقهية استجابةً لتغير الظروف والحاجات المجتمعية فالموقف المثالي لعلماء العصر، وهو الفتوى المعمول بها في غالبية المؤسسات التعليمية

الشرعية حول العالم، يتمثل في جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلوم الشرعية، بل ووجوبه إذا توقف التعليم عليه. ويرجع هذا الموقف إلى فهم عميق لواقعنا المعاصر، حيث:

- الحاجة الماسة لتفرغ المعلمين: في ظل تعقيدات الحياة الحديثة وتكاليفها، أصبح من الصعب على الكثيرين التفرغ لتعليم القرآن والعلوم الشرعية تطوعًا.
- ضمان بقاء العلم وتناقله: عدم توفير مقابل مادي للمعلمين قد يؤدي إلى تراجع جودة التعليم أو انقطاعه، مما يُشكل خطراً على نشر الدين واستمرارية العلم الشرعي.
- رعاية المصلحة والحفاظ على الدين: هذا الجواز لم يأتِ من باب الاستغناء عن الأجر الأخروي، بل من باب رعاية المصلحة العليا وهي الحفاظ على الدين وضمان تعليم الأجيال. فالأجر المادي هنا يُنظر إليه كمعين على أداء القربة، وليس بديلاً عنها.

وعليه، يدعو علماء العصر، مثل الشيخ محمد الغزالي والشيخ عبد الوهاب خلاف (من رواد فقه المقاصد)، ومجامع الفقه الإسلامي، إلى:

- تنظيم هذا الجانب ماليًا لضمان الكفاءة والاحترافية.
- توفير رواتب كريمة للمعلمين لكي يتفرغوا لعملهم الدعوي والتعليمي بكفاءة، مما يُسهم في رفع مستوى التعليم الشرعي ونشر الوعي الديني.

لذلك يُجسد هذا الموقف مرونة الشريعة الإسلامية وقدرتها على التكيف مع متطلبات العصر، مع الحفاظ على المقاصد الشرعية الكبرى، ويُعد نموذجًا للاجتهاد الذي يوازن بين الأصالة والمعاصرة.

المبحث الخامس : مسألة بيع الوفاء (أو بيع الأمانة) وبدائل التمويل الإسلامي المعاصر وسد ذريعة الربا مع تيسير المعاملات:

يُقدم "بيع الوفاء" أو "بيع الأمانة" نموذجًا تاريخيًا لتعامل الفقه الإسلامي مع الحاجات الاقتصادية الملحة. هذا العقد، الذي انتشر في بعض البلدان الإسلامية خلال أوقات الشدة، كان يبدو في ظاهره بيعًا، لكن مقصوده الحقيقي هو الرهن أو القرض بفائدة ضمنية.

لقد نظر الفقهاء الأوائل إلى هذا العقد بتحفظ شديد، بل ومنعوه منعًا باتًا في الغالب، بسبب شبهة الربا المحرم قطعيًا بنص القرآن الكريم ومع ذلك، وفي استجابة لضغوط الحاجة ونقص السيولة، أجاز بعض الفقهاء المتأخرين في بعض المذاهب (خاصة الحنفية في بعض مدارسها) بيع الوفاء بضوابط معينة ، هذا التكييف الفقهي لم يكن تنازلًا عن تحريم الربا، بل كان محاولة لتحقيق مقاصد الشريعة في تيسير حياة الناس، من خلال النظر إلى المقصد الحقيقي للعقد لا مجرد صورته الظاهرة، وإن كان الغالب على المذاهب الأربعة هو التحفظ والمنع خشية الوقوع في الربا.

ولذلك تُشكل تجربة "بيع الوفاء" درسًا بالغ الأهمية لعلماء العصر في كيفية التعامل مع النوازل الاقتصادية ، فعلى الرغم من أن هذه المعاملة كانت محاولة للاستجابة لحاجة ملحة، إلا أنها لم تسلم من شبهة الربا ، لذلك يتمثل الموقف المثالي لعلماء العصر في الاعتراف المطلق بحرمة الربا مع السعي الحثيث لتقديم بدائل شرعية عملية تُلبي نفس الحاجات الاقتصادية الملحة، وذلك عبر مسارين:

- سد ذريعة الربا: فبدلًا من تكييف العقود المشتبه فيها، يُركز الفقه المعاصر على تطوير صيغ عقود تتميز بالوضوح الشرعي والسلامة من أي شبهة ربوية.

- تيسير المعاملات وتوفير حلول اقتصادية إسلامية: حيث تُقدم المؤسسات المالية الإسلامية الحديثة حلولًا تمويلية مبتكرة. فبدلًا من اللجوء إلى "بيع الوفاء" الشبيه بالقرض الربوي، يمكن للأفراد والمؤسسات الاستفادة من صيغ مثل:
  - المرابحة للآمر بالشراء: حيث تشتري المؤسسة السلعة التي يحتاجها العميل ثم تبيعها له بربح معلوم.
  - الإجارة المنتهية بالتمليك: وهي عقد إجارة ينتهي بتملك العين المؤجرة.
  - المشاركة المتناقصة: حيث تملك المؤسسة جزءًا من أصل معين، وتؤجر حصتها للعميل، ويقوم العميل بشراء حصة المؤسسة تدريجيًا حتى يمتلك الأصل بالكامل.
  - المضاربة: وهي شراكة في الربح والخسارة حيث يُقدم طرف المال والآخر الجهد.

ويركز علماء بارزون في الاقتصاد الإسلامي، كبعض الهيئات الشرعية في البنوك الإسلامية، على تطوير هذه الصيغ وتنويعها لتُصبح حلولًا اقتصادية إسلامية عملية وواضحة، تُراعي التطورات الاقتصادية العالمية مع الالتزام الصارم بضوابط الشريعة.

وهكذا، تُظهر حادثة "بيع الوفاء" أهمية فقه الواقع والمقاصد، وتُبين كيف أن علماء العصر يستفيدون من التجارب السابقة لا لتكرارها بعيوبها، بل لاستنباط حلول أفضل وأكثر توافقًا مع الشريعة وتلبية لاحتياجات الناس المتجددة. إنهم يبحثون عن مخارج لمشاكل اليوم من خلال الإبداع في إطار الشرع، وهو ما يُعزز من دور الفقه في قيادة الحياة لا مجرد تتبعها.

المبحث السادس : مسائل الأوقاف وتكييفاتها المعاصرة تجديد يتجاوز التقليد:

إن الأوقاف كمبدأ شرعي أصيل يُعنى بحبس الأصل وتسبيل المنفعة، هي من أعمق صور التكافل الاجتماعي والخير المستدام في الإسلام. مشروعيتها متأصلة في الكتاب والسنة والإجماع، ومع أن جوهر الوقف ثابت، إلا أن أحكامه وتكييفاته القانونية والفقهية تختلف بشكل كبير بين عصر وآخر وبلد وآخر. هذا التنوع نابع من مرونة الشريعة في مراعاة الأعراف والعادات المحلية وطرق إدارة الممتلكات. فالفقهاء عبر العصور كانوا يضعون أحكامًا تتناسب مع هذه الأعراف لضمان استمرارية الأوقاف وتحقيق مقاصد الواقفين. جميع المذاهب الفقهية تُجيز الوقف، وتتفق على اعتبار شروط الواقف ما لم تخالف الشرع، وتأخذ الأعراف السائدة في الإدارة بعين الاعتبار. هذا الاعتراف بالعرف هو ما سمح بتطور إدارة الأوقاف من الإدارة الفردية التقليدية إلى الإدارة المؤسسية، وتكييفها مع الأنظمة القانونية الحديثة.

ومن منظور أن الوقف أداة للتنمية المستدامة يركز علماء العصر على تجديد مفهوم الوقف وتطبيقاته ليواكب التحديات والمتطلبات الحديثة، مع التمسك بمقصده الأساسي في الحفاظ على الأصل واستدامة المنفعة. هذا التجديد يتجلى في عدة محاور:

- تطوير المؤسسات الوقفية: حيث ينادي العلماء بضرورة تحديث هذه المؤسسات لتكون أكثر احترافية وشفافية في إدارتها واستثماراتها. هذا يشمل الاستفادة من الخبرات المعاصرة في إدارة الأصول والاستثمارات المالية، لتعظيم غلة الأوقاف وضمان استدامتها.
- ابتكار أنواع جديدة من الأوقاف: فلم يعد الوقف مقتصرًا على العقارات أو الأراضي الزراعية. فتاوى مجامع الفقه الإسلامي الدولية تُشير إلى جواز أنواع حديثة من الأوقاف تتناسب مع التطور

الاقتصادي، مثل الوقف النقدي (وقف النقود)، ووقف الأسهم، ووقف المنافع (كوقف المنفعة من عقار أو خدمة). هذه الأنواع تُلبي حاجات المجتمع المعاصر في مجالات حيوية كالتعليم العالي، والرعاية الصحية، والبحث العلمي، والإغاثة الإنسانية.

- توجيه الوقف نحو التنمية المجتمعية: فالموقف المثالي هو تحرير الوقف من القيود التقليدية التي قد تُعيق نموه أو تحقيق مقاصده الواسعة. الهدف هو توجيه الأوقاف لتُصبح أداة فاعلة في تحقيق التكافل الاجتماعي والتنمية الاقتصادية الشاملة في المجتمعات الإسلامية. هذا يعني أن الوقف لا يقتصر على الصدقات التقليدية، بل يمتد ليشمل المساهمة في مشاريع تنموية مستدامة تُحدث أثرًا إيجابيًا طويل الأمد.

المبحث السابع : اختلاف الفتاوى في تكييف مسائل العبادات المرتبطة بالأعراف ، مقدار الصاع والمد مثالا .

كما بينا سابقا أنه في العبادات التي قد تبدو محددة بدقة في الشريعة، يُمكن أن يلعب العرف دورًا حيويًا في تفاصيل تطبيقها، خاصة عندما تتعلق بمقادير أو أوزان كانت تُحدد بوسائل خاصة في زمن النبوة. يُعد تحديد مقدار الصاع والمد في زكاة الفطر والكفارات من أوضح الأمثلة على ذلك.

ولقد فُرِضت زكاة الفطر بمقادير محددة من الطعام، كما جاء نصا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم فكانت هذه المقادير تُحدد بناءً على الأواني المستخدمة في عصر النبوة، مثل "المد النبوي" و"الصاع النبوي".

ولكن مع اختلاف هذه الأواني وتغير الأوزان والمعايير في العصور المتأخرة، أصبح من الضروري للفقهاء تقديرها بما يعادلها بالأوزان المعاصرة (كالجرامات والكيلوجرامات) ، هذا التكييف لم يغير أصل العبادة أو

وجوبها، بل غير وسيلة قياسها لتتناسب مع الواقع الجديد ، هذا التعديل يضمن استمرارية تطبيق الحكم الشرعي بطريقة مفهومة ومتاحة للناس في كل عصر، ويُؤكد أن العرف، إذا لم يصادم نصًا صريحًا، يُعد من القواعد التي يُبنى عليها الاجتهاد، وفقًا للقاعدة الفقهية الراسخة: "العادة محكّمة".

ومن هنا يتفق علماء العصر على ضرورة تقدير المقادير الشرعية (الصاع والمد) بالأوزان الحديثة الموحدة، لتسهيل الأمر على المسلمين وضمان دقة الأداء. فمثلًا، تُحدد مجامع الفقه والهيئات الشرعية مقدار الصاع بما يعادل 2.5 كيلوجرام تقريبًا من الأرز أو القمح، وهو تقدير تقريبي مبني على تحقيقات علمية لأوزان المد والصاع في زمن النبوة. هذا التوحيد في التقدير يُزيل اللبس ويُسهل على المسلمين أداء عباداتهم بيسر ودقة.

فالموقف المثالي هنا هو التأكيد على جوهر العبادة ومقصدها الأساسي (مثل الإطعام في زكاة الفطر، أو التعويض في الكفارات)، مع مرونة في الوسيلة والتقدير بما يُناسب الأعراف والمقاييس الحديثة.

وتلك خطوة تعكس فهمًا عميقًا لروح التيسير ومقاصد الشريعة، حيث يُجيز بعض العلماء المعاصرين إخراج القيمة (النقود) في زكاة الفطر إذا كانت مصلحة الفقير تقتضي ذلك ، وعلى الرغم من أن هذا الرأي يُخالف رأي الجمهور الذي يرى إخراج الطعام بالعين، إلا أنه يتفق مع رأي السادة الحنفية، ويُبنى على قاعدة رعاية مصلحة الفقير وتيسير أداء العبادة في سياق العصر. هذا التوجه يُبرز كيف أن الفقه المعاصر يسعى دائمًا للموازنة بين النصوص الشرعية الثابتة، وواقع حياة المسلمين المتغير، لضمان أن تبقى الشريعة صالحة لكل زمان ومكان.

المبحث الثامن : المشاركة السياسية والديمقراطية .

كانت أنظمة الحكم في عصر الأئمة الأوائل غالبًا ملكية أو وراثية، ولم تكن هناك أنظمة ديمقراطية أو برلمانية معروفة ، أما اليوم، فالمسألة شائكة وتدور حول مدى جواز المشاركة في الأنظمة الديمقراطية الحديثة، والانخراط في العملية السياسية ، ترى بعض التوجهات وتميل إلى التحريم المطلق للمشاركة السياسية بهذه الأشكال، ويعتبرونها "بدعة سياسية" أو "تشبهًا بالكفار"، ويطعنون في الجماعات التي تشارك في الانتخابات بأنها تتنازل عن أصول الدين ، وفي المقابل، ترى بعض الصحوات الإسلامية أن المشاركة السياسية قد تكون وسيلة مشروعة وضرورية لتحقيق المصالح الشرعية (كإقامة العدل، حماية الهوية الإسلامية، مقاومة الفساد) ودفع المفاسد، وأنها قد تكون أقرب إلى تحقيق العدل والشورى في ظل غياب الخلافة الإسلامية الجامعة. هذا يماثل اجتهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة، حيث غير الوسيلة المتمثلة في (تطبيق الحد) لمصلحة راجحة وهي (حفظ الأنفس).

ولا شك أن الانخراط في تلك العملية ينطوي على مفاسد ومخالفات فوق مخالفات غير أن عدم المشاركة يؤدي إلى فساد فوق فساد ، فهو ارتكاب أخفف الضررين وتحمل أدنى المفسدتين ، وتلك نازلة من النوازل لا مفر من الوقوع فيها إلا بمواقف دونها خرط القتاد ! وإيتام الأولاد ! ، فتنزلا وكمرحلية يرى بعض العلماء ذلك مع الاعتراف ببعض المفاسد المرتكبة والمخالفات الواقعة .

مفاسد الانخراط في الديمقراطية الغربية والعملية السياسية من منظور بعض الإسلاميين :

تُعد قضية المشاركة السياسية في الأنظمة الديمقراطية الحديثة من أكثر النوازل تعقيدًا وإثارة للجدل في الفكر الإسلامي المعاصر ، فبينما يرى تيار واسع من العلماء جوازها بل وجوبها لتحقيق المصالح ودفع المفاسد،

تُشدد تيارات أخرى على التحريم المطلق، مستندة إلى رؤية ترى في الديمقراطية الغربية، بمكوناتها الفكرية والعملية، مخالفات شرعية جسيمة.

ومن منظور هؤلاء الإسلاميين الذين يتحفظون أو يحرمون المشاركة المطلقة، فإن الانخراط في الديمقراطية الغربية والعملية السياسية ينطوي على العديد من المفاسد والمخالفات الشرعية، التي قد تتجاوز "أخف الضررين" إلى الوقوع في محاذير لا تتفق مع أصول الدين ، يمكن حصر هذه المخالفات في عشر نقاط رئيسية:

1. القبول بمبدأ حاكمية الشعب (السيادة لغير الله): حيث يرى هؤلاء أن الديمقراطية تقوم على مبدأ سيادة الشعب، أي أن الشعب هو مصدر السلطات والتشريع ، وهذا يُعتبر مخالفًا لمبدأ حاكمية الله، حيث أن الله وحده هو المشرع وصاحب السيادة المطلقة، وأن القانون يجب أن يكون مستمدًا من الشرع لا من إرادة البشر.
2. التحاكم إلى قوانين وضعية: فالمشاركة في البرلمانات أو الحكومات الديمقراطية تعني، بحكم الواقع، القبول بالتحاكم إلى دساتير وقوانين وضعية غير مستمدة من الشريعة الإسلامية ، وهذا يُعد تنازلًا عن التحاكم إلى شرع الله الذي هو أصل من أصول الدين.
3. المشاركة في التشريع المخالف للشرع: فقد يُلزم النائب أو السياسي الإسلامي بالموافقة على قوانين أو قرارات تتعارض صراحة مع أحكام الشريعة (مثل قوانين الربا، أو الإباحية، أو المساواة المطلقة في الإرث دون تفريق بين الذكر والأنثى حسب الشرع). هذا يُعتبر مشاركة في الإثم.
4. الاستقسام بالصناديق (الانتخابات): حيث تُعد الانتخابات وسيلة تعتمد على ترجيح رأي الأغلبية، وقد يراها البعض نوعًا من "الاستقسام" أو اللجوء إلى غير شرع الله في اختيار الحاكم أو في حل المسائل، بدلًا من مبدأ الشورى الإسلامي الصحيح الذي يعتمد على أهل الحل والعقد والاجتهاد.

5. القبول بمبدأ المساواة المطلقة في التصويت: فالديمقراطية تساوي بين صوت العالم والجاهل، وبين صوت الصالح والفاسق، مما قد يؤدي إلى وصول من ليسوا أهلاً للحكم أو التشريع، أو تمرير قوانين لا تخدم مصالح الأمة الحقيقية.

6. التنازل عن بعض الثوابت والمبادئ الشرعية: وذلك لتحقيق مكاسب سياسية أو للفوز بالانتخابات، قد يُضطر الإسلاميون إلى تقديم تنازلات على حساب بعض مبادئهم أو شعائرهم الدينية، أو تخفيف خطابهم الإسلامي، مما يؤدي إلى "تمييع" للدين.

7. الوقوع في المداهنة والملاينة: ومعلوم أن العملية السياسية الديمقراطية تتطلب مداهنة ومجاملة لأطراف علمانية أو غير إسلامية، وهو ما يُعتبر مخالفًا لمبدأ الولاء والبراء، أو يؤدي إلى ضعف في الدعوة إلى الحق.

8. التعرض للفتن وتضييع الوقت والجهد: فيرى البعض أن الانخراط في السياسة يفتح بابًا واسعًا للفتن والصراعات والتنافس على الدنيا، وقد يُشغل الإسلاميين عن مهامهم الدعوية والتربوية الأساسية، ويُبدد جهودهم في صولات وجولات انتخابية عقيمة.

9. التشبه بالكفار في النظام السياسي: ولأن الديمقراطية نظامًا غربيًا وضعيًا أصيلًا في نشأته وفلسفته، فإن تبنيه والعمل من خلاله يُعتبر "تشبهًا بالكفار" المنهي عنه في الشريعة.

10. عدم تحقيق التغيير الجذري المطلوب: حيث يرى هؤلاء أن الديمقراطية الغربية، بطبيعتها، لا تسمح بإقامة الدولة الإسلامية الكاملة التي تُطبق الشريعة تطبيقًا شاملًا، وأنها مصممة للحفاظ على منظومة علمانية ، وبالتالي، فإن المشاركة فيها لا تُحقق الهدف الأسمى وهو التمكين لدين الله.

هذه النقاط تُعبر عن وجهة نظر بعض الفصائل التي تُفضل الابتعاد عن المشاركة السياسية في الأنظمة الديمقراطية، وتُشكل أساس حججهم في التحريم أو التحفظ الشديد، معتبرين أن المفاسد المترتبة على هذه المشاركة تفوق المصالح المرجوة، وأن السكوت عن المشاركة قد يكون أقل ضررًا من الانخراط في نظام يرون أنه مخالف لأصول الشرع.

مفاسد عدم مشاركة الإسلاميين في العملية الديمقراطية والسياسية :

يرى بعض الإسلاميين المنخرطين في العملية الديمقراطية والسياسية أن عدم المشاركة فيها لا يعني تجنب المفاسد، بل قد يؤدي إلى مفاسد أعظم وأخطر على الأمة والدين ، من وجهة نظرهم، فإن الانسحاب من هذا المضمار يُفضي إلى عواقب وخيمة، يمكن ذكر بعضها :

1. ترك الساحة للفساد: فعدم المشاركة يعني ترك الساحة السياسية لتيارات علمانية أو غير ملتزمة، مما يُمكنها من فرض رؤيتها وقوانينها المخالفة للشريعة دون أي مقاومة أو مراجعة ، وهذا يؤدي إلى تفشي الفساد الأخلاقي والإداري والمالي.
2. إضعاف صوت الحق: فغياب الإسلاميين يعني غياب صوت قوي يُدافع عن قضايا الأمة الإسلامية، ويُبين الحق، ويُقدم الرؤية الشرعية في القضايا العامة، مما يُضعف تأثير الإسلام في الحياة العامة.
3. ترسيخ الظلم والطغيان: ففي غياب الرقابة الشعبية والسياسية التي يُمكن أن يُمارسها الإسلاميون، تزداد احتمالية استفراد الأنظمة بالحكم وتفشي الاستبداد، حيث لا يوجد من يُحاسب أو يُعارض بفاعلية.

4. ضياع المصالح الشرعية: فعدم المشاركة يعني خسارة فرص عظيمة لتحقيق مصالح شرعية كبرى، مثل إصلاح التعليم، وتطوير الرعاية الصحية، ومكافحة الفقر، وتفعيل الزكاة، وحماية الأسرة، وغيرها من الأهداف التي يقرها الإسلام.

5. تأخير تطبيق الشريعة: فإذا كان الهدف هو تطبيق الشريعة، فإن الانسحاب من آليات صنع القرار يعني إطالة أمد غياب الحكم الإسلامي، بل وإضعاف أي فرصة لتقريب المجتمع نحو تطبيق الشريعة تدريجيًا.

6. عزل الإسلاميين عن المجتمع: فعدم الانخراط في هموم الناس وقضاياهم اليومية من خلال العمل السياسي، يُمكن أن يؤدي إلى عزل الإسلاميين عن قاعدتهم الشعبية وفقدان تأثيرهم على شرائح واسعة من المجتمع.

7. تضييع فرصة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر السياسي: لان السياسة هي من أكبر مجالات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى الدولة والمجتمع ، فعدم المشاركة يُعني إهمال هذا الواجب العظيم في دائرته الأوسع.

8. استمرار سن القوانين المخالفة للشريعة: فإذا لم يُشارك الإسلاميون في العملية التشريعية، فستستمر القوانين الوضعية المخالفة للشريعة في الصدور والتطبيق دون وجود صوت مؤثر يُعترض عليها أو يُقترح بدائل شرعية.

9. تهميش القضية الإسلامية: فغياب الإسلاميين عن الساحة السياسية يُمكن أن يؤدي إلى تهميش القضايا الإسلامية في الخطاب العام، والتركيز على قضايا أخرى قد لا تكون ذات أولوية أو قد تُخالف القيم الإسلامية.

10. الوقوع في الفتنة والفوضى (في بعض الحالات): فقد يؤدي الانسحاب المطلق من المشاركة إلى دفع بعض الشباب نحو خيارات أكثر تطرفًا وعنفًا، اعتقادًا منهم بأن التغيير السلمي مستحيل، مما يُدخل البلاد في فتن وصراعات داخلية.

11. فقدان القدرة على التأثير في السياسات الخارجية: فغياب الكتل الإسلامية الفاعلة في البرلمانات أو الحكومات يُضعف قدرة الدول على تبني مواقف تُعبر عن قضايا الأمة الإسلامية الكبرى (مثل القضية الفلسطينية، قضايا الأقليات المسلمة، وغيرها) في المحافل الدولية.

12. إسقاط واجب الشهود على الأمة: يُعتبر الإسلاميون أنفسهم شهودًا على الناس بتبليغ رسالة الإسلام وهدايته ، فعدم المشاركة السياسية قد يُضعف من قدرتهم على أداء هذا الدور الشامل في مختلف جوانب الحياة.

13. عدم تحقيق التوازن بين القوى: ففي أي نظام سياسي، توجد قوى متعددة ، وعدم مشاركة الإسلاميين يُخل بالتوازن المطلوب، ويُعطي الفرصة لقوى أخرى للسيطرة الكاملة على المشهد السياسي دون وجود مُنافس شرعي.

14. فقدان الخبرة السياسية والإدارية: لأن الابتعاد عن العمل السياسي يُحرم الإسلاميين من اكتساب الخبرات الضرورية في إدارة شؤون الدولة، وصياغة السياسات، والتعامل مع تعقيدات الحكم، مما يُعيق أي محاولة مستقبلية لتحقيق التغيير المنشود.

15. تحمل مسؤولية السلبية: حيث يُلام الإسلاميون، من وجهة نظر المشاركين منهم، على النتائج السلبية لغيابهم، حيث يُعتبرون جزءًا من المشكلة لعدم قيامهم بواجبهم في الإصلاح من الداخل، مما يُمكن أن يُؤدي إلى استمرار الفساد والظلم.

هذه المفاسد تُشكل جوهر حجج بعض الإسلاميين الذين يرون في المشاركة السياسية والديمقراطية ضرورة - ولها وجه في أحيان كثيرة - ، ليس حباً في الديمقراطية كنظام علماني (في الغالب)، بل كأداة ووسيلة يُمكن من خلالها تحقيق أهداف الشريعة ومقاصدها في واقع معاصر معقد، وكدفع لأعظم المفسدتين في ظل غياب البديل الإسلامي الكامل.

الموقف الأمثل في المرحلة الراهنة من حياة الأمة :

واستنتاجا من حوادث التاريخ يتبنى غالبية العلماء المعاصرين الذين يتبنون الفقه المقاصدي وفقه الواقع، مثل الشيخ يوسف القرضاوي والدكتور طه جابر العلواني وغيرهم ، جواز المشاركة السياسية في الأنظمة الديمقراطية، بل ويرونها واجبًا شرعيًا في ظل الظروف الراهنة ، يُعتبرون الديمقراطية أداة أو وسيلة محايدة يمكن استخدامها لتحقيق مقاصد الشريعة، كإقامة العدل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حماية حقوق المسلمين، والدفاع عن قضايا الأمة ، والموقف المثالي هنا هو التمييز بين الديمقراطية كآلية (للانتخاب، والتشريع، وتداول السلطة) حين يكون الاضطرار ملجىء إليها مع محاولة البعد عن المخالفات الشرعية قدر

المستطاع وبين الديمقراطية كفلسفة علمانية (تفصل الدين عن الحياة) ، فيدعون إلى المشاركة الهادفة لتحقيق الإصلاح من الداخل، وتقليل الشرور، وتعظيم المصالح، شريطة الالتزام بالضوابط الشرعية وعدم التنازل عن الثوابت، مع ضرورة العمل على تأصيل مفهوم الشورى في الفكر الإسلامي المعاصر بما يتوافق مع الأنظمة الحديثة.

المبحث التاسع : مفهوم " طاعة ولي الأمر" بين الثابت والمتغير في ظل الحكام الحاليين في العصر الحديث:

تُعد قضية طاعة ولي الأمر من المسائل المحورية في الفقه السياسي الإسلامي، وقد شهدت تحولات جوهرية في الفهم والتطبيق بين العصور الإسلامية الأولى والواقع المعاصر. ففي صدر الإسلام، كان ولي الأمر غالبًا واضحًا في مرجعيته الإسلامية وتوليته، وكانت الطاعة مقترنة بشروط معروفة ومحددة. أما اليوم، فالمسألة أكثر تعقيدًا وتدور حول مفهوم "ولي الأمر" وطاعته في ظل ظروف مختلفة ، تتضح هذه التعقيدات في تباين وجهات النظر بين التيارات الإسلامية:

- التيار المدخلي: يميل هذا الفصيل إلى الطاعة المطلقة لولي الأمر القائم، حتى لو كان فاسقًا أو ظالمًا أو كافرا ، ويحرمون الخروج عليه أو انتقاده علنًا، ويُطعنون في التيارات الإصلاحية التي تنتقد الحكام بأنها "خوارج" وينبع هذا الموقف من حرص شديد على استقرار الدولة وتجنب الفتنة، معتمدين على نصوص عامة في طاعة أولي الأمر وما درو أن الفتنة في السكوت على الظلم ونشر الكفر في المجتمع وتمكين الغرب من مفاصل البلاد الإسلامية أشد .

- الصحوات الإسلامية (التيارات الإصلاحية): ترى هذه التيارات أن طاعة ولي الأمر مقيدة بحدود الشرع، وأن هناك فرقًا جوهريًا بين الخروج المسلح الذي يُحدث الفوضى وسفك الدماء، وبين المطالبة بالإصلاح، والنصح العلني، ومقاومة الظلم بالوسائل السلمية المشروعة ، يعتمدون على نصوص تُؤكد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

الموقف الوسطي الأمثل لأهل السنة :

ومن باب الجمع بين الأمن والإصلاح ، يُجمع غالبية علماء أهل السنة والجماعة على تحريم الخروج المسلح على الحكام إذا أدى ذلك إلى فتنة وسفك دماء أعظم من المفسدة القائمة ، هذا الإجماع يُعد ركيزة للحفاظ على استقرار المجتمعات ولكن الموقف المثالي لعلماء العصر، يتجاوز هذا التحريم ليشمل التفريق الدقيق بين الخروج المسلح المذموم، وبين النصح، والمطالبة بالإصلاح، وإنكار المنكر بالوسائل السلمية المشروعة. يُشدد هؤلاء العلماء على أن طاعة ولي الأمر تكون في المعروف فقط، وأن القاعدة الشرعية "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" هي مبدأ أساسي لا يجوز التنازل عنه ، لذلك فالموقف المثالي هنا يركز على الجمع بين الحفاظ على الأمن والاستقرار المجتمعي (بتحريم الخروج المسلح) وبين ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على إقامة العدل بكافة الوسائل السلمية المتاحة ، وهذا يتطلب فقهًا عميقًا يوازن بين المصالح والمفاسد، ويُقدم رؤية شرعية تتناسب مع تعقيدات الدولة الحديثة، وتُمكن المسلمين من أداء واجبهم الديني في الحفاظ على مجتمعاتهم وإصلاحها.

تكييف العلماء المعاصرين لمفهوم "ولي الأمر" في سياق العصر:

يُقدم علماء العصر تكييفًا فقهيًا عميقًا لمفهوم "ولي الأمر" ليتناسب مع تحديات الدولة الحديثة، معتمدين على فهم المقاصد الشرعية وتغير الأحوال:

- طريقة تولي الحكم: فبينما كانت التولية في العصور الإسلامية تتم غالبًا بالبيعة لأهل الحل والعقد، أو الوراثة، فإن علماء العصر يقرون بأن الأنظمة الحديثة التي تعتمد على الانتخابات والدساتير تُعتبر وسيلة مشروعة لتحديد ولي الأمر، شريطة أن تُفضي إلى تحقيق مقاصد الشريعة ، لذلك يرون أن هذه الآليات يمكن أن تكون أقرب إلى تحقيق العدل والشورى في ظل غياب الخلافة الجامعة.
- مدة الحكم وتقييده: ففي الأنظمة الحديثة، غالبًا ما تكون مدة الحكم محددة (مثل ولايات رئاسية أو برلمانية)، والسلطات مقيدة بدستور وقوانين ، فيرى العلماء أن هذه القيود ليست مخالفة للشريعة، بل قد تُساهم في تقليل الاستبداد، وتتيح فرصة للمحاسبة والتغيير السلمي، وهو ما يتفق مع روح الشورى ومبدأ العدل في الإسلام.
- صلاحيات ولي الأمر: ففي الدولة الحديثة، غالبًا ما تكون السلطات موزعة (تشريعية، تنفيذية، قضائية)، ولا تتركز كلها في يد شخص واحد. يرى العلماء أن هذا التوزيع لا يتعارض مع الشرع، بل يُمكن أن يُعزز من مبدأ الرقابة والمحاسبة، ويُقلل من إمكانية الانحراف أو الاستئثار بالسلطة. كما أن دور الأمة في اختيار ومحاسبة الحاكم يُصبح أكثر وضوحًا وفاعلية.
- النصح والإصلاح: فلم يعد النصح مقصورًا على اللقاء السري مع الحاكم ، وفي السياق المعاصر قد يتخذ النصح والإصلاح أشكالًا متعددة كالكتابات، والمحاضرات، والمشاركة في الحوار العام، وحتى

العمل من خلال المؤسسات التشريعية والمدنية، طالما أنه يتم بالوسائل السلمية التي لا تُفضي إلى الفتنة.

المبحث العاشر : وسائل الدعوة الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي بين أصالة المقصد ومرونة الأداة:

كانت وسائل الدعوة في عصر الأئمة الأوائل ، تقتصر على حلقات العلم في المساجد، والخطب المنبرية، والنشر عبر الكتابة اليدوية ، أما اليوم، فقد تغير المشهد تمامًا. يتركز الخلاف الفقهي المعاصر حول مدى جواز استخدام وسائل الدعوة الحديثة والمتطورة، مثل الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي، والقنوات الفضائية، والفن الهادف.

تباين الآراء حول هذه المسألة:

- الفصيل المتشدد (كالمدخلي الغالي في التبديع والتجريح) المتناقض : حيث يميل هذا التوجه إلى جواز استخدام تلك الوسائل الحديثة ، وفي ذات الوقت تحريم الكثير من هذه الوسائل التي تستخدمها الفصائل الدعوية الأخرى أو اعتبارها "بدعة في الدعوة" ، حجتهم الأساسية هي أنها لم تكن موجودة في عصر السلف الصالح، أو أنها تختلط بالباطل وتُؤدي إلى مفاسد ، هذا الموقف يوضح التناقض في نفس الموقف ما يعكس تمسكًا حرفيًا بالشكل دون مراعاة لتغير الوسائل وتطورها.
- الصحوات الإسلامية (التيارات الإصلاحية): ترى أن هذه الوسائل هي مجرد أدوات محايدة يمكن توظيفها لخدمة الدعوة إلى الله ، ويُؤكدون أن ترك هذه الساحة يعني تركها لغير المسلمين لتوجيه الرأي العام ونشر أفكارهم، وأن العبرة ليست بالوسيلة نفسها، بل بالمقصد الشرعي من استخدامها ،

هذا يشابه اجتهاد الصحابة في جمع القرآن ونسخه في مصحف واحد، وهو عمل لم يكن موجودًا بذاته في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان ضروريًا للحفاظ على الدين وتبليغه.

اختلاف الفتوى باختلاف الواقع وأهمية دور الوسيلة في الدعوة :

الواقع في العصور الأولى، حيث كانت الوسائل المتاحة بسيطة ومحدودة، ولذلك كانت أحكام الفقهاء تُبنى على ما هو متاح ومعروف لديهم.

واقع المسلمين في العصر الحالي وفي عصر انفجار المعلومات وسرعة التواصل حيث لم يعد من الممكن الوصول للناس بنفس الطرق القديمة وحدها ، فانتشار الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي جعلها قنوات رئيسية لتشكيل الوعي والرأي العام، وهي تُمثل أسرع وأوسع سُبل الوصول إلى الجماهير، خاصة الشباب.

لذا، فإن الفتوى بجواز استخدام هذه الوسائل لم تأتِ من باب التنازل عن الثوابت، بل من باب تكييف الفقه ليُناسب الواقع المتغير، مستحضرًا قاعدة "الحاجة تُنزّل منزلة الضرورة" وقاعدة "الوسائل لها حكم المقاصد".

يُشجع معظم علماء العصر ، وغيرهم من دعاة العصر الرقمي، على الاستفادة القصوى من جميع وسائل التواصل الحديثة لنشر الدعوة الإسلامية وبيان الحقائق ، فهم يرون أن هذه الوسائل أصبحت ضرورة ملحة للوصول إلى الجمهور الواسع، وتقدم فرصة غير مسبوقة للدعوة الفردية والجماعية.

الاستفادة من هذا المثال في حياتنا العملية والتوافق مع مستجدات العصر:

ولنفهم كيف نحكم على الوسائل التي يستخدمها الدعاة إلى الله تعالى مثل وسيلة الخروج في سبيل الله مع أهل التبليغ ، لابد أن نأخذ في اعتبارنا وجهة نظر هذا الفصيل في تجويزه لوسائل أخرى من نفس الباب :

1. اعتبار الوسيلة محايدة: فالحكم على أي أداة أو تقنية حديثة لا يكون لذاتها، بل لكيفية استخدامها ومقاصدها ، الهاتف المحمول يمكن أن يُستخدم للخير والشر، وكذلك وسائل التواصل الاجتماعي.
2. ضرورة الإبداع والاحترافية: فيجب على الدعاة والمسلمين بشكل عام إبداع محتوى دعوي جذاب ومعاصر يُخاطب العقول والقلوب بلغة العصر. هذا يتطلب فهمًا للتكنولوجيا، وإتقانًا لفنون التواصل، وتقديمًا للرسالة الإسلامية بشكل يواجه الشبهات ويدعو إلى النموذج الإسلامي الحضاري.
3. الالتزام بالضوابط الشرعية والأخلاقية: ففي أوج استخدام التكنولوجيا، يجب الحفاظ على الصدق والأمانة والبعد عن المبالغة أو التجريح أو الكذب أو نشر أي شيء يُخالف القيم الإسلامية.
4. المواجهة الفعالة: لأن ترك الساحة الرقمية لتيارات أخرى يعني خسارة فرصة كبرى للتأثير ، فالمشاركة الفاعلة في هذه المنصات تُمكن من تصحيح المفاهيم، والدفاع عن الإسلام، وتقديم الحلول الشرعية للتحديات المعاصرة.

ولذلك يُمكننا الاستفادة من هذا المثال بتطبيق مبدأ أن الأصول ثابتة، أما الوسائل فمرنة ، والتوافق مع مستجدات العصر لا يعني التنازل عن الدين، بل هو اجتهاد لإيصال رسالته الخالدة بأكثر الطرق فعالية وتأثيرًا، مستلهمين بذلك منهج الأئمة السابقين الذين واكبوا زمانهم بذكاء وحكمة وعليه فلا نكير على أهل التبليغ في استخدامهم وسيلة الخروج في سبيل الله بترتيب معين يتناسب معهم ومع المدعويين .

المبحث الحادي عشر : قضايا التعامل مع المخالفين والوحدة الإسلامية :

كانت الخلافات الفقهية والعقدية قائمة في العصور الأولى ،ولكن كان هناك إطار عام للوحدة ، أما اليوم فالخلاف يتعلق بكيفية التعامل مع المخالفين من المسلمين، سواء كانوا من الفرق العقدية أو المذاهب الفقهية المختلفة، أو الجماعات الإسلامية المعاصرة ، وهنا يميل الفصيل المدخلي إلى التشديد المبالغ فيه في التبديع والتكفير لكل مخالف، حتى لو كان الاختلاف في مسائل فرعية، ويرفضون أي تقارب أو تعاون معهم ، بينما ترى الصحوات الإسلامية أن الوحدة الإسلامية ضرورة شرعية في عصرنا، وأن الخلاف في الفروع لا يبرر التبديع والتكفير، ما لم يكن المخالفة صريحة في أصول العقيدة أو القطعيات. يدعون إلى التعاون على المشتركات، والتحاور في المختلف فيه بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الحفاظ على الأصول.

وهنا يُشدد علماء العصر المعتدلون، وعلى رأسهم مجامع الفقه الإسلامي ومؤسسات الأزهر الشريف، على أهمية الوحدة الإسلامية والاعتصام بحبل الله، والتحذير من التفرق والتنازع. يدعون إلى التفريق بين الخلاف السائغ والخلاف المذموم، وأن التكفير والتبديع أمر خطير لا يجوز التسرع فيهما، وأن الأصل في المسلم السلامة ، فالموقف المثالي هو فتح باب الحوار البناء بين المذاهب الفقهية والجماعات الإسلامية الدعوية الإصلاحية العاملة في حقل التعليم والدعوة والنصح والإرشاد والإصلاح لتقريب وجهات النظر حول المسائل المختلف فيها، والتركيز على التعاون في القضايا الكبرى التي تُهدد الأمة (مثل الاحتلال، الفقر، الجهل، التحديات الحضارية ، التغريب وغيرها)، مع الاعتراف بالتنوع وقبول الاختلاف في الفروع ، وهنا نؤكد على أن الخلاف في الاجتهاد ليس ذنبًا ما دام مبنيًا على أدلة شرعية صحيحة، وأن الاختلاف في المنهج لا يُبرر التفرقة والتناحر.

المبحث الثاني عشر : قضايا المرأة ودورها في المجتمع :

كان دور المرأة في العصور الأولى محددًا بوضوح ضمن الأطر الاجتماعية والثقافية لتلك الفترة ، أما الآن ، فالخلاف يتعلق بتكييف دور المرأة في المجتمع المعاصر، خاصة مع ظهور مفاهيم مثل "حقوق المرأة"، و"المساواة"، ودخول المرأة سوق العمل والتعليم المختلط. يميل الفصيل المدخلي إلى التشدد في حصر دور المرأة في المنزل، ومنعها من العمل أو التعليم المختلط، ويطعنون في الجماعات التي تسمح للمرأة بدور أوسع بأنها "تقليد للغرب" ، في المقابل، تسعى الصحوات الإسلامية إلى الموازنة بين أصالة أحكام الشريعة وواقع العصر، مؤكدة على ضرورة التزام المرأة بالحجاب والضوابط الشرعية، لكنها تُجيز عمل المرأة وتعليمها ودورها الفعال في المجتمع ضمن ضوابط، خاصة إذا كانت هناك حاجة ماسة لعملها أو لخدمة المجتمع، استنادًا لمقاصد الشريعة في تيسير حياة الناس.

ومن هنا يُقر علماء العصر بأن الإسلام كرَّم المرأة وأعطاها حقوقًا عظيمة، وأن دورها لا يقتصر على المنزل، بل يمكن أن تمتد مشاركتها لتشمل مجالات العمل والتعليم والدعوة والخدمة المجتمعية، شريطة الالتزام بالضوابط الشرعية (كالحجاب الشرعي، والبعد عن الاختلاط المذموم، وتقديم الواجبات الأسرية) ، ويُشدد بعض العلماء على أن عمل المرأة قد يكون ضرورة أو حاجة في بعض الأحيان، خاصة في المجالات التي تُفيد المجتمع وتُناسب طبيعتها، مثل الطب والتعليم ، فالموقف المثالي هو الموازنة بين أصالة الشريعة وحداثة العصر، وتفعيل دور المرأة في بناء المجتمع بفاعلية وإيجابية، مع التأكيد على مسؤولياتها الأساسية كأم وزوجة، ورعاية حقوقها كاملة، ورفض التمييز ضدها، دون الانجراف وراء دعوات المساواة المطلقة التي تتعارض مع الفطرة وأحكام الشرع.

المبحث الثالث عشر : قضايا الحريات الفردية والعامة (خاصة حرية الرأي والتعبير) :

وكان مفهوم الحريات الفردية يُفهم ضمن إطار الشريعة في العصور الإسلامية الأولى،ولم يكن هناك تيار يدعو إلى الحريات المطلقة بلا قيد أو شرط ، أما الآن، فالخلاف يتعلق بمدى تقبل الشريعة لمفهوم الحريات الفردية والعامة كما تُعرف في الفكر الغربي الحديث، مثل حرية الرأي والتعبير ونقد الحكام، والحريات الشخصية، وحرية المعتقد التي قد تتجاوز مفهوم حرية التدين ، يميل الفصيل المتشدد إلى التضييق الشديد على هذه الحريات، ويعتبر أي خروج عن المألوف أو نقدًا "خروجًا عن منهج السلف" وفتحًا لباب الفتن، ويطعنون في من يدعو إلى الحريات بأنه "علماني" ، في المقابل، تسعى الصحوات الإسلامية إلى التوفيق بين الحريات الشرعية ومقاصد الشريعة في حفظ الضروريات الخمس ، يرون أن الإسلام يدعو إلى حرية التفكير والاجتهاد، وأن النقد البناء والنصيحة واجبة، وأن كبت الحريات يؤدي إلى الظلم والفساد.

ومن هنا يُؤكد علماء العصر، وبخاصة المتخصصين في الفقه الدستوري ومقاصد الشريعة، على أن الإسلام جاء بمفهوم واسع للحرية والعدالة والكرامة الإنسانية، وأن حرية الرأي والتعبير حق مكفول شرعًا، طالما أنها لا تُؤدي إلى نشر الفساد أو الفاحشة أو الكفر الصريح، أو التحريض على العنف. علماء مثل الشيخ راشد الغنوشي والدكتور أحمد الريسوني يدعون إلى إطار إسلامي للحريات يُراعي الضوابط الشرعية ويُحقق المقاصد العليا، ويُفرقون بين النقد البناء والنصيحة وبين الخروج الفوضوي ، فالموقف المثالي في تلك القضية هو الجمع بين أصالة المبادئ الشرعية للحريات وبين آليات التطبيق الحديثة، مع التأكيد على أن الحرية لا تعني الفوضى أو الإباحية، بل هي حرية مسؤولة تُراعي حقوق الآخرين والمصلحة العامة، وأن النقد الهادف والإصلاح السلمي جزء لا يتجزأ من مقاصد الشريعة الإسلامية وتجويزها لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الرابع عشر : قضية التطبيع مع الكيان الصهيوني المحتل لأولى القبلتين :

إن قضية الكيان المحتل حديثة تمامًا، حيث لم يكن لها مثيل في عصر الأئمة الأوائل ، فلم يؤثر أن كانت بلادا إسلامية محتلة من كفار أصليين يتم تهجيرهم وقتلهم بطريقة ممنهجة وباستمرارية وفعالية وتواطؤ دولي وسكوت عالمي بل وإسلامي ! ، فالخلاف في عصرنا في مسألة واضحة كهذه – غريب - يتعلق بمدى جواز أو حرمة التطبيع الكامل أو الجزئي مع الكيان الصهيوني ، يميل الفصيل المتشدد إلى طاعة ولي الأمر في قراراته السياسية الخارجية المتعلقة بالتطبيع، ويبررون ذلك بأن "ولي الأمر أعلم بالمصلحة"، ويطعنون في من يعارض التطبيع بأنه "يثير الفتن" ، وفي المقابل، تعتبر الصحوات الإسلامية الدعوية والعلمية التطبيع مع الكيان الصهيوني خيانة للقضية الفلسطينية، وتنازلاً عن حقوق المسلمين، ومخالفة للمقاصد العليا للشريعة في حماية الأرض والمقدسات والأمة. يستدلون بوجوب نصرة المظلوم، وخطورة التسليم للعدو، ويرون أنها قضية عقدية وشرعية تتعلق بالولاء والبراء، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومن هنا يُجمع علماء الأمة الإسلامية المعاصرين، من مختلف المذاهب والاتجاهات (مثل الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والمؤسسات الأزهرية، وعلماء المقاومة في فلسطين وغيرهم)، على تحريم التطبيع الكامل مع الكيان الصهيوني، واعتباره خيانة للأمانة الإسلامية والقضية الفلسطيني ، حيث يُشددون على أن القضية الفلسطينية ليست مجرد نزاع سياسي، بل هي قضية عقدية تتعلق بالأرض المقدسة والمسرى الشريف، وأن نصرة المظلوم واجب شرعي. فالموقف الصحيح وما دونه خطأ محض هو التأكيد على ثوابت الأمة تجاه القدس وفلسطين، ورفض التنازل عن الحقوق الشرعية والتاريخية، والدعوة إلى مقاومة الاحتلال المغتصب بكافة الوسائل المشروعة (المقاومة السلمية، السياسية، الاقتصادية، الثقافية)، مع التمييز بين العلاقة مع

شعوب المنطقة وعلاقة الأنظمة بالكيان المحتل. يُؤكدون على أن طاعة ولي الأمر لا تكون في معصية الله، وأن التطبيع يُعد من كبائر الذنوب إذا ترتب عليه إضاعة حقوق المسلمين والمقدسات.

المبحث الخامس عشر: قضايا التعامل مع الأقليات الدينية في المجتمعات الإسلامية :

كان التعامل مع أهل الذمة واضحًا في العصور الإسلامية الأولى في ظل أحكام الشريعة ، أما الآن، فيتعلق الخلاف بكيفية التعامل مع الأقليات الدينية غير المسلمة في الدول ذات الأغلبية المسلمة، خاصة في سياق المواطنة الحديثة ومفهوم "الدولة الوطنية" التي يفترض أنها تساوي بين جميع مواطنيها ، يميل الفصيل المتشدد – الجماعات الجهادية بأنواعها - في تلك المسألة إلى تطبيق الأحكام التاريخية لأهل الذمة بحرفيتها، مما قد يؤدي إلى تضييق على حقوق الأقليات، ويطعنون في من يدعو إلى المساواة في المواطنة بأنها "تقليد للغرب" ، في المقابل، تسعى الصحوات الإسلامية المعتدلة إلى تجديد فهم العلاقة مع غير المسلمين في ضوء المقاصد الشرعية والمواثيق النبوية (كصحيفة المدينة) ، يؤكدون على حقوق المواطنة المتساوية لغير المسلمين في الدولة الحديثة، مع الحفاظ على خصوصية الأحكام الشرعية للمسلمين، ويركزون على العدل والإحسان إليهم، كما أمر الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [1] .

ولذلك يُجمع علماء العصر المعتدلون، وعلى رأسهم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر وغيره من المؤسسات الإسلامية العاليمة ، على وجوب حسن معاملة غير المسلمين (المواطنين والمقيمين) في الدول الإسلامية،

---

[1] [الممتحنة: 8]

وضمان حقوقهم الكاملة كمواطنين، بما في ذلك حقوقهم المدنية والسياسية، والتساوي أمام القانون، وحرية العبادة، وحماية الممتلكات، ويؤُكدون على أن عقد المواطنة الحديثة يقتضي المساواة في الحقوق والواجبات، وهو ما لا يتعارض مع الشريعة إذا تم وفق ضوابطها ومقاصدها في العدل والإنصاف. الموقف المثالي هو التأكيد على أن مفهوم "أهل الذمة" في الفقه الإسلامي ليس مفهومًا للتمييز السلبي، بل هو عقد أمان وحماية يُكفل لهم بموجبه العيش الكريم في الدولة الإسلامية ، ويُشددون على ضرورة تقديم صورة الإسلام الحقيقية التي تدعو إلى التعايش السلمي، والبر والإحسان مع غير المسلمين، وتجنب أي خطاب يُثير الكراهية أو العنف.

المبحث السادس عشر : قضايا المتعلقة بالعلاقة مع الغرب من حيث الاستفادة من علومه وتقنياته :

كانت الحضارة الإسلامية هي الرائدة في عصر الأئمة الأوائل ، ولا شك أنه كانت هناك استفادات انتقائية من علوم الحضارات السابقة ، أما الآن، فالخلاف المتعلق بمدى جواز الاستفادة من الحضارة الغربية الحديثة، وعلومها وتقنياتها ونظمها يدور بين مجرد الاستفادة والانخراط التام في ثقافتهم وحياتهم ، وفيه تفصيلات ، فيميل فصيل إلى التحفظ الشديد من كل ما هو غربي، ويعتبرونه "غزوًا فكريًا" أو "تشبهًا بالكفار"، ويطعنون في الجماعات التي تدعو إلى الانفتاح على الحضارة الغربية بأنها "ذائبة" فيها ، وفي المقابل، ترى التوجهات الإسلامية الأخرى أن الحكمة ضالة المؤمن، وأن المسلمين أحق بالاستفادة من كل علم نافع وتقنية مفيدة، حتى لو كانت مصدرها غير إسلامي، ما لم تتعارض مع أصول الشريعة ، يؤكدون

على ضرورة التمييز بين ما هو علمي تقني محايد وما هو فكري قيمي، وهذا المنهج يتماشى مع قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ 1 ، فالقوة اليوم تشمل العلوم والتقنيات الحديثة.

ومن هنا يُجمع علماء العصر على جواز بل ووجوب الاستفادة من كل ما هو نافع من علوم الغرب وتقنياته ونظمه الإدارية والعلمية الحديثة، طالما أنها لا تُصادم أصول الشريعة أو قيمها ، ويُشدد العلماء على أن هذا من باب "أخذ الحكمة" التي هي ضالة المؤمن، وأنه لا تعارض بين الإسلام والتقدم العلمي ، والموقف المثالي في تلك القضية هو تمييز ما هو علمي وتطبيقي (كالهندسة، الطب، التكنولوجيا، الإدارة الحديثة) عما هو قيمي أو عقدي أو ثقافي يُنافي الإسلام (كالإباحية، أو الشذوذ، أو الإلحاد) ، فيدعون إلى التوطين المعرفي، أي أخذ العلوم وتكييفها ودمجها ضمن رؤية إسلامية، بدلاً من التقليد الأعمى، والعمل على بناء حضارة إسلامية معاصرة تُسهم في تقدم البشرية.

المبحث السابع عشر : قضية التكفير والتبديع في قضايا الفرق والجماعات :

إن أصل هذه القضية قديم في تاريخ الإسلام، ولكنها تفاقمت بشكل غير مسبوق في العصر الحديث ، فالخلاف يتعلق بمدى التوسع في إطلاق أحكام التكفير والتبديع على أفراد أو جماعات مسلمة، وخاصة تلك التي تختلف في المناهج الدعوية، أو تتبنى آراء اجتهادية مخالفة ، يشتهر الفصيل المتشدد بالتوسع المفرط في التبديع والتكفير، وإطلاق هذه الأوصاف على كل من يختلف معهم، ويرفضون أي حوار أو تقارب وهم فصائل متعددة ، وفي المقابل، ترى الصحوات الإسلامية المعتدلة أن التكفير والتبديع من أخطر الأمور في الدين،

---

1 [الأنفال: 60]

وأنه لا يجوز التسرع فيهما إلا بوجود دليل قطعي قاطع، وأن الأصل في المسلم هو الإسلام ، فيدعون إلى لم شمل الأمة، والتعاون على المشتركات، والتحاور في المختلف فيه بالحكمة والموعظة الحسنة، مع التفريق بين المخالفة في الفروع والأصول، وهذا يتوافق مع منهج الأئمة المعتدلين في التعامل مع الخلافات.

فهذه القضية من أخطر القضايا في عصرنا، ويُجمع معظم علماء الأمة المعتدلين على التضييق الشديد على باب التكفير والتبديع والتفسيق ، يُشددون على أن التكفير حق لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يُصدر إلا عن عالم راسخ بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، وبدليل قطعي صريح لا يحتمل التأويل ، ولذلك فالموقف المثالي هو التركيز على جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم حول المشتركات والثوابت، والتأكيد على أن الاختلاف في الفروع والاجتهادات والمناهج لا يُبرر التبديع أو التكفير. يدعون إلى الحوار الهادئ والعلمي لمعالجة الخلافات، والبعد عن التجريح الشخصي والتشهير، وتحويل الاختلاف إلى مصدر غنى وتنوع لا مصدر تفرقة وتناحر، تماشياً مع الموجب الشرعي بلم الشمل والحفاظ على لحمة الأمة.

كل هذه القضايا المتعددة تُظهر حجم التحديات التي يواجهها الفقيه والداعاية في عصرنا، وتؤكد أن النظرة الشمولية التي تراعي فقه الواقع، وفقه المآلات، وفقه المقاصد، هي السبيل للخروج من هذه الأزمات الفكرية والعملية، ولإيجاد فتاوى ومنهج دعوي يحقق مصالح الأمة ويُجنبها الفتن والتشرذم. هل تود أن نناقش جوانب أخرى أو قضايا إضافية؟

كما تُظهر بوضوح أن الفقه الإسلامي ليس جامدًا، بل هو دين حي يتفاعل مع الواقع المتغير، وأن فهم النصوص وتطبيقها يتطلب بصيرة عميقة بالزمان والمكان والعرف، وليس مجرد التمسك الحرفي بظواهر

النصوص دون إدراك لمقاصدها وسياقاتها. هذا يؤكد أهمية الاجتهاد وتجديد الفكر للتعامل مع تحديات كل عصر.

المبحث الثامن عشر : المذاهب الفقهية نفسها دليل على مرونة الفتوى وتكيفها مع تغير الأحوال :

إن فهم طبيعة الفقه الإسلامي يتطلب إدراكًا عميقًا لديناميكيته وقدرته على التكيف مع مختلف الأزمنة والأمكنة ، حيث تُعد المذاهب الفقهية، بتنوعها واختلاف فتاواها بل ووجودها أصلا ، الدليل الأبرز على هذه المرونة في التعاطي العصر وتغيراته ، وتكشف عن منهجية الشريعة في التعاطي مع المستجدات وتغير أحوال الناس. فالفتوى ليست حكمًا جامدًا يُسقط على كل زمان ومكان بنفس الصورة، بل هي اجتهاد يراعي الواقع والظروف.

المذاهب الفقهية: تنوع يعكس مرونة الشريعة

لم تكن نشأة المذاهب الفقهية بلا داعي ، بل كانت حصادًا لجهود علمية ضخمة تهدف إلى استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأصيلة وذلك بهدف إسقاط هذه الأحكام على واقع الناس بما يتناسب مع أحوالهم ، هذا التنوع لم يكن محض اختلاف في الآراء لمجرد الاختلاف ، وإنما كان انعكاسًا لعوامل متعددة أثرت في عملية الاجتهاد منها :

- تغير الزمان والمكان: فلا يمكن بحال أن تكون الفتوى الصالحة لمجتمع رعوي صحراوي هي ذاتها الصالحة لمجتمع حضري أو قروي ، فالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تتبدل، ومعها تتبدل صور المعاملات، وتظهر قضايا جديدة لم تكن موجودة. فقد تكون - على سبيل المثال - فتوى جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والإمامة، أو جواز بيع الوفاء (بتحفظ شديد)، أو إجازة إخراج

القيمة في زكاة الفطر عند الحنفية، كلها نشأت استجابة لحاجات الناس الملحة في أزمنة معينة، والتي لم تكن موجودة في صدر الإسلام.

- الأعراف والعادات: فللأعراف المحلية دور كبير في فهم النصوص وتطبيقها على المجتمعات المحلية ، فما يُعد عرفًا مقبولًا في مجتمع قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، مما يستدعي اختلافًا في الفتاوى المتعلقة بتلك الأعراف، كما رأينا في مسائل الأوقاف التي تعتمد كثيرًا على شروط الواقفين وأعراف بلادهم.
- الحاجة والضرورة: فالشريعة مبنية على التيسير ورفع الحرج ، فعندما تدعو الحاجة أو الضرورة لشيء ما ، يمكن للفقيه أن يجتهد في إيجاد مخرج شرعي، بما لا يخالف الأصول القطعية الثابتة ، وهذا المبدأ هو ما دفع بعض الفقهاء إلى الترخص في مسائل لم تكن معهودة سابقًا، لضمان استمرار مصالح الناس وعباداتهم.
- تباين قدرات المفتين في تنوع الفهم والاستنباط: كان الأئمة المجتهدون يتميزون بعقول نيرة ومناهج علمية دقيقة، ولكن تباينهم في فهم النصوص، وقواعدهم في الاستنباط، وأصولهم في الترجيح بين الأدلة، أمر طبيعي ، هذا التباين هو إثراء للفقه الإسلامي، وليس ضعفًا فيه.
- اختلاف أحوال المفتين من حيث الاطلاع على الأدلة: قد يصل لفقيه نص أو حديث لم يصل لغيره، أو يرى صحة دليل بينما يراه آخر ضعيفًا، مما ينجم عنه تباين في الحكم الفقهي.
- تعدد المناهج مثل فقه المقاصد والموازنات: لم تكن المذاهب مجرد قوالب جامدة، بل كانت نتاج فقهاء يفهمون مقاصد الشريعة الكلية (حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، المال) ويوازنون بين

المصالح والمفاسد. فمثلاً، الحنفية عندما أجازوا إخراج القيمة في زكاة الفطر، نظروا إلى مصلحة الفقير وقدرته على الانتفاع بالمال أكثر من الطعام، وإن كان ذلك بخلاف ظاهر بعض النصوص.

وجود المذاهب في حد ذاتها دليل على التكيف مع الواقع لا الجمود:

إن وجود المذاهب الفقهية وتنوعها هو دليل قاطع على أن الشريعة الإسلامية ليست جامدة على عصر بعينه أو بلدة معينة أو علماء بذواتهم وأفكارهم ، بل هي دين يتسع لتنوع البشرية كلها وتغير ظروف الناس. فلو كانت الفتوى واحدة لا تتغير أبدًا، لما كانت هناك حاجة لهذه التعددية في الاجتهاد. بل إن هذا التنوع يُعد رحمة بالأمة وتيسيرًا عليها، حيث يجد المسلم في كل زمان ومكان ما يناسب حاله من فتاوى العلماء.

وبناءً عليه، فإن التشدد في حصر الفتوى على رأي واحد، أو المطالبة بالتطبيق الحرفي لتطبيقات عصر السلف دون مراعاة لواقع العصر، يُعد فهمًا قاصرًا لطبيعة الفقه الإسلامي ومقاصده. إنه يُجانب روح الأئمة الأربعة أنفسهم الذين كانوا مجتهدين ومرنين في تعاملهم مع واقعهم ، ثم إن كل عاقل يدرك تمام الإدراك أن الإقرار بوجود هذه المذاهب واختلافاتها هو إقرار بضرورة فقه الواقع والمآلات، وضرورة الاجتهاد المستمر الذي يراعي تغير الأحوال وتبدل الظروف، مع الحفاظ على الأصول والثوابت الشرعية.

المبحث التاسع عشر : اختلاف أقوال العالم في المسألة الواحدة ومقارنته بالعصر الحاضر(الإمام الشافعي رضي الله عنه أنموذجا):

من أظهر وأوضح الأمثلة على غلط وخبط السلفيين المعاصرين في منهجهم وتناولهم كلام أئمة الإسلام ، هو الاستشهاد بتغير مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه عند انتقاله من العراق إلى مصر (مذهبه القديم الذي أفتى به في العراق ومذهبه الجديد بعدما انتقل إلى مصر) لهو دليل قوي على أهمية مراعاة تغير

معطيات الفتاوى والمسائل من حيث الزمان والمكان والأشخاص والبيئة المحيطة وأحوال الناس وأحوال الحكام والبيئة العالمية المؤثرة تأثيرا مباشرا على الأمة وغير ذلك ! . فهذا التغيير لم يكن مجرد تفضيل شخصي من الإمام ، بل كان نابعًا من فهمه العميق لاختلاف الأعراف والظروف الاجتماعية والثقافية والمادية والفكرية بين البلدين.

فلو تخيلنا – جدلا - أن الإمام الشافعي رحمه الله عاش في العراق في عهده ، ثم انتقل بعد 1200 سنة إلى مكان مثل الهند، كما هو حال الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (مؤسس حركة التبليغ)، لكان الفرق الهائل في تناول الإمام الشافعي لنفس المسائل والتعامل معها والإفتاء فيها أكثر وضوحًا واختلافا . ففي بيئة كهذه مع كل هذا التباين والاختلاف في المعطيات ، تختلف نتائج الأمور بشكل جذري ، ولفهم تأثير هذه اختلاف المعطيات على الفتوى ومنهج التعامل مع الواقع، ليتضح المقصود تمامًا نقول :

1. الاختلاف الثقافي والاجتماعي :

ففي عصر الإمام الشافعي رحمه الله ، كانت الثقافة العربية الإسلامية هي السائدة والمهيمنة في معظم الأمصار التي وصلها الإسلام ، ومع أنه كان هناك تنوعًا عرقيًا (فرس ورومان وأقباط وأمازيغ)، لكن هؤلاء دخلوا تحت مظلة الثقافة الإسلامية، وأصبحت المنظومة القيمية والاجتماعية مستمدة بشكل كبير من الإسلام ، الأعراف كانت غالبًا منضبطة بالشرع، وكان هناك إحساس عام بالتجانس الثقافي داخل المجتمع الإسلامي.

أما اليوم، فنواجه تنوعًا ثقافيًا ودينيًا هائلاً، ليس فقط بين الدول، بل داخل الدولة الواحدة ، ففي دول مثل الهند، يعيش المسلمون إلى جانب الهندوس والسيخ والمسيحيين وغيرهم، ولكل منهم عاداته وتقاليده

وأنماط حياته المختلفة تمامًا ، وفي كثير من المجتمعات الإسلامية نفسها، نجد تأثيرًا ثقافيًا غربيًا قويًا بسبب العولمة ووسائل الإعلام كما في الإمارات العربية المتحدة ومصر ولبنان وغيرها من الدولة الأكثر انفتاحا على الثقافة الغربية ، مما أدى إلى ظهور ثقافات فرعية وقيم تتعارض أحيانًا مع المبادئ الإسلامية.

كل هذا التنوع يفرض على الفقيه والداعية فهمًا عميقًا للمجتمعات التي يخاطبونها ، فلو كان الإمام الشافعي رحمه الله في بيئة كهذه لا يمكن يمكن القول بأنه سيسقط أحكام مستنبطة من عرف بيئة عربية إسلامية خالصة على بيئة تختلط فيها الثقافات والأديان ، وهذا ما نريد فهمه وإدراكه حيث يتطلب هذا الأمر مرونة في الدعوة، والتركيز على المشتركات الإنسانية، وتقديم الإسلام بمنهج يعالج قضايا المجتمعات المتنوعة دون التنازل عن الثوابت ، ولذلك فإن أولويات الخطاب الدعوي والمواضيع التي يتم التركيز عليها في مجتمع متعدد الثقافات تختلف تمام مقارنة بمجتمع أحادي الثقافة.

2. الواقع الديني والتعامل مع الأقليات :

فلقد كانت غالبية المجتمعات في عصر الإمام الشافعي رحمه الله مجتمعات إسلامية خالصة أو ذات أغلبية مسلمة ساحقة ، ووجود غير المسلمين كان غالبًا في إطار "أهل الذمة" الذين يعيشون تحت حكم إسلامي وفق شروط محددة ، فكانت العلاقة واضحة المعالم فقهيًا واجتماعيا.

أما اليوم، فالعديد من المسلمين يعيشون كأقليات كبيرة في دول غير مسلمة (كأوروبا وأمريكا) وفي بلاد المسلمين تجد المسلمين أنفسهم يعيشون غرباء أكثر من غربتهم في بلاد الكفار وينال الكفار في بلاد المسلمين حظوظا أوفر وحقوقا أكثر مما يناله المسلمون ! ، حيث يُطبق عليهم القانون الوضعي، ويواجهون تحديات تتعلق بالحفاظ على هويتهم الدينية والثقافية، والزواج، والمعاملات المالية، والتربية إلى غير ذلك

من التحديات ، وحتى في بعض الدول ذات الأغلبية المسلمة، هناك واقع ديني معقد يتمثل في انتشار الإلحاد، واللادينية، والمذاهب الباطنية، بالإضافة إلى تأثير التيارات العلمانية والليبرالية التي تسعى لفصل الدين عن الحياة.

هذا التعقيد كله الذي لم يكن موجودا على عهد الإمام الشافعي رحمه الله به تأثيره الواضح على الفتوى ، لأن هذا الواقع يتطلب منهجًا فقهيًا ودعويًا يختلف جذريًا ، فلو كان الإمام الفقيه الشافعي رحمه الله في بيئتنا التي ذكرناها لم يكن ليتعامل فقط مع المسلم الذي يعرف دينه، بل مع مسلم يعيش في بيئة لا تدعم هويته، أو مع غير مسلم يحتاج إلى دعوة ، إضافة إلى قضايا جديدة مثل فقه الأقليات، وأحكام المواطنة في الدول غير الإسلامية، وضوابط التعامل مع القوانين الوضعية التي لم يعهدها في الزمن السابق ، وحدود التعاون مع المؤسسات غير الإسلامية ، فالأولوية هنا قد تكون لغرس الإيمان الأساسي وحفظ الهوية، قبل الخوض في دقائق الفروع أو الصراعات الفقهية.

3. التطورات العلمية والتكنولوجية المعاصرة :

لقد عاش الشافعي في عصر لم تكن فيه التكنولوجيا متقدمة بالمعنى الحديث ، بل لم يكن هناك تكنولوجيا من الأساس ! وكانت وسائل النقل في غاية البساطة، والاتصالات تعتمد على الرسائل المكتوبة التي تصل بعد أيام وأسابيع وشهور، والصناعات كلها يدوية ، فلم تكن هناك تحديات تتعلق بـ"الواقع الافتراضي" أو "الهندسة الوراثية" أو "الاستنساخ البشري" إلى غير ذلك من التعقيدات التي لا تنتهي إذا ما استطردنا في ذكرها بلا مبالغة حرفيا ! .

أما عصرنا، فيشهد تطورات علمية وتكنولوجية متسارعة وغير مسبوقة، تلك التي أثرت على كل جوانب الحياة وغيرتها تغييرا جذريا من أبرزها:

- **ثورة المعلومات والاتصالات**: فالإنترنت، وسائل التواصل الاجتماعي، الذكاء الاصطناعي، أصبحت وسائل أساسية للتواصل والتعلم والدعوة وهذا واقع مشاهد .
- **التطورات الطبية الحيوية**: كالهندسة الوراثية، الاستنساخ، تحديد النسل، زراعة الأعضاء، بنوك الحليب، الأجنة المجمدة، وغيرها، كلها مسائل لم تكن موجودة وتطرح تحديات فقهية معقدة.
- **التقنيات المالية الحديثة**: كالعملات الرقمية، البنوك الإلكترونية، عقود المشتقات المالية، كلها تتطلب اجتهادًا جديدًا لتكييفها مع أحكام الشريعة.

كل هذه الأمثلة وغيرها الكثير والكثير به تأثيره المباشر على تغير الفتوى ، فهذه التطورات تفرض مسائل فقهية مستحدثة وتحديات لم تكن مطروحة من قبل في عصر الإمام الشافعي رحمه الله ، تلك القضايا تتطلب حقا اجتهادًا معاصرًا جماعيًا لا يمكن الرجوع فيه إلى أقوال السابقين بشكل حرفي مباشر، بل يجب استنباط الحكم من الأصول الكلية ومقاصد الشريعة ، فالفتاوى حول هذه القضايا يجب أن تكون بناءة، واقعية، ومراعية للمستجدات العلمية فلا يتصور أن لا يتكيف الشافعي الفقيه رحمه الله مع كل هذه المعطيات الضخمة .

4. أولوية الدعوة ومخاطبة الجمهور :

حيث كانت المجتمعات إسلامية بمعظمها في العصور الأولوكان الناس يملكون معرفة أساسية بالدين، كانت الأولوية غالبًا للتدقيق في مسائل الفقه والعقيدة، ومناقشة دقائق المسائل ، أما اليوم، ففي بيئات تحتاج إلى

الدعوة إلى أصل الإسلام، تختلف الأولويات جذريًا ، حيث إنه في كثير من المجتمعات، ينتشر الجهل المطبق بأساسيات الدين (كالتوحيد، وأركان الإسلام، والأخلاق الأساسية). لذلك، يجب أن ينصب التركيز على:

- **بناء الإيمان الأساسي:** من غرس التوحيد الخالص، تصحيح المفاهيم الخاطئة عن الله ورسوله.
- **إصلاح العبادات الأساسية:** كتعليم الناس كيفية الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج بطريقة صحيحة.
- **تعزيز الأخلاق الفاضلة:** كغرس قيم الأمانة، الصدق، التراحم، العدل، الإحسان. إلى آخر ذلك

هذا يعني أن الخوض في دقائق الخلافات المذهبية أو المسائل الفرعية التي لا تمس حياة غالبية الناس بشكل مباشر له تأثيره على الفتوى ، لأنه قد يُنفرهم أو يزيد من حيرتهم ، ولو كان الفقيه الشافعي رحمه الله حيا لأدرك أن "فقه الأولويات" ضروري جدًا للتعامل مع تلك القضايا حيث لا يصح أن ينشغل الداعية أو الفقيه بمسائل خلافية دقيقة بينما الجهل يفتك بأصول الدين عند عامة الناس ، هذا ما لاحظه الشيخ محمد إلياس رحمه الله في الهند، فأسس حركته الدعوية على أصول بسيطة يمكن لكل مسلم فهمها والعمل بها ليكون كل المسلمين دعاة في تلك الحركة لعظم المسئولية وضخامة المهمة وقلة القائمين بها .

5. الواقع السياسي من حيث الاحتلال والتبعية :

كما لا يخفي أنه قد عاش الإمام الشافعي في زمن كانت فيه الدولة الإسلامية في أوج قوتها، وتتمتع بحدودها وسلطتها المستقلة، وإن كانت هناك صراعات داخلية على السلطة إلا أنه لم يكن هناك مفهوم "الاحتلال الأجنبي" الدائم والمستقر بالمعنى الحديث المشاهد ، أما في عصرنا، فالعديد من الدول الإسلامية تعيش واقعًا سياسيًا معقدًا بشكل غير مسبوق كالتالي :

- **الاحتلال المباشر أو غير المباشر**: فبعض البلدان خاضعة لاحتلال عسكري أو سياسي أجنبي مباشر كفلسطين وغيرها تعتبر في حالة احتلال حينما يكون قادتها موالون تماما للمحتل الغربي ، فحينما خرج المحتل بدبابته ترك خلفه نائبه الذي ينفذ ما يمليه عليه بشكل أو بآخر!.
- **التبعية السياسية والاقتصادية الكاملة**: حيث أن غالبية الأنظمة الحاكمة، وإن كانت مستقلة إسميًا، إلا أنها تعاني من تبعية شبه كاملة للقوى الغربية والدول الكبرى ، هذه التبعية تفرض أجندات سياسية واقتصادية وثقافية معينة، وتحد من قدرة الحكام على اتخاذ قرارات مستقلة تخدم مصالح شعوبهم أولًا.
- **غياب الإرادة الحرة**: حيث إن كثيرا من القرارات المصيرية المتعلقة بالأمة تتخذ تحت تأثير وضغط خارجي .

هذا الواقع يفرض تحديات هائلة على الفقيه وله تأثيره على المباشر والواضح على الفتوى ، فكيف يمكن للفقيه أن يتناول قضايا مثل الجهاد، والعلاقات الدولية، وتطبيق الشريعة، والحكم، ومفهوم "ولي الأمر" في ظل هذه التبعية؟ هل تُسقط الأحكام الشرعية المتعلقة بالحاكم المسلم المطلق الذي يحكم بالشرع على حكام يفتقرون إلى السيادة الكاملة، بل ويسنون القوانين الوضعية؟ يتطلب الأمر فهمًا عميقًا للمعاهدات الدولية، والتحالفات، وموازين القوى، والتداعيات الواقعية لأي فتوى ، ولا نظن بالإمام الشافعي رحمه الله إلا محاولة أخذ كل تلك المعطيات في واقعه ، ولو تنزل وأفتى بغير ما أفتى به قديما غير أن معاملته مع أبناء عصره لن تكون مثل غلاة التبديع والتفسيق الأشداء على المسلمين الرحماء مع الكافرين !

6. الحالة الاقتصادية من حيث الفقر المدقع والأنظمة الرأسمالية العالمية :

لقد عاش الإمام الشافعي رحمه الله في عصر كانت فيه الاقتصادات غالبًا محلية، تعتمد على الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية ، وكانت الحياة الاقتصادية أبسط بكثير مما كانت عليه قبل مائتي عام من الآن ! إذ لا يجوز المقارنة بعصرنا أصلا ! فالفقر كان موجودًا، لكنه لم يكن بالشمولية والعمق الذي نراه اليوم ، ففقير زمانهم كانت الفجوة بينه وبين غنيهم مقبولة عقلا وطبعا ! أما الفجوة اليوم بين فقير زماننا وبين غنيه لا تكاد توصف ! فنجد اليوم :

- **الفقر الشديد والبطالة**: حيث تعاني قطاعات واسعة من شعوب العالم الإسلامي من فقر مدقع وبطالة مزمنة، وتعتمد اقتصاداتها غالبًا على المعدات الخارجية أو على قطاعات قليلة لا يستفيد منها غالبية الشعب.
- **الأنظمة الاقتصادية العالمية المعقدة**: من حيث هيمنة الأنظمة الرأسمالية التي تعتمد على الربا، والديون، والبورصات، والتضخم، والتحكم في الأسعار العالمية. هذه الأنظمة ليست بالضرورة متوافقة مع الشريعة الإسلامية.
- **تحديات جديدة أخرى لم تكن معروفة**: مثل الإسكان، الرعاية الصحية، التعليم، التي أصبحت عبئًا اقتصاديًا كبيرًا على الأفراد والدول.

هذا الواقع الاقتصادي يفرض على الفقيه تحديات جديدة في أحكام المعاملات المالية، والزكاة، والصدقات، والتكافل الاجتماعي ولها تأثيرها المباشر على الفتوى ، من حيث كيفية تطبيق أحكام الزكاة في ظل الفقر المنتشر؟ ما هي البدائل الشرعية للأنظمة المصرفية الربوية المتداخلة في كل مناحي الحياة واقتصاديات كل أسرة ؟ وهل يجوز التعامل ببعض العقود المستحدثة في البورصات العالمية؟ لا شك أن

الإمام الشافعي كان سيأخذ في اعتباراته الأولوية للحلول الفقهية العملية لمكافحة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتقديم بدائل اقتصادية إسلامية قابلة للتطبيق ولن يكون جامد الفكر كغلاة التبديع المعاصرين .

7. التأثير الدولي وتدخل القوى العالمية :

لقد كانت العلاقات الدولية في عصر الإمام الشافعي رحمه الله تعتمد على السفارات المحدودة جدا ، والحروب المباشرة بالأجساد والسيوف والدروع ، والمعاهدات التقليدية. حيث لم تكن هناك منظمات دولية ذات سلطة نافذة في كل دويلة ، ولم تكن هناك تدخلات مستمرة في الشؤون الداخلية للدول كلها من قبل قوى خارجية مسيطرة على النظام العالمي بشركات دولية متحكمة في اقتصاديات الدول وهو ما يمكنها من تحريك الدول بأكملها أو شل حركتها تماما ، كل هذا لم يكن له وجود قديما في عصر الشافعي رحمه الله ، أما الآن، فتتأثر البلدان الإسلامية بشكل مباشر بـ:

- **سلطة المؤسسات الدولية**: مثل الأمم المتحدة، البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، التي تفرض سياسات وشروطًا معينة على الدول المتعاملة معها .
- **التدخلات العسكرية والسياسية**: من حيث التدخلات العسكرية المباشرة أو غير المباشرة من قوى عالمية، وتشكيل تحالفات دولية تفرض أجندتها على دول المنطقة.
- **الضغط الثقافي والإعلامي**: من حيث التأثير الإعلامي والثقافي الكاسح الذي يروج لأنماط حياة وقيم تتعارض تماما مع المبادئ الإسلامية (مثل حقوق المثليين، المساواة المطلقة بين الجنسين التي تلغي الفروق الفطرية، إلخ).

فهذه العوامل كلها لها تأثيرها على الفتوى ، تفرض على الفقيه التعامل مع قضايا لم تكن مطروحة من قبل، كمتى يجوز التحالف مع دول غير مسلمة؟ وما هي حدود التنازلات السيادية في ظل الضغوط الدولية؟ وما حكم الانضمام للمنظمات الدولية التي تضع شروطًا قد تتعارض مع الشريعة؟ ولا نظن بالإمام الشافعي رحمه الله إن كان في عصرنا إلا النظرة الواعية بهذه التعقيدات وتداعياتها على الأمة ولن يتعامل مع معاصريه كما يتعامل غلاة التبديع والتفسيق .

8. ثقافة الحكام وتبعيتهم الفكرية للغرب :

لقد كان الحكام غالبًا ما ينشؤون في عصر الشافعي رحمه الله ويتعلمون في بيئة إسلامية خالصة ، ويتلقون تعليمهم في المساجد على يد كبار العلماء. فكانت ثقافتهم مستمدة من المصادر الإسلامية رأسا حيث لم يكن هناك بديلا لطلب العلم ولا لتحصيل الثقافة ، حتى وإن وجد في الحكام ظالمين أو مستبدين فإنهم لا شك نشأوا نشأة قريبة من ذلك ، أما اليوم، فإن ثقافة غالبية الحكام والنخب الحاكمة اختلفت جذريًا عن الأزمان السالفة من حيث :

- **التعليم الغربي والتشرب الفكري**: حيث إن معظم هؤلاء النخب تلقوا تعليمهم في جامعات غربية في الغرب ، وحصلوا على شهاداتهم من هناك، أو في جامعات غربية مزروعة في بلادنا لهذا الغرض خصيصا ، مما يعني أنهم تشربوا تماما فكرًا غربيًا (ليبراليًا، علمانيًا، رأسماليًا) في تكوينهم الأساسي.
- **الصناعة الفكرية الغربية**: حيث إن هؤلاء الحكام "صُنعوا" فكريًا وسياسيًا على أيدي المؤسسات الغربية، وقد تكون ولاءاتهم أو توجهاتهم متأثرة بشكل كبير بتلك البيئات، مما يجعلهم أكثر قابلية لتطبيق أجندات غربية من حيث لا يشعرون بطبيعة حالهم وثقافتهم وقناعاتهم .

هذا الواقع الأليم يحدث تأثيره الشديد على الفتاوى ، مما يضع عراقيل شديدة أمام الفقيه حول مفهوم "ولي الأمر" وشرعية الحكم والسمع والطاعة وحدود تلك الطاعة ، وكيف يتعامل الفقيه مع حاكم يتبنى أجندات علمانية أو ليبرالية بشكل كامل وينشرها في المسلمين ، ويطبق قوانين وضعية تتعارض مع الشريعة تعارضا تاما ، وربما تكون لديه ولاءات خارجية على أرض الواقع ؟ وهل تظل أساليب النصيحة التقليدية القديمة – حال بعض مخالفاتهم وجورهم - فعالة مع حكام ذوي خلفيات فكرية مختلفة تمامًا وطوام مهلكات على النقيض من حكام العصور المتقدمة الظالمين؟ كل هذه المسائل تتطلب اجتهادًا دقيقًا يوازن بين مصلحة استقرار الأمة وهي المطلب الأسمى والغاية العظمى ، وبين ضرورة الحفاظ على الدين وحرمته ومقدسات الأمة ، فالتعامل مع واقع سياسي معقد كهذا لابد أنه سيدفع بفقيه كالإمام الشافعي أن يغير كثيرا من مذهبه إن كان عاصره وعاشه ! لا كما يزعم غلاة التبديع ذوي العقول الضيقة والأجندات الخفية .

9. الجهل المتفشي في عامة الناس :

وعلى الرغم من عدم انتشار التعليم بالمفهوم الحديث في عصر الإمام الشافعي رحمه الله إلا أن غالبية الناس قديما كانت لديها معرفة لا بأ بها بالمسائل الأساسية، بل وبالدين عامة من خلال المساجد، وحلقات العلم، وعلماء مجتمعاتهم المحلية ، حيث كان هناك اتصال مباشر بين العالم او الفقيه أو المحدث وبين عامة الناس أو طلبة العلم أو الحكام وذوي النفوذ ، وكان العلم يتناقل شفاهة بشكل واسع ، أما اليوم فيعاني قطاع كبير من الشعوب الإسلامية من جهل مطبق بالدين، وأصوله، وفروعه، بل وحتى مبادئه الأساسية ، وهذا أمر مشاهد بالعيون ملموس بالحواس ، فكم رأينا رجالا مسلمين حيث ولدوا مسلمين لا يعرفون كيف يتطهرون للصلاة ولا كيف يؤدون الصلاة وماذا يقولون فيها ، حتى إن دعاة التبليغ يقابلون في رحلاتهم الدعوية

أناسا مسلمين لم يدخلوا المسجد قط في حياتهم مرة واحدة ! كل هذا بسبب انتشار الجهل والبعد عن الدين ، وهذا الجهل يتفاقم بسبب:

- **تراجع دور التعليم الديني**: في كل مناحي الحياة ، في المساجد التي كانت قديما مصدرا أساسيا لذلك ، أو في المناهج التعليمية الرسمية التي تعد المصدر الأساسي للنشأ في التعليم والتوجيه وبناء الثقافة والشخصية والتوجه .
- **هيمنة الإعلام الموجه**: الذي يركز على تغيير القناعات والأفكار وتشكيل الشخصيات بوسائل ملهية كالترفيه أو قضايا سطحية لا تتناو لجوهر الدين ولا قضايا الأمة فيخرج جيل مطموس الهوية جاهل بنفسه وبأمته يساق مساق الحيوانات من باقي الأمم.
- **نقص التوعية الدينية الفعالة**: والسبب في ذلك من العلماء والدعاة حيث التقاعس والتواكل والرضا بالسطحيات التي يتناولونها أحيانا كثيرا ، وبضغوط الساسة والقادة عليهم وتنحيتهم من المشهد ومنعهم من التصدر والقيام بواجبهم وغير ذلك .

هذا الجهل له تأثيره على الفتوى حيث يفرض على الفقيه أولويات مختلفة ، إذ لا يمكن أن تُطبّق الفتاوى المعقدة أو الخلافات الدقيقة على عامة الناس الذين لا يدركون أساسيات دينهم ، بل يجب أن تكون الأولوية القصوى لنشر العلم الشرعي الأساسي والمعلوم من الدين بالضرورة ، وترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتعليم أفرض العبادات وأهمها ، وغرس الأخلاق وغير ذلك من المهمات التي لا يجوز جهلها ، كما فعل الشيخ العلامة محمد إلياس رحمه الله في البيئة الجاهلة الجاهلية التي عاصرها في الميوات ، ولو كان الإمام الفقيه الشافعي رحمه الله حيا في هذا العصر وشاهد ما فيه من جهالة وتأخر ورجعية وبعد عن الدين ما وسعه أن يفعل إلا كما فعل الشيخ محمد إلياس رحمه الله من الحركة على الناس في أماكنهم ومحالهم

ودعوتهم إلى الله تعالى وتحريك آلاف الدعاة ينصحون الناس ويعلمونهم أساسيات دينهم ولما ركن الشيخ محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله إلى حلقة المسجد فقط ينتظر قدوم طلبة العلم ليأخذوا عنه العلم ! حيث كان هذا النظام قائما في الهند أنذاك في المدارس الدينية ولم يغير من الوضع شيء ، فيجب أن تكون الفتوى قائمة على التيسير ورفع الحرج ما أمكن، خاصة مع من لا يمتلكون المعرفة الكافية، كما فعل الشيخ محمد إلياس في دعوته البسيطة لأهل "الميوات" في الهند.

10. ندرة العلماء وطلبة العلم، وانحسار الهدي الظاهر :

لقد كانت البيئة الإسلامية في عصر الإمام الشافعي رحمه الله مزدهرة بوجود عدد كبير من العلماء الراسخين في شتى الفنون الشرعية، والدعاة الربانيين الذين يبلغون الدين للناس، وحلقات العلم التي يرتادها الآلاف من طلبة العلم ، هذه الوفرة خلقت بيئة صحية لطلب العلم أولا ونشره ومن ثم النقاش العلمي بين المتأهلين حقا ، لتجد في النهاية تلاقح الأفكار، وتفريخ الأجيال الجديدة من الفقهاء والمحدثين ، كما كان الهدي الظاهر (كالالتزام باللباس الشرعي، والحجاب للنساء ، واللحية للرجال ، والسواك ، والعمامة وغير ذلك مما هو مظهر أهل الإسلام الدال عليهم) سائدًا ومنتشرًا في المجتمع كله حتى في المجتمعات الغربية ، مما يعكس هيمنة القيم الإسلامية وسيادتها ، أما في عصرنا فنجد النقيض تماما:

- **ندرة العلماء الربانيين والمتخصصين**: فعلى الرغم من وجود عدد من العلماء والدعاة، إلا أن عددهم لا يتناسب مع الكثافة السكانية الهائلة للمسلمين فقط ناهيك عن الحاجة الملحة لدعوة غير المسلمين ، كما أن عدد طلبة العلم المتخصصين الذين يدرسون الفقه والأصول والحديث وغير ذلك من صنوف علوم الشريعة دراسة عميقة قد قل بدرجة كبيرة ، مما يؤدي إلى فجوة معرفية وفقدان مرجعية موحدة.

- **انعدام الكفاءة** : حيث أن الخريجين من الجامعات كثروا مع شهادات علمية عالية وعقول غير مستوعبة لما تدل عليه مضامين تلك الشهادات ، مما أدى إلى تخمة في الإنتاج العلمي لا تأثير له على أرض الواقع .
- **انحسار الهدي الظاهر وغربة الدين**: ففي كثير من المجتمعات الإسلامية، أصبح الهدي الظاهر أقل انتشارًا، بل قد يُنظر إليه في بعض الأوساط الإسلامية كـ"غربة" والدهى من ذلك أن ينظر إليه "تطرف" ودليل تصنيف وسبب تعقب - من السلطات المحلية المتغربة - يصل إلى الضرر في النفس والمال وغير ذلك بسبب تأثير العولمة والإعلام.

هذا التغيير الجذري في حال المجتمع له تأثيره الفعال على الفتوى كمنتج نهائي له علاقة وطيدة بكل تلك المعطيات ، ما يفرض على الفقيه والداعية تحديات جمة ، حيث لا يمكن تطبيق نفس مستويات التشدد – في نظر الناس - أو الصراحة والوضوع والوقوف على حدود الأدلة وتقفي أثر القرون الثلاثة الفاضلة في الفتاوى التي كانت تُطبق في مجتمع غلب عليه العلم والالتزام ، حيث يجب أن يكون هناك تركيز على إعداد أعداد من العلماء والدعاة متخصصين الواعين بالواقع، وأن يُعطى للأخلاق والتربية والقدوة الصالحة أهمية كبرى، مع تبني منهج التيسير في الفتاوى الدعوية لتجنب تنفير الناس من الدين ، الخطاب الديني يجب أن يتجدد ليناسب هذه البيئة ، فهل ترى الإمام الشافعي رحمه الله لو عاصر تلك الحياة بعد 1200 عام من عصر عاشه وغير مذهبه فيه بسبب بعض التغيرات في المعطيات كان سيقول بقول الغلاة من أهل التبديع والتفسيق الذين لا يعتبرون شيئا من كل ما سبق ويعيشون بعقول لا تستقيم مع العصر مطلقا ويتجاهلون كل تلك الفروق وجل اهتماماتهم هي تبديع المخالف من المصلحين ! والصمت المريب عن كل المفسدين !؟ تالله إنهم لفي ضلال مبين .

هذه الفروق العشرة - على سبيل المثال لا على سبيل الحصر - تُشكل نسيجًا معقدًا يختلف جذريًا عن الواقع الذي عاش فيه الأئمة الأوائل ، يظهر منه جليا أن التمسك الحرفي بفتاوى وأحكام صدرت في سياق مختلف تمامًا دون مراعاة هذه العوامل، يؤدي إلى تصورات غير واقعية، لا تحقق مقاصد الشريعة، وتزيد من حيرة الأمة وضعفها. فالمنهج الصحيح يقتضي الاجتهاد الواعي بالواقع، الذي يوازن بين الأصالة والمعاصرة، ويحقق مقاصد الشريعة السمحة في كل زمان ومكان.

الفصل السابع : أبو إكس المدخلي في تاريخ الإسلام مواقف وفتاوى:

حسناً، لنتخيل معًا شخصية سلفية معاصرة مدخلية عقيمة ، متشددة في التمسك بظاهر النص لخدمة أهدافها دون النظر للأهداف والغايات والمآلات ، وترفض كل ما لم يثبت بـ"نص خاص" مباشر صريح ، وتنظر إلى أي اجتهاد جديد أو وسيلة حديثة لم تكن موجودة في "العهد الأول" بعين البدعة والتنقص ، ولنسمِ هذا الشخص "أبو إكس السلفي " ،أو "أبو إكس الأثري " ، أو "أبو إكس المدخلي " ، أو "أبو إكس البيلي " ،أو "أبو إكس الرسلاني " ،أو "أبو إكس الحدادي " ،"أبو إكس الحلبي " ، إلخ ، وقد رمزنا للشخص بلفظ إكس وهو الحرف الإنجليزي (x) ذلك لأنه الرمز الذي يشار به غالبا إلى المجهول في المعادلات وهو اصطلاح معروف ، وأما تحديد نسبة المدخلي فلأنها واضحة الدلالة على أن رجلا من المعاصرين يسمى ربيع بن هادي المدخلي افتتح باب الفتنة ونشرها وتولى كبرها وصار علما بها فصارت علما عليه ، ففسق علماء الأمة بلا استثناء وجرحهم بلا علم ولا ضوابط ولا أدلة ولا أسباب ، ثم صار له أتباع بعضهم اغتر به ، وبعضهم أصحاب قلوب مريضة يخدم الفكر الغالي هدفهم ويشفي غليلهم فاتبعوه ، فتنبه.

فلنتخيل ما إذا أُعيد أبو إكس الأثري زمنيا ليعاصر النبي صلى الله عليه وسلم بعقليته التي يعاملنا بها اليوم دون تغيير ولا تعديل ثم ليعاصر الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، كيف سيكون تعامله مع تلك القضايا التي ناقشناها؟ دعونا نتخيل هذا الأمر .

المبحث الأول : اعتراضات أفراخ أبي إكس على التعريض بشيخهم وقدوتهم :

فإن قيل : (قولك أبو إكس المدخلي هو تنمر وتنابز بالألقاب) قلنا كلا ، ليس تنمرا ولا تنابزا بالألقاب وإنما هو رمز لشخصية وهمية تضاهي وتحاكي شخصيات المداخلة المعاصرين الذين هم سيوف على رقاب أهل الإسلام ، رحماء أصدقاء مع غير المسلمين ، لا توجه سهامهم إلا إلى نحور أهل الإسلام ! فلسنا من يغمز مسلما قط بما ليس فيه وإنما نرمز فقط إلى كناهم التي اشتهروا بها برمز (إكس) وهو رمز يرمز به في علم الرياضيات إلى المجهول فقط ولا يقصد به ذم ولا تنمر ولا تنابز بالألقاب ، وكون هذا المسلك أول مرة يتبع في الكتابة العربية فليس هذا بضائرنا مهما أقض مضاجعكم .

وإن قيل : (قولكم المداخلة تدخل في باب الذم والتنابز بالألقاب أيضا) قلنا كلا ، بل هي نسبة إلى أكثر من خاض في أعراض العلماء وجرحهم وقدحهم ووشى بهم وبتلامذتهم وأثر على دعوة الإسلام بالسلب في القرن الماضي ! وليس ذلك لقوة حجته ولا لكثرة علمه ولكن لنفوذه المستمد من دعم الولاة والسلاطين الذين ينتفعون بفتاواه المنحرفة وأقواله الزائغة .

وإن قيل : (بل هو عالم محدث كشف عوار الخوارج) قلنا بل ولا يعد في سوق العلماء عالما ! إنما هو رجل مهتم بالعلم الشرعي كسائر من اهتم به ، تخرج أول ما تخرج من الجامعة الإسلامية ! وسلك طيلة حياته مسارا أكاديميا كسائر أقرانه ، فخرجت رسالتيه الماجستير والدكتوراه أقل من المستوى العادي ! فليست متميزة في شيء ولم يأت فيها بجديد ، وذلك بشهادة أهل الحديث الذين تعقبوا كلامه في رسالة الدكتوراه الخاصة به ! ، ثم ترقى في السلك الأكاديمي كسائر زملائه حتى تقلد منصب رئيس قسم الحديث في تلك الجامعة وهو منصب يرقاه الدكاترة بالأقدمية لا بالكفاءة فقط ! فلأنه بلغ السن القانوني المناسب

لتقلد هذا المنصب تقلده ! وربما كان غيره أكفأ منه من باب الإتقان والعلم !وإلا فقد مات الرجل عن عمر يناهز الواحد والتسعين عاما ولما يخرج للأمة الإسلامية عشر ما أنتج الألباني رحمه الله وقد مات الألباني دونه سنا ! فلك أن تقارن كيف هذا البون الشاسع في الإنتاج العلمي بين المدخلي والألباني إلا لأن الألباني في مستوى مختلف تماما عن المدخلي ولا مقارنة بينهما في ذلك العلم ألبتة ! ، ثم إن الرجل ظل طيلة عمره في كنف الخوارج الإخوان المسلمين حتى قارب الستين ! فليت شعري كيف لرجل علامة كما يزعمون يظل ريعان شبابه وزهرة عمره وفتوة عضلاته ومقتبل عمره كله مع الخوارج يناخ عنهم ويسير معهم حتى إذا ما قارب الستين من عمره انقلب عليهم وصار أشد الناس عليهم يحاربهم ! ووالله ما هذا إلا لأنه لم يجد لنفسه موضع قدم للظهور معهم فانقلب عليهم ليظهر ! وقد كان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فإن قيل : (إنكم متناقضون في مسألة رميكم لأبي إكس المدخلي بأنه من شيوخ السلطان ويبرر كل أفعالهم ويقف في أوجه الصالحين والمصلحين ممن ليسوا بأولياء الأمور ليبرر لأولياء الأمور أفعالهم ! فلماذا خالفتم القاعدة واعتبرتموه معترضا على رأي ولي الأمر الشرعي والسلطان وهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ! أليس ذلك تناقضا مقصودا لإظهار شخصية أبي إكس المدخلي معترضا على طول الخط ؟!) قلنا بالفعل إن شخصية أبي إكس المدخلي معترضة دائما على كل المصلحين سواء كانوا في الحكم والولاية أم في عامة الناس ! فليس موقفه في صفوف ولاة الأمر فقط ! بل موقفه في صفوف عدو الدين والأمة ! ، فهو يقف في صف الحاكم الظالم الطاغية ! وإذا كان الحاكم عادلا يطبق الشريعة ويقيم الدين ويسير الجيوش فإن هذا منهج لا يرضيه ! وبالتالي سيعترض عليه ويشنع حتى إنه قد يفتي بالخروج عليه وسيوجد من الأدلة والأخبار ما يجيز له قول ذلك وفعله ! كما فعل الخوارج مع علي رضي الله عنه فهم لم يخرجوا من غير تأويل ! بل تأولوا واستدلوا ولذلك خرجوا عليه عن قناعة ودليل ! وهكذا سيفعل أبو إكس المدخلي ليعترض على

الخليفة المصلح كما قلنا في مواقفه مع قضايا جمع القرآن وتحريك الجيوش لحروب مانعي الزكاة وغيرها ! ووقوفه في صف الحاكم الظالم القاتل يزيد بن معاوية لأنه يحقق غايته ! فليست القضية قضية ولاة أمر بقدر ما هي ولاة أمر لا يقيمون الشرع ولا يهتمون له ! وقد رأينا مواقف المداخلة المثبتة لذلك فهم يقفون في صف الحاكم الظالم وإن زعم أنه مصلح ! يطيرون بكلمته ويستشهدون بها في كل موقف على صلاحه ويتغاضون عن فعله وكبائره ! وفي ذات الوقت يعاملون حاكما آخر بعكس هذه الطريقة فيشنعون عليه ويشغبون ويحرضون الناس عليه بحجج واهية فلا يلتمسون له أعذارا مثلما يلتمسون لحاكمهم ! وتلك هي المفارقة العجيبة .

فإن قيل : (قولك إن أبا إكس يقف في جانب الحاكم المبدل للشريعة فقط يبطله مواقفهم من حكام المملكة السعودية ! فهم يقيمون الشريعة وهو يقف في صفهم) قلنا بل هي مصالح ! فلما كانت مصالحهم في تحريك الشيوخ واستخدامهم في تثبيت حكمهم استخدموهم ! ولما تعارضت مصالحهم مع مطالب هؤلاء الشيوخ والتيارات الإسلامية زجوا بهم في السجون وما زال أبو إكس آمنا في سربه معافا في بدنه يجري عليه خراج ولي أمره ! وانقلبوا على كل ما كان من الشريعة قديما ! وتغيرت المملكة وفتحت على مصراعيها وسابقت دبي والقاهره ! في كل ما هو ضد الدين والشريعة فحصلت ما حصلوه في عقود في عقد واحد فسبقتهم ! فهل يقول عاقل إن المملكة اليوم هي المملكة التي عرفها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبنائه وتلامذته ؟! لا يقول بهذا عاقل البتة .

المبحث الثاني : مواجهة أبو إكس المدخلي للمفاهيم في صدر الإسلام مع النبي صلى الله عليه وسلم وصراعه مع التغير والتدرج :

فلنتخيل شخصية "أبا إكس المدخلي" بعقليته الحرفية التي تُشدد على "النص الخاص" وتُحرم أي اجتهاد جديد أو وسيلة حديثة لم تكن موجودة في "العهد الأول"، ثم نُعيده زمنيًا ليعاصر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام. كيف سيتعامل أبو إكس مع القضايا التي ناقشناها؟

قضية كتابة الحديث:

سيجد أبو إكس نفسه في حرج شديد ، فبينما يصر اليوم على ضرورة الاعتماد على "النصوص المكتوبة" للسنة وغير السنة ، حتى صاروا أكثر أهل العصر تأليفا في كل ما له قيمة وما ليس له قيمة ، وسيواجه في زمن النبوة النهي الصريح عن كتابة الحديث، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه" ، سيعتبر أبو إكس هذا المنع نصًا قاطعًا لا يجوز مخالفته مطلقًا ، فلو رأى بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم - بإذن خاص من النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن عمرو بن العاص - سيعترض أبو إكس عليهم ، معتبرًا فعلهم "بدعة" أو "مخالفة للنص العام"، رغم أن الإذن الخاص يعالج الحاجة الفردية.

وفي قضية القرآن وكتابته المتفرقة سيُشاهد أبو إكس القرآن وهو يُكتب على عسب النخل والأكتاف والرقاع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيرى الاعتماد الكبير على الصدور ، ما قد يدفعه لأن يُشكك في منهجية الكتابة فيما بعد ! فقد رأى بعينيه القرآن مكتوبا بطريقة معينة مأثورة ، فإذا تغيرت طريقة كتابته في

مصحف واحد سيجد أبو إكس نفسه بعقليته الجامدة معترضا على ذلك مبدعا لأهلها مفسقا لمن رأى ذلك منهم .

فإن قيل كلامك مردود لأن الثابت لدى أبو إكس أن اجتهاد الصحابة ليس كغيرهم ممن أتى بعدهم بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي) وبالتالى سوف يقبل اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم ولن يعترض على اجتهادهم كما يعترض على اجتهادات من بعدهم ! ، نقول ومن قال إن أبا إكس سيعترض على اجتهاد الصحابة باعتبار نفسه من غير الصحابة !؟ كلا ، إنه سيعترض على الصحابة لأنه من الصحابة ويرى نفسه له رأي مثلهم ومن حقه أن يدلي بدلوه ويختار ويجتهد بعقليته الجامدة الخارجة عن صف المسلمين وعلماء الأمة ! وبالتالي سيتكلم ويعترض ويجلس مجلس المعلم ويفتي وسيكون أكثر المعاصرين للصحابة تديثا وإفتاءا وكلاما وتجريحا في غيره من الصحابة لأنه يراهم غيروا وبدلوا وانحرفوا عن طريق الجادة !! هو سيرى نفسه كذلك أنه الواقف عند حدود الله الثابت على الحق ! ولن يرى نفسه تابع للصحابة ولا لاجتهاداتهم كما تزعم ! وهذا المنظور هو الذي أهلك الخوارج لأنهم وضعوا أنفسهم في مقابلة كبار فقهاء الصحابة وناطحوهم في الفهم والفتيا بل وكفروهم استنادا لما وصل إليه اجتهادهم ! وسيكون أبو إكس المدخلي لو كان معاصرا للصحابة كذلك .

المبحث الثالث : مواقف أبو إكس المدخلي من خالد بن الوليد رضي الله عنه :

ولنتخيل "أبا إكس المدخلي" الذي يُعرف بصرامته في الوقوف عند ظواهر الأحكام، وسرعته في تصنيف المخالفين بالبدعة أو التخوين أو حتى التكفير، وتقديمه لظاهر النص (كما يفهمه) على المقاصد والمآلات، واعتراضه الشديد على أي اجتهاد يُخالف فهمه ، كيف سيتعامل أبو إكس مع حادثة عظيمة وقعت في

صدر الإسلام، وهي موقف خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما قتل رجلًا نطق بالشهادة (مالك بن نويرة) واجتهاد الصحابة في ذلك؟ هذه الحادثة تُعد من أدق وأعقد الوقائع في التاريخ الإسلامي، ومالك بن نويرة هو التميمي اليربوعي، الشاعر الفارس الشريف، وكان من أرداف الملوك، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه، فلما بلغته وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أمسك الصدقة وفرقها في قومه، وهو الذي قتله ضرار بن الأزور الأسدي صبرا بأمر خالد بن الوليد، بعد فراغه من قتال أهل الردة وقصته معروفة ، قال بن حبان في سيرته (ولما فرغ خالد بن الوليد من بيعة بني عامر وبني أسد قال: إن الخليفة قد عهد إليّ أن أسير إلى أرض بني غانم، فسار حتى نزل بأرضهم وبث فيها السرايا فلم يلق بها جمعا، وأتى بمالك بن نويرة في رهط من بني تميم وبني حنظلة فأمر بهم فضربت أعناقهم وتزوج مكانه أم تميم امرأة مالك بن نويرة، فشهد أبو قتادة لمالك بن نويرة بالإسلام عند أبي بكر، ثم رجع خالد يؤم المدينة فلما قدمها دخل المسجد وعليه درع معتجرا بعمامة وعليه قباء عليه صدأ الحديد، قد غرز في عمامته أسهما، فقام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ثم قال: أقتلت امرأ مسلما مالك بن نويرة ثم تزوجت امرأته؟ والله! لنرجمنك بأحجارك، وخالد بن الوليد لا يكلمه ولا يظن إلا أن رأى أبي بكر على مثل رأي عمر حتى دخل على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه أنه لم يعلم، فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان منه في حربه تلك ؛ فخرج خالد من عنده وعمر جالس في المسجد فقال: هلم إليّ ابن أم شملة ! فعرف أن أبا بكر قد رضي عنه، فلم يكلمه فقام فدخل بيته) [1]

---

[1] «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء » (2/ 433): محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)

وقد اختلف الصحابة أنفسهم في تأويلها والحكم عليها ولكن، بمنهج أبي إكس المدخلي وعقليته وطريقته ومعطياته ، يمكننا توقع موقفه كالتالي:

1. اتهام خالد بن الوليد بـ"التخوين" أو "الاجتهاد الخاطئ المؤدي للكفر":

سنرى من أبي إكس التمسك بظاهر "النطق بالشهادة" ومن ثم سيُشدد أبو إكس على أن الرجل المقتول وهو (مالك بن نويرة) قد نطق بالشهادة وفي منهج أبي إكس أن النطق بالشهادة يعصم الدم وبالتالي، فإن قتل خالد بن الوليد له تجاوز واضح للنص الظاهر الذي يحمي من نطق بالشهادة.

ولا نستبعد اتهام أبي إكس خالد بن الوليد بال "خيانة" للدين أو " سوء الفهم" وقد لا يصل به الأمر إلى التكفير الصريح لخالد (لأنه من الصحابة)، ولكنه سيُصنف فعله بأنه "خيانة للدين" أو "فعل شنيع" يُخالف أصول الإسلام، أو "اجتهاد خاطئ" بدرجة لا يُمكن التساهل فيها ذلك لأنه طبعا رجل من الصحابة مماثل له .

لن يُعطي أبو إكس وزنًا كبيرًا للملابسات التي أدت إلى فعل خالد وبالتالي سيرفض فقه المآلات أو الملابسات مثل كون مالك بن نويرة امتنع عن أداء الزكاة لأبي بكر الصديق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واجتهاد خالد أنه بذلك خرج عن جماعة المسلمين ووجب مقاتلته كمرتد. والشبهات التي دارت حول مالك ورجاله في عدم أذانهم أو إقامتهم الصلاة، أو التفافهم حول سجاح المتنبئة.

2. الطعن في اجتهاد خالد وتحريمه لزواجه من امرأة مالك:

سيُعظم أبو إكس – باعتبار نفسه مكافئا معاصرا لخالد وللصحابة وبالتالي له الحق في إبداء الرأي والاعتراض والفتيا - من خطأ خالد في زواجه من امرأة مالك بن نويرة بعد قتله مباشرة، معتبرًا ذلك فعلًا محرمًا وتجاوزًا للشرع ، لأنه يتزوج امرأة قُتل زوجها على يديه قبل انقضاء عدتها ، هذا الفعل تحديدًا سيُستخدم لدعم حجته بأن خالدًا "لم يكن على الجادة" أو أنه ارتكب خطأً جسيمًا يستحق عليه التوبيخ الشديد والتحريم.

3. نقد موقف أبي بكر وعمر:

على الرغم من تقديره لأبي بكر وعمر، فإن أبا إكس سيجد نفسه في حرج شديد مع مواقفهما:

- موقف عمر بن الخطاب: لقد كان عمر رضي الله عنه من أشد المنكرين لفعل خالد، وقال لأبي بكر: "قتلت مسلمًا، قد قتلت مسلمًا!"، وطالب بعزل خالد ومعاقبته. سيُشيد أبو إكس بموقف عمر، مُعتبرًا إياه الموقف "الصحيح" الذي يُمثل "منهج السلف" في إنكار المنكر.
- موقف أبي بكر الصديق: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مع أنه لم يقر فعل خالد بالكامل، إلا أنه لم يعزله، وقال: "ما كنت لأشيم سيفًا سله الله على الكفار" وهنا سيجد أبو إكس صعوبة في فهم هذا الموقف ، وسيُفسره بأن أبا بكر تسامح مع خالد لـ"مصلحة" (كتلك التي يرفضها أبو إكس)، أو أنه ارتكب خطأً في عدم عزل خالد، وإن كان لن يُصرح بذلك صراحة (لأن أبا بكر من الخلفاء الراشدين).

4. رفض فقه الموازنات واجتهاد الصحابة:

لن يستوعب أبو إكس أن الحادثة كانت نازلة معقدة في وقت عصيب وهي (حرب الردة)، وأن الصحابة اجتهدوا فيها بناءً على علمهم وفقههم للواقع ، وسيُغفل أن أبا بكر رضي الله عنه نظر إلى الفعل من زاوية مصلحة أبعد، وهي الحفاظ على قوة الجيش الإسلامي في مواجهة المرتدين، وعدم كسر سيف من سيوف الله ، وهذه الموازنات بين المصالح والمفاسد، والتغاضي عن مفسدة جزئية لدفع مفسدة كلية (وهي ضعف المسلمين في مواجهة الردة)، لا تتوافق مع منهج أبي إكس الذي يرى التطبيق الحرفي للنص كأولوية قصوى ، ثم إنه ومن خلال عقليته المانعة للحروب ضد الكفار الأصليين أو المرتدين سيعارض مواقف أبي بكر رضي الله عنه ، وسيقف في كل مواقفه ضد الصحابة رضوان الله عليهم ، يركز على فتاواهم ومواقفهم ويبين من منهم على الجادة ومن منهم ابتدع وخرج من السنة ! .

ولذلك سيُصنف أبو إكس المدخلي فعل خالد بن الوليد بأنه "خطأ فادح" أو "مخالفة شرعية جسيمة" أو " ابتداع واجتهاد مع وجود نص" إلى آخر قائمة طويلة يخترعها من عند نفسه ، وربما يتجاوز ذلك إلى التخوين والطعن في العقيدة والشق عما في الصدور ، ولربما استرجع ماضيه قبل الإسلام وشبهه بمن دخل الإسلام تقية وما زال قلبه مليء بالحقد على أهل الإسلام ورغبته تحريف الإسلام لأنه لم يسلم أصلا إلخ ، بناءً على رؤيته الحرفية للنصوص دون مراعاة لسياقها، أو لفقه الموازنات بين المصالح والمفاسد، أو لتنوع اجتهادات الصحابة أنفسهم. وسيتخذه مثالًا للتحذير من "الانحراف عن السنة" حتى لو كان من كبار الصحابة، لأن في منهجه لا حصانة لأحد إلا بما يوافق فهمه الضيق للنصوص.

المبحث الرابع : صراع أبو إكس المدخلي مع فقه الضرورة ، جمع القرآن في عهد أبي بكر وعمر مثالا :

دعنا نُواصل تخيل شخصية "أبي إكس المدخلي" بعقليته الحرفية التي ترفض أي اجتهاد جديد لم يأتِ بنص مباشر وصريح، وتُصنف أي فعل لم يكن في "العهد الأول" (وهو عهد النبي صلى الله عليه وسلم) على أنه بدعة ، كيف كان سيتعامل أبو إكس مع قرار الصحابيين الجليلين، والخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، بجمع القرآن في مصحف واحد؟

سيكون هذا الموقف بمثابة صدمة قوية ومباشرة لأبي إكس، لأنه سيُصطدم باجتهاد عظيم وجماعي من كبار الصحابة الذين يُعدون القدوة العليا في الفهم والتطبيق ، وبعيدا عن حديث النبي : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي) فإنه سيرى نفسه من أهل الصدر الأول ومن أهل العلم الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا عنه العلم وأجيزوا بالفتيا ! كما هو حاله اليوم يتكيء على تلك العتبة ويعتبرها مخولا له في الفتيا والدخول في كل مسألة عظيمة !! إليك كيف سيتفاعل أبو إكس مع هذا الحدث:

1. الرفض القاطع لجمع القرآن: عندما يُشير عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بضرورة جمع القرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفاظه في معركة اليمامة، سيقف أبو إكس رافضًا بشدة لهذا الاقتراح ، وحجته الرئيسية في ذلك ستكون: "هل فعله النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل ورد فيه نص خاص؟ هذا الفعل بدعة لم تكن في العهد الأول!" سيتشبث بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بجمع القرآن في مصحف واحد خلال حياته، وبالتالي فإن أي فعل من هذا القبيل يُعد إضافة غير مشروعة للدين.
2. تجاهل المصلحة العليا وحفظ أصل الدين: سيُغفل أبو إكس تمامًا المصلحة العليا التي دفعت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما إلى هذا القرار، وهي حفظ أصل الدين من الضياع. حتى بعد استشهاد حوالي 70 من القراء في اليمامة، مما يُمثل تهديدًا حقيقيًا لبقاء القرآن كاملاً في الصدور، سيُحاول أبو إكس تبرير عدم

الجمع ، وسيُصر على أن الحفظ في الصدور كافٍ، وأن الله تكفل بحفظ كتابه، وبالتالي لا داعي لأي "فعل جديد" من البشر.

3. تصنيف فعل الصحابة كـ"مُحدثات": سيُصنف أبو إكس فعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بجمع القرآن كـ"محدثات" أو "تغيير لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم". ففي عقليته، أي شيء لم يُفعل في العهد النبوي يُعتبر بدعة، حتى لو كان اجتهادًا من الخلفاء الراشدين يهدف إلى حماية الدين نفسه وفي الوقت ذاته يرى نفسه من الصحابة ومن السابقين الأولين وله الحق في أن يدلي برأيه ويعترض ويبين للمسلمين البدع التي يقع فيها الصحابة حفظا للدين ونصحا للأمة ! .

4. الجمود على الظاهر دون فهم المقصد: فلن يستوعب أبو إكس أن الصحابة اجتهدوا في أمر جديد لم يكن له نظير مباشر في حياة النبي، ولكنه كان ضرورة شرعية ملحة لحفظ القرآن. وسيُركز على أن "النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعله"، متجاهلاً أن النبي كان موجودًا بين أصحابه يُصحح لهم ويُعلمهم مباشرة، وأن الظروف تغيرت بعد وفاته. فهو لا يرى قاعدة مثل "الضرورات تبيح المحظورات" أو أن "المصلحة الراجحة تُقدم" لأنه يعترض دائما على مسألة المصالح والمفاسد .

سيعتبر أبو إكس المدخلي أن هذا الاجتهاد الجماعي من كبار الصحابة هو خروج عن "السنة النبوية المباشرة" و"منهج السلف الصالح"، وسيُهاجمه بشدة، ويُشكك في شرعيته، لأنه لم يُشهد له بـ"نص خاص" مباشر من النبي صلى الله عليه وسلم. هذا الموقف يُظهر التناقض الكبير بين العقلية الحرفية التي تُجمد الفقه، وبين منهج الصحابة الذي اتسم بالمرونة والقدرة على الاجتهاد لمواجهة المستجدات وحماية الدين.

المبحث الخامس : صراع أبو إكس المدخلي مع المصلحة العامة واعتراضه على توحيد المصاحف في عهد عثمان وإحراقها :

ولنتخيل مجددًا "أبو إكس المدخلي" بعقليته الحرفية التي تُشدد على "النص الخاص في المسألة" وتُحرم أي اجتهاد جديد أو وسيلة لم تكن موجودة في "العهد الأول"، ثم نُعيده زمنيًا ليعاصر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتحديدًا في لحظة قراره بتوحيد المصاحف وإحراق ما سواها.

هذا الموقف سيكون اختبارًا حقيقيًا وقاسيًا لأبي إكس، لأنه سيُصطدم بشكل مباشر مع اجتهاد جماعي عظيم من الصحابة الكرام، قاده خليفة راشد ، سيكون موقف أبي إكس المدخلي من هذا الحدث كالتالي:

1. الاعتراض الشديد على إحراق المصاحف: سيُصيح أبو إكس مُستنكرًا: "كيف تُحرقون مصاحف كُتبت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟ أليس هذا تبديدًا لوحي الله؟" سيعتبر هذا الفعل تعديًا على كلام الله، لأنه لا يرى فيه إلا إزالة لمصاحف مكتوبة.
2. التمسك بالحرفية وغياب النص الخاص: سيتساءل أبو إكس بغضب: "هل ورد نص خاص من النبي صلى الله عليه وسلم بإحراق المصاحف؟ هل أمر النبي بذلك؟" وبما أنه لا يوجد نص صريح مباشر من النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بإحراق المصاحف (بل كان الاعتماد على التلقي والحفظ المباشر)، فسيعتبر أبو إكس فعل عثمان "بدعة عثمانية"، أو "إحداثًا في الدين" لم يقم به النبي صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر.
3. تجاهل مصلحة وحدة الأمة ودرء الفتنة: سيُغفل أبو إكس تمامًا المصلحة العليا التي دفعت عثمان إلى هذا القرار. ولن يرى خطورة اختلاف القراءات بين الأمصار، والتي كانت قد بدأت تُحدث فتنة ونزاعًا

حول كتاب الله ، بل سيتجاهل أن الهدف كان توحيد كلمة المسلمين على مصحف واحد، ودرء شر أعظم يُهدد أصل الدين ووحدة الأمة. فعقليته الحرفية لا تُعطي وزنًا كافيًا لقاعدة "المصلحة العامة تُقدم على المصلحة الخاصة"، أو "الضرورات تبيح المحظورات"، خاصة إذا لم يرد فيها نص مباشر.

4. الطعن في إجماع الصحابة: سيجد أبو إكس نفسه في مواجهة إجماع الصحابة على هذا الفعل (أو على الأقل عدم اعتراض جمهورهم). لكنه سيُشكك في هذا الإجماع، أو سيُحاول تبريره بأن الصحابة "اجتهدوا" وأخطأوا، أو أنهم "خالفوا الأولى"، طالما أن فعلهم لم يكن منصوصًا عليه بشكل مباشر أو مُطابقًا تمامًا لما كان في "العهد الأول".

5. الإنكار على القراءات الأخرى: قد يذهب به الأمر إلى الإنكار على وجود قراءات أخرى غير القراءة التي يُشهد عليها بمصحف عثمان، على الرغم من أن تلك القراءات متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجمع المصاحف كان لتوحيد الرسم لا لإلغاء القراءات المشروعة.

وسيكون تعامل أبو إكس المدخلي مع قرار عثمان بن عفان رضي الله عنه بتوحيد المصاحف وإحراق ما سواها من منطلق رفض قاطع لأي اجتهاد يُخالف الظاهر أو لم يرد فيه نص خاص صريح، حتى لو كان هذا الاجتهاد يهدف إلى تحقيق مصلحة شرعية كبرى، ودرء مفسدة عظيمة، وقد أجمعت عليه الأمة بعد فترة من الزمن. هذا الموقف يُسلط الضوء على الفجوة الكبيرة بين منهجه الحرفي الضيق، وبين المنهج الفقهي الأصيل الذي يوازن بين النصوص والمقاصد والأحوال المتغيرة.

المبحث السادس : صراع أبو إكس المدخلي مع التعددية الفقهية واختلاف الصحابة في مسألة التمتع:

ولنتخيل "أبا إكس المدخلي" الذي يرى نفسه أحد علماء وفقهاء الصحابة ! بل يرى نفسه إمام الجرح والتعديل فيهم ! فيصور نفسه صاحب المنهج الأقوم في تطبيق ما يراه "المنهج الصحيح" الواحد، ورفضه للتعددية الفقهية، وتصنيف المخالفين (حتى لو كانوا من السلف) بأنهم خرجوا عن "الصراط المستقيم" أو ارتكبوا "بدعة"، كيف سيتعامل أبو إكس مع ظاهرة اختلاف الصحابة الكرام، وعلى رأسهم ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، في مسألة التمتع بالعمرة إلى الحج (متعة الحج)؟

هذه المسألة تُعد مثالاً كلاسيكيًا على الاجتهاد البشري في فهم النصوص، وعلى وجود أكثر من رأي بين الصحابة الكرام في خير القرون ، وسيكون موقف أبي إكس المدخلي سيتسم بالتالي:

1. صعوبة التعامل مع الاختلاف والتأكيد على "نص خاص" واحد:

سيجد أبو إكس صعوبة بالغة في تقبل وجود اختلاف بين كبار الصحابة في مسألة عملية كهذه. ففي عقليته، الحق واحد، والاجتهاد ينبغي أن يُفضي إلى رأي واحد لا غير، خاصة في زمن الصحابة. وقد يُحاول "ترجيح" أحد القولين بشكل مطلق، واعتباره هو "السنة"، ثم يرى القول الآخر على أنه "خطأ" أو "زلة" لا يجوز الأخذ بها، رغم أن كلا القولين لهما أدلتهما القوية وعليهما أئمة كبار. وربما يقع في صاحب القولين بأسباب يبديها ليكون قوله وحده هو الصحيح ، فيقدم نفسه ويطعن في الباقين .

وسيُحاول أبو إكس البحث عن "نص خاص" يُنهي الخلاف بشكل قاطع ويُرجح رأيًا واحدًا فقط، وإذا لم يجده، فقد يتهم من اختلف بأنهم لم يصل إليهم "النص الصحيح" أو أنهم "خالفوا الدليل".

2. الطعن في "منهج" المخالف:

رأي ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عباس رضي الله عنهما من كبار الصحابة المجيزين والمُصرّين على جواز التمتع بالحج ، وكان يُفتي به ويُشدد عليه. ورأي ابن عمر رضي الله عنهما: كان ابن عمر رضي الله عنهما من الممانعين للتمتع، ويراه مخالفًا للسنة، ويُفضل الإفراد أو القران ، وهنا لا يخرج حال أبو إكس عن كونه قد ينظر إلى موقف بن عباس بعين "التساهل" أو "الاجتهاد الذي غاب عنه الدليل" أو "الاجتهاد الذي أدى إلى مخالفة السنة الثابتة" (وفق رؤيته المعتادة) وهنا سيُعجب بموقف ابن عمر، ويُقدمه على أنه "الأثبت" أو "الأكثر تمسكًا بالسنة" ، أو العكس ! ، مع أنه في الحقيقة كليهما اجتهد بناءً على فهمه للسنة ، وليست المشكلة في الذهاب إلى أحد المذهبين بقدر نظرته إلى صاح بالرأي الآخر ! لإنه سيبدعه ويشنع عليه بل وسيعد ذلك من طوامه وبدعه !

3. رفض التعددية الفقهية والتقليل من شأن الأئمة الذين تبنوا أحد الرأيين:

لن يُدرك أبو إكس أن اختلاف الصحابة في هذه المسألة هو رحمة للأمة وتوسعة عليها، وأن كلًا من القولين بُني على دليل واجتهاد مقبول ولن يتقبل أن الأمة وسعت هذا الخلاف، وأن الأئمة الأربعة وغيرهم اختلفوا في تفضيل أنواع النسك (إفراد، قران، تمتع)، وأن هذا كله من سعة الفقه الإسلامي بل سيسعى إلى "توحيد القول" واعتبر كل ما سواه "بدعة" أو "ضلالة" لا يجوز الأخذ بها. إذا أخذ أحد من الصحابة أو غيرهم بقول ابن عباس بالتمتع، فقد يُقلل أبو إكس من شأن اجتهاده أو يرى أنه "جانب الصواب". وهكذا مع من أخذ بقول ابن عمر.

فموقف أبي إكس المدخلي من اختلاف الصحابة في مسألة التمتع سيُظهر عجزه عن استيعاب حقيقة التعددية الفقهية المشروعة في الإسلام ، وسيعتبر هذا الاختلاف "شرًا" يجب القضاء عليه وتوحيد الناس على رأي واحد يراه هو "الصحيح"، حتى لو أدى ذلك إلى تبديع أو تسفيه آراء كبار الصحابة والأئمة ، وهذا يُبرز مدى ضيق أفقه، ورفضه لروح التيسير والسعة في الشريعة، واعتقاده بأن "الحق" يُمثل في فهم واحد وحرفي للنصوص لا يقبل أي اجتهاد مُخالف.

المبحث السابع : أبو إكس المدخلي مع الأئمة الأربعة وعلماء العصور اللاحقة:

سيجد أبو إكس الأثري نفسه في صراع مستمر مع الواقع ومع كبار الصحابة والأئمة أنفسهم، الذين مارسوا الاجتهاد، وراعوا المقاصد، وتفهموا تغير الظروف والحاجات. عقليته الحرفية التي تُحرم كل ما لم يثبت بـ"نص خاص" مباشر، وتُحمل العصور اللاحقة على ما كان في "العهد الأول" دون مراعاة لروح الشريعة ومقاصدها الكلية، ستجعله يرفض غالبية التطورات التي حفظت الدين وقربته للناس، وسيُصنف كبار الصحابة والأئمة على أنهم "مبتدعون" أو "مخالفون للسنة". هذا يُبرز خطورة التشبث بالظاهر دون فهم العمق، والجمود في فهم النصوص دون إدراك لروح الشريعة ومرونتها.

مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن: سيُحرم أبو إكس أخذ الأجرة على تعليم القرآن، مُستدلًا بحديث "اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به"، وسيتهم من أجازها كالإمام الشافعي وغيره بأنهم "يُخالفون النص" و"يُدخلون البدعة في الدين"، حتى لو كان المنع سيؤدي إلى انقطاع تعليم القرآن في عصر ندر فيه المتطوعون.

مسألة تدوين السنة: لو عاصر أبو إكس مرحلة بداية التدوين الرسمي للسنة، لكان قد عارضها بشدة، مُتمسكًا بـ"النهي النبوي عن الكتابة"، مُتهمًا عمر بن عبد العزيز والإمام الزهري ومن تابعهما بـ"الإحداث في الدين" و"مخالفة السنة النبوية".

مسألة بيع الوفاء: سيُحرم أبو إكس بيع الوفاء منعًا مطلقًا، مُتهمًا الحنفية الذين أجازوه بضوابط معينة لحاجة الناس بأنهم "أباحوا الربا بغير نص صريح" أو "تلاعبوا بالدين" ، دون فهم لظروف الناس الاقتصادية الصعبة.

تطور كتابة المصاحف (النقط والشكل): سيُعارض أبو إكس وضع النقط والشكل في المصاحف، مُعتبرًا ذلك "بدعة في القرآن" لم تكن موجودة في عهد النبي وعثمان، وسيرفض استخدام الألوان في المصاحف لتمييز أحكام التجويد، مُطالبًا بالبقاء على الرسم العثماني الخالي من النقط والشكل، حتى لو أدى ذلك إلى صعوبة قراءة القرآن على الأجيال الجديدة وغير العرب.

المبحث الثامن : موقف أبو إكس المدخلي من خلافة علي ومعاوية رضي الله عنهما :

لن ترى من أبي إكس موقفا صريحا يقف فيه مع الحق ومع الخليفة الراشد الذي اجتمع عليه أهل الحل والعقد في المدينة وقلدوه الحكم وهو علي بن أبي طالب ! بل ربما تجده يبرر لأحد ولاته على الشام وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فعله ويجوز له الاعتراض على إجماع الصحابة ويبيح له عدم الدخول في إجماع المسلمين درأ للفتنة ! وعدم تنفيذ رؤية عثمان الذي يطالب هو بدمه وبقتلته ! إذ إن عثمان رضي الله عنه نفسه لم يقاتل من قاتله وهو أحق بذلك ! ومنع كل من في الدار من الذب عنه ! وآثر الموت شهيدا وأن لا يرفع سيفا ! ومنع الصحابة في المدينة من رفع السلاح ! حتى قضى إلى ربه شهيدا يقرأ القرآن

، ثم وقف معاوية موقفا صلبا ل يلين فيه مطلقا ينادي بدم عثمان والثأر من قتلته ! ويكأن عثمان رضي الله عنه لو كان حيا لقال لمعاوية رضي الله عنه : (أنا من منعت الناس الدفاع عني ، دعك مما أنت فيه وادخل في صف المسلمين وما أجمعوا عليه) لا غير ! ولكن قدر الله ووقعت الفتنة وانقسمت الأمة إلى فئتين عظيمتين دعواهما واحدة ! أحد تلك الفئتين هي الأمة الإسلامية على رأسها الخليفة الراشد المختار من أهل الحل والعقد هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ! والثانية هي الشام وواليها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أحد ولاة الخليفة الراشد !

فماذا ياترى موقف أبو إكس من هذه الفتنة ! هل سينحاز إلى الخليفة الراشد خليفة المسلمين علي بن أبي طالب ! أم إلى والي الشام معاوية بن أبي سفيان ! ، لا شك أنه سيعارض اجماع المسلمين كعادته وسينحاز إلى والي الشام ويقف في صفه ! بتبريرات مقبولة عقلا من جانبه ! – لا ينكرها عاقل ولكن ليس هذا وقتها - .

لقد أجمع المسلمون على خلافة علي بن أبي صالب رضي الله عنه ولكن أحد ولاته رفض البيعة إلا أن يأتي بقتلة عثمان ! ويكأنه يقارن نفسه وهو وال على مصر من الأمصار بخليفة المسلمين ! بل ويعانده ويعارضه ويشترط عليه قبل أن يبايعه ! ويمتنع عن بيعته ، ثم يجترىء ويجيش الجيوش لقتاله أيضا ! كل هذا وهو مجرد وال من ولاة الأمصار ! ، فهنا نجد أبا إكس يقف معه ويعتبره الخليفة الشرعي مع أنه ليس بخليفة ولا شيء ! - ولكم في أحداث ليبيا وحكومتها المعتبرة المعترف بها مع الجنرال حفتر الذي قلدته أمريكا زمام قطعة من البلد ودعمته بالمال والسلاح لينازع الحكومة عبرة ، فالمداخلة يؤيدون هذا الجنرال لأنه شق عصا الطاعة لا لأنه وال شرعي أو متغلب على الجميع ، إذ ليس بوال شرعي للبلاد ولم يتغل على الدولة بل خرج عليهم بالسلاح وأحدث فتنة فتنبه - !

سيجد أبو إكس لنفسه المبررات التي قال بها طرف معاوية رضي الله عنه ، ولن يتراجع ، ولن يعتبر إحجام معاوية عن بيعة الخليفة خروجا عليه ! لماذا ؟! من غير لماذا ! هي هكذا !

هل سينادي أبو إكس معاوية رضي الله عنه بالتنازل عن مطالبه - التي لان لها علي رضي الله عنه وأرجأها إلى حين - حتى تهدأ الأمور ؟! كلا لن يفعل أبو إكس ! ولكنه سيؤجج نار الفتنة لتقع المقتلة العظيمة ، كما وقعت .

ولن تجد من أبي إكس الاعتراف بولاية علي رضي الله عنه ووجوب طاعته والسمع له والدخول في جماعة المسلمين ، وستجد من موقف أبي إكس تقديم مصلحة الشخص على مصلحة الاستقرار وعلى أي اعتبار آخر !

رضي الله عن الصحابة أجمعين وعفا عنا وعن إخواننا الذين سبقونا بالإيمان وجنبنا والمسلمين مواطن الزلل والفتن.

المبحث التاسع : تشديد أبو إكس المدخلي على طاعة ولي الأمر يزيد بن معاوية والفتيا بقتل الخوارج ومحرضهم الحسين :

ولنتخيل "أبا إكس المدخلي" الذي يُعرف بترويجه وتأييده الشديد لمبدأ الطاعة المطلقة لولي الأمر في كل شيء ، حتى ولو كان هذا الإمام فاسقًا أو ظالمًا أو كافرا كفرا أكبر- ولا يخفى قول بعضهم أن شنودة لو تمكن يصير ولي أمر شرعي - ، وبإنكاره الشديد لأي شكل من أشكال "الخروج لإقامة الحاكم العادل " أو النقد العلني للحاكم، وتصنيفه للمعارضين أو الإصلاحيين بـ"الخوارج" أو "المبتدعة" لمجرد انتقاد الحاكم ولو

أباح الحاكم وسمح بذلك الانتقاد – كالمظاهرات أو برامج التوك شو – فإن أبا إكس يحكم على الشخص الذي يمتثل قول الحاكم وقانونه بالخوارج ويسكت عن الحاكم الذي أباح ذلك ! .

وبتطبيق منهج أبي إكس المدخلي على شخصية تاريخية كيزيد بن معاوية، الذي اشتهر بالفسوق والفجور وشرب الخمر وغيرها من الموبقات (وفق روايات تاريخية متعددة) فضلا عن موقفه التاريخي الشنيع من الحسين بن علي رضي الله عنهما ! ، فإن موقفه سيكون ثابتًا ومتوقعًا تمامًا، مستندًا إلى سلوكه مع ولي الأمر الحالي:

1) الاعتراف بولايته ووجوب طاعته:

لا شك أن المتغلب مهما كان فسقه لا يوجب على كل فرد الخروج عليه ومناوئته ! بل كل بحسبه ، ولذلك رضخ كثير من الصحابة لحكم يزيد ! ، ولكن حينما يكون في مقابلته الحسين بن علي رضي الله عنهما فالقول يختلف كثيرا ، سيرى أبو إكس أن يزيد بن معاوية ولي أمر شرعي، بغض النظر عن فسقه أو فجوره أو كيفية تقلده الحكم ! وهذا لا شك في جواز تمريره لأمن الفتنة ، ولكن مع ظهور أهل الصلاح والتقوى والأحقية بالأمر كالحسين رضي الله عنه فالقول مختلف !

منهج أبو إكس يُقر بأن الولاية تثبت بالغلبة والقوة، أو بالبيعة التي تمت له، وأن الخروج عليه يُعد شقًا لعصا الطاعة وإفضاءً إلى الفتنة ، وسيُشدد على أن الأحاديث النبوية التي تأمر بالسمع والطاعة لولي الأمر، حتى وإن ضرب الظهر وأخذ المال، تنطبق تمامًا على يزيد. وبالتالي، فإن طاعته كانت واجبة على المسلمين في عصره ، ولذلك ما فعله الحسين بن علي رضي الله عنه خروج على ولي الأمر يجب قتالهم والتشريد بهم كما حدث !

2) تحريم الخروج عليه أو نقده العلني:

سيعتبر أبو إكس أي محاولة للخروج على يزيد، مثل خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما، أو ثورة أهل المدينة (كما في واقعة الحرة)، خروجًا محرمًا شرعًا، يُسبب الفتنة وسفك الدماء. وسيُصنف أي نقد علني ليزيد، أو فضح لفسقه، بأنه مُحرض على الفتنة وشق لصف المسلمين، وأنه يُخالف منهج السلف في النصح السري لولي الأمر. فمنهج أبي إكس يُقدم الحفاظ على "وحدة الكلمة" و"عدم شق الصف" على إنكار الفسق الظاهر للحاكم.

3) التبرير أو التقليل من شأن فسقه:

سيلجأ أبو إكس إلى التقليل من شأن فسق يزيد وفجوره، أو يرى أن الروايات الناقلة لذلك "مبالغ فيها" أو "مكذوبة" من قبل خصومه. فهدفه هو الحفاظ على "صورة الحاكم" و"وجوب طاعته" في ذهن الأمة. إذا لم يتمكن من نفي الفسق، فسيُبرر ذلك بأن فسق الحاكم لا يُسقط ولايته ولا يُجيز الخروج عليه، مستدلًا بأن مفسدة الخروج أكبر من مفسدة فسق الحاكم.

4) الهجوم على المعارضين ووصفهم بالخوارج مهما كان شأنهم :

سيُهاجم أبو إكس كل من خالف يزيد أو أنكر عليه علنًا، ويُصنفهم بـ "الخوارج" أو "أهل الفتن" أو "المبتدعة" الذين يُخالفون "المنهج السلفي الصحيح" في طاعة ولي الأمر والصبر عليه. وسيشمل هذا الطعن شخصيات تاريخية عظيمة مثل الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وسيستشهد ببعض كلام النبي صلى الله عليه وسلم يعظم فيه من أمر الدين والسنة ويهضم حق آل البيت ! كحديث (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع

محمد يدها) فسيزعم أن قرب الحسين من النبي وصلاحه لا يبرر له الخروج على الحاكم وهو بذلك مستوجب للعقاب كما في الحديث (شر قتيل قتيلهم) يعني الخوارج !فسيحرض على قتال الحسين ولن يبالي بكونه أحق بالأمر أو أنه بن بنت رسول الله أو أنه سيد شباب أهل الجنة !

5) تقديم مصلحة الاستقرار على أي اعتبار آخر:

فالمحور الأساسي في موقف أبي إكس سيكون مصلحة الحفاظ على الأمن والاستقرار بحد زعمه ، فالسكوت عن فسق الحاكم وظلمه بل واجب الوقت حفاظا على أمن الرعية – أي رعية بلا اهتمام بدينهم - ، وإن كان ثمنه قتل ثلث الشعب ليسلم – في نظره – الثلث الباقي ! ، فيقتل الثلث المصلح المريد للخير الذي يطالب بحاكم يطبق شرع الله ويقيم دينه لأنهم خوارج ويسلم الثلث الفاسق لأنهم راضون بفسق الحاكم وسعيدون به !! . فمنهج أبي إكس يُعلي من شأن "مفسدة الفتنة" بشكل مطلق، ويُقدمها على أي مفسدة أخرى قد تنجم عن ظلم الحاكم ، ولذلك خروج الحسين وبن الزبير على الحاكم غير جائز شرعا بل ويجب قتالهم لوأد الفتنة التي يشرعون في فتحها ! بغض النظر عن كون الحسين خير من تحت أديم السماء ، وإذا كان الحسين أحق بالخلافة من أبيه رضي الله عنه فهو الأفضل وهو الأحق بالخلافة – وتولي معاوية الخلافة من باب جواز تولي المفضول في وجود الأفضل - ، ألا يكون الحسين أحق بالخلافة منه – أي يزيد - ومن ملء الأرض ممن هو خير منه !

المبحث العاشر : أبو إكس المدخلي بين معاوية رضي الله عنه وابنه يزيد، وعلي وابنه الحسين رضي الله عنهما :

لنتخيل "أبو إكس المدخلي" بعقليته الحرفية التي تُشدد على طاعة ولي الأمر المطلقة، وترفض الخروج عليه بأي شكل من الأشكال، وتُصنف كل محاولة للتغيير السياسي بغير الطرق التي يرتضيها بأنها "فتنة" أو "خروج" على الشرع. عند تناول موقف معاوية رضي الله عنه من الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقصة الحسين بن علي رضي الله عنهما وخروجه على يزيد بن معاوية، سيكون موقف أبي إكس واضحًا وحادًا ومتضادا ، ويتسم بالموافقة التامة لمعاوية ! والرفض التام لفعل الحسين !!.

حينما كان علي هو الخليفة الراشد المجمع على خلافته ! لم يقف أبو إكس موقفا واضحا يخطىء فيه من تقاعس عن مبايعة الخليفة وتأليب الناس عليه ومنعهم من مبايعته ! في حين لما كان معاوية خليفة مجمعا عليه وورث ولده يزيد الخلافة ! فاعترض عليه الحسين رضي الله عنه ولم يبايعه ومعه أهل المدينة وقف أبو إكس موقفا صارما وواضحا من الخوارج الذين خرجوا على الخليفة ! ، وهو تناقض واضح .

لذلك سيُطبق أبو إكس المدخلي منهجه الحالي في التعامل مع الحكام على يزيد بن معاوية متناسيا ما كان من موقفه مع أبيه معاوية رضي الله عنه حينما نزع يدا من طاعة الخليفة المجمع عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فسيرى أن يزيد ولي أمر واجب الطاعة دون النظر لحاله وحال تقليده الحكم وحال من هم أولى منه ! ، وأن أي خروج أو نقد علني له يعتبر محرمًا وسببًا للفتنة، بغض النظر عن سلوك يزيد الشخصي أو مدى التزامه بالشريعة. وهذا الموقف يُسلط الضوء على جمود منهجه الذي يرى الطاعة السياسية كأصل مُقدم

على أي اعتبار آخر، حتى لو كان ذلك على حساب قيم العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياقاتها الكبرى.

وتتلخص نظرة أبي إكس المدخلي لهذا الأحداث بما يلي:

1) التناقض في تحريم الخروج على ولي الأمر: سيُشدد أبو إكس على أن يزيد بن معاوية ولي أمر شرعي ، سواء بايعَه أهل الحل والعقد، أو تولى الأمر بعد أبيه بالوراثة . وبناءً على فهمه الحرفي لأحاديث تحريم الخروج على ولي الأمر، حتى لو كان جائرًا أو فاسقًا، سيُصنف خروج الحسين رضي الله عنهما على أنه "خروج على ولي الأمر"، وهو ما يُعتبر في منهجه من كبائر الذنوب التي تُسبب الفتنة وسفك الدماء وعليه يجب قتاله ومن معه بغض النظر عن شخصيته وقيمته ! ، في حين سكوت أبي إكس عن إسقاط هذا الأمر على معاوية رضي الله عنه حينما امتنع عن مبايعة علي بن أبي طالب وكان سببا في منع أهل الشام من مبايعة الخليفة والانخراط في صف الأمة الإسلامية وسوادها الأعظم .

2) التناقض في زعم مفسدة الفتنة: يرى أبو إكس أن المقصد الأساسي من الأحاديث التي تنهى عن الخروج هو الحفاظ على وحدة الجماعة المسلمة ودرء الفتنة وسفك الدماء. وبالنظر إلى ما نتج عن امتناع معاوية رضي الله عنه من مبايعة الخليفة فإن أبا إكس لن يحكم على معاوية بالخروج على الحاكم ! ولكنه سيعد خروج الحسين وما حدث من أحداث دامية وفتن استمرت طويلًا فتنة، فامتناع معاوية عن البيعة في نظره جائز وامتناع الحسين عن البيعة في نظره محرم ! وخروج معاوية بجيشه لمقاتلة الخليفة جائز وفتنة ولا نتكلم فيها وخروج الحسين للخليفة ليقابله ويكلمه فتنة يجب وأدها ! .

3) التناقض في فكرة الإصلاح السياسي بالقوة: سيعترض أبو إكس على فكرة أن الحسين خرج بقصد الإصلاح أو إقامة الحق. ففي نظره، الإصلاح يجب أن يتم بالنصح السري لولي الأمر، وعدم إثارة الفتن أو إعلان المعارضة. أي محاولة لتغيير الواقع السياسي بالقوة، حتى لو كانت دوافعها نبيلة، تُعتبر مرفوضة شرعًا إذا لم تأت بنص خاص يجيزها أو تتوافق مع فهمه الحرفي. وهو ما يختلف تماما عن موقفه من معاوية رضي الله عنه مع الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه !

4) الطعن في اجتهاد الحسين وتبرير اجتهاد معاوية : فعلى الرغم من إجلاله للحسين كسبط للنبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن أبا إكس المدخلي سيعتبر اجتهاد الحسين في الخروج خاطئًا أو غير موفق شرعًا. وسينظر إليه كـ"اجتهاد مغلوط" أدى إلى مفاسد عظيمة، ويُعدُّ في نظره مخالفًا للمنهج السلفي "الصحيح" الذي يرى الطاعة المطلقة وعدم الخروج. في حين سكوته تماما وعدم تخطئته لاجتهاد معاوية رضي الله عنه !

5) التناقض في دعوى وجوب السمع والطاعة: سيرُكز أبو إكس على الأحاديث التي تأمر بالسمع والطاعة لولي الأمر وإن ضرب الظهر وأخذ المال، وسيُطبقها بشكل مطلق على يزيد، وبالتالي يرى أن الحسين بن علي رضي الله عنهما خالف هذا الأصل ووجب قتاله بغض النظر عن كونه سبط رسول الله وسيد شباب أهل الجنة ! قياسا على حديث (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) ! وسيغض الطرف تماما عن عدم سمع معاوية وطاعته للخليفة الراشد الذي اجتمعت عليه الأمة كلها !

6) تجنب الخوض في "الخلافات التاريخية" مع معاوية وعلي رضي الله عنهما : سيقول أبو إكس بضرورة عدم الخوض في "الخلافات التاريخية" بين الصحابة ، ولكن هذا الموقف يُستخدم غالبًا

لتبرير عدم مناصرة طرف يرى أبو إكس أن فعله كان "خروجًا". فهدفه هو التبرؤ من أي فعل يُمكن أن يُفهم منه معارضة ولي الأمر.

ولذلك سينظر أبو إكس المدخلي لموقف الحسين من منظور صارم يُقدم مصلحة عدم الخروج على ولي الأمر وتحقيق الاستقرار (ولو كان ظالمًا) على أي مصلحة أخرى، حتى لو كانت إقامة العدل أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر السياسي. في حين كونه لم يقل بهذا القول في شق معاوية رضي الله عنه عصا الطاعة وعدم دخوله في صف جماعة المسلمين ! هذا الموقف يُظهر التزامه بفهم حرفي لبعض النصوص التي تخدم أهدافه ، ورفضه لفقه المآلات والموازنات المعقدة في قضايا الحكم التي تتطلب اجتهادًا أوسع وأعمق.

المبحث الحادي عشر : أبو إكس المدخلي وموقفه من تغيير الإمام الشافعي لمذهبه:

لو عاصر أبو إكس المدخلي الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، لا شك أنه سيعد نفسه من أئمة الجرح والتعديل ، ولن يعبأ بالشافعي أصلا ! ، وسيكون من مثالب الشافعي لدى أبي إكس وطائفته تذبذب الشافعي في فتاواه وأقواله ، وسيُصدم أبو إكس المدخلي صدمة عنيفة بفتاوى الإمام الشافعي الجديدة والتي تظهر تغيير مذهبه الذي لأفتى به في العراق ، ولأنه يرى رأسه برأس الشافعي إن لم يكن يرى الشافعي غير مؤهل للفتيا ولا للصدارة سيكون موقفه كالآتي:

1) اتهام الإمام بالبدعة والتناقض :سيُسارع أبو إكس باتهام الإمام الشافعي بـ"التناقض" و"التلون" في الدين. وسيُصر على أن "الحق واحد لا يتغير"، وأن "منهج السلف لا يتبدل"، فكيف لإمام أن يكون له رأيان مختلفان في المسألة الواحدة؟ وسيعتبر هذا التغيير "بدعة" لم تكن موجودة في "العهد الأول" (عهد الصحابة، حيث لم يتنقل أحد بمذهبين بهذا الوضوح). وسيحمل أهل الأمصار كلهم

على فتاواه في المدينة التي يعيش فيها ولن يأخذ في اعتباره اختلاف المحل ولا الناس ! كما هو حاله اليوم تماما !.

2) رفض فقه المآلات والمصالح : فلن يقتنع أبو إكس بحجة تغير الأعراف أو بروز أدلة جديدة أو نضج الاجتهاد. ففي عقليته، يجب أن يبقى الحكم ثابتًا ما دام النص ثابتًا، دون اعتبار لتغير الظروف والمآلات والمصالح التي بُني عليها الاجتهاد. ومع كونه لا يقول بهذا القول إلا أنه يلزم غيره بهذا ! فمتى تغير قول فقيه رماه بالتذبذب والتناقض ! ولن يعترف بأن هذا اختلاف الفتوى بحسب المفتي والمستفتي ! .

3) الطعن في تلاميذ الشافعي :سيتهم أبو إكس تلاميذ الإمام الشافعي الذين نقلوا المذهبين واختاروا الجديد بأنهم "تواطؤوا على مخالفة السنة" أو "ابتعدوا عن منهج السلف" وجهلهم بالأدلة وتكبرهم عن قبول مذهب السلف فهم ضلال في هذا الباب ! بتبنيهم لأقوال لم تكن موجودة في "المرحلة الأولى" من فقه الشافعي (أي مذهبه القديم).

4) الجمود على النص الظاهر : سيتشبث أبو إكس بالقول "لم يرد نص صريح من النبي صلى الله عليه وسلم يجيز لإمام أن يغير مذهبه بهذا الشكل". فهو لا يرى أن الاجتهاد هو عملية مستمرة تتطور بتطور العلم والظروف، بل يرى أن كل شيء يجب أن يكون منصوصًا عليه بشكل مباشر أو مُطبقًا بحرفيته.

5) التشكيك في مرجعية المذهب الشافعي نفسه : وقد يصل به الأمر إلى التشكيك في مرجعية المذهب الشافعي ككل، لأنه "مذهب مبني على التغير والتناقض"، وهو ما لا يتفق مع رؤيته للثبات المطلق.

ولذلك سيعتبر أبو إكس المدخلي أن فعل الإمام الشافعي في تغيير مذهبه هو خروج على "الأثر" و"المنهج السلفي "الذي يتبناه أبو إكس، لأنه يُمثل ديناميكية الاجتهاد التي يرفضها. وستظهر هذا المباينة بين الفقه الذي يراعي الواقع والمآلات، وبين الفكر الحرفي الظاهري الذي يُجمد الفقه ويُضيّق على الأمة، حتى لو كان ذلك على حساب إمام عظيم كالإمام الشافعي الذي يُعتبر من أركان أهل السنة والجماعة.

المبحث الثاني عشر : أبو إكس المدخلي وموقفه من نشأة دولة المرابطين في المغرب العربي:

ولنتخيل موقف "أبي إكس المدخلي" بعقليته الحرفية التي تُشدد على الطاعة المطلقة للحاكم القائم (ولو كان ظالمًا)، وتُحرم أي خروج أو نقد علني له، وتُبدّع كل من يُخالف هذا المنهج، وتُقدم إرضاء الحكام على أي مصلحة أخرى. كيف كان سيتعامل أبو إكس مع نشأة دولة المرابطين في المغرب العربي، وهي دولة قامت في الأساس على ثورات إصلاحية ضد أنظمة قائمة؟

نشأت دولة المرابطين على يد عبد الله بن ياسين الجزولي، الذي قاد حركة إصلاحية ودعوية في الصحراء الكبرى، ثم تحولت إلى حركة عسكرية قاومت حكم ملوك الطوائف في الأندلس وبعض أمراء البربر في المغرب الذين كانوا متفرقين وضعفاء، ووصل الحال بهم إلى تولي بعض حكامهم من غير المسلمين أو التحالف معهم. فقام المرابطون بـ "الخروج" على هذه الإمارات وأسسوا دولتهم، موحدين المغرب والأندلس تحت راية واحدة.

موقف أبي إكس المدخلي من هذه الدولة سيكون واضحًا ورافضًا بشكل قطعي كل محاولة إصلاح للمجتمع ، وسيحاول تبرير ذلك لا من ناحية السياسة ولكن من ناحية العقيدة والمنهج ، فبناءً على منهجه سيكون قوله مختلف كالآتي:

تحريم "الخروج" على الحكام القائمين: سيعتبر أبو إكس حركة ابن ياسين والمرابطين "خروجًا مسلحًا" على الحكام الشرعيين القائمين (ملوك الطوائف وأمراء البربر)، حتى لو كانوا ضعفاء أو فاسقين أو متعاونين مع الأعداء. ففي نظره، الطاعة واجبة ما دام الحاكم قائمًا ولم يأت بكفر بواح فيه نص قاطع.

تصنيفها كـ"فتنة": سيصنف أبو إكس ما قام به المرابطون على أنه "فتنة" أدت إلى زعزعة الاستقرار وإراقة الدماء، حتى لو كان الهدف منها هو الإصلاح وتوحيد المسلمين.

تبديع منهجهم: سيبدع أبو إكس منهج المرابطين لأنه قام على "التغيير بالقوة" بدلاً من "الصبر" و"النصح السري" للحكام. فضلا عن آحاد المسائل الأخرى في غير مسألة الحكم والطاعة .

المبحث الثالث عشر : نظرة أبو إكس المدخلي للدولة العثمانية:

إن تحليل موقف "أبي إكس المدخلي" من الدولة العثمانية وعلاقتها ببعض الجماعات الحديثة كـ"الإخوان المسلمين" يتطلب فهمًا عميقًا لمنهجه الذي يُقدم الأصول العقدية (وفق فهمه) والطاعة المطلقة للحاكم على أي اعتبار آخر، ويُصنف أي مخالفة عقائدية أو منهجية (حتى لو كانت تاريخية بعيدة) على أنها "بدعة" أو "ضلالة".

فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية لم تعاصر الإخوان المسلمين بمعناهم الحديث (الذين ظهروا في أوائل القرن العشرين بينما سقطت الخلافة العثمانية في عام 1924)، إلا أن أبا إكس المدخلي لو كان معاصرا للدولة العثمانية لم يكن له أن يؤيدها ، بل كان سيخرج عليها ويقاتلها ويفتي بقتالها ولن يعتبرها خلافة ولا دولة

ولن يعتبر ولاتها أولياء أمر شرعيين تجب طاعتهم والسمع لهم والطاعة ، وسيربط بينهما من زاوية "الانحراف العقدي" و"المنهج المخالف" ، وسيكون موقف أبي إكس المدخلي من الدولة العثمانية كالتالي:

1. اتهام الدولة العثمانية بالابتداع العقدي (الأشعرية والماتريدية):

- الخلاف العقدي هو الأساس: إن جوهر اعتراض أبي إكس على الدولة العثمانية سيكون عقائديًا بالدرجة الأولى ، وسوف يعتبر أن الدولة العثمانية، بحكم تبنيها الرسمي للعقيدة الأشعرية والماتريدية (وهما من المذاهب الكلامية السنية التي يُخالفها المدخلية في قضايا الصفات الإلهية، والتحسين والتقبيح العقليين، وغيرها)، هي دولة مبتدعة وضالة في عقيدتها.
- "الشركيات" و"الانحراف عن التوحيد": ففي نظر أبي إكس، تُعد العقائد الأشعرية والماتريدية "انحرافًا عن التوحيد الخالص" و"عقيدة أهل السنة والجماعة" (بمفهوم السلفية الوهابية التي يتبناها المدخلية). قد يذهب إلى أبعد من ذلك في اتهامهم بـ"الشركيات" بسبب توسعهم في بناء القباب والأضرحة والاحتفال بالموالد، والتي يُصنفها أبو إكس كـ"بدع شركية".
- "إضمار الحقد على التوحيد": وهذا التعبير (إضمار الحقد على التوحيد) هو جزء من الخطاب المدخلي تجاه كل من يُخالفهم في المذاهب العقدية، وخاصة من ينتمون للمذاهب الكلامية أو التصوف ، وسيرى أبو إكس أن الدولة العثمانية، بدعمها للمذاهب الأشعرية والماتريدية والصوفية، كانت تُحارب "التوحيد الخالص" (بمفهومهم) وتُناصر "البدعة والشرك".

2. رفض نموذج الحكم العثماني:

- عدم شرعية الخلافة: وعلى الرغم من أن العثمانيين حملوا راية الخلافة لقرون، إلا أن أبا إكس المدخلي قد يُشكك في شرعية خلافتهم، لأنها لم تقم على "منهج السلف" (الذي يُحدده هو)، ولأنها لم تُطبق التوحيد الخالص (من وجهة نظره)، ولأنها لم تكن على نموذج الخلافة الراشدة التي يدعو إليها.
- باب الولاء والبراء: وسيرى أن الانحرافات العقدية والمنهجية للدولة العثمانية تُوجب "البراء" منها، أو على الأقل عدم موالاة منهجها، وذلك حتى لو كانت تُدافع عن بلاد المسلمين.
- السمع والطاعة: وسيرى أبو إكس أن ولاة تلك الخلافة أو الدولة ليسوا أمراء ولا ولاة شرعيين وبالتالي يجب الخروج عليهم لأنهم مبتدعة ! وهو الذي يفتي في عصرنا بوجوب السمع والطاعة حتى لو كان المتغلب على الحكم كافرا حتى قال قائلهم (لو شنودة تمكن يبقى ولي أمر) .

3. الربط بين العثمانيين و"الإخوان المسلمين" (من منظور أبي إكس المدخلي):

وهنا تكمن النقطة الأكثر إثارة للجدل في نظرة أبي إكس، فالإخوان المسلمون كجماعة ظهروا بعد سقوط الخلافة العثمانية، ولكن أبا إكس يُقيم رابطًا بينهما لمجرد أن تلك الحركة والجماعة نشأت بسبب سقوط تلك الخلافة أملا في استعادتها ، من خلال:

- رميه لهم بـ "المنهج البدعي": لو عاصر أبو إكس الخلافة العثمانية سيرى أبو إكس أن الإخوان المسلمين - في نظره - يتبعون منهجًا "بدعيًا" في العقيدة (غالبيتهم أشاعرة أو ماتريدية أو لا يُركزون على الخلاف العقدي كما يُركز هو)، وفي السياسة سيرى كثيرا من أفعالهم مبتدعة كـ (مشاركتهم في

الديمقراطية وسيعتبرها خروج على بعض الحكام بسبب سعيهم للتغيير السياسي) ، هذا المنهج "البدعي" هو امتداد (ولو بصورة مختلفة) لما يراه في الدولة العثمانية.

- انتقاده تحصيل "المصلحة" ويزعم أنها على حساب "العقيدة": سيتهم أبو إكس الإخوان بأنهم يُقدمون "المصلحة السياسية" و"وحدة الصف" على "العقيدة الصحيحة" (وفق فهمه)، وهذا ما يرى أن العثمانيين كانوا يفعلوه أيضًا بدعمهم للمذاهب الأشعرية والصوفية التي لا تتفق مع منهج "التوحيد الخالص" المدخلي.
- ربطه التاريخي بين الخلافة العثمانية والإخوان: قد يُشير أبو إكس إلى أن الحركة الإسلامية الحديثة (وهي الإخوان) حاولت إحياء فكرة "الخلافة" بعد سقوط العثمانيين، مما يعني -في ذهنه- تبنيهم لنفس المنهج الذي يراه منحرفًا.

وبناءً على ذلك، سيُصنف أبو إكس المدخلي الدولة العثمانية بأنها "دولة مبتدعة" في عقيدتها ومنهجها، وأنها كانت "تُضمر الحقد على التوحيد" (بمفهوم السلفية المدخلية المعاصرة)، وسيرى أن أي جماعة مثل الإخوان المسلمين، تُشابهها في العقيدة (الأشعرية/الماتريدية) أو في منهج التغيير السياسي، هي أيضًا على نفس الطريق من "الانحراف والبدعة". هذه النظرة تُقدم رؤية أحادية للتاريخ الإسلامي، تُركز على الخلافات العقدية الصغرى (في نظره) وتُهمل الإنجازات الحضارية والسياسية الكبرى لتلك الدول، وتُظهر جمودًا في التعامل مع التنوع الفقهي والعقدي داخل أهل السنة والجماعة.

الفصل الثامن : أهمية معرفة الفرق الإسلامية العقدية لطلبة العلم والعامة:

إن دراسة الفرق الإسلامية المختلفة عقديًا أمر بالغ الأهمية، تتجلى حكمته وضرورته في عصرنا هذا الذي تتشابك فيه الأفكار وتتعدد فيه مصادر المعرفة ، وتتفاوت هذه الأهمية بين طلبة العلم الشرعي والعامة، وفيما يلي تفصيل ذلك انطلاقا من الأدلة الشرعية:

المبحث الأول: أهمية دراسة الفرق الإسلامية لطلبة العلم :

تعتبر دراسة الفرق لطلبة العلم الشرعي ضرورة لا غنى عنها، فهي جزء من واجب حفظ الدين وتبليغه، وذلك لعدة أسباب:

1. تحقيق العلم اليقيني بالعقيدة الصحيحة: بمعرفة مذاهب الفرق ومخالفاتها، يدرك طالب العلم عظمة العقيدة السلفية النقية (عقيدة أهل السنة والجماعة) وثباتها، ويعرف مواطن الانحراف ليجتنبها. "وبضدها تتبين الأشياء". لقول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] . فطلب العلم الشرعي الصحيح هو الطريق لمعرفة الحق والباطل.
2. القدرة على الرد على الشبهات: في زمن كثرت فيه الشبهات والأفكار المنحرفة التي تثار ضد الإسلام أو ضد العقيدة الصحيحة، يكون طالب العلم الذي درس الفرق مسلحًا بالمعرفة اللازمة للرد على هذه الشبهات، وكشف تهافتها، وبيان جذورها التاريخية والفكرية ، بقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ

---

[1] [النحل: 43]

الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [1] . لأن دحض الباطل يتطلب معرفته أولاً ، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ العلم، ومِن التبليغ دحض الشبهات.

3. حماية الدين وأهله: معرفة الفرق ومداخلها ومخارجها تمكن طالب العلم من الدفاع عن الدين، وحماية المسلمين من الوقوع في البدع والضلالات ، وهو من فروض الكفايات على الأمة حفظا للدين من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين." [2] . وهذا يتطلب معرفة ما ينفون.

4. فهم تاريخ الأمة: دراسة الفرق تفتح آفاقًا لفهم التاريخ الإسلامي، والتحولات الفكرية والسياسية التي مرت بها الأمة، وكيف أثرت هذه الفرق في مسارها.

5. التسلح بأدوات المناظرة والحوار: إذا أراد طالب العلم مناظرة أو حوارًا مع أصحاب الفرق المخالفة، فلا بد له من الإلمام بعقائدهم وحججهم ليكون قادرًا على إقناعهم بالحجة والبرهان ، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [3] . والمجادلة الحسنة تتطلب فهم حجج الطرف الآخر.

6. الالتزام بمنهج السلف: تذكر هذه الدراسة طالب العلم بضرورة التمسك بمنهج السلف الصالح، الذي هو منهج الفرقة الناجية ، لحديث افتراق الأمة المشهور: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من

---

[1] [الإسراء: 81]

[2] (رواه البيهقي وغيره وصححه الألباني)

[3] [النحل: 125]

هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي." [1] . معرفة الفرق الضالة تزيد طالب العلم تمسكًا بمنهج الفرقة الناجية.

المبحث الثاني : أهمية دراسة الفرق الإسلامية للعامة :

ويختلف الأمر بالنسبة للعامة عن طلبة العلم، فلا يُطلب من العامي أن يتعمق في دراسة الفرق بكل تفاصيلها ودقائقها، لكن دراسة الحد الأدنى الضروري من العقيدة الصحيحة ومعرفة أصول الانحرافات الكبرى أمر مهم، وذلك لعدة أسباب:

1. حماية النفس من الانحراف: في ظل الانفتاح المعلوماتي وتعدد الدعوات، أصبح العامي معرضًا لأفكار وشبهات قد تُلقى عليه من قنوات مختلفة. معرفة مبادئ العقيدة الصحيحة وأصول الضلال تمكنه من تمييز الحق من الباطل، وتجنب الوقوع في البدع أو الأفكار الهدامة ، لقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [2] . والبعد عن السبل المتفرقة يتطلب وعيًا بها.
2. تجنب الغلو أو التفريط: دراسة بسيطة للفرق تساعد العامي على فهم أن هناك مسلكًا وسطيًا بين الغلو والتفريط، وأن التطرف في أي اتجاه قد يودي بالمرء إلى منهج الفرق الضالة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين." [3] . ومعرفة الغلو تقتضي معرفة صوره في الفرق الضالة.

---

[1] (رواه الترمذي وحسنه الألباني)

[2] [الأنعام: 153]

[3] (رواه النسائي وابن ماجه وصححه الألباني)

3. معرفة من يتبع: معرفة العقائد الأساسية تجعل العامي أكثر وعيًا بمن يستمع إليه، ومن يأخذ عنه العلم، فلا يتبع أي داعية أو شيخ دون تمحيص منهجه العقدي ، قال ابن سيرين وغيره من السلف: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم."

4.

المبحث الثالث : هل يُلام العامي إذا لم يدرس العقائد والفرق؟ :

لا يُلام العامي على عدم التعمق في دراسة العقائد والفرق ومداخل كل فرقة ومخارجها وتفاصيل الخلافات الدقيقة ، لأن هذا التفصيل هو وظيفة طلبة العلم والراسخين لا وظيفة عامة الأمة ، فالواجب على العامي:

1. تعلم ما يصح به إيمانه وعبادته : بحيث يعرف أركان الإيمان وأركان الإسلام، وأن يعتقد العقيدة الصحيحة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره إجمالًا، وأن يؤدي عباداته الأساسية بالطريقة الصحيحة ، لحديث جبريل المشهور الذي بيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام والإيمان، وهو واجب على كل مسلم.
2. الاستقامة على الفطرة السليمة: بحيث يسلم لله وينقاد لأوامره، ويجتنب نواهيه، وأن يكون على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بشكل عام ، لقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1] .

---

[1] [الروم: 30]

3. سؤال أهل العلم الثقات: فمتى ما عرضت له شبهة أو اشتبه عليه أمر في دينه، فعليه أن يسأل أهل العلم المعروفين بصحة العقيدة والمنهج ، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] .

ولذلك لا يُلام العامي على جهله بتفاصيل الفرق ما دام ملتزمًا بالحد الأدنى الواجب عليه من تعلم العقيدة الصحيحة والاستقامة على منهج أهل السنة والجماعة بشكل إجمالي، مع الحرص على سؤال أهل العلم عند الحاجة. المهم هو سلامة العقيدة وصحة المنهج، حتى وإن لم يكن تفصيلياً كالمتخصصين.

المبحث الرابع : ذكر لبعض الفوارق بين أشهر الفرق :

1. الخوارج:

تعد الخوارج أول فرقة ظهرت في تاريخ الإسلام، وقد كانت نشأتهم بعد حادثة التحكيم في معركة صفين بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، حيث اعترضوا على التحكيم وقالوا: "لا حكم إلا لله"، وكفروا علياً ومعاوية وعثمان ومن رضي بالتحكيم.

وكان من أبرز رجالها ورموزها نافع بن الأزرق (زعيم الأزارقة)، ونجدة بن عامر الحنفي (زعيم النجدات).

ومن أشهر أقوالهم تكفير مرتكب الكبيرة (مثل الزنا أو السرقة) إذا لم يتب، والخروج على الإمام الجائر الذي يرون أنه خالف الشرع، ووجوب قتال مخالفيهم ، حيث يرون أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص، ويكفرون من لم يحكم بما أنزل الله.

[1] [النحل: 43]

فلو أن مسلماً كذب أو سرق، فالخوارج يعتبرونه كافراً، بينما أهل السنة يرونه فاسقاً لا يخرج من الملة.

وقد وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية" [1] .

2. الشيعة (بفروعها المختلفة):

نشأت الشيعة في فترة مبكرة أيضاً من تاريخ الأمة ، متأثرة بالصراع السياسي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ودعوا إلى أحقية علي بن أبي طالب وأهل بيته بالخلافة دون غيرهم، وأن الخلافة يجب أن تكون بالنص الإلهي أو النبوي. تطورت على مر العصور لتشمل مذاهب فقهية وعقدية متعددة (كالإمامية الاثني عشرية، والزيدية، والإسماعيلية).

كان من رموزهم في البدايات المختار الثقفي وبعض الثوار ، ومع تطور المذهب الشيعي ظهر أئمة كبار يعتبرون رموزاً لهم، كالإمام جعفر الصادق (الذي يُنسب إليه المذهب الجعفري).

وتختلف أقوالهم باختلاف فرقهم ولكن بشكل عام، يؤمنون بعصمة الأئمة الاثني عشر، وبعضهم بالغ في حب الأئمة حتى أوصلهم إلى مراتب الألوهية، ويقولون بالرجعة (عودة الأئمة قبل يوم القيامة)، وعقيدة البداء (تغير علم الله، تعالى الله عن ذلك) كما أن لديهم عقيدة التَّقية (إظهار خلاف الباطن خوفاً من الأذى).

---

[1] (متفق عليه)

وقد حذر القرآن والسنة من الغلو في الأشخاص حيث قال تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" [1] .

3. المعتزلة:

ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري في البصرة، ويُنسب ظهورها إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة شيخه الحسن البصري بسبب خلافهما حول حكم مرتكب الكبيرة وأبرز رجالها واصل بن عطاء، عمرو بن عبيد، بشر بن المعتمر، أبو الهذيل العلاف، والنظام ، ويقوم مذهبهم على خمسة أصول:

1. التوحيد: حيث ينفون الصفات الإلهية الزائدة على الذات (مثل صفة اليد أو الوجه)، ويؤولون آيات الصفات، وينفون رؤية الله في الآخرة.
2. العدل: حيث يرون أن الإنسان خالق أفعال نفسه (حرية مطلقة)، وينفون القدر خيره وشره من الله، بزعم أن ذلك يتنافى مع عدل الله.
3. المنزلة بين المنزلتين: مرتكب الكبيرة (مثل الزاني أو السارق) ليس مؤمناً ولا كافراً، بل في منزلة بينهما (فاسق).
4. إنفاذ الوعيد: حيث يرون أن الله لا يتجاوز عن وعيده للعصاة، وأن العصاة في النار لا يخرجون منها أبداً.

---

[1] (النساء: 171)

5. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حيث يرون وجوب الخروج على الحاكم الجائر إذا لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر.

وقد رد أهل السنة على المعتزلة بآيات تثبت صفات الله وأحاديث رؤية المؤمنين ربهم، وكذلك آيات القدر: "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا" [1] .

4. المرجئة:

ظهرت المرجئة كفرقة عقدية في أواخر عصر الصحابة وأوائل عصر التابعين، كرد فعل للخوارج الذين كفروا مرتكب الكبيرة، فغالوا في الجانب المقابل.

ومن أبرز رجالها ومن أوائلهم زر بن عبد الله، وطَلْق بن حبيب ، ويعتقدون أن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب أو النطق باللسان، وأن العمل ليس جزءاً من حقيقة الإيمان (بل هو كمال له). وأن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، وأن الذنوب لا تضر مع الإيمان كما لا تنفع طاعة مع الكفر ، وهذا أدى إلى التساهل في المعاصي.

---

[1] (التوبة: 51)

ويرى أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" [1] .

5. الأشاعرة والماتريدية:

ظهرت الأشاعرة في القرن الرابع الهجري على يد أبي الحسن الأشعري، الذي كان معتزلياً ثم رجع عن الاعتزال وقام بالرد عليهم. بينما ظهرت الماتريدية على يد أبي منصور الماتريدي في سمرقند. يمثلان التيار الأشعري والماتريدي غالبية أهل السنة والجماعة تاريخياً في العقيدة، وقد تأثروا بالمنطق والفلسفة في الرد على الفرق الأخرى، وهو ما جعل لهم منهجاً خاصاً في إثبات العقائد.

وأبرز رجال الأشاعرة الإمام الأشعري، الباقلاني، الجويني، الغزالي، الرازي ، وأبرز رجال الماتريدية وأبو منصور الماتريدي، البزدوي، النسفي .

ففي الأسماء والصفات يثبتون سبع صفات لله (الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام) كصفات "معانٍ" لله، ويؤولون غيرها من الصفات الخبرية (كاليد، والقدم، والوجه) أو يفوضون معناها (الكيفية) دون المعنى.

وفي القدر يرون أن أفعال العباد بخلق الله (إيجاد الله للفعل) وكسب العبد (مقارنة قدرة العبد ومشيئته بفعل الله).

[1] (رواه مسلم)

وفي رؤية الله يثبتون رؤية الله في الآخرة بلا تكييف ولا تحديد (مع خلاف بينهم وبين السلف في كيفية الاستدلال).

وفي القرآن يفرقون بين كلام الله النفسي (القائم بذاته، وهو قديم أزلي) والكلام اللفظي (القرآن الذي نقرأه، والذي يرون أنه مخلوق).

ويرى أهل الحديث إثبات كل صفات الله التي وردت في الكتاب والسنة على ظاهرها اللائق بالله، دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل، ويفوضون علم الكيفية إلى الله تعالى. كما قال تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" [1] .

---

[1] (الشورى: 11)

الفصل التاسع : أثر الفرق العقدية على وحدة الأمة الإسلامية :

لا شك في أن افتراق هذه الفرق العقدية أثرت بشكل كبير على وحدة الأمة الإسلامية، وأدت إلى تفرقها وتناحرها أحياناً مما أدى إلى إضعاف قوتها ، فكل فرقة كانت تدعي أنها على الحق المطلق، وتكفر أو تبدع مخالفها، مما شتت قواها ، وهذا التفرق كان نذيراً بتحقق قوله تعالى: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" [1] ، ومن هنا كانت أهمية دراسة هذه الفرق لفهم تاريخ الأمة، وللتحذير من أسباب الانقسام، ولتأكيد أهمية التمسك بمنهج أهل السنة والجماعة القائم على الوسطية والاعتدال والاجتماع على أصول الدين ، فالفرقة العقدية الحقيقية هي التي تتبنى أصولاً مخالفة للكتاب والسنة ، وتفارق جماعة المسلمين الكبرى في أساسيات الإيمان.

وفي ضوء ما سبق مناقشته في الفصول، خاصة ما يتعلق بالتعصب المنهجي، والبعد السياسي، وضيق فهم شمولية الرسالة، يمكننا الإجابة عن الأسئلة المطروحة كالتالي:

المبحث الأول: لماذا يحاول غلاة السلفيين السعوديين تشويه صورة حركة التبليغ وذمها بسبب نشأتها في الهند مع أنهم لا يهدفون إلى نشر هذا المعتقد الذي تعلموه؟

إن محاولة تشويه الصورة وذم حركة التبليغ لمجرد نشأتها في الهند، رغم أن الجماعة لا تهدف إلى نشر معتقدات خاصة بتلك البيئة، تنبع من عدة عوامل:

---

[1] (آل عمران: 105)

الحرص على نقاء المنهج الرسمي وتصديره (بينا ذلك في الفصل الأول، النقطة 1) :

فالمؤسسة الدينية في السعودية حريصة جدًا على الحفاظ على "الخطاب الموحد" و"المنهج الواحد "الذي يقوم على العقيدة السلفية التي تخدم توجهاتها ورؤيتها منذ النشأة من خلال عقيدة الولاء التام لولاة الأمر وتربية النشأ على ذلك وحملهم عليه ، فأي حركة لها انتشار عالمي، وتخرج من هذا الإطار (حتى لو لم تناقضه صراحة)، يُنظر إليها كـ "منافس" أو "مشتت" لهذا الخطاب الموحد ، فيأتي تشويه الصورة ضمن سعي هذا الفصيل لـ "تحصين" الساحة الداخلية من أي تأثيرات خارجية لا تتوافق تمامًا مع منهجهم، ولضمان أن يكون منهجهم هو الوحيد المُصدَّر والمعتمد.

التعصب المنهجي والتخوف من "الغريب الوافد" (كما بينا في الفصل الثاني، النقطة 1) :

فالسلفيون السعوديون، بمنهجهم الذي يشدد - في الظاهر - على نقاء العقيدة المستمدة من فهم السلف الصالح، يرون أن أي منهج دعوي ينشأ في بيئة خارج نطاق "الأصول السلفية" الصرفة، هو محل شك وريبة، حتى لو صرح القائمون عليه بخلاف ذلك ، البيئة الهندية في نظرهم تاريخياً ارتبطت بانتشار بعض المذاهب الفقهية غير الحنبلية، وبعض الطرق الصوفية، وبعض الممارسات الشعبية التي تُعد بدعاً أو شركيات في المنظور السلفي ، لذلك، ولمجرد نشأة التبليغ في هذه البيئة يجعلها تلقائياً "موضع اتهام" بأنها تحمل في طياتها "شوائب" تلك البيئة، بغض النظر عما تصرح به ، وهذا نوع من "الحكم المسبق" القائم على المنشأ الجغرافي والثقافي، وليس بالضرورة على المنهج المعلن ، كما أنهم يعتقدون أن الجماعة، وإن لم تصرح بنشر تلك المعتقدات، إلا أنها قد تكون "حاملة لمعتقدات خفية "، أو أنها لا تحاربها بالقدر الكافي ، وهذا

التخوف ليس من "نشر المعتقدات الأخرى" بقدر ما هو من "اختلاط المناهج "و"تمييع العقيدة" في نظرهم !.

المبحث الثاني : ولماذا لا يقبل السلفيون من أهل التبليغ ما يظهرونه ويصرحون به مرارا وتكرارا؟

إن رفض قبول التصريحات الواضحة والمتكررة من قيادات وشيوخ وكبار حركة التبليغ بأنهم لا يهدفون إلى نشر معتقدات معينة أو أنهم غير سياسيين، يعود إلى عدة أسباب:

الولاء لمنهج معين (كما في الفصل الثاني، النقطة 1):

عندما يُصبح الولاء للمنهج أكبر من الولاء للمنهج الشرعي العام أو للإنصاف، فإن الأذن لا تعود تسمع إلا ما يؤكد قناعاتها المسبقة ، فإذا كانت القناعة المسبقة أن هذه الجماعة "ليست على المنهج الصحيح" أو أنها " مبتدعة " ، فإن كل ما يصدر عنها يُفسر في هذا الإطار، ولا يُقبل أي تصريح يخالف هذه القناع ، وهذا ما نراه مشاهد من كل أتباع هذا الفصيل في العالم يزيد وينقص .

الخوف من "التقية" أو "التحزب" (كما في الفصل الثاني، النقطة 2):

ففي ظل بيئة يسودها الحذر والتخوين من الجماعات والأحزاب، يفسر كثير من السلفيين المعاصرين (خاصة المتأثرين بالبعد السياسي) هذا الصمت أو عدم الخوض في التفاصيل العقدية كنوع من "التقية" (بمعنى إخفاء ما يعتقدون) أو "المراوغة" للوصول إلى أهداف غير معلنة، حتى لو كانت هذه الأهداف بريئة (مثل جمع الناس على الخير) ، وقد يُشكّك في دوافعهم ويُظن أنهم يسعون إلى "الحزبية" أو "الانتماء لجماعة" حتى

لو كانوا ينكرون ذلك، وذلك لمجرد أن لهم تنظيمًا داخليًا (كالرحلات، والاجتماعات،والأمراء). هذا التشكيك يجعلهم لا يصدقون ما يُصرحون به.

عدم الثقة بمنهج "التعامل مع الناس" (كما في الفصل الثاني، النقطة 3):

إن حركة التبليغ تتبنى منهجًا دعويًا عمليًا، يركز على لم الشمل وتجنب الخوض في دقائق الخلاف العقدي أو الفقهي في بداية الدعوة، وذلك بهدف جذب الناس إلى الدين أولاً ، هذا المنهج، وإن كان مقصده إيجابيًا (وهو جذب الناس وتجميعهم على الخيرات)، يُفسره بعض السلفيين على أنه "إخفاء" أو "مداهنة" أو "تكتيك" غير شفاف ، فيرون أن الوضوح التام والصراحة المطلقة في العقيدة هي الأصل، ولا يجوز "تأخير البيان عن وقت الحاجة " ولذلك، يرون أن عدم التصريح بعقيدتهم "الصحيحة" (وفق رؤيتهم) منذ البداية، يعني أنهم إما "يخفون" شيئًا، أو أنهم ليسوا على قدر كافٍ من العلم بتلك العقائد، أو أنهم لا يُقدِّرون أهمية العقيدة كما يجب.

المبحث الثالث : ولماذا يريد السلفيون السعوديون تصدير منهجهم كاملاً ولا يقبلون خلافاً مطلقاً في هذا مع أن غيرهم أكثر مرونة وليناً في هذا؟

إن هذه النقطة مرتبطة بشكل وثيق بطبيعة الدولة السعودية ونشأة المؤسسة الدينية فيها:

اتخاذ المنهجية السلفية كأساس للدولة (كما في الفصل الأول، النقطة 1):

لقد قامت الدولة السعودية على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، التي تركز بشكل كبير على تصحيح العقائد ومحاربة الشرك والبدع والعودة إلى منهج السلف الصالح، هذا المنهج ليس مجرد رأي

فقهي، بل هو جزء لا يتجزأ من الهوية الرسمية للدولة ، ولذلك، ترى المؤسسة الدينية في السعودية أن منهجها هو "المنهج الحق" الوحيد الذي يمثل "الإسلام الصحيح" وعليه، فإن واجبها ليس فقط تطبيقه داخلياً، بل تصديره وحماية المسلمين منه من "الانحرافات" في كل مكان ، وهذا الشعور بـ "حماية المنهج الصحيح" يجعلهم أقل مرونة في قبول الاختلافات المنهجية.

التحكم في الخطاب الديني ووحدة الصف (كما في الفصل الثاني، النقطة 2) :

فأي دولة تسعى لضبط الخطاب الديني لأنه المحرك الأساسي للشعوب العربية والمسلمة ، وذلك للحفاظ على وحدة الصف وضبط الأمن الداخلي ، وفي السعودية، هذا الضبط يتم عبر هيمنة المنهج السلفي الرسمي، فقبول الاختلافات المنهجية الواسعة قد يُنظر إليه على أنه "تشويش" على هذا الخطاب الموحد، أو "إضعاف" لسلطة المؤسسة الدينية الرسمية ، المرونة وقبول الآخر قد يعني "التنازل" عن بعض الأصول المنهجية في نظرهم، وهو ما يُعد خطراً على الدين ، ولذلك، يُفضلون الصلابة وعدم قبول التنازلات المنهجية في سبيل "نقاء المنهج."

غياب مفهوم "التنوع المنهجي المقبول" لديهم (الفصل الثاني، النقطة 3) :

بينما ترى حركات ودول أخرى أن تعدد المناهج والأساليب الدعوية هو ثراء وتنوع مقبول يخدم الدعوة في سياقات مختلفة، يرى بعض السلفيين (خاصة المتشددين منهم كما في السعودية) أن هذا التنوع قد يكون "اختلافاً مذموماً" يؤدي إلى الفرقة والضلال، ما لم يكن هذا التنوع داخل إطار منهجي واحد ومحدد بدقة

(وهو منهجهم) ، هذه الرؤية الضيقة لشمولية الرسالة وتنوع الوسائل تجعلهم غير مرنين في التعامل مع المناهج الأخرى.

المبحث الرابع : وهل الوسطية في مثل هذا الأمر وقبول الآخر يعد خرقا لأصول الدين والشريعة وكبيرة من الكبائر؟

بالطبع لا، وقطعاً لا تعتبر الوسطية في مثل هذا الأمر وقبول الآخر خرقاً لأصول الدين والشريعة أو كبيرة من الكبائر ، بل على العكس تماماً:

- فالوسطية من أصول الإسلام لأن الإسلام دين الوسطية والاعتدال ، كما قال تعالى" :وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" [1] . وهذه الوسطية تتجلى في التعامل مع الاختلافات بين المسلمين، والبعد عن الغلو والتطرف خاصة في ظروف الأمة الصعبة وأحوالها المتردية ، الأمر الذي يستدعي تكاتف كل الجهود لاستعادة الريادة والسيادة ، لا كما يفعل هؤلاء المتهوكون بتشتيت شمل الأمة وتفريق جمعها بذريعة وحدة المنهج والصف .
- ثم إن قبول الآخر في غير أصول الدين و كما هو معلوم أنه لا يجوز فيها التهاون الأصول الكبرى للدين (كالتوحيد الخالص، وأركان الإسلام، والإيمان بالغيبيات الثابتة). أما في المسائل الفرعية، والاجتهادية، والمنهجيات الدعوية المختلفة التي لا تخالف أصلاً شرعياً صريحاً، فإن المرونة وقبول التعددية والتعاون على البر والتقوى هو الأصل الشرعي ، كما قال تعالى" :وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا

[1] (البقرة: 143)

تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" [1] . فإذا كانت حركة التبليغ تحقق البر والتقوى (كإحياء الصلاة، والدعوة إلى الله، وإصلاح الأخلاق)، فالأصل هو التعاون معها لا محاربتها.

- ولابد من التفرقة بين "الشرك والبدعة الصريحة" و"الاختلاف المنهجي" ، فالدين الإسلامي يوجب على العلماء بيان الشرك والبدعة الصريحة التي تخالف أصول الدين. ولكن في حالة حركة التبليغ، نرى أن الخلافيات ليست في "أصل التوحيد" لديهم، بل في "منهج نشر التوحيد" أو "أولوية طرحه" أو "طريقة عرضه" وهذا هو مكمن الخلاف والاختلاف فيما بينهم ، وهذه اختلافات منهجية وليست عقدية جذرية تخرج صاحبها من الإسلام أو تُوجب عداوته ، وكذلك المبالغة في تصنيف الاختلافات المنهجية على أنها "بدع خطيرة" أو "انحرافات كبيرة" يعد تضييقا لرحمة الشريعة مما يحدث فتنة بين المسلمين.
- كما أن الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، كما ذكرت الآية الكريمة [2] ، وهذا يتطلب مرونة في التعامل مع المدعوين، وفهم سياقاتهم، وقبول ما لديهم من خير، ومحاولة تصحيح الخطأ بلين وحكمة لا بتشويه وذم مطلق.

فاعتبار الوسطية وقبول الآخر (فيما لا يخالف أصول الدين القطعية) خرقاً للشريعة هو فهم متشدد وضيق لمقاصد الشريعة ، ويتنافى مع روح الإسلام السمحة، ومع مبدأ التعاون والتآلف بين المسلمين، ويُعد في كثير من الأحيان نتاجاً للتعصب المنهجي أو التأثر بالضغط السياسي، وليس استناداً إلى أصل شرعي صحيح.

---

[1] (المائدة: 2)

[2] (النحل: 125)

المبحث الخامس : الخروج في سبيل الله للدعوة بين التشدد والمقصد :

تتسم العديد من القضايا المعاصرة بالتعقيد، وتتطلب فهمًا عميقًا لروح الشريعة ومقاصدها، لا مجرد التشبث الحرفي بتطبيقات تاريخية نشأت في سياقات مختلفة ، هذا التباين في الفهم والمرونة يظهر جليًا في مسألة "الخروج في سبيل الله للدعوة إلى الله على طريقة أهل التبليغ والدعوة " التي تُشنّع عليها بعض الفصائل.

فعندما نتحدث عن "الخروج في سبيل الله للدعوة إلى الله"، فإن الذهن قد ينصرف مباشرة إلى حركة "جماعة التبليغ والدعوة" المعروفة بأسفارها الدعوية التي يُطلق عليها أتباعها "الخروج في سبيل الله" ، وتُعد هذه الوسيلة في الدعوة، رغم بساطتها وفعاليتها في نشر الإسلام لأفراد عاديين، محل تشنيع كبير من بعض الفصائل، كالمداخلة الغلاة في التبديع ، الذين يرون فيها بدعة تنظيمية ووسيلة غير معهودة في زمن السلف.

ويتعلق الخلاف بمدى مشروعية هذا "الخروج" كوسيلة للدعوة، وما إذا كان يُعد "بدعة في نظر الغلاة " أم "مصلحة في نظر الدعاة أنفسهم " تتطلبها ظروف العصر.

- فمنظور الفصيل المتشدد (كالمدخلي) الغالي في التبديع أنهم يميلون إلى تحريم مثل هذه الوسائل الدعوية المنظمة، ويعتبرونها "بدعة" أو "خروجًا عن منهج السلف" بحجة أنها لم تكن موجودة بنفس الكيفية في العصور الأولى للإسلام مع إمكانية حصولها آنذاك ، فيطعنون في الجماعات التي تتبنى هذا الأسلوب بأنها تُحدث في الدين ما ليس منه، وأنها تُفرّق الناس عن العلماء الرسميين، ويركزون على أن الدعوة ينبغي أن تقتصر على النمط التعليمي التقليدي في المساجد فقط، ويُحرمون أي تنظيم دعوي يُفارق النمط الفردي مع أنه لم يكن موجودا في ذلك الزمان بهذه الكيفية والطريقة مع إمكانية إقامته أيضا ! وهنا يظهر الفارق والتناقض ! ، كما أن زعم الفصيل المتشدد بأن هذا الخروج يعد عبادة في حركة

التبليغ مع إنكار أهل التبليغ لذلك يظهر تناقضا آخر حيث يفعل المتشددون الغلاة أمثال تلك الوسائل ويزعمون أنها ليست عبادة !

- وأما منظور الصحوات الإسلامية (الإصلاحية / وجماعات الدعوة) فترى أن "الخروج في سبيل الله" كوسيلة دعوية هو تنظيم محمود لعمل الخير، وتكييف لمفهوم الدعوة إلى الله ليناسب ظروف العصر ، وتُؤكد أن الأصل في الدعوة هو تبليغ رسالة الإسلام، وأن الوسائل قابلة للتطور والتكيف ما دامت لا تُخالف نصًا شرعيًا صريحًا ، ولا يخالجها اعتقاد بالسنية ولا يترتب عليها رمي الآخر بالبدعة ، كما يرون أن هذه الوسيلة تُساعد على الوصول إلى قطاعات واسعة من الناس الذين لا يرتادون المساجد بانتظام، وتُعزز من روح الأخوة والتضحية في سبيل الله ، فهم يفهمون أن العنصر الأهم في الوسيلة هو الغاية الشرعية منها وهي (الدعوة إلى الله)، والوسيلة تتغير بحسب الحاجة والمصلحة.

الموقف المثالي لعلماء العصر في قضية الخروج في سبيل الله :

إن الموقف المثالي لعلماء العصر، مستوحى من فقه الأئمة الأوائل كالإمام الشافعي والإمام أحمد، والذي يتمثل في النظر إلى المقاصد الشرعية والغاية النبيلة، مع مراعاة تغير الزمان والمكان والأحداث والمعطيات.

- كالقياس على جمع القرآن كما أشرنا سابقًا في حديثنا عن وسائل الدعوة الحديثة، فإن الصحابة الكرام رضي الله عنهم في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما اجتهدوا في جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، ثم في زمن عثمان رضي الله عنه تم نسخ المصحف وتوزيعه على الأمصار ، وهذا العمل، رغم أنه لم يكن موجودًا بنفس الشكل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه كان ضروريًا لحفظ أصل الدين وتبليغه للأمة ، وهنا، كانت الغاية من العمل ذاته (حفظ القرآن الكريم) عظيمة، والوسيلة وهي

(الجمع في مصحف واحد والنسخ في نسخ متعددة) اجتهادية وتكيّفت مع حاجة العصر، ولم تُعد "بدعة" مذمومة .

- ويؤكِد علماء العصر المعتدلون على أهمية فقه الموازنات والمقاصد ، وعلى أن وسائل الدعوة ليست توقيفية على ما كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقط (أي لا يشترط في الوسيلة أن تكون منصوصًا عليها بحد ذاتها وعينها)، بل هي اجتهادية تخضع لقواعد المصلحة المرسلة ولا شك أنها تتغير بتغير الزمان والمكان وتحتاج إلى المرونة حسب المعطيات ، فما يُحقق المصلحة الشرعية (من تبليغ الدين، وتقوية الإيمان، وتعليم الجاهل) ولم يُخالف نصًا صريحًا من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، فهو مشروع لا شك في ذلك.
- كما أن الغاية النبيلة تبرر مباح الوسيلة ، وليس المقصود من هذا أن "الغاية النبيلة تبرر كل وسيلة" حتى لو كانت محرمة! فهذا ما لا نقصده ، ولكن المقصود هنا أن الوسائل المباحة في الأصل تُصبح مشروعة بل أحيانا تصبح مطلوبة وواجبة إذا كانت تُحقق غاية شرعية عظيمة، ولذلك قعد العلماء قاعدة عظيمة وهي (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وكذا (الوسائل تأخذ أحكام المقاصد) ، فالخروج للدعوة بطريقة التبليغ ، والتنظيم الدعوي كما ينظمون ، واستخدام وسائل التواصل الحديثة كما يفعل آخرون ، كلها تدخل في باب الوسائل المباحة التي وظفها العلماء والدعاة لتحقيق غاية تبليغ دين الله إذ لا نهي عنها .

ولذلك فالموقف المثالي هنا هو الإقرار بمشروعية هذا "الخروج في سبيل الله " ومؤازرة التنظيمات الدعوية ما دامت لا تتعارض ولا تخالف النصوص الشرعية ويزداد الأمر ضرورة كلما التزمت بالضوابط الشرعية، ولم تُؤدِ إلى تفرقة الأمة أو الخروج على ولاة الأمر بالوسائل المرفوضة شرعًا ، فينبغي على من يُعارض هذه

الوسائل أن يُدرك أن مرونة الشريعة في الوسائل هي سر بقائها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وأن التضييق غير المبرر على وسائل الدعوة الحديثة يُعطل نشر الدين ويُضعف الأمة في مواجهة التحديات المعاصرة ، وهذه الروح الموروثة عن الأئمة الأربعة وغيرهم تميزت بالمرونة والاجتهاد لمواكبة متطلبات عصرهم، وهذا ما ينبغي أن نقتدي به اليوم.

آراء وتوجيهات العلماء المعاصرين حول القضية :

يتفق العديد من العلماء المعاصرين، من مختلف المدارس الفكرية، على أن الدعوة إلى الله واجب شرعي، وأن الوسائل تابعة للمقاصد وتتغير بتغير الظروف ، فقاعدة المصالح المرسلة مستنبطة من أصول الشريعة التي جاءت في الأصل لتحقيق مصالح العباد ، فكل وسيلة تُحقق مصلحة معتبرة شرعًا ولم يأت نص يمنعها فهي جائزة ، وتطبيقًا لذلك، فإن "الخروج في سبيل الله للدعوة" إذا حقق نشرًا للدين وهداية للناس، فهو مصلحة مرسلة ، كما أن مقصد الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته يُعد من الضروريات الشرعية ، وأي وسيلة تُعين على تحقيق هذا المقصد، ولم تُخالف نصًا قطعيًا، فهي مشروعة ، والاجتهاد في ابتكار الوسائل الدعوية التي تناسب العصر وتصل إلى أكبر شريحة من الناس، مع مراعاة فقه الأولويات مطلوب شرعا ، وأهمية الفهم الصحيح للإسلام بعيدًا عن الجمود والتشدد مما يستوجب مواكبة العصر في أساليب الدعوة، والاستفادة من كل جديد يخدم الدين ، فالجمود على أساليب ووسائل السلف التي كانت في عصورهم في كل شيء دون النظر إلى متغيرات العصور والبيئات يُعيق الدعوة ويُفقدها فعاليتها في بيئة متغيرة ، لذلك لابد من تشجيع استخدام التقنيات والوسائل الحديثة في الدعوة (كالإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي) على أن الأصل في الوسائل هو الإباحة ما لم يقم دليل على تحريمها ، هذا يتضمن أيضًا التنظيمات والترتيبات التي تخدم الدعوة.

ولكي لتكون الجماعات الدعوية على "آثار العلماء القدامى" في مرونتهم واجتهادهم، يجب عليها:

1. التركيز على المقاصد الشرعية: بحيث تكون الغاية الأساسية من العمل والحركة هي تبليغ الدين الصحيح، وتربية الأفراد، وتحقيق النفع العام، لا مجرد التمسك بشكل معين من أشكال الدعوة.
2. المرونة في الوسائل: فيجب عدم اعتبار وسيلة معينة "سُنّة" أو "بدعة" لمجرد وجودها أو عدم وجودها في زمن السلف، بل تقييمها بناءً على فعاليتها الشرعية والتزامها بالضوابط.
3. التجديد المستمر: فيجب السعي الدائم لابتكار وتطوير وسائل دعوية جديدة تُناسب احتياجات المجتمع المتغيرة، وتصل إلى الجمهور المستهدف بفاعلية.
4. التعاون والتنسيق: فبدلًا من التشنيع المتبادل، ينبغي على الجماعات الدعوية والعلماء الرسميين التعاون والتنسيق لتوحيد الجهود، والاستفادة من خبرات بعضهم البعض في خدمة الدعوة.
5. التحلي بالحكمة والرفق: لأن الدعوة إلى الله تحتاج إلى حكمة ورفق ولين ، وعدم إثارة الخلافات الفرعية التي تُنفر الناس من الدين ولا تضيف جديدا للأمة وتُضعف وحدة الصف.

فمن يشنّع على دعاة التبليغ في مسألة "الخروج في سبيل الله للدعوة" أو أي وسيلة دعوية حديثة لمجرد أنها لم تكن موجودة في زمن السلف، يُخطئ في فهم الفروق بين "الأصول والثوابت" و"الوسائل والمتغيرات". فالأصول ثابتة في كل عصر ومصر لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة ، أما الوسائل فتخضع لقاعدة "المقاصد" و"الحاجة" و"المرونة" التي ميزت الفقه الإسلامي عبر تاريخه.

الفصل العاشر : حركة التبليغ نشأة هندية وهدف إصلاحي عالمي شامل :

من المهم التأكيد على أنه لم تكن نشأة جماعة أو حركة التبليغ والدعوة في الهند مرتبطة بأي حال من الأحوال بهدف نشر منهج عقدي محدد أو مذهب فقهي معين بين المسلمين. بل على العكس تماماً، فقد كانت ولادتها استجابة لضرورة ملحة في سياق اجتماعي وديني خاص، وكان هدفها الأسمى هو إرجاع المسلمين من غيهم إلى دينهم، وتقوية إيمانهم بعدما اندثر في قلوبهم ، وإحياء شعائر الإسلام في حياتهم بعدما بعدوا عنها وتخلوا عن تعاليمها وصار المجتمع جاهلي بالمعنى الحرفي .

المبحث الأول : السياق التاريخي لنشأة حركة الدعوة والتبليغ في ميوات الهند:

في أوائل القرن العشرين، كانت شبه القارة الهندية تعيش ظروفاً استثنائية. فمن جهة، كانت تحت نيران الاستعمار البريطاني الذي سعى لطمس الهوية الإسلامية ونشر الثقافة الغربية. ومن جهة أخرى، كان المسلمون هناك يعانون من ضعف شديد في الالتزام الديني، وتفشي الجهل بأصول الإسلام، وتقليد العادات الوثنية، وتزايد الردة عن الإسلام بسبب النشاط التبشيري للمبشرين المسيحيين والهندوس مع ضعف الحالة الاقتصادية للمسلمين ما أدى إلى تبعية مطلقة للغرب وانصياع كامل في كل مناحي الحياة .

ولقد كانت المنطقة التي نشأت فيها دعوة التبليغ وهي منطقة "ميوات"، تعيش أدنى حالة من التدهور الديني في العالم ، حيث كان المسلمون يخلطون بين عاداتهم المحلية الهندوسية والإسلام، حتى أن بعضهم كان يمارس عادات هندوسية بلا دراية ولا اهتمام بحل او حرمة . هذا الواقع المرير دفع الشيخ محمد إلياس رحمه الله إلى التحرك.

المبحث الثاني : الهدف الأساسي من حركة التبليغ هو إحياء الدين الكامل لا نشر العقيدة المذهبية:

أدرك الشيخ محمد إلياس رحمه الله أن الأولوية في تلك البيئة المتردية لم تكن في الخوض في تفاصيل العقائد على اختلاف مشاربها أو المذاهب الفقهية على اختلاف مذاهبها التي قد تزيد من الفرقة والانقسام بين المسلمين. بل كانت الأولوية في هذا الوقت لـ "إحياء الإيمان في القلوب" و"تصحيح العبادات الظاهرة" وتذكير الناس بأهمية الصلاة والذكر وقراءة القرآن واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ليعودوا إلى الدين الكامل ولتتغير شكل الحياة من أقصى اليسار إلى ناحية اليمين ، ولم يكن لديه رحمه الله قوة ولا سلطة ولا جيشا ولا مالا ولكنه كان يمتلك روحا قوية وعقلا راجحا فبدأ حركة إصلاحية يحرك من خلالها الناس على الناس ، كل بقدر مستطاعه ومقدرته ، يبلغ ما في عقله من دين وعلم ، ويعلم من حوله شيئا مما عنده ، وهذا هو جوهر تلك الحركة المباركة .

يستلهم منهج الشيخ إلياس رحمه الله من التدرج النبوي في الدعوة إلى الله كما في بداية الدعوة بمكة، حيث كان التركيز على التوحيد وتصحيح العبادات الأساسية، ولم تبدأ التشريعات التفصيلية (كحدود الزنا والسرقة) إلا بعد أن ترسخ الإيمان وتلك هي قاعدة "التدرج في الدعوة"

لحديث عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً" [1] .

[1] (رواه البخاري)

وهذا الحديث يبين أن التدرج في التربية والتدرج في التشريع منهجاً نبوياً أصيلا ، فلما رأى الشيخ إلياس رحمه الله أن الناس في ميوات كانوا في حاجة ماسة إلى تذكير بأبسط أصول الدين كالصلاة وذكر الله، قبل الغوص في تفاصيل قد لا يفهمونها أو قد تزيد من نفورهم بدأ بتلك الأصول الهامة ، ومن يقترب من تلك البيئة الإيمانية ينصلح حاله ، فيترقى درجة فيقرأ في دين الله ويتعلم ما شاء الله له أن يتعلم .

المبحث الثالث : الهدف هو العمل على الأرض لا مجرد التنظير:

كان هدف الشيخ محمد إلياس رحمه الله الأساسي هو العمل على الأرض وتحريك الناس وإحداث تغيير حقيقي لا مجرد تنظير وتأليف ودروس لا يحضرها سوى بعض الراغبين ، أو مناظرات لا تشفي الغليل ولا تحرك المجتمع ، فالإنكار ليس مطلوبا شرعيا إنما هو وسيلة من وسائل التغيير ، فرأى الشيخ إلياس رحمه الله التغيير بالحركة بالمال والنفس على الناس في محالهم وأماكنهم مستقيا ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم في أول الدعوة ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فوضع الشيخ أمامه أهدافا كبرى سعى لها :

1. إرجاع الناس إلى المساجد: فالمساجد كانت شبه مهجورة من قبل الكثيرين والمساجد هي مصانع الرجال ، فلابد من تشغيل المصانع وإيجاد الأشخاص ليتخرج منها الرجال .
2. تصحيح التوحيد : لما انتشرت البدع في الأمة كان لزاما أن يتم تصحيح هذا الانحراف في الإيمان ، ولا مكان أفضل لإجراء تلك العمليات الإيمانية المعقدة سوى حجرات معقمة من الملوثات والميكروبات التي ابتدعها الناس وهي المساجد التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة ويطلع عليها رب العزة والجلال فيغفر لمن فيها ولمن جالسهم .

3. تصحيح الصلاة: لتعليم الناس كيفية أداء الصلاة على الوجه الصحيح لأنها أفرض الفرائض بعد توحيد الله تعالى ، ولما عمت البلوى في المسلمين بترك الصلاة والتهاون فيها ، دعت الحاجة إلى التحرك تحركا حثيثا لإحياء وإقامة الصلاة.

4. طلب العلم : لأنه الدستور الذي من خلاله يتعبد الإنسان ربه ويؤدى فرائضه .

5. إحياء الذكر: لتشجيعهم على ذكر الله وتلاوة القرآن لأن الذكر هو المولد الحقيقي للشحنات الإيمانية المحركة للمسلم الدافعة له لإكمال طريقة ولضبط بوصلته على الخط المستقيم والمنهاج القويم .

6. تطبيق أخلاق الإسلام: لغرس القيم والأخلاق الإسلامية في حياتهم اليومية لأنها سبب التراحم بين المسلمين وسبب هداية غير المسلمين .

7. إخلاص النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية : فهي الميثاق الغليظ بين المؤمن وبين ربه ، وبدونها يحبط عمله ويضيع جهده .

8. الدعوة إلى الله تعالى : بتحريك الأفراد ليصبحوا دعاة إلى الله بأنفسهم، كلٌ بحسب قدرته ، قال تعالى: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" [1] . هذه الآية الكريمة تؤكد أن الدعوة إلى الله تعالى هي سبيل النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين ، وهي واجب على كل مسلم بقدر استطاعته.

---

[1] (يوسف: 108)

فمن هذا المنطلق، اتخذ الشيخ إلياس رحمه الله منهجاً عملياً يعتمد على "الخروج في سبيل الله" للوصول إلى الناس في قراهم ومنازلهم، والجلوس معهم، ودعوتهم بالتي هي أحسن، بعيداً عن التعقيدات الفقهية أو الجدالات العقدية. كان شعاره "نعمل على الإيمان واليقين" لا على الخلاف والشقاق.

المبحث الرابع : الفرق بين الدعوة والتعليم المتخصص:

يجب التمييز بين الدعوة العامة لعامة الناس والتي تهدف إلى إيقاظ القلوب وإحياء الالتزام بالدين ، وبين التعليم الشرعي المتخصص الذي يتعمق في المسائل العقدية والفقهية وغيرها . أما عن حركة التبليغ فقد ركزت على الجانب الأول، واعتبرت أن هذا هو المدخل الأمثل لإرجاع الناس إلى كنف الإسلام وإحيائه في القلوب . أما الجانب الثاني، وهو التعمق في العلم طلبا وإيصالا ونشرا ، فهم يرون أن مسألة العلم مسؤولية العلماء والفقهاء والمدارس العلمية، إذ لن يكون المجتمع بأكمله من هذا الصنف ولكن لا يجب أن يخلوا المجتمع منهم ثم بعد ذلك يحثون الناس على طلب العلم للتعمق في بعض الأبواب بعد أن يثبتوا على طريق الهداية.

فعلى سبيل المثال عندما يذهب طبيب إلى قرية موبوءة بمرض بسيط، فإنه قد يبدأ بتعليم الناس النظافة والعادات الصحية الأساسية أولاً، قبل أن يدعوهم لدراسة الكيمياء الحيوية تفصيلاً. هذا لأن الحاجة الملحَّة هي للعلاج المباشر وإصلاح السلوك العام. تماما كما يفعل أهل التبليغ حينما يجدون أناسا بعيدون كل البعد عن الدين مفرطين في الفرائض والأركان واقعين في أكبر الكبائر فإنهم حريصون على انتشالهم من أوحل الوحل ابتداءا ثم بعد ذلك يعلمونهم الأساسيات والأصول ثم يفتحون امامهم أبواب الدين كله لمن أراد التعلم .

إن فهم نشأة حركة التبليغ في سياقها التاريخي يوضح بجلاء أن هدفها لم يكن نشر عقيدة ديوبندية أو غيرها كما يزعم الغلاة ، بل كان هدفها إصلاحياً شاملاً يسعى لإحياء الدين في قلوب المسلمين، وكسر حواجز الغفلة والجهل التي كانت تحول بينهم وبين دينهم.

المبحث الخامس : هل ثبت عن أهل التبليغ أنهم حاولوا نشر عقيدة مدرسة العلوم ديوبند؟

من الجدير بالذكر ومما لا يحتاج لإثبات أنه لم يثبت بحال عن أهل التبليغ والدعوة ، كمنهج عام ومعلن أو حتى مثبت في كتب أو بيانات أو مسجل في صوتيات أو مرئيات ، أنهم حاولوا نشر عقيدة مدرسة العلوم ديوبند المعروفة بالعقيدة الماتريدية أو منهجهم الفقهي وهو المذهب الحنفي بشكل صريح في بياناتهم أو متعمد في دعوتهم أو كجزء من أهدافهم الدعوية الأساسية فيما بينهم وبين مريديهم وخواصهم . بل على العكس من ذلك تماما نوضحه في السرد التالي :

- **منهجهم في العقيدة:** يُعرف عن حركة التبليغ أنها تركز على **الأسس العامة المشتركة** بين المسلمين (مثل التوحيد في الربوبية والألوهية دون التعمق في التفاصيل الخلافية بين المذاهب العقدية ، وأركان الإيمان والإسلام، وإحياء الشعائر الظاهرة كالصلاة والذكر) وتتجنب الخوض في دقائق المسائل العقدية التي قد تثير الخلاف بين المذاهب والطوائف المختلفة. هذا المنهج يهدف إلى لم الشمل وتوحيد الصف العملي، لا إلى فرض عقيدة معينة.
- **التنوع الثقافي والمذهبي الهندي :** من المعلوم أن بلاد الهند آنذاك كانت شاسعة مترامية الأطراف تتضمن الهند وباكستان وبانجلاديش وهي قارة وحدها ، وفيها من التنوع الثقافي والمعرفي والأيدلوجي والمذهبي الشيء الكثير ، حتى إن الآلهة هناك تربوا على ثلاثة آلاف إله كما حدثنا بذلك بعض مشايخنا ! وتتعدد

الديانات بشكل كبير ، وفي الإسلام أيضا تتعدد المناهج والاتجاهات والأفكار في الصف الإسلامي ! كل هذا أيقظ في الشيخ إلياس رحمه الله روح جمع الأمة وتوحيدها ومحاولة ضبط بوصلتها على الأصول أملا في إصلاح الفساد ولم الشتات ، فكانت دعوته مركزة على ما لا يختلف عليه عموم أهل السنة وإن اختلفوا في مسائل أو أبواب ! ، ومع أنه تابع لمذهب ومنهج ومدرسة غير أنه لم يرد الدعوة إلى المدرسة ولا المنهج والمذهب ولا الطريقة ! بل دعا إلى الدين الكامل الشامل الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، واتخذ لذلك سبيلا وهو الأصول الستة التي ينطلق من خلالها لإيقاض الإيمان في القلوب وتطبيق الدين في الحياة .

- **علاقتهم بدار العلوم ديوبند:** صحيح أن مؤسس تلك الحركة، هو الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله ، وبدأ العمل مع العديد من كبار شخصيات الذين انضموا معه وشكلوا نواة تلك الحركة الدعوية الإصلاحية ، تخرجوا من مدارس تابعة لمدرسة ديوبند أو تأثروا بها. ومدرسة ديوبند (التي تتبنى الفقه الحنفي والعقيدة الماتريدية - الأشعرية في أغلبها) هي إحدى المدارس الفكرية السنية الكبرى في شبه القارة الهندية. ومع ذلك، فإن هذا التأثر لا يعني تبني الحركة لهدف نشر عقائد ديوبند الخاصة. ولذلك أرادت الحركة أن تكون واسعة الانتشار، وتستوعب جميع المسلمين في جميع أنحاء الهند ابتداءا بغض النظر عن مخصصاتهم العقدية أو الفقهية ما دامت ضمن إطار أهل السنة والجماعة العام.
- **التركيز العملي على المهمات:** كان جل تركيزهم في بداية الحركة على **"الحركة الإيمانية"** و"إحياء الدين في النفوس" من خلال الخروج في سبيل الله في رحلات دعوية على القرى المجاورة ، وتعليم الناس أركان الإسلام الأساسية وإصلاح التوحيد في قلوبهم ، وتشجيعهم على الصلاة والأخلاق الفاضلة. فهذا الجانب العملي من دعوتهم يطغى على أي محاولة لنشر تفاصيل عقائدية معينة.

- **تطور المنهج الحركي:** فيما بعد تطور المنهج الحركي لدي تلك الحركة الدعوية بوضع بعض الأصول الأخرى من خلال ممارساتهم ومشاهداتهم وتجاربهم الدعوية في الهند وفي العالم ، وهو امتداد لروح الاجتهاد والنظر وفيه رد على من يزعم أنهم يقتلون روح الاجتهاد ويمنعونه ، فمن خلال مجرباتهم وحركتهم وضعوا أصولا في الحركة ، في ماذا يتكلمون وعن ماذا يحجمون ؟ وماذا يتناولون ؟ والطريقة الصحيحة لدعوة الطبقة الفلانية كذا ، وأفضل الطرق في الحالة الفلانية هي كذا ، إلى آخر كل تلك الأصول التي يتداولونها فيما بينهم ويتلقونها عن مشايخهم مشافهم ونقلا دون كتابة في كتب ! ، وهذا المنهج هو ما نراه اليوم منهج متكامل منضبط مضبوط له شكله وهيئة وكينونة وطريقة وترتيب وتنظيم ، ولكنه في مجمله تكامل عبر الزمن ولم يخرج في يوم وليلة ، وكل هذا كما سبق وشرحنا منهج حركي تكاملي مع باقي المناهج الحركية الإسلامية الأخرى ، ليس هو الإسلام ولا يحتكره وليس وحده الفرقة الناجية وإنما هو من الفرقة الناجية ، وليس مذهبا فقهيا موازيا للمذاهب الفقهية المعتمدة ولا يستغني عنها ، وليس فرقة عقدية محددة بل هي من فرقة أهل السنة .
- **حركة التبليغ الدعوية والدعوة السلفية المعاصرة :** الانتقادات التي توجه إليهم بخصوص العقيدة لا تركز على محاولتهم نشر عقيدة ديوبند بالذات، بل على عدم تركيزهم الكافي على العقيدة الصحيحة (من وجهة نظر المنتقدين، وخاصة منتسبي السلفية العصرية) ولعلنا جميعا متفقون على أن نقاء التوحيد هو الأولوية المطلقة ولكننا نختلف في الموازنة بين قبول المرء بعد نقاء عقيدته وصفائها من أكدارها وضمه لصفوفنا واعتباره واحدا منا كحال دعوة السلفية المعاصرة ! وبين قبول المرء على ما فيه من أكدار مع محاولة إصلاح عقيدته وتنقيتها من الشوائب قدر الإمكان وتوجيهه إلى ما يجب أن يكون وعدم تركه للملهيات والمغريات – وما أكثرها – تتلقفه وتفسد ما انصلح من حاله من باب التدرج معه وما لا يدرك كله لا يترك جله حتى نصل

إلى النقاء الخالص والدرجة العليا كحال دعوة التبليغ مع الناس ! ، فهما خطان متوازيان دعوتهما – ادعائهما وزعمهما – واحدة وأهدافهما واحدة ومنطلقاتهما واحدة ومصدرهما واحد ولكن وسيلتهما مختلفة .

المبحث السادس : لماذا اتخذت حركة التبليغ هذا المنهج الوسطي في الدعوة ؟

لقد نشأت حركة التبليغ في بيئة دينية واجتماعية بالغة الخصوصية، حيث كان المسلمون في شبه القارة الهندية يواجهون تحديات متعلقة بالهوية الدينية والانخراط في الحياة العامة، وقد تراجعت ممارساتهم الإسلامية بسبب التأثر بثقافات أخرى وضغوط الاحتلال البريطاني ومعاونة الهندوس وسائر الملل المنحرفة للمحتل البريطاني . فانبثقت هذه الحركة على يد الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله ، الذي رأى أن الحاجة ملحة إلى تجديد الإيمان في قلوب المسلمين عبر منهج عملي ميداني يعتمد على الدعوة الفردية والجماعية المباشرة. وقد كان كثير من المؤسسين والمنخرطين الأوائل مع هذه الحركة، ومن التحقوا بها فيما بعد من خريجي مدرسة دار العلوم ديوبند أو متأثرين بها بشكل أو بآخر. ومن المعلوم أن مدرسة ديوبند تتبنى الفقه الحنفي كمذهب معتمد في التفقه والعقيدة الماتريدية كمرجعية في الاعتقاد ، وهي إحدى المدارس السنية الكبرى التي أثرت في التوجهات الإسلامية بشبه القارة بل والعالم ، ولكن التأثر بهذا الموروث الفكري لم يكن دافعًا للحركة الدعوية الناشئة لحمل الناس على اتباع المذهب الحنفي أو تبني العقائد الديوبندية الخاصة.

حرصت الحركة منذ بداياتها على أن تكون شاملة وتستوعب المسلمين جميعًا داخل إطار أهل السنة والجماعة، دون الدخول في تفاصيل مذهبية أو عقدية خلافية. ومما يميز دعوتهم أنهم اتجهوا نحو التركيز على الجوانب الإيمانية الأساسية، مثل الصلاة والصدق وحسن الخلق، ولم يجعلوا من الجدل الفقهي أو العقدي محور نشاطهم. فكان الهدف الأكبر لديهم هو إيقاظ الإيمان وتحقيق الصلة بين المسلم وربه من خلال الرحلات

الدعوية التي تخرج فيها الجماعات الدعوية إلى القرى والأحياء، يعلّمون الناس أركان الإسلام ويحثّونهم على الالتزام بها دون تعقيد أو اشتراطات مذهبية. ولذلك لم يكن من أولوياتهم التركيز على المذهب الحنفي كمذهب للتفقه أو نشره، بل حرصوا على احترام التنوع الفقهي الموجود في بلادهم وفي بلاد العالم ، ما دام منضوياً تحت مظلة أهل السن والجماعة .

ومع تطور الحركة واتساع رقعة انتشارها ، تطورت أصول دعوية لها ارتباط بكيفية التأثير والتحرك والخطاب وأخلاقية خاصة بها بناءً على التجربة الميدانية في البيئات المختلفة ومن خلال الملاحظة لتلك الاختلافات وإعمالا لمبدأ الاجتهاد وضعوا أصولا أشبه ما تكون بميثاق العمل الجماعي ، وصارت الحركة تتداول تلك الأصول فيما بينها مشافهة وتطبيقًا، دون أن تُدوَّن في مؤلفات رسمية ولا بروتوكولات ولا مؤلفات منشورة. هي فقط مجرد توجيهات يتلقاها الداعي من الدعاة السابقين له في الدعوة من خلال المشاركة والمعايشة، وتلك الأصول تُظهر روحية حركية التي تستند إلى التدرج في كل شيء والمرونة في كل شيء والبعد عن الإلزام والضغط والتفريق ، وهو ما جعل الحركة جماعة تنأى بنفسها عن أن تُعد مذهباً فقهياً أو فرقة عقدية مميزة. فليست هي الفرقة الناجية وحدها، كما لا تدعي أنها الممثل الحصري للإسلام، بل ترى نفسها جزءًا من العمل الإسلامي الأوسع، إلى جانب مناهج دعوية أخرى لها اجتهادها وأسلوبها.

وفي السياق المعاصر، تظهر الانتقادات التي توجه لحركة الدعوة تحت مسمى يقصد به التفريق باسم (حركة التبليغ) غالبًا من المنتسبين إلى الدعوة السلفية العصرية وهم في الحقيقة (غلاة التفسيق والتبديع والتجريح) – وليس كل مدعٍ صادق - ، ويتركز بعضها حول عدم الاهتمام الكافي بالقضايا العقدية، كصفاء التوحيد، كما يرى المنتقدون. غير أن الجماعة تفضل التدرج مع المدعوين، وتقوم على أساس أن إصلاح القلب والسلوك قد يكون مقدمة لإصلاح العقيدة تدريجيًا، بخلاف النهج السلفي المعاصر الذي قد يُصر على

التصفية العقدية أولًا قبل اعتبار المرء جزءًا من الصف الدعوي. وهنا يظهر اختلاف الوسائل مع تقارب الأهداف، فكلا الاتجاهين يسعى إلى إقامة الدين والعودة إلى الإسلام الصحيح، ولكن بأساليب مختلفة، أحدها يميل إلى المواجهة المباشرة في القضايا العقدية، والآخر يعتمد على التزكية التدريجية والمصاحبة التربوية.

ومن خلال ما سبق، لا يظهر في تاريخ الحركة الدعوية ولا في منهجها الدعوي أنها تسعى إلى فرض مذهب فقهي معين على الناس، بل تتبنى عموم أهل السنة كإطار جامع، وتعمل على إعادة المسلمين إلى أساسيات دينهم، دون أن تجعل من الانتماء المذهبي عقبة أو شرطًا للانخراط في العمل الدعوي. هذا ما جعلها تنتشر في العديد من البلدان، وتحظى بقبول واسع من طبقات شعبية مختلفة، لأن خطابها يتسم ببساطة واحتواء لا يُدخل الناس في تعقيدات الفقه أو الخلافات الكلامية.

المبحث السابع : هل توجد تعددية مذهبية في الهند ؟

تُعد الهند من أكثر الدول تنوعًا وتعددًا من حيث الملل والنحل ، سواء داخل الإسلام أو خارجه. ولذلك تتنوع فيها المذاهب الدينية والفقهية ، فالمجتمع الهندي يحتضن طيفًا واسعًا من الديانات والمذاهب والاعتقادات ، ويُعرف تاريخيًا بقدرته على التعايش بين مختلف الطوائف رغم التحديات السياسية والاجتماعية وما ينتج عنه من اختلافات قد تصل أحيانا إلى حد الاقتتال .

وفيما يخص المسلمين، فإنهم يشكلون ثاني أكبر ديانة في البلاد الهندية بعد الهندوسية، وتنتشر بينهم مذاهب فقهية متعددة، أبرزها المذهب الحنفي الذي يُعد الأكثر شيوعًا، خاصة بسبب تأثير مدرسة ديوبند التي تتبناه. ولكن هناك أيضًا حضور للمذهب الشافعي في بعض المناطق، وكذلك مجموعات صغيرة تتبع المذهب الشيعي،

سواء الإثني عشري أو الإسماعيلي، إلى جانب وجود جماعات سلفية وأخرى صوفية. وهذا التنوع الفقهي والعقدي داخل المسلمين في الهند يعكس تعددية مذهبية حقيقية، وإن كانت الغلبة – العددية والأكثرية - للحنفية من حيث العدد والتأثير التاريخي.

أما على مستوى الديانات الأخرى، فالهندوسية نفسها ليست كتلة واحدة، بل تضم آلاف الطوائف والفرق التي تختلف في العقائد والطقوس، إلى جانب وجود السيخية والبوذية والجاينية والمسيحية والزرادشتية، وكل منها له مذاهبه الداخلية وتفرعاته الخاصة. وقد اعترفت الدولة رسميًا بست مجموعات كأقليات دينية، وأنشأت مفوضيات لحماية حقوقهم منذ عام 1992.

هذا التنوع المذهبي والديني في الهند لم يكن دائمًا مصدر توتر، بل غالبًا ما كان عاملًا في إثراء الثقافة الهندية، رغم بعض الفترات التي شهدت توترات طائفية. ومع ذلك، فإن الهند تُعد نموذجًا فريدًا في إدارة التعددية، حيث ينص دستورها على احترام جميع الأديان والمذاهب، ويُشجع على التعايش السلمي بينها.

المبحث الثامن : كيف أثرت هذه التعددية العقدية على العلاقات بين المسلمين أنفسهم أو على تمثيلهم الديموغرافي بين سكان الهند ؟

كما أسلفنا أن التعددية في الهند أمر واقع تاريخيا ، هذه التعددية المذهبية أدت إلى تعددية واضحة في باب العقيدة بين المسلمين في الهند أيضا ، وهي انعكاس طبيعي لتاريخ طويل من التفاعل الديني والثقافي في شبه القارة الهندية. فالمسلمون في الهند ليسوا كتلة عقدية واحدة – كما هو الحال في العالم لكله - ، بل ينقسمون إلى عدة اتجاهات ومدارس فكرية، أبرزها أهل السنة والجماعة، الذين يشكلون الأغلبية، وينقسمون بدورهم إلى مدارس مثل الديوبندية وأهل الحديث، إلى جانب وأقلية شيعية معتبرة تشمل الإثني عشرية إضافة إلى

طوائف منتسبة للإسلام كالإسماعيلية والبهرة والبريلوية ، فضلًا عن بعض الجماعات الصوفية التي تتبع طرقًا مختلفة كالقادرية والنقشبندية.

هذه التعددية العقدية – للمنتسبين إلى الإسلام - تعبر في كثير من الأحيان عن ثراء فكري وتنوع في طرق التعبير عن التدين – بغض النظر عن الأصح شرعا - ، خاصة في ظل وجود مؤسسات دينية ومدارس علمية متعددة، مثل دار العلوم ديوبند والجامعة الأشرفية وغيرها، التي ساهمت في ترسيخ هذا التنوع ضمن إطار الإسلام العام ، ومع ذلك فكانت تلك الاختلافات دائمًا مصدر خلاف بين تلك الاتجاهات المنتسبة للإسلام .

أما من حيث النسب، فوفقًا لتعداد عام 2011، يشكل المسلمون حوالي 14.2٪ من سكان الهند، أي ما يقارب 172مليون نسمة، وتشير التقديرات الحديثة إلى أن العدد قد تجاوز 195مليون مسلم بحلول عام 2024، ما يجعل الهند ثالث أكبر دولة من حيث عدد المسلمين في العالم بعد إندونيسيا وباكستان ، أما من حيث التوزيع العقدي داخل المسلمين، فالسنة – ويقصد بهم ديوبند - يشكلون الأغلبية الساحقة، بينما يُقدّر عدد الشيعة بحوالي 15٪ من المسلمين، أي ما يقارب 25إلى 30 مليون شيعي تقريبًا.

هذا التنوع العقدي داخل المسلمين في الهند مع أنه يعكس أيضًا التعددية الدينية العامة في البلاد، حيث تعترف الدولة رسميًا بست أقليات دينية، وتضم أكثر من 900 طائفة دينية مختلفة. فإن المسلمين رغم كونهم أقلية دينية، يمثلون ثاني أكبر ديانة في الهند بعد الهندوسية، ويشكلون جزءًا أساسيًا من النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي للبلاد ، إلا أن هذا التواجد غير متحد ولا يؤثر في الحياة الهندية السياسية بشكل فعال

يمثل حجمهم العددي كنتيجة واضحة لاختلافاتهم الدينية فيما بينهم ، فكل فصيل منهم ينأي بنفسه عن الآخر ولا يتحد معه أو يفكر في التقارب ليمثل قوة عددية لمواجهة الكافر الأصلي الهندوسي ! .

المبحث التاسع : كيف تعاملت حركة التبليغ الدعوية مع الطوائف غير السنية وكيف أثرت في المسلمين في الهند؟

كما تبين لك ، فلقد نشأت حركة التبليغ في شبه القارة الهندية في بيئة غنية بالتنوع الفكري والعقدي، حيث تتوزع الطوائف الإسلامية بين الديوبندية وأهل الحديث والصوفية والشيعة والبريلوية ، ولكل منها رؤيته الخاصة في مسائل العقيدة والتدين. ومع ذلك، فإن حركة التبليغ الدعوية اتخذت منذ تأسيسها موقفًا متزنًا تجاه هذا التنوع، يقوم على تجنب الخوض في الخلافات العقدية، والتركيز على الجوانب الإيمانية والسلوكية التي تجمع المسلمين ولا تفرقهم. فهي لا تُصنّف نفسها ضمن فرقة عقدية محددة، ولا تضع تصحيح عقائد الآخرين مرحلة مفصلية بينهما وبين قبول الآخر ودعوته وفق تصور عقدي خاص بها، بل تعتمد منهجًا عمليًا يقوم على التدرج في الدعوة، وإحياء الإيمان في القلوب ، وتشجيع الناس على الالتزام بالتوحيد وتصحيح اليقين على الله تعالى وحده لا شريك له وتنقية الأعمال من شوائب الشرك والتمسك بالصلاة والأخلاق الحسنة ، دون الدخول في تفاصيل الخلافات الكلامية العقدية أو الفقهية.

هذا الموقف جعلها تحظى بقبول واسع بين مختلف الفرق العقدية المعتدلة في الهند والعالم ، رغم بعض الانتقادات التي توجه إليها من بعض التيارات المتشددة ، خصوصًا السلفية المعاصرة التي لا تقبل مرونة ولو على سبيل المرحلية أو التدرج ! ، متهمين أعضاء الحركة بأنهم لا يعطون العقيدة حقها من التركيز والبيان. لكن دعوة التبليغ ترى أن إصلاح العقيدة يأتي بالتدرج، وأن مصاحبة الناس وتزكية نفوسهم قد

تكون مدخلًا لإصلاح تصوراتهم العقدية لاحقًا، دون أن يكون ذلك شرطًا مسبقًا للانخراط في العمل الدعوي.

وبالتالي، فإن علاقة حركة التبليغ بالفرق العقدية في الهند تتسم بالحياد والتسامح، فهي لا تتدخل في صراعات مذهبية، بل تسعى إلى أن تكون مظلة جامعة للمسلمين من أهل السنة والجماعة، بغض النظر عن خلفياتهم العقدية، ما داموا لا يخرجون عن إطار الإسلام العام. هذا النهج ساعدها على الانتشار في بيئة هندية شديدة التنوع، دون أن تُتهم بأنها تمثل فرقة عقدية بعينها أو تسعى إلى فرض تصور عقدي معين.

المبحث العاشر : هل ثبت عن أهل التبليغ في الهند أي محاولة لحمل الناس على منهجهم العقدي أو مذهبهم الفقهي الحنفي؟

لم يثبت أن أهل التبليغ في الهند أنهم حاولوا حمل الناس أو إلزامهم باتباع المذهب الفقهي الحنفي السائد هناك وعلى الرغم من أن غالبية قياداتها وأفرادها في شبه القارة الهندية يتبعون المذهب الحنفي إلا أن منهج الحركة لا يقوم على التعصب المذهبي أو فرض مذهب فقهي معين ولذلك كانت لدعوتهم ملامح رئيسة هي :

- **الهدف الأسمى هو العمل بالدين:** فهم يركزون على تشجيع الناس على **تطبيق الشعائر الإسلامية** (كالصلاة والصيام والزكاة) بغض النظر عن تفاصيل المذاهب. ففي دروسهم وبياناتهم، يُعلمون الناس أساسيات الطهارة والصلاة، لكنهم لا يدخلون في دقائق الخلافات الفقهية بين المذاهب.

- **التسامح المذهبي:** ففي البلدان التي ينتشر فيها أتباع مذاهب أخرى (كالشافعية في جنوب شرق آسيا ومصر، أو المالكية في شمال إفريقيا)، يتعايش أهل التبليغ مع هذه المذاهب دون محاولة تغييرها أو إلزام أتباعها بالحنفي. بل إن كثيرًا من الأتباع الجدد في هذه البلدان يظلون على مذاهبهم الفقهية التي نشأوا عليها.
- **منهجهم في "بيان فضائل الأعمال":** يعتمد منهجهم في بلاد الهند على كتاب "فضائل الأعمال" للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله ، والذي يركز على فضائل العبادات والأخلاق دون الخوض في تفاصيل فقهية عميقة أو خلافية. وهذا الكتاب مقبول لدى غالبية المذاهب لأنه لا يتطرق للمسائل التفصيلية التي قد تثير الجدل.

المبحث الحادي عشر : هل حاول أهل التبليغ منافسة أقرانهم في أي بلد في الاستحواذ على مساجد أو منابر أو ما شابه؟

لم يثبت أيضا عن أهل التبليغ أنهم سعوا لمنافسة أقرانهم من الحركات أو العلماء أو الجماعات الأخرى للاستحواذ على المساجد أو المنابر بشكل عام ، بل إن منهجهم يتجنب ذلك تمام وتتركز دعوتهم على الناس في الشوارع والطرقات واماكن تواجدهم ولا يضعون المساجد أولوية نتوقف عندها الدعوة ، وذلك لأسباب عديدة:

- **البعد عن السياسة والمناصب:** فحركة التبليغ تُعرف بأنها حركة غير سياسية ولا تسعى للمناصب أو السيطرة على المؤسسات. فهم يركزون على **الجهد الفردي والجماعي الخالص للدعوة**، ويهدفون إلى تحريك كل مسلم ليقوم بواجب الدعوة في حياته اليومية.

- **العمل تحت مظلة المؤسسات القائمة:** في غالب البلدان، يعمل أفراد التبليغ بالتنسيق مع القائمين على المساجد والمؤسسات الدينية المحلية. فهم لا يبنون مساجدهم الخاصة عادةً، ولا يسعون لتغيير الأئمة أو الخطباء المعينين. بل يُعرف عنهم أنهم يذهبون إلى المساجد القائمة ويُصلون فيها، ويطلبون الإذن بإلقاء "كلمة" أو "موعظة" قصيرة بعد الصلوات.
- **تجنب الخلافات والصدامات:** فمن أهم مبادئ الحركة **تجنب الخوض في الخلافات والصراعات مع أي جهة إسلامية أخرى.** وهذا التجنب يُطبق بشكل صارم، فهم لا يتصارعون على المنابر أو القيادة الدعوية؛ هدفهم هو تذكير الناس بالدين بطريقتهم الخاصة.
- **تركيزهم على "الخروج":** فأساس عملهم هو "الخروج" في سبيل الله للدعوة، وليس "الاستقرار في المسجد فقط " في مكان واحد للتحكم به وجعله قلعة له ومركزا . حتى في المراكز الكبرى لهم (مثل مركز نظام الدين في الهند)، ليست مراكز للقعود واستقبال الناس لسماع الدروس والمواعظ فحسب بل هي أماكن لتجمع الخارجين والدعاة لتدريبهم وتوجيههم وترتيب رحلاتهم الدعوية ، فمراكزهم ومساجدهم الرئيسة ليست مراكز للسيطرة على مناطق جغرافية أو مؤسسات دينية بقدر ما هي مراكز لتحريك العمل العالمي بتناسق وتناغم وتكامل .

هذا المنهج هو أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت الحكومات والعديد من الجماعات الأخرى تتقبلهم ولا تعترض على جهودهم وحركتهم ، وذلك لأنهم لا يشكلون تهديدًا مطلقا على السلطات القائمة أو على النفوذ الديني للجماعات الأخرى لأن هدفهم يتركز على هداية الناس وليس على تجميع الناس لتكوين كتلة بشرية كما يريد الباقون . فالانتقادات الموجهة لهم من هذا الجانب عادة ما تكون من خصومهم الذين يحاولون إظهارهم كأنهم يسعون للتحزب أو السيطرة، لكن الواقع العملي لحركتهم يُظهر ويؤكد خلاف ذلك.

المبحث الثاني عشر : أثر المنافسة بين أبناء الإسلام على الاستحواذ على المساجد والمدارس على انتشار الاسلام واستقطاب مسلمين جدد ودعوة غير المسلمين في الهند وفي العالم أيضا ؟

إن المنافسة بين أبناء الإسلام على الاستحواذ على المساجد والمدارس قد تكون ذات وجهين؛ أحدهما إيجابي حين تُوظف في خدمة الدين، والآخر سلبي حين تتحول إلى صراع على النفوذ والتمثيل، مما يُضعف أثر الدعوة ويشتت الجهود المبذولة . ففي الهند، حيث التعددية المذهبية والعقدية بين المسلمين واضحة، نجد أن بعض الفرق والاتجاهات تسعى إلى السيطرة على المساجد والمدارس لتكون منابر لنشر رؤاها الخاصة، مما يؤدي أحيانًا إلى إقصاء الفرق الأخرى أو تهميشها، ويُحول المسجد من فضاء جامع إلى ساحة تنافس مذهبي. هذا التنافس لا شك أنه يُضعف من جاذبية الإسلام لدى غير المسلمين، الذين قد يرون في هذا الانقسام صورة سلبية عن الدين، ويُعيق كذلك استقطاب المسلمين غير الملتزمين، إذ لا يجدون خطابًا موحدًا أو بيئة جامعة تُرحب بهم دون شروط مذهبية أو عقدية ، كما أن هذا الانقسام يفرح أعداء الإسلام – وهم كثر – كثيرا لما يحملون في قلوبهم تجاه هذا الدين ويريدون القضاء عليه ، فيرون في تلك الانقسامات فرصا هائلة لتنفيذ تلك المخططات ، فيقدمون العون لبعض الفرق المنحرفة عن الجادة ليضعفون الفصائل المعتدلة ! حتى إن الفرق الغالية في الهند يرون في حركة التبليغ حركة وهابية دخيلة على المجتمع لما تميز به من وسطية واعتدال وتقريب لوجهات النظر ، فيؤولون وسطيتهم هذه على التبعية لمنهج وهابية السعودية ! في حين أن سلفية السعودية يرمونهم بأنهم من غلاة الصوفية نظرا لنشأتهم الهندية ! .

وفي السياق العالمي، تتكرر هذه الظاهرة في بعض الجاليات الإسلامية، خاصة في الغرب، حيث تتنافس الجمعيات والمراكز الإسلامية على إدارة المساجد والمدارس، وأحيانًا تُستورد الخلافات المذهبية من البلدان الأصلية، مما يُربك المسلمين الجدد ويُشعرهم بأن الإسلام ليس وحدة متماسكة، بل فسيفساء من

الآراء المتضاربة. وقد يؤدي ذلك إلى عزوف البعض عن الدخول في الإسلام، أو إلى ارتباك في فهمه، خاصة إذا لم يجدوا من يُقدم لهم صورة متوازنة وشاملة عن الدين.

ولكن - في المقابل - حين تُدار المساجد والمدارس بروح التعاون والتكامل بين أبناء الإسلام مهما اختلفت مشاربهم وتوجهاتهم ، وتُفتح أبوابها للجميع دون تمييز مذهبي، فإنها تُصبح منارات حقيقية للدعوة، وتُسهم في نشر الإسلام واستقطاب المهتدين الجدد، كما تُعزز من وحدة المسلمين وتماسكهم. فالمسجد الذي يُعلي من قيمة الأخوة الإسلامية، ويُركز على المشتركات بينهم ، يُصبح بيئة جاذبة لغير المسلمين ، ويُقدم صورة مشرقة عن الإسلام، تُلهم غير المسلمين وتُطمئن المترددين.

وقد عُرفت حركة التبليغ والدعوة تاريخيًا بطابعها المسالم وابتعادها عن المنافسة والصراعات على المساجد والمدارس أو غيرها من مظاهر النفوذ الديني. فهي جماعة تركز على الدعوة الفردية والجماعية المباشرة المبنية على الحركة والذهاب واللقيا ، وتحرص على عدم الدخول في جدل فقهي أو عقدي، ولا تتبنى خطابًا إقصائيًا تجاه الفرق الأخرى، بل تسعى إلى احتواء الجميع ضمن إطار أهل السنة والجماعة. ومنهجهم يقوم على التواضع والتدرج، ويُشجع على العمل الدعوي بصمت وهدوء، دون إثارة الخلافات أو التنافس على المواقع أو الزعامة الدينية.

وقد عرف أن تلك الحركة الدعوية تتجنب الحديث في الخلافات الفقهية والسياسات وأمراض الأمة، وهي ما يُعرف بـ "لاءات التبليغ الثلاث"، مما يجعلها أقل عرضة للدخول في منافسات أو صراعات مع الجماعات الأخرى. بل إنهم يُعرفون بالخروج إلى الناس في أماكنهم، حتى في المقاهي والحانات، من أجل دعوتهم، دون أن يشترطوا عليهم الانتماء إلى فكر معين أو طائفة محددة.

هذا النهج جعلهم يُنظر إليهم غالبًا كجماعة دعوية تربوية أكثر منها تعليمية أو فكرية، وهم لا يسعون إلى السيطرة على المساجد أو المدارس، بل يكتفون باستخدامها كمنابر مؤقتة للدعوة، دون محاولة احتكارها أو تحويلها إلى مراكز خاصة بهم. لذلك، فإنهم يُعتبرون من أكثر الجماعات الإسلامية سلمًا وابتعادًا عن المنافسة على النفوذ، وهو ما ساعدهم على الانتشار في بيئات متعددة دون إثارة حساسيات مذهبية أو سياسية.

الفصل الحادي عشر : فك الارتباط بين دعوة التبليغ العالمية والمدرسة الديوبندية المحلية :

يُشاع – من بعض المغرضين أحياناً - أن حركة التبليغ والدعوة تتبنى وتعمل على نشر المنهج الديوبندي، سواء في الجانب العقدي، الفقهي، أو السلوكي (الطريقة السلوكية). وهذه المحاولة لإلصاق فكر التبليغ بالمنهج الديوبندي هي في حقيقتها محاولة فاشلة، ولا تستند إلى فهم دقيق لطبيعة عمل تلك الحركة أو الجماعة وأهدافها ، فمجرد نشأة بعض مشايخ التبليغ في مدرسة دار العلوم ديوبند لا يعني بالضرورة أنهم يتبنون نشر تلك العقيدة أو المذهب الفقهي أو الطريقة السلوكية كهدف أساسي لدعوتهم.

المبحث الأول : النشأة في ديوبند لا تعني تبني منهج المدرسة الكامل:

اعلم أن النشأة في بيئة علمية معينة لا تعني بالضرورة التبعية المطلقة لمنهج تلك البيئة، وهذا ما يتجلى بوضوح في تجربة حركة التبليغ ومؤسسها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله. فقد تلقى الشيخ إلياس تعليمه في مدرسة دار العلوم ديوبند، وهي مؤسسة علمية عريقة تتبع المذهب الحنفي فقهيًا، والعقيدة الماتريدية أو الأشعرية أصوليًا، ولها توجه صوفي في التربية والسلوك. ورغم أن كثيرًا من كبار مشايخ التبليغ أيضًا تخرجوا من هذه المدرسة، فإن حركة التبليغ لم تُنشأ لتكون امتدادًا دعويًا لمنهج ديوبند، ولا لنشر توجهها العقدي أو الفقهي.

إن التعلم من مدرسة معينة يمنح الإنسان خلفية معرفية وتربوية، لكنه لا يُلزمه باتباع تلك المدرسة في كل تفاصيلها، خاصة إذا كان يعمل في مجال دعوي يستهدف عامة المسلمين من مختلف المشارب والمذاهب. وهذا ما فعله الشيخ إلياس، إذ تجاوز في رؤيته الدعوية حدود المذهبية الضيقة، وركز على إحياء الدين في حياة المسلمين من خلال العمل والسلوك والتزكية، لا من خلال التنظير العقدي أو الفقهي.

ومثلما درس الإمام الشافعي على يد الإمام مالك، ثم أسس مذهبه الخاص دون أن يلتزم بكل اجتهادات مالك، فإن الشيخ إلياس أيضًا، رغم تأثره بديوبند، لم يجعل من حركة التبليغ وسيلة لنشر منهجها، بل أسس دعوة عالمية تهدف إلى تحريك الإيمان في القلوب، وإحياء الصلاة، والذكر، والدعوة، والتزكية، في حياة المسلمين أينما كانوا، دون أن يُلزمهم بمذهب معين أو توجه عقدي محدد.

وهكذا، فإن حركة التبليغ العالمية ، رغم جذورها العلمية في دار العلوم ديوبند المدرسة العريقة المحلية التي تتبع المذهب الحنفي في الفقه والعقيدة الماتريدية/الأشعرية في الأصول، ولها توجه صوفي في التربية والسلوك (نسبة إلى كبار مشايخها الذين كانوا من الصوفية). ولكن هذا لا يعني أن حركة التبليغ تأسست لنشر هذا المنهج المذهبي أو العقدي بالتحديد ، بل ظلت دعوة عملية، عالمية، تتجاوز الحواجز المذهبية، وتخاطب المسلم البسيط في كل مكان، بلغة الإيمان والعمل، لا بلغة الجدل والتنظير.

المبحث الثاني : منهج حركة التبليغ هو إحياء الدين في العالم كله بطريقة القرن الأول:

إن من أعظم ما يُحمد لجماعة التبليغ أنها سارت على منهج عملي في إحياء الدين، مستلهم من سيرة النبي ﷺ وحياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، قائم على الدعوة بالحركة، والتركيز على الأصول، وتجنب الخلافات، وتحريك الناس نحو العمل الصالح، لا التنظير والجدل.

لقد قام منهجهم على رؤية واضحة، وهي إعادة الناس إلى طريقة القرن الأول الهجري، عصر الصحابة، حيث كانت الدعوة تتحرك في الأرض، وتصل إلى القلوب، دون أن تتوقف عند تفاصيل مذهبية أو خلافات

فقهية. وقد قال الله تعالى: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" [1] ، فجعل الدعوة إلى الله سبيل النبي ومن اتبعه، وهي دعوة قائمة على البصيرة، لا على الجدل، وعلى العمل، لا على التنظير.

وقد أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة، فدعا أهلها إلى الإسلام، وأقام الصلاة معهم، دون أن يشغلهم بالخلافات، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن، وأوصاه أن يبدأ بشهادة التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة، كما في الحديث الصحيح، وهو ترتيب واضح لأولويات الدعوة.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتحركون في الأرض، يفتحون البلاد، ويبلغون رسالة الإسلام، ويجمعون الناس على التوحيد والصلاة، دون أن يجعلوا من الخلافات الفقهية أو العقدية عائقًا أمام نشر الدين. بل كانوا يتركون التفاصيل للعلماء، ويهتمون بجمع القلوب وتوحيد الصف.

ومن هنا، فإن حركة التبليغ تدعو إلى الأصول المشتركة التي لا يختلف عليها المسلمون: التوحيد، الصلاة، الذكر، العلم، إخلاص النية، وإكرام المسلم، والخروج في سبيل الله. وهذه الأصول ليست حكرًا على مذهب معين، بل هي أساس وحدة الأمة، كما قال تعالى: "إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ"[2] .

وتقوم دعوتهم على قاعدة حكيمة: العمل بالمشترك وترك المختلف، فلا يسألون المدعو عن مذهبه، ولا يدخلونه في جدل فقهي، بل يدعونه إلى إقامة الصلاة، ويصلون معه، ويتركون التفاصيل للمدارس العلمية المختصة.

---

[1] [يوسف: 108]

[2] [الأنبياء: 92]

فالهدف هو تحريك الناس نحو العمل، وتزكية النفس، وإحياء الإيمان، لا الانشغال بالتنظير أو الجدل، وهو ما فعله النبي ﷺ وصحابته، حين جعلوا من الدعوة حركة، ومن الدين حياة، ومن التوحيد رسالة.

نسأل الله أن يبارك في جهود الدعاة، وأن يجمع الأمة على كلمة سواء، وأن يجعلنا من الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله.

ولذلك فمنهج حركة التبليغ قام على رؤية واضحة وهي إحياء الدين في العالم كله بطريقة ترجع بالناس إلى طريقة القرن الأول الهجري (عصر الصحابة). وهذا يعني:

- **التركيز على الحركة على الناس:** كما كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يتحركون بالدعوة إلى مختلف الأماكن. قال تعالى: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" [1] . فمنهج الصحابة كان يقوم على الدعوة العملية المباشرة، والتنقل في الأرض لتبليغ رسالة الإسلام، دون التوقف عند قضايا الخلاف الفرعية التي قد تعيق نشر الأصول.
- **البساطة والعمومية:** الدعوة إلى الأصول المشتركة التي لا يختلف عليها المسلمون: كلمة التوحيد، الصلاة، العلم والذكر، إكرام المسلم، إخلاص النية، والخروج في سبيل الله. هذه الأصول ليست حكراً على مذهب معين. لقوله تعالى: "إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" [2] . فهذه الآية تدعو إلى وحدة الأمة على أصول الدين.

[1] (يوسف: 108)

[2] (الأنبياء: 92)

- **تجنب الخوض في المسائل الخلافية:** لجمع القلوب وتوحيد الصف، بدلاً من تشتيتها بالخلافات الفقهية أو العقدية التفصيلية التي قد لا يفهمها عامة الناس.
- **اعتماد قاعدة "العمل بالمشترك وترك المختلف":** من حكمة الدعوة التركيز على ما يجمع المسلمين ويشملهم، وترك ما يفرقهم، خصوصاً في بداية الدعوة لعامة الناس. فعندما يدعو الداعية المبلغ شخصًا إلى الصلاة، لا يسأله عن مذهبه الفقهي أو كيفية صلاته بالتفصيل، بل يحثه على إقامتها ويصلي معه. التفاصيل تُترك للمدارس العلمية.
- **الهدف هو العمل لا التنظير:** التركيز على تحريك الناس للعمل بالدين، وممارسة شعائره، وتزكية النفس، وليس التركيز على التنظير الفقهي أو الجدل العقدي.

المبحث الثالث : الفروق الجوهرية بين حركة التبليغ العالمية ومدرسة ديوبند المحلية:

يمكن ذكر بعض الفروق الجوهرية للتدليل على أن حركة التبليغ والدعوة لا تتبنى نشر الفكر الديوبندي بشكل حصري، وذلك بتوسيع النقاش ليشمل جوانب أخرى من منهج الحركة والمدرسة.

الاختلاف في أولوية العمل الدعوي بين الحركة الدعوية والمدرسة العلمية:

فأولوية العمل لدى حركة التبليغ تتركز على "الخروج في سبيل الله "لتحريك الناس على الإيمان والعبادات الأساسية. هدفها هو الوصول إلى كل إنسان، بغض النظر عن خلفيته، ليتحرك بنفسه لتطبيق الدين. فالأولوية هنا هي العمل الفردي والجماعي لنشر الدين ، بينما أولوية العمل الأساسية للمدرسة الديوبندية هي تدريس العلم الشرعي وتخريج العلماء والمفتين. فدورها هو حماية الدين من خلال التعليم الأكاديمي المنهجي في المعاهد والمدارس، متبنية على المذهب الحنفي والعقيدة الماتريدية.

فالاختلاف في أولوية العمل الدعوي بين حركة التبليغ والمدرسة الديوبندية يعكس تباينًا في الرؤية والوظيفة، لا في الهدف النهائي، فكلاهما يسعى إلى خدمة الدين، لكن كلٌ بطريقته الخاصة. فمدرسة ديوبند، التي نشأ فيها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله، تُعنى أساسًا بالتعليم الشرعي المنهجي، وتخريج العلماء والمفتين، وهي مؤسسة علمية عريقة تتبع المذهب الحنفي فقهيًا، والعقيدة الماتريدية أصوليًا، وتولي اهتمامًا كبيرًا بالتخصصات الشرعية كعلوم الحديث، والتفسير، والأصول. هدفها حماية الدين من خلال التأصيل العلمي، وبناء قاعدة معرفية متينة تحفظ الأمة من الانحراف العقدي والفقهي.

أما حركة التبليغ، التي ابتدأها الشيخ إلياس، فقد انطلقت من رؤية دعوية مختلفة، تركز على تحريك الإيمان في القلوب، وإحياء العبادات الأساسية في حياة المسلمين، من خلال "الخروج في سبيل الله". لم يكن هدفها التنظير أو التعليم الأكاديمي، بل الوصول إلى عامة المسلمين، وتحفيزهم على تطبيق الدين عمليًا، بغض النظر عن خلفياتهم المذهبية أو العقدية. فالأولوية عند حركة التبليغ هي العمل الميداني، والتجربة الروحية، والمرافقة الجماعية، التي تُنتج تحولًا داخليًا في الفرد، يدفعه إلى الالتزام بالصلاة، والذكر، والدعوة، والتوبة.

ورغم أن الشيخ إلياس ومشايخ التبليغ تلقوا تعليمهم في ديوبند، فإنهم لم يجعلوا من حركة التبليغ وسيلة لنشر منهج ديوبند، بل تجاوزوا المذهبية الضيقة، وركزوا على العمل الإيماني والسلوكي، الذي يخاطب القلوب قبل العقول. وهذا يُشبه ما فعله الإمام الشافعي، الذي درس على الإمام مالك، لكنه لم يلتزم بمذهبه بالكامل، بل أسس مذهبه الخاص، مما يدل على أن التلقي لا يعني التبعية المطلقة.

وهكذا، فإن حركة التبليغ والمدرسة الديوبندية تمثلان وجهين مختلفين للعمل الدعوي: الأولى تُحرك الناس نحو التطبيق، والثانية تُحصّنهم بالعلم. وإذا تكاملت الرؤيتان، فإن الأمة تجمع بين العمل والعلم، بين الإيمان والمعرفة، فتُحيي الدين في القلوب والعقول معًا.

الاختلاف في المنهج التعليمي بين الحركة الدعوية والمدرسة العلمية:

فلا تملك حركة التبليغ منهجًا تعليميًا منظمًا على غرار الجامعات أو المدارس. بل إن تعليمها يقتصر على "البيانات" و"المشاورات" التي تركز على الأصول الستة والأخلاق والآداب، وهي دروس عملية لا تتطلب تخصصًا ، أما مدرسة ديوبند فإنها تمتلك منهجًا تعليميًا صارمًا يشمل دراسة الفقه الحنفي، والعقيدة، والحديث، والتفسير، واللغة العربية، وغيرها من العلوم الشرعية، وتمنح شهادات أكاديمية.

فالاختلاف في المنهج التعليمي بين حركة التبليغ والمدرسة الديوبندية يُبرز تباينًا واضحًا في طبيعة التكوين، وأسلوب التأثير، ووسائل نقل المعرفة الدينية. فكلٌ منهما ينطلق من رؤية مختلفة تجاه التعليم، ويخدم جمهورًا مختلفًا، ويؤدي وظيفة دعوية أو علمية تتناسب مع أهدافه.

فالمدرسة الديوبندية، بوصفها مؤسسة علمية عريقة، تعتمد على منهج تعليمي صارم ومنظم، يشمل دراسة الفقه الحنفي، والعقيدة الماتريدية، وعلوم الحديث، والتفسير، واللغة العربية، والمنطق، والأصول، وغيرها من العلوم الشرعية. هذا المنهج يُدرّس في معاهد وجامعات، ويخضع لنظام أكاديمي دقيق، يُمنح فيه الطالب شهادات علمية تؤهله للفتوى، والتعليم، والبحث، والاجتهاد. الهدف من هذا التعليم هو تكوين نخبة علمية قادرة على حماية الدين، والرد على الشبهات، وتقديم الفهم الصحيح للنصوص الشرعية، وفق قواعد منهجية راسخة.

وفي المقابل، فإن حركة التبليغ لا تملك منهجًا تعليميًا أكاديميًا منظمًا، ولا تسعى إلى تخريج علماء أو متخصصين في العلوم الشرعية. تعليمها يقتصر على "البيانات" التي تُلقى بعد الصلوات، و"المشاورات" التي تُعقد بين أفراد الجماعة، وتدور حول الأصول الستة التي تُشكل جوهر دعوتها، مثل اليقين، والصلاة، والعلم والذكر، وإكرام المسلم، وتصحيح النية، والدعوة إلى الله. هذه الدروس تُركز على الأخلاق والآداب، وتُقدّم بأسلوب بسيط، عملي، لا يتطلب تخصصًا أو دراسة معمقة، بل يُخاطب عامة الناس، ويهدف إلى تحريكهم نحو التطبيق الفوري للدين في حياتهم اليومية.

هذا التباين في المنهج التعليمي يعكس اختلافًا في الوظيفة: فديوبند تؤسس العقول، والتبليغ تُحرّك القلوب. ديوبند تُعِدّ العلماء، والتبليغ تُوقظ العامة. ديوبند تُعنى بالعلم المنهجي، والتبليغ تُعنى بالعمل الإيماني. ورغم أن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله نشأ في ديوبند، فإنه لم يجعل من حركة التبليغ امتدادًا لمنهجها التعليمي، بل أسس حركة دعوية تُخاطب الناس بلغتهم البسيطة، وتُركّز على التزكية والسلوك، لا على التخصص والبحث.

وهكذا، فإن حركة التبليغ والمدرسة الديوبندية تمثلان نمطين مختلفين من التعليم الديني: أحدهما أكاديمي منهجي، والآخر عملي شعبي. وإذا اجتمع النمطان وتكاملا، فإن الأمة تجمع بين العلم والعمل، بين التأصيل والتحريك، فتُبنى على أسس راسخة، وتتحرك بدافع إيماني حي.

الاختلاف في العلاقة مع المذاهب الأخرى بين الحركة الدعوية والمدرسة العلمية:

تختلف العلاقة في منهج حركة التبليغ مع المذاهب الأخرى حيث تعتمد على مبدأ "التكيف" مع المذهب السائد في البلد الذي تذهب إليه. ففي مصر والمغرب العربي، يلتزم أتباعها بالمذهب المالكي. وفي الشام،

يلتزمون بالمذهب الشافعي. وهذا يؤكد عدم وجود إصرار على نشر المذهب الحنفي في الفقه ولا المنهج العقدي الماتريدي أو الأشعري ، فتحترم مذهب كل بلد وتركز على هدفها المعلن الذي تعمل من أجله ، بخلاف منهج مدرسة ديوبند! فعلى الرغم من احترامها للمذاهب الأخرى، إلا أنها تعتبر نفسها حصنًا للمذهب الحنفي والعقيدة الماتريدية، وتُخرّج علماء متخصصين في هذا المذهب.

الاختلاف في الشق السياسي بين الحركة الدعوية والمدرسة العلمية :

فمنهج حركة التبليغ ملتزم تماما بمبدأ "الابتعاد التام عن السياسة"، ولا يتدخل أفراده في الشؤون السياسية أو القضايا الخلافية التي تثيرها المجتمعات أو التوجهات الأخرى . وهذا المبدأ هو أحد ركائز حركتها. أما منهج ديوبند فرغم عدم انخراطها المباشر في السياسة الحزبية، إلا أن المدرسة الديوبندية لعبت أدوارًا تاريخية مهمة في مقاومة الاستعمار في شبه القارة الهندية، وكان لبعض كبار علمائها مواقف سياسية واضحة.

من تلك المقارنة الخاطفة تظهر هذه الفروق الجوهرية أن العلاقة بين الحركة الدعوية والمدرسة العلمية ليست علاقة تبعية فكرية كاملة، بل هي علاقة تأثر تاريخي في الجانب التربوي والدعوي ، فقد استلهمت حركة التبليغ من بيئة ديوبند الروحانية والدعوية، ولكنها صاغت لنفسها منهجًا عمليًا مستقلاً يركز على تحريك الناس للدعوة لانتشالهم من أوحال الضلال إلى طريق الهداية ، بينما ظلت ديوبند مركزًا أكاديميًا ومدرسيًا للعلم الشرعي فمن الخطأ البين نسبة أفراد حركة التبليغ إلى عقائد ومناهج ديوبند .

المبحث الرابع : لماذا لا تهدف حركة التبليغ لنشر منهج ديوبند؟

إن حركة التبليغ لم تنشأ لنشر مذهب فقهي أو عقدي معين، بل قامت على دعوة عالمية تتجاوز الحدود المذهبية والطائفية، فلو كانت تهدف إلى ترسيخ المنهج الديوبندي الحنفي في العقيدة والفقه، لقصرت دعوتها على البيئات التي ينتشر فيها هذا المذهب، أو سعت إلى تحويل الناس إليه. غير أن الواقع يشهد بخلاف ذلك؛ إذ تنتشر الجماعة في بلاد تتنوع مذاهبها الفقهية والعقدية، من المالكية في المغرب العربي، إلى الشافعية في جنوب شرق آسيا، والحنبلية في الجزيرة العربية، دون أن تسعى إلى تغيير مذهب الناس أو عقيدتهم، بل تحثهم على الالتزام بما هم عليه من مذاهبهم، وتدعوهم إلى إحياء شعائر الإسلام وفق ما يعرفونه ويألفونه.

ومنهج الحركة لا يقوم على الدعوة إلى تفاصيل مذهبية أو عقدية، بل يركز على الأصول العملية للدين، من توحيد الله تعالى، وإحياء سنة النبي ﷺ، والتمسك بأركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج، دون أن يُسمع في بياناتهم الدعوية ذكر للمذهب الحنفي أو العقيدة الماتريدية، مما يدل على أن غايتهم ليست التنظير العقدي أو الفقهي، بل الإحياء الإيماني والسلوكي.

وقد صُمم منهجهم الحركي ليواكب واقع الأمة الإسلامية المعاصر، الذي يشهد ضعفًا في الإيمان وتراخيًا في أداء العبادات، فجعلوا أولويتهم إحياء هذه الجوانب الأساسية، وتركوا ما سوى ذلك من تفاصيل مذهبية للعلماء والمدارس العلمية المختصة، إدراكًا منهم لطبيعة المرحلة وحاجات الناس.

وعليه، فإن الربط بين حركة التبليغ ومنهج مدرسة ديوبند هو ربط قسري لا يعكس حقيقة أهداف الجماعة ولا منهجها العملي، فهي لا تسعى إلى نشر مذهب معين، بل إلى إحياء الدين في الأمة كلها، بمنهج عملي وسلوكي مستوحى من السيرة النبوية وحياة الصحابة، بعيدًا عن التحزب والانتصار لمذهب أو عقيدة بعينها.

الفصل الثاني عشر : التبليغ والدعوة حركة إحياء إسلامي لا تعصب مذهبي

يُشكل فهم طبيعة عمل حركة التبليغ والدعوة نقطة محورية في تقييمها ، فهي حركة تهدف في جوهرها – كما بينا مرارا وتكرارا - إلى نشر الإسلام في كل مكان تواجدت فيه تلك الدعوة وإحياء شعائره وقيمه في قلوب المسلمين وحياتهم، وليس نشر منهج مدرسة ديوبند العقدي، ولا الفقهي، ولا السلوكي المحدد الموجود في الهند ، وهذا التمييز ضروري جدا لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تحيط بهذه الحركة الدعوية.

1. الهدف الأسمى: نشر الإسلام كدين شامل:

فقد تأسست حركة التبليغ في الأساس على أساس الإيمان بأن الإسلام دين كامل شامل، وأن مهمة إيصاله للناس تقع على عاتق كل مسلم وليس على عاتق العلماء فقط أو أصحاب المؤسسات الدينية ، ولذلك، فقد كان هدفهم الأساسي هو تحريك الأمة للدعوة إلى الله، وتعليم الناس أركان الإسلام الأساسية، وإحياء السنة النبوية في حياتهم.

فالدعوة إلى الله تعالى واجب الأمة المحمدية كلها كما قال تعالى: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" [1] . فهذه الآية الكريمة تُعد ركيزة أساسية في فكرهم حيث بنيت عليه حركتهم، فهم يرون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله مسؤولية الأمة بأسرها، لا تقتصر على فئة معينة من أفراد الأمة كالعلماء أو الموظفين .

[1] (آل عمران: 110)

2. عمومية الدين الإسلامية وخصوصية المنهج الدعوي :

من المهم جدا أن نفهم أنه عندما يخرج أفراد تلك الحركة للدعوة، فإنهم يدعون إلى شمولية الدين وعمومياته ، ولكنهم يقررون مواضيع هامة يتكلمون فيها ومنهجية خاصة في الدعوة حتى لا تتشعب الأمور على دعاة الحركة نظرا لأن غالبهم من عامة المسلمين الغير متخصصين في التخصصات الشرعية ، فمن الحكمة أن لا يتسع الأمر عليهم ، فيركزون على ست أبواب هي أهم أبواب الدين الإسلامي ، بتحقيقها يتحقق الإسلام في قلوب الناس ويسهل عليهم تحصيل صفات الدين ومسائله :

- التوحيد الخالص لله: بترسيخ اليقين في القلوب وتصحيح العقيدة دون تفصيل في المسائل الكلامية الدقيقة التي قد لا يفهمها عامة الناس.
- إقامة الصلاة: بتعليم كيفيتها وأهميتها وفضلها، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنى بالصلاة عناية بالغة.
- العلم وتلاوة القرآن والذكر: بتشجيع الناس على طلب مهمات العلم التي لا تصح العبادة إلا به والارتباط بالقرآن والأذكار المأثورة التي جاءت بها السنة.
- إكرام المسلمين: بغرس الأخوة والمحبة والتعاون بين المسلمين، امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم" [1] .
- إخلاص النية: بالتركيز على تجريد العمل لله تعالى، كما في حديث: "إنما الأعمال بالنيات"[2] .
- الخروج في سبيل الله: بتنظيم الرحلات الدعوية لتعلم الدعوة وممارستها.

---

[1] (رواه مسلم)

[2] (متفق عليه)

فهذه الأصول الستة هي جوهر دعوتهم، وهي أصول لا تقتصر على مذهب فقهي أو عقدي معين، بل هي مشتركة بين غالبية المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

3. التمييز بين الخلفية العلمية والهدف الدعوي:

قد يكون لكثير من مشايخ التبليغ في الهند خلفية تعليمية في مدرسة ديوبند ، والتي تتبع المذهب الحنفي في الفقه والعقيدة الماتريدية ، ومع ذلك، فإن هذه الخلفية العلمية لا تعني أن الحركة العالمية قد اتخذت من نشر هذه المذاهب هدفاً لها كما يلي.

لا ينادون بتغيير المذهب الفقهي: ففي البلدان التي يغلب عليها مذهب فقهي معين (مثل المذهب المالكي في المغرب العربي، أو الشافعي في جنوب شرق آسيا أو الحنبلي في المملكة السعودية أو المالكي في بعض دول إفريقيا)، لا تحاول حركة التبليغ أن تدعو الناس إلى التحول للمذهب الحنفي وترك المذاهب الفقهية الأخرى. بل تدعوهم إلى الالتزام بما يعرفون من أحكام دينهم، وتدعهم على مذاهبهم التي يتبعونها ما دامت في إطار أهل السنة والجماعة ، فعندما يدعو الداعي في مصر، حيث يغلب المذهب الشافعي ويوجد أيضا المذاهب الأخرى، لا يطالب الناس بالصلاة على المذهب الحنفي أو غيره، بل يحثهم على إقامة الصلاة وفق ما تعلموه من مذهب بلدهم ، وكما ترون فإن الأزهر الشريف وهو المدرسة العريقة يحوي كل المذاهب الفقهية كدليل على التعددية والشمولية لعقول أهل الإسلام.

- لا يتعمقون في مسائل العقيدة الكلامية: فلا يخوضون – كأفراد في الدعوة - في التفاصيل العقدية الدقيقة التي قد تثير الخلاف أو تشتت عامة الناس. لأن هدفهم هو إحياء أصل التوحيد لله تعالى ونبذ الشرك والتنديد وإخلاص العبادة لله تعالى رب العبيد ، وهو أمر متفق عليه بين جميع المسلمين. فيتركون تفاصيل العقيدة وتدريسها للمدارس الشرعية المتخصصة ، وهذا لا يعني إهمال العقيدة، بل يعني التركيز على أصولها الأساسية التي تجمع الناس (مثل

الإيمان بالله الواحد، عدم الشرك، الإيمان بالرسل واليوم الآخر) وترك التفاصيل والمسائل الخلافية التي قد تؤدي إلى جدل بلا طائل لغير المتخصص ، وليعلم أن لتلك المسائل تاريخ طويل من الجدال البيزنطي الذي لم يؤد إلى نتيجة ولم يحصل منه اجتماع كلمة على طول تاريخ الإسلام ! فلذلك آثر دعاة التبليغ الاهتمام بما يفيد في حال الأمة والإعراض عما يفرقها ويشتت شملها.

- التركيز على السلوك العملي: فالجانب السلوكي في دعوتهم يركز على الأخلاق النبوية، والتواضع، والإيثار، والتعاون، وهذه قيم إسلامية عامة لا تختص بطريقة صوفية معينة. وإن كانت هناك ممارسات فردية لبعض الأتباع قد تكون متأثرة ببعض الطرق الصوفية، فإنها ليست جزءاً من المنهج العام للجماعة ولا يدعون إليها.

4. شهادة الواقع العملي على عدم تبنيهم حمل الناس على توجه معين:

فالواقع العملي لدعاة حركة التبليغ في مختلف أنحاء العالم يؤكد أنها لا تهدف ولا تدعوا إلى نشر مذهب معين. ففي الهند وباكستان وبنغلاديش، حيث يغلب المذهب الحنفي والعقيدة الماتريدية، لا تظهر الحركة دعاية له بشكل حصري. وكذا في البلدان التي تتبع مذاهب أخرى، تتعايش الحركة الدعوية مع هذه المذاهب ولا تحاول فرض رأي فقهي أو عقدي مخالف.

ما يدفع حركة التبليغ والدعوة لهذا إدراكها أن المهمة الأساسية هي إحياء روح الإسلام في القلوب والعقول، وربط المسلمين بدينهم بشكل عملي ومباشر. وهذا يتطلب منهجاً يركز على المشتركات، ويتجاوز الخلافات التفصيلية، ليجمع الأمة على أصول الدين وجوامع الأخلاق. هي حركة إحياء، لا حركة نشر مذهب محدد.

الفصل الثالث عشر : وحدة المنهج الحركي العالمي للتبليغ وتنوع التوجهات الفقهية والعقدية المحلية :

إحدى السمات البارزة والفريدة لحركة التبليغ والدعوة هي ثبات منهجها الحركي في جميع أنحاء العالم، بخلاف التوجهات العقدية أو المناهج الفقهية أو الطرق السلوكية التي تختلف تبعاً لأهل الإسلام في كل بلد ، هذه الخاصية تُبرز مرونة تلك الحركة الدعوية وقدرتها على التكيف مع البيئات المتنوعة، وتؤكد على أن هدفها ليس فرض مذهب فقهي معين أو عقيدة معينة، بل هدفها كما الواقعي كما هو معلن إحياء الدين في العالم كله على منهاج النبوة بمنهج عملي موحد متفق عليه لا يختلف عليه اثنان ولا يعتمد على مذهب وعقيدة وفكر ولون وجنس .

المبحث الأول : المنهج الحركي الثابت:

فالمنهج الحركي لما يسميه الناس حركة التبليغ يقوم على ركائز أساسية تتكرر يوميا وتطبق بنفس الطريقة في كل بلد، بغض النظر عن ثقافته أو مذهبه السائد أو عقيدة أهله ، هذه الركائز تشمل:

الخروج في سبيل الله (بطريقة حديثة مناسبة لأهل العصر): وهو جوهر العمل الدعوي الذي تشتهر به تلك الحركة الدعوية وبه تعرف ، حيث يخرج الأفراد في جماعات صغيرة أوكبيرة حسب المتاح والمصلحة لمدد محددة مناسبة لهم وللبيئة المستهدفة (ثلاثة أيام أو أربعين يوماً أو أربعة أشهر أو سنة) ، ومع أن ظاهر العمل حديث إلا أن أصل هذا العمل وتلك الحركة مستنبط من حركة الصحابة في الدعوة للإسلام والجهاد في

سبيل الله ونشر الإسلام ، ولقوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ"[1] وجب السير على خطاهم بأقرب طريقة لهم تحقق مقصودهم ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة مليئة بالخروج للدعوة والجهاد والتعليم.

التعليم المستمر (حلقات التعليم): فخلال الخروج، يكون هناك وقت مخصص لمدارسة أصول الدين، وتلاوة القرآن، وقراءة كتب الحديث والسيرة النبوية (وخاصة حياة الصحابة) ، وهذا التعليم ليست غايته التعمق في الخلافيات الموروثة في تراث الإسلام والتي لن تنتهي إلى قيام الساعة ، بل هو تعليم عملي لأصول الإيمان والعبادات وكيفية تطبيقها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة"[2].

المشورة : وهدفها تمحيص الأذهان لاتخاذ القرارا المناسبة واستخراج الخطط المفيدة لنشر الدعوة وجلب الناس إلى الدين وإدخالهم المساجد ، فمن خلال المشورة الجماعية بين أفراد الجماعة الخارجة في سبيل الله أو بين مشايخ القطر أو الدولة ، وهذا مبدأ قرآني ، كما قال تعالى: "وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ" [3] " وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ " [4] .

---

[1] (الأحزاب: 21)

[2] (رواه مسلم)

[3] (الشورى: 38)

[4][آل عمران: 159]

الجولات الحركية : وهي من أهم ما يقوم به أهل التبليغ والدعوة في عملهم ، حيث يقومون بعمل مسح شامل لكل المناطق التي يستطيعون الوصول إاليها سواء في مناطق إقامتهم أو في المناطق التي يستهدفونها للدعوة ، فيزورونهم في أماكن عملهم أو تواجدهم ، فتجدهم يغشون الناس في كل مكان ممكن يدعونهم إلى الله تعالى باللفظ الرقيق والبسمة الحانية والكلمة الطيبة ، وبذلك يأخذون كثير من الناس إلى المساجد حيث جلسات العلم والذكر والوعظ ، فينصلح الحال بفضل الله عز وجل .

البيانات (هي الخطابات الوعظية كالمحاضرات والدروس): وفيها يتم إلقاء المواعظ والخطب والكلمات في شكل خطب وتسمى عندهم بيانات وهي كلمات وعظية لتذكير الناس بالله واليوم الآخر وأهمية الالتزام بالدين ، وطريقتها بالوعظ والتذكير من أهم أساليب الدعوة وأكثرها فعالية وهي مجربة منذ القدم ، كما قال تعالى: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" [1] .

التزاور الفردي (وهو جوهرة العمل): فالزيارات الفردية للناس في البيوت والمحال والمتاجر للدعوة المباشرة للناس لها عظيم الأثر على الناس وليست كالطرق الأخرى التي يستخدمها باقي الحركات الدعوية .

أصول الدعوة الستة: وهي أهم الأصول التي لابد أن يتناولها الداعي في خطابه الدعوي ومنها ينطلق لما شاء من أمو رالدين إن استطاع إلى ذلك سبيلا وهي (كلمة التوحيد، الصلاة، العلم والذكر، إكرام المسلم، إخلاص النية، الخروج في سبيل الله) وهذه الست نقاط هي التي توجه كل أنشطتهم ويتناولها دعاتهم ، وهي شاملة لمهمات الإسلام ومنها يتفرع شعبه .

---

[1] (الذاريات: 55)

هذا المنهج الحركي الذي بعضه ، هو المنهج القائم على العمل الجماعي المنظم ، وهو الذي يربط أفراد تلك الحركة في جميع أنحاء العالم، ويمنحهم هويتهم المميزة ، فهو لا يتغير من آسيا إلى إفريقيا، ومن أوروبا إلى أمريكا، مما يدل على عالمية المنهج وتكيفه مع أي بيئة.

المبحث الثاني : تنوع التوجهات الفقهية والعقدية والسلوكية المحلية:

في المقابل، فإن حركة التبليغ لا تتدخل في توجيه المذاهب الفقهية المعتمدة المأخوذ بها أو العقائدية التي يتبعها المسلمون في كل بلد ، بل تقر كل أهل بلد على ما اتفقوا عليه ما دام من مناهج أهل السنة واجتهادات علماءها ، فلا ينكرون على مذهب دون آخر ولا يوجهون باتباع مذهب معين وترك آخر ، بل يتركون كل أهل بلد على ما نشأوا عليه ، وإذا سئلوا عن مسألة أحالوا السائل إلى علماء بلده ، فلا ينشئون خلافا ولا يوسعون بين المسلمين فجوة ، بل يؤلفون القلوب ويجمعونها على ما اتفقت عليه الأمة الإسلامية .

- ففي الفقه: تجد في بلاد الهند وباكستان وبنغلاديش، يغلب المذهب الحنفي، وأفراد التبليغ هناك يتبعون هذا المذهب في فقههم ، بينما في إندونيسيا وماليزيا وبعض أجزاء الشام، يغلب المذهب الشافعي، وأفراد التبليغ هناك يتبعونه ، وفي المغرب العربي يغلب المذهب المالكي، وهكذا... فالجماعات الدعوية المتحركة في كل بلد من هذه البلاد – وهم بالألوف في كل يوم - لا تدعو الناس لتغيير مذاهبهم الفقهية، بل تدعوهم للالتزام بما يوافق الشرع من مذاهبهم ، وهذا اتباع لقاعدة شرعية مقبولة لدى العلماء تقول "لا إنكار في مسائل الاجتهاد": حيث يرى أهل العلم أنه لا إنكار في مسائل الخلاف الفقهي المعتبر، طالما أنها ضمن إطار السنة والجماعة.

- وفي العقيدة: تجد في كثير من بلدان العالم الإسلامي، تنتشر العقيدة الأشعرية أو الماتريدية وهم سواد عظيم من المسلمين ، وفي الجزيرة العربية، تنتشر العقيدة السلفية ، ولذلك لا تحدث حركة التبليغ فجوة بين المسلمين فلا تفرض عقيدة معينة على أتباعها، بل تركز على أصول العقيدة المتفق عليها (التوحيد، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) ، وتتجنب الخوض في المسائل الخلافية الدقيقة في العقيدة والتي لن يستطيع بشر مهما أوتي من علم أو قوة أو سلطة أو نفوذ أو أتباع لإنهاء هذا الخلاف وجمع الأمة على قول واحد ! ، ولذلك لغرض توحيد الصف وعدم إثارة الشقاق تنهج تلك الحركة المنهج الوسط وهو جمع الأمة على المتفق عليه وتوحيد صفها لمواجهة التحديات الكثيرة من أمم الشرق والغرب ، وهذا في حد ذاته يحمد وهو أمر عظيم لو عقله العقلاء ، والدليل الشرعي على ذلك ثابت معلوم ، في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ" [1] . فالآية الكريمة تحذر من الفرقة بكل أنواعها ، وقد يؤدي بعض الخلاف إلى فرقة أعظم من الفرقة الواقعة ، وربما يفرق بعض المشايخ بين المسلمين وهم يقصدون جمعهم وذلك بسوء تصرفهم من إحداث نقاش أو جدال في مسائل لن تنقضي ولن تندثر.
- وفي السلوك (التزكية/التصوف): تجد في بعض البلدان، قد يكون هناك أفراد من الدعاة العاملين في حركة التبليغ الدعوية لهم صلات ببعض الطرق الصوفية (خاصة في شبه القارة الهندية)، ولكن هذا ليس منهجاً ملزماً للجماعة المتحركة في كل بقاع الدنيا ، بل يركزون على التزكية العملية التي تعتمد على الإخلاص، والتواضع، وترك المعاصي، والتحلي بالأخلاق الحسنة، وهي قيم إسلامية عامة لا ترتبط بطريقة صوفية محددة ، ومع ذلك فأتباع تلك الدعوة في الهند لا يغالون في اعتقاد سلوكي في الغالب

---

[1] (الأنعام: 159)

وهذا ما عهدناه عنهم وعرفناه منهم ، كما أنهم لا يدعون أحدا لتلك الطرق أو الأوراد مطلقا ! كما يزعم بعض الخصوم ، ولا يوجد في طريقة التبليغ مطلقا مبايعات على طرق صوفية كما يكذب بعض الخصوم أيضا ، ومع ذلك لا ننكر وجود بعض من له تأثر بتلك الطرق ويحبها ويبايع عليها ويأخذ عليها البيعة من أحبابه وتلامذته ولكن هذا أمر خارج عن إطار التبليغ ومنهجه ورجالاته وحركته ! فلا يخلط الإنسان بين مسلك صوفي يعمل مع أهل التبليغ وبين منهج التبليغ ذاته المتفق عليه ! فتنبه ،، عندما يرى شخص من التبليغ مسلماً يؤدي الصلاة بطريقة مختلفة قليلاً عن مذهبه، فإنه لا ينكر عليه ذلك، بل يشجعه على الالتزام بالصلاة نفسها.

ومما سبق يتبين أن هذا التنوع والتكيف مع الواقع المحلي لكل بلد في حد ذاته نقطة قوة بالغة لحركة التبليغ، وليست نقطة ضعف كما يصورها الغلاة في التبديع المعاصرون ، وكما سنوضح في الفصل التالي ، فتلك المرونة والسماحة – فيما يسمح فيه الشرع - تسمح للجماعة [1] بالانتشار عالمياً دون الاصطدام بالهويات المذهبية أو الفقهية المحلية، وتُمكنها من التركيز على ما يجمع المسلمين ويوحدهم، وهو إحياء روح الإسلام العملي في حياتهم. وهذا يؤكد أن حركة التبليغ والدعوة التي منشؤها الهند ومنتشرة في كل بلاد العالم اليوم ليست فرقة عقدية أو مذهبية، بل هي حركة دعوية عالمية شاملة ، وإتماما للفائدة لابد من الإجابة على بعض الأسئلة التي لها علاقة بما سبق ذكره ، حتى لا يبقى في ذهن البعض تساؤلات تذبذب عقولهم وتشغل بالهم ، نجيب عنها باختصار إن شاء الله .

---

[1] كعمل جماعي منظم مرتب ، ولا يقصد باللفظ بيعات كما يعتقد البعض .

المبحث الثالث : هل تخفي حركة التبليغ عقائدها أو لديها ما تخشاه من الافتضاح ؟

اعلم بارك الله فيك أنه لم يثبت أن حركة التبليغ والدعوة تُخفي عقائدها خشية الافتضاح، أو أن لديها ما تخفيه وتخشى أن يعلمه عنها المسلمون، مثل الشطحات الصوفية كما يزعم غلاة التبديع والتفسيق ! بل إن منهج تلك الجماعة الدعوية الوعظية في التعامل مع العقيدة ليس مبنيًا على الإخفاء، بل على التركيز على المشتركات والأصول التي اتفق عليها علماء الإسلام وتلقتها الأمة بالقبول مع تجنب الخوض في دقائق الخلافات وتركها للعلماء المتخصصين في ذلك ، دفعا للشبهة عن قلوب العامة .

ولفهم هذا الأمر بوضوح، دعنا نناقش الدوافع والمناهج التي تعتمدها تلك الحركة في حركتها الدعوية :

1. منهج التبليغ في التعامل مع العقيدة "تيسير لا إخفاء"

أهل التبليغ والدعوة كما عرف عنهم من خلال مشاركتهم في الدعوة عقودا لا يُخفون عقائدهم بالمعنى الذي يخشون فيه الافتضاح ، لأن الاستعلان بعقيدة الانسان مصدر فخر وعز لا سببا للتخفي والصمت والبعد عن الناس ! فليست هي بروتوكولات صهيون بل هي عقيدة الإسلام الثابتة في مصدريه الكتاب والسنة فلا خفاء في شيء من ذلك مطلقا ، بل إن منهجهم الدعوي بُني على:

- **التركيز على الأصول البسيطة:** حيث يركزون على ما هو مشترك بين غالبية المسلمين ولا يثير خلافًا كبيرًا بين المسلمين : كالتوحيد بالله تعالى (بمفهومه الواسع الشامل الثابت في الكتاب والسنة)، والصلاة، والذكر، وإكرام المسلم، وإخلاص النية، والخروج في سبيل الله. هذه هي الأصول الستة التي يدور حولها

عملهم الدعوي ، وهذه الأصول ليست مخفية ولا من دقائق العلوم ، بل هي معلنة ومكررة في كل اجتماعاتهم ودروسهم وهي من أصول الدين الإسلامي.

- **تجنب الخوض في التفاصيل العلمية الدقيقة والخلافية:** وهذه هي النقطة الأساسية ، فليس الأمر إخفاءً، بل هو منهج مقصود لتجنب الفرقة والخلاف ، حيث يرون أن البدء بالخوض في دقائق علم الكلام أو الفقه المقارن قد يُنفِّر عوام الناس ويُحدث الشقاق بينهم ، وهذا سوف يعطل هدفهم الأكبر الذي هو إدخال الناس إلى المسجد وإلى العبادة والذكر، ثم يُترك لهم أن يتعلموا التفاصيل من العلماء المتخصصين لاحقًا وخاصة علماء بلادهم حتى لا يحدثون فتنة بين الناس .
- **"الكُلِّية" في العقيدة لا "الجزئية":** فإذا سألت فردا من أفراد تلك الحركة الدعوية عن عقيدته، سيقول لك: "أعتقد بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأؤمن بأسماء الله وصفاته كما يليق به" ، فهم لا يُبرزون عقيدة معينة (كالأشعرية أو الماتريدية أو السلفية) لأنهم لا يريدون حصر الناس في مذهب عقدي واحد، بل يدعون إلى الإسلام العام ، وهذا لا يعني أنهم لا يملكون اعتقادًا، بل قد يكون لكل فرد منهم اعتقاده الخاص الذي تأثر به من بيئته العلمية النشأوية (كأن يكون أشعريًا أو ماتريديًا أو سلفيًا) بحسب نشأته أو منهج ومذهب بلاده ، ولكنهم لا يجعلون هذا جزءًا من دعوتهم العامة.

2. علاقة التبليغ بالتصوف وديوبند "تأثر لا تبني"

صحيح أن مؤسس تلك الحركة العظيمة ومعظم كبارها الأوائل خرجوا من بيئة شبه القارة الهندية التي تتسم بانتشار المدارس الديوبندية العلمية (والتي تتبنى العقيدة الماتريدية/الأشعرية والفقه الحنفي) وبعض الطرق الصوفية ، وهذا يعني أن هناك **تأثرًا تاريخيًا وروحانيًا** بهذه المسالك بحسب النشأة ، ولكنه في ذات الوقت

لا يرقى إلى مستوى "محاولة نشرها" كعقيدة خاصة للجماعة أو منهج فقهي ثابت لكل من انتسب إليها أو طريقة سلوكية واجبة على كل من انخرط فيها ! كما يحاول الخصوم تصوير ذلك بلا دليل ولا برهان .

- فالشطحات الصوفية: ما يُعرف بـ "الطرق الصوفية" (وهي العبارات التي قد تبدو غريبة أو متطرفة أو تخالف ظاهر الشرع، وتصدر من بعض المتصوفة في حالة وجد أو سكر روحي) ليست جزءًا من منهج حركة التبليغ أو دعوتهم ، بل إن طبيعة عمل التبليغ الدعوي والعملي تُبعدهم عن هذه الجوانب ، فهم يركزون على الذكر الجماعي والورد اليومي كعبادة، وليس على تجارب روحية فردية قد تؤدي إلى شطحات ، ولو كان لديهم هذا المنهج في السلوك لظهر منهم مرات عديدة ولكنه لم يظهر منهم ولا مرة على كثرة ما خالطناهم ورأيناهم وسمعنا منهم وسألناهم ، ولا أدل على ذلك من أسئلة خالد بن عبد الرحمن للشيخ إنعام الحسن رحمه الله عن هذا الأمر فأجابه بصريح العبارة جوابا شافيا ! ولكن القلوب الزائغة لا تنفعها صراحة ولا أدلة ، فكان ما كان من شأنه من الزيغ والكبر عن قبول الحق والوقوع في القوم بالنقائص والتبديع كعادة الغلاة المبدعة الذين أغروه ببعض الثناءات ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
- الصوفية كـ "سبيل مفخرة": صحيح أن المسالك الصوفية تُعتبر سبيل مفخرة لمنتسبيها في كل قطر ومصر ، ولا تُخفى ، ولكن ما يُخشى من إخفائه أو يُنظر إليه بسلبية أحيانًا، هو ما قد يعتبره البعض انحرافات أو بدعًا أو غلوًا في بعض الممارسات الصوفية، وليس جوهر التصوف نفسه ، فبعض كبار أو أتباع جماعة التبليغ، وإن كان لديهم بعض التأثر ببعض الجوانب الروحية الصوفية المعتدلة، فإن باقي أعضاء ومنتسبي هذه الحركة في العالم لا يتبنون هذه الروحانيات ! فضلا عن تبني الانحرافات التي قد يقع فيها بعض الأفراد أو الكبار ! وهذا هو روح الإسلام وأصوله حيث لا طاعة ولا اتباع لمخلوق في معصية الخالق ! ولو كان أفراد التبليغ يتبعون مشايخهم على عمى لاتبعوا بعض الكبار المتأثرين بالتصوف في

شطحاتهم ! فلما لم يحدث ذلك علم أنهم أهل سنة واتباع ولا يعبدون الله إلا على علم وخذ مثلا فضيلة الشيخ العلامة الداعية المجتهد محمد سعد الكاندهلوي حفظه الله وانظر إلى اتباعه للحق والدليل وتحريه الثابت عن المصطفى صلى الله عليه وسلم وعدم انسياقه وراء كلام فلان أو فلان من أكابر علماء بلده بل وعائلته ! فحفظه الله وبارك في عمله.

- الخلاف مع السلفية: فالخلاف بين طوائف من السلفيين المعاصرين وبين حركة التبليغ في هذا الجانب ينشأ من نقطتين رئيسيتين:

1. **التركيز على التوحيد بطريقة السلفية العصرية :** فالسلفيون المعاصرون يرون أن عدم تركيز التبليغ على تفاصيل التوحيد (مثل أقسام توحيد الألوهية وأنواع الشرك الخفي الى غير ذلك من التقاسيم التي يؤلفون فيها الكتب) وعدم التبري الصريح من بعض الممارسات الشعبية الشركية، هو تقصير خطير ، ونحن لا نؤيدهم في ذلك مطلقا ، لأن أهل التبليغ يدعون إلى التوحيد ويحذرون من الشرك بطريقتهم والتي تؤول في النهاية إلى المقصود ، ولكن بعض السلفية المعاصرة تريد اتباع طريقتها حذو القذة بالقذة ، أما غلاتهم – المداخلة بأطيافها - فلن يرضيهم أحد ولو خرج فيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم لبدعوهم بشبهات وحذروا منهم بادعات ! حيث لم يسلم منهم إخوانهم أبناء منهجهم .
2. **التأثر الصوفي بطريقة التبليغ العصرية :** فبعض السلفيين يرون أن مجرد التأثر بمدارس كديوبند أو بعض الجوانب الصوفية (حتى المعتدلة) هو انحراف يستوجب التحذير، لأنه يرى أن هذا قد يؤدي في النهاية إلى تلك الشطحات أو البدع التي يحاربونها ، وهذا لا شك تضييق واسع وحمل للناس على منهج واحد واجتهاد معين ، ويكفيهم التحذير من الغلو والسماح بالمقبول من التصوف كما هو معلوم ومقبول لدى علماء الإسلام على مر التاريخ .

مما سبق يتبين بما لا يدع مجالا للشك أنه لا يوجد دليل قاطع يثبت أن حركة التبليغ تُخفي عقائدها خشية الافتضاح أو لديها ما تخشاه ، ومنهجها قائم على **التبسيط والتركيز على العمل والمشتركات**، وهذا ما يُفسر عدم خوضهم في التفاصيل العقدية أو المذهبية ، واما الانتقادات الموجهة إليهم في هذا الجانب فتنبع في الغالب من:

1. **تباين المنهجيات الدعوية:** حيث يرى النقاد أن عدم التركيز على العقيدة بالتفصيل يُعد نقصًا.
2. **تخوفات من خلفيتهم التاريخية:** خصوصًا تأثرهم بمدارس فكرية (كديوبند) والتي قد لا تتفق بالكامل مع توجههم الصارم.

ولذلك فأهل التبليغ ليسوا "جماعة سرية" تخفي أجندات معينة ، بل هي حركة دعوية عالمية، عملها معلن وسبيلها مكشوف للعيان ، ولكن منهجها في الدعوة قد لا يتوافق مع منهج كل التيارات الأخرى، وهذا يولد الخلاف وليس بالضرورة "الإخفاء".

المبحث الرابع : عدم شيوع الطرق الصوفية في صفوف حركة التبليغ دليل على بعدهم عن هذه المسالك :

إن الملاحظة الدقيقة لواقع عمل حركة التبليغ والدعوة، خاصة في المناطق التي تنتشر فيها الطرق الصوفية بشكل كبير كالهند وباكستان وبنغلاديش، وكذلك في بلدان عربية مثل مصر، تُظهر بوضوح غياب واختفاء تلك الطرق الصوفية (بما فيها من الأوراد والأذكار الخاصة بغير ما ورد في السنة، والمبايعات، والتسلسلات لأسانيد الصوفية، وشيوخ الطرق، والمناسبات الخاصة بالطرق، والطقوس المعينة) من صميم عمل الحركة وصفوف أتباعها ، هذه الحقيقة الميدانية، رغم وجود الدافع والمؤثر التاريخي والجغرافي لظهورها والدوافع والمؤثرات المعاصرة لانتشارها خاصة في تلك البلدان التي تعد الكلمة العليا فيها للمتصوفة ومع ذلك لا

يتزلفون لهم ولا يتماهون فيهم بل يسيرون على مناهجهم الصحيح الثابت الذي لا يتغير ، تُعد دليلاً قاطعاً على أن حركة التبليغ في كل بلاد العالم واحدة وهي بعيدة كل البعد عن التماهي أو الانخراط في هذه المسالك الصوفية بالمعنى الاصطلاحي للطرق وبعيدة كل البعد عن الدعوة إليها أو أخذ البيعات لها ، ولنُبين ذلك بإسهاب مع ذكر الأدلة العقلية لمن قد لا يقتنع بهذا الكلام:

1. السياق التاريخي والجغرافي لوجود الدافع:

كما ذكرنا سابقاً، نشأت حركة التبليغ في شبه القارة الهندية، وتحديداً في منطقة ميوات بالهند ، وهذه المنطقة، بل شبه القارة كلها، هي مهد وموطن انتشار واسع للطرق الصوفية المتعددة، بعضها متأصل ومعتدل، وبعضها قد يحمل في طياته ممارسات بعيدة عن السنة أو شطحات ، ومدرسة ديوبند نفسها، التي تخرج منها مؤسس الحركة (الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي) والعديد من أقطابها، هي مدرسة سنية في المجمل حنفية في الفقه لها جانب روحي يعتمد على "السلوك" و"التزكية" الصوفية المعتدلة التي يمثلها أقطاب كبار في التصوف أمثال الإمام الجنيد والقشيري وغيرهما، والتي تندرج ضمن ما يسمى بـ "التصوف السني" أو "تصوف الفقهاء".

هذا يعني أن الدافع المتمثل في البيئة الثقافية والدينية كان قائماً بقوة، وكان من الممكن بل ومن المتوقع أن تنخرط حركة التبليغ وكل أعضائها بشكل مباشر وواضح في إحدى هذه الطرق الصوفية، أو أن تتبنى لها طريقاً صوفياً خاصاً بها، خاصة وأن هدفها الأساسي هو "إصلاح القلوب" و"تزكية النفوس"، وهي أهداف رئيسية للتصوف ، ولكن هذا لم يحدث ولا وجود له في شبه القارة الهندية (الهند وباكستان وبنجلاديش) وفي خارج شبه القارة الهندية كمصر والشرق الأوسط ! ، وهذا دليل واضح على أن التأثير التاريخ والنشأوي على بعض الأفراد واضح وأما على منهج الحركة الدعوية وطريقتها فقليل .

2. غياب مظاهر الطرق الصوفية من منهج التبليغ العملي:

وهنا تكمن الأدلة القاطعة والواضحة على أن منهج حركة التبليغ غير متأثر ببلاد النشأة والمناهج العلمية والعقدية والفقهية المنتشرة والمسيطرة هناك حيث :

- **لا يوجد شيخ طريقة مُلزم:** ففي أي طريقة صوفية، هناك "شيخ طريقة" يُبايع على يديه المريدون، ويُلزمون باتباع أوراده وأوامره ، أما في حركة التبليغ الدعوية الإصلاحية العالمية ، لا يوجد هذا المفهوم على الإطلاق ، فهناك "أمير" للخروج أو اجتماع، لكنه ليس شيخ طريقة يُبايع، ولا يُلزم بورد خاص أو سلوكيات معينة سوى ما يتعلق بمنهج الدعوة العام من باب المشورة والتعاون على البر والتقوى ونشر الخير وما هو في مصلحة نشر الدين في العالم .
- **لا يوجد أوراد خاصة بالطرق:** فللطرق الصوفية – كما هو معلوم ومنتشر ومشتهر - أوراد وأذكار خاصة تُسمى بـ "وظائف" أو "أحزاب" أو "دلائل خيرات" معينة، تُقرأ بأعداد محددة في أوقات معينة، وتكون جزءاً لا يتجزأ من انتماء المريد للطريقة ، أما في منهج التبليغ العالمي المشهور ، الأذكار المُعتمدة هي الأذكار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس لديهم "ورد خاص" يُلزمون به أتباعهم ، بل التركيز على "فضل الذكر" و"علم الذكر" من الأصول الستة، لكنه لا يُترجم إلى طقوس طرقية.
- **لا يوجد حلقات ذكر خاصة بالطرق:** بالرغم من أن التبليغ تشجع على الذكر وتعده أساسا للتربية سواء بعد الصلوات أو في أوقات أخرى ، إلا أنها تختلف عن حلقات الذكر الصوفية التي قد تكون فيها ذكر جماعي أو حركات معينة أو ترديد بأسماء معينة غير مأثورة، أو إيقاعات محددة ، فحلقات التبليغ أبسط بكثير وأقرب إلى الذكر العام الوارد في السنة وهذا اختلاف جوهري واضح لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار .

- **غياب تسلسلات الأسانيد الصوفية والكرامات:** فالطرق الصوفية في العالم كله تفتخر بتسلسلات أسانيدها التي ترجع إلى شيوخها المؤسسين ، وتروج لكرامات مشايخها ، وهذا المظهر غائب تمامًا عن أدبيات التبليغ وممارساتها ، فلا تجد في كتبهم أو أحاديثهم أو بياناتهم أو مواعظهم أو مراسلاتهم أو تسجيلاتهم ترويجًا لمثل هذه الأمور ما يدل على غيابها ولا مجال مطلقا للتكهن بوجودها في الخفاء .
- **الخروج للدعوة وليس للاعتكاف الزهدي الخاص بالطرق:** فجوهر عمل التبليغ هو "الخروج في سبيل الله" كوسيلة مناسبة للدعوة إلى الله ، وهو عمل حركي ديناميكي ، وهذا يختلف اختلافا جذريًا عن بعض أنماط التصوف التي تركز على "الخلوة" و"العزلة" و"الاعتزال للعبادة" كطريق أساسي ، فأهل التبليغ يدعون إلى تزكية النفس عبر مخالطة الناس والدعوة، وليس عبر الانعزال عنهم.

3. الأدلة العقلية لمن لا يقتنع :

ولنفترض جدلاً أن حركة التبليغ والدعوة تُخفي عقائد صوفية أو تسعى لنشر طرق صوفية، فما هي المعقولية في ذلك؟

- **لو كانوا صوفيين بالطرق، لافتخروا بذلك:** كما ذكرت سابقا ، فالمسالك الصوفية هي سبيل مفخرة لأتباعها في غالب البلدان التي تنتشر فيها ، وكذلك سبيل نفوذ كبير لهم وعلاقات مع المؤسسات الرسمية كالأزهر وديوبند والزيتونة وغيرها من المدارس الكبرى في بلاد الإسلام ، فلو كانت حركة التبليغ تبنّت طريقة صوفية معينة، لكان الأجدر بها أن تعلن ذلك صراحة بلا خشية أو خوف ، بل وتدعو الناس للانضمام إليها، وتُظهر فضل مشايخها وأورادها، خاصة في بيئات مهيئة كالهند وبنغلاديش ومصر حيث للتصوف

شعبية واسعة ونفوذ ضخم وسند سياسي قوي ، فإخفاء أمر هو محل فخر وشعبية أمر غير منطقي وغير مفهوم.

- **الكلفة العالية للإخفاء بدون مبرر:** فلو كانت حركة التبليغ تُخفي صوفيتها كما يزعم بعض أغبياء غلاة التبديع ، فإن ذلك يتطلب جهداً هائلاً لإخفاء تلك الممارسات والطقوس الخاصة بالطرق، وتجنب ذكر المشايخ والأوراد، والحرص على عدم ظهور أي شطحات أو مظاهر صوفية ، فلماذا تتحمل جماعة دعوية عالمية بهذه الضخامة والانتشار هذه الكلفة الباهظة من الإخفاء، بينما يمكنها ببساطة أن تعلن صوفيتها وتستفيد من القاعدة الجماهيرية الواسعة للمتصوفة في بلادهم؟ والسبب الوحيد المقبول عقلاً للإخفاء هو وجود شيء مشين أو مخالف، وهذا ما لا يُنسب إلى التصوف المعتدل عموماً ، حتى إن غلاة المتصوفة في زماننا هذا لا يخشون ولا يخجلون من إعلان مناهجهم وطرقهم وأورادهم ! فلماذ يخشى أهل التبليغ من ذلك ؟! هذا أمر مستحيل عقلا وغير موجود واقعا .
- **التناقض مع مبدأ "الدعوة الظاهرة":** حيث أن منهج التبليغ قائم على الدعوة العلنية الظاهرة، والخروج إلى الناس في الأسواق والشوارع والمساجد ، وهذا المنهج الشفاف لا يتفق مع فكرة "الإخفاء" أو "السرية" للعقائد أو المسالك ، ولو كان يتفق معها في وقت وزمن لما استطاع إخفاء تلك الأباطيل والشطحات طيلة ثمانين عاما في كل بلاد المسلمين وغير المسلمين ! .
- **التجربة الميدانية خير دليل:** فعلى مدى عقود من الزمن، وفي مئات آلاف الخروجات والاجتماعات في كل بقاع الأرض، لم يلاحظ الباحثون ولا المشاركون ولا الدعاة ولا المتربصون بالتبليغ ظهور مظاهر الطرق الصوفية التقليدية في عمل التبليغ ، فلو كان هذا الإخفاء موجودًا، لكان قد افتضح أمره منذ زمن بعيد وتم توثيقه مرات ومرات كما هو ثابت في باقي الطرق الصوفية ، خاصة وأن تلك الجماعة

الحركية الدعوية تضم ملايين الأفراد من خلفيات متنوعة ، فالملاحظة المباشرة لآلاف المشاركين في نشاطاتهم لا تدعم فرضية الإخفاء.

إن غياب مظاهر الطرق الصوفية الاصطلاحية (كشيخ الطريقة، البيعة، الأوراد الخاصة، حلقات الذكر الطقوسية، الكرامات، تسلسلات الأسانيد) أمر واقع في منهج حركة التبليغ والدعوة، حيث لا وجود له مطلقا ، رغم وجود السياق التاريخي والجغرافي الذي كان يمكن أن يدفع إلى ظهورها، وبالرغم من وجود البيئات المناسبة لانتشار واحتضان وتقبل تلك الأفكار الصوفية بل ودعمها ! يُعد دليلاً قوياً وقاطعاً على أنهم ليسوا جزءاً من الطرق الصوفية بمعناها المعروف.

إنهم يركزون على "الروحانية العامة" و"التزكية العملية" القائمة على الذكر والتلاوة والصلاة والأخلاق الفاضلة كما هو مأثور في السنة والشريعة ، وهي أمور مشتركة بين جميع المسلمين، وليس على منهج روحي خاص لطريقة معينة ، وهذا ما يميزهم ويجعلهم حركة إصلاحية شعبية لا تنخرط في الخصوصيات المذهبية أو الطرقية، وهذا سبب أساسي لانتشارهم وقبولهم الواسع لدى كثير من المسلمين من مختلف المشارب الفقهية والعقدية ، فأهل التبليغ يسعون إلى أن يكونوا "عوام المسلمين" الذين يذكرون الناس بالله، لا "خاصة أهل الطرق" الذين يدعون إلى منهج خاص.

الفصل الرابع عشر: السهولة والتكيف نقطة قوة لا ضعف :

إن الخاصية التي تتميز بها حركة التبليغ والدعوة، والمتمثلة في سهولة منهجها وقدرتها الفائقة على التكيف مع أحوال أهل كل بلد وسياقه الديني والمذهبي، تعد نقطة قوة رئيسية لها، وليست نقطة ضعف كما يزعم البعض من الخصوم ، وهذه المرونة هي التي مكنت الجماعة من الانتشار الواسع في أكثر من 180 دولة حول العالم ، ووصلت إلى قلوب ملايين المسلمين من مختلف الأعراق والثقافات والمذاهب والملايين من غير المسلمين في كل دولة من تلك الدول ، ولنبين شيئا من هذا الأثر في الفقرات التالية .

المبحث الأول : ملامح قوة الحركة الدعوية عالميا :

ولسائل أن يسأل : لماذا تُعد هذه السهولة نقطة قوة ؟ نقول في بنود تالية :

عالمية الدعوة وشموليتها :

فالإسلام دين عالمي موجه للناس كافة ، ومن طبيعة الدعوة الإسلامية أن تكون مرنة وقابلة للتطبيق في أي مكان وزمان ، فالمنهج الذي يفرض نفسه بقوالب فقهية أو عقدية جامدة قد لا يجد قبولاً في بيئات مختلفة وهذا مجرب مشاهد ، قال الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" [1] . وهذا يعني أن الرسالة الإسلامية يجب أن تكون قابلة للوصول لكل الناس بل ويجب أن تكون مناسبة لهم بطريقة أو بأخرى ، يسعى لذلك المسلمون بكل ما أوتوا من قوة وأسباب.

---

[1] سبأ: 28

فحركة حركة التبليغ الدعوية العالمية ، بتجنبها الخوض في الخلافات التفصيلية بين الاتجاهات المحلية والعالمية وتركيزها على المشتركات والمتفق عليه ، استطاعت أن تخاطب المسلم في أي بقعة من الأرض، بغض النظر عن مذهبه الفقهي أو العقدي السائد في بلده ، وهذا يُعزز من مبدأ "يسروا ولا تعسروا" في الدعوة إلى الله تعالى وإلى دين الإسلام ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" [1].

التركيز على الأصول لا الفروع:

فالمنهج الذي يركز على إحياء الأصول الأساسية للإسلام (كالتوحيد، والصلاة، والأخلاق، والذكر، والدعوة ، إلخ) هو منهج يمكن أن يستوعب جميع المسلمين ، فالأمة اليوم في كثير من أطيافها، بحاجة ماسة إلى العودة لأبسط مبادئ الدين.

ولا نغفل قاعدة عظيمة أصلها علماء الإسلام وهي "البدء بالأهم فالأهم": ففي الدعوة، تُقدم الأولويات حسب حاجة المدعو ، فإذا كان المدعو لا يصلي، فالأولوية هي حثه على الصلاة.

ولو أن شخصًا يعاني من مرض فقر الدم، فإن الطبيب يبدأ بإعطائه الحديد لتعزيز صحته العامة، قبل أن يدخل في تفاصيل معقدة عن وظائف الدم ، وهذا مثال واقعي ملموس مشاهد ، كذلك في مسألة التبليغ تبدأ بتقوية الإيمان الأساسي.

[1] متفق عليه

الوحدة وعدم إثارة الشقاق:

إن تجنب الخوض في مسائل الخلاف المذهبي والعقدي يُسهم بشكل كبير في توحيد صفوف المسلمين وعدم إثارة الشقاق بينهم ، فالمسائل التفصيلية التي طالما أثارت النزاع بين الفرق والجماعات، تتجنبها حركة التبليغ لغرض أسمى هو جمع القلوب على "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وعلى العمل الصالح وليس المقصود تمييع العقيدة الاسلامية كما يزعم الخصوم .

قال تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" [1] . وهذا التوجيه يحقق جزءاً من مقاصد الشريعة في لم شمل الأمة وهو ما تقوم به حركة التبليغ في دعوتها .

سهولة التطبيق والانتشار:

فمنهج التبليغ مبسط وسهل التطبيق من قبل أي مسلم عادي، دون الحاجة لمتخصصين في كل مرة. يمكن لأي شخص أن يخرج للدعوة بعد فترة وجيزة من الانضمام، لأن المطلوب هو تطبيق الأصول الستة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، هذه السهولة في المنهج أتاحت للجماعة المتحركة أن تنتشر بشكل عضوي وسريع في كل مكان، لأنها لا تعتمد على تعقيدات تنظيمية أو تعليمية صعبة.

كالعمل التطوعي الذي يمكن لأي شخص المشاركة فيه دون الحاجة لشهادات عليا، فكذلك الدعوة عند التبليغ هي عمل تطوعي لكل مسلم.

---

[1] آل عمران: 103

تكميل الأدوار:

لابد أن يعلم جميع العاملين في حقل الدعوة والإصلاح أن وجود جماعات ومنظمات تركز على الجانب العلمي المتخصص أمر ضروري، ووجود جماعات تركز على الجانب العملي والتحريكي أمر لا يقل أهمية. كل منهما يكمل الآخر، فجماعة التبليغ لا تدعي أنها بديل للمؤسسات التعليمية الشرعية أو الجامعات الإسلامية، بل هي تعمل على تحريك الأفراد لطلب العلم بعد أن تستقر قلوبهم على الإيمان، وتدعو إلى الرجوع للعلماء ، وذلك انطلاقا من قاعدة "التعاون على البر والتقوى": فعلى كل من يخدم الإسلام أن يكمل عمل الآخر لا أن ينقضه ويسقطه ويضعفه .

الرد على من يزعم أن التكيف مع البيئات المختلفة ضعف:

يزعم البعض أن هذه السهولة والتكيف ضعف، وأنها تؤدي إلى "سطحية" أو "عدم تأصيل" في العقيدة والفقه ، ولكن هذا الزعم يغفل المقصد الأساسي للجماعة ، فهي ليست مؤسسة أكاديمية لتعليم العقائد والمذاهب، بل هي حركة دعوية عالمية جماهيرية تهدف إلى إعادة إحياء الشعائر الأساسية في عامة الناس ، فليس من المعقول أن نتوقع من حركة جماهيرية واسعة النطاق أن تتبنى منهجاً تفصيلياً في العقيدة أو الفقه يُلزم به جميع الناس، خصوصاً وأن هذا قد يؤدي إلى مزيد من الفرقة.

إن القدرة على التكيف مع كل بلد، وتركيزها على المشتركات التي تجمع المسلمين، هي ما جعلها من أنجح الحركات الدعوية انتشاراً وتأثيراً في العصر الحديث. هذا التكيف هو تطبيق لمبدأ الشريعة في التيسير ورفع الحرج.

المبحث الثاني :السهولة والتكيف مع المجتمعات ليست تقية ولا تلونا ولا رضا بالباطل :

فإن قال قائل : (**هذه السهولة في وجهة نظركم ما هي إلا تقية وتلونا ورضا بالباطل وسكوتا عن إنكار المنكر لأنكم ترون المنكرات في المناهج وتسكتون عنها**)

وردًا على هذه الشبهة التي يثيرها بعض خصوم حركة التبليغ والدعوة، نقول إنه لمن الواجب بيان الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وكشف اللبس الذي يحيط بموقفهم من هذه الحركة المباركة التي انتشرت في أصقاع الأرض، وأثرت في قلوب الناس بمختلف طبقاتهم، دون أن تحمل سيفًا أو ترفع صوتًا، بل بسلوكها الهادئ، وأسلوبها اللين، وصبرها العجيب على الدعوة إلى الله.

إن القول بأن سهولة حركة التبليغ في دعوتها هي تقية أو تلونا أو سكوتا عن المنكر، هو قول مجانب للواقع، ومبني على سوء الظن، بل هو افتراء لا يقوم على دليل، فهذه السهولة ليست ضعفًا في العقيدة، ولا تهاونًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما هي اختيار منهجي قائم على الرحمة واللين، كما أمر الله تعالى نبيه ﷺ حين قال : "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" [1] . فهل كان النبي ﷺ يتقي أو يتلون حينما كان يبتسم في وجه الأعرابي الذي بال في المسجد؟ أو حينما قال: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" بعد أن آذوه ورموه بالحجارة؟ أم أن ذلك كان رحمةً وحكمةً وصبرًا على الجهل، وتدرجًا في الدعوة؟

إن القبول العام الذي حظيت به حركة أو حركة التبليغ في أوساط الناس، من عوامهم وعلمائهم، ومن مختلف المذاهب والطوائف، لم يكن صدفة، ولم يكن نتيجة تملق أو مجاملة، بل هو ثمرة طبيعية لمنهجهم القائم على

---

[1] آل عمران: 159

عدم الجدال والمراء في الدين والتركيز على إصلاح النفس أولًا والدعوة بالقدوة والسلوك والصبر على الناس وعدم استعجال النتائج .

وهذا المنهج هو ما جعل الناس يقبلون عليهم، ويحبونهم، ويشعرون بالأمان في صحبتهم، بخلاف من يتخذ الشدة منهجًا في غير محلها، فينفر الناس منه، ويظن أنه بذلك يحمي الدين، بينما هو يصد الناس عنه.

فالرحمة لا تعني الرضا بالباطل، ولا السكوت عن المنكر، وإنما تعني اختيار الأسلوب الأنسب لإنكار المنكر، بحسب الحال والمقام. وقد قال الإمام الشاطبي رحمه الله: "ليس كل منكر يُنكر باليد أو باللسان، بل قد يُنكر بالقلب إذا خيف من الإنكار مفسدة أعظم".

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ليس الفقيه من يعلم الخير من الشر، وإنما الفقيه من يعلم خير الخيرين وشر الشرين".

فأهل التبليغ يعلمون أن تغيير المنكر لا يكون دائمًا بالصدام، بل أحيانًا يكون بالصبر والمثابرة، حتى تتغير القلوب، وتلين النفوس، ويقبل الناس على الحق من تلقاء أنفسهم.

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: "يا محمد، أعطني من مال الله، لا من مال أبيك ولا أمك!" فتبسم النبي ﷺ وقال له: "أعطوه".

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يشتمه، فقال له عمر: "لو شئت أن أُعاقبك لفعلت، ولكن أعفو وأستغفر الله".

هذه النماذج ليست ضعفًا، بل هي قوة في ضبط النفس، وحكمة في التعامل، وهي ما يميز أهل التبليغ في دعوتهم، فهم لا يردون الإساءة بالإساءة، ولا يواجهون الجهل بالغلظة، بل بالحلم والرفق، كما قال النبي ﷺ: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه".

إن من يعترض على جماعة التبليغ، ويتهمهم بالتلون، عليه أن يسأل نفسه: لماذا لم يحصل هو على هذا القبول العام؟

هل لأن الناس لا يحبون الحق؟ أم لأن الأسلوب الذي يتبعه منفّر؟

إن الشدة في غير محلها لا تثمر إلا النفور، بينما اللين والحكمة تفتح القلوب، وتُدخل الناس في دين الله أفواجًا.

فليتق الله من يطعن في نوايا الدعاة، وليعلم أن الدعوة ليست صراخًا ولا جدالًا، بل هي صبر ورحمة، وحكمة ومثابرة، وهذا ما جسدته حركة التبليغ في مسيرتها، فكان لها القبول، وكان لها الأثر، وكان لها الحب في قلوب الناس.

المبحث الثالث :أثر الرحمة والغلظة على دعوة المسلمين وغير المسلمين :

إعلم رحمك الله أن الرحيم اللين يقبله كل الناس حتى الكفار ، والفظ الغليظ يلفظه الناس حتى المسلمون فإن قال قائل : (**تتواجدون في كل بلد لأنه لا خوف منكم على عقيدتهم ومناهجهم الباطلة فلذلك يتركونكم**)

فهو قول مجانب للصواب، ومبني على سوء فهم لطبيعة الدعوة، بل هو قلب للحقائق وتشويه لجوهر الرحمة التي هي أساس القبول، لا السكوت عن المنكر كما يزعمون، لأن الرحمة واللين ليست ضعفًا ولا تهاونًا، وإنما هي من أعظم صفات الأنبياء وأكمل أخلاق الدعاة، وهي التي تفتح القلوب وتؤثر في النفوس، وتُحدث التغيير

الحقيقي الذي لا تصنعه الصراخات ولا المواجهات الحادة ، فالنبي ﷺ، وهو سيد الدعاة، كان رحيمًا لينًا، حتى قال الله تعالى فيه" :فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ"، ولم يكن ذلك سببًا في أن يرضى بالباطل أو يسكت عن المنكر، بل كان ينكر المنكر بالحكمة، ويغير العقائد الفاسدة بالرفق، ويهدي القلوب بالخلق الحسن، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا ، فهل كان الناس يقبلون عليه لأنه لا خوف منه على عقائدهم؟ أم لأنهم رأوا فيه الرحمة التي تروي ظمأ القلوب، واللين الذي يداوي جراح النفوس؟

إن أهل التبليغ يسيرون على هذا النهج النبوي، لا يواجهون الناس بالفظاظة، ولا يبدؤونهم بالعداوة، بل يدخلون إلى القلوب من باب الرحمة، ويصبرون على الجهل، ويتعاملون بالحلم، فيحبهم الناس، ويقبلون عليهم، ويأنسون بهم، حتى الكافر يشعر بالأمان في صحبتهم، والمسلم يجد فيهم القدوة الحسنة. وليس هذا القبول لأنهم يسكتون عن المنكر، بل لأنهم لا يتخذون الغلظة منهجًا، ولا يظنون أن رفع الصوت هو طريق الإصلاح، بل يعلمون أن التغيير الحقيقي يبدأ من الداخل، من القلب، من الحب، من الثقة، من القدوة. أما الفظ الغليظ، فإن أقرب الناس إليه ينفرون منه، ولو كان على حق، لأن الحق إذا غلفته القسوة ضاع أثره، وإذا حملته الرحمة دخل إلى القلوب بلا استئذان.

ومن يتهم أهل التبليغ بأنهم لا يُخاف منهم على العقيدة، فليتأمل أثرهم في الناس، ولينظر كيف تغيرت حياة الآلاف بسبب صحبتهم، وكيف انتشرت الصلاة، والذكر، وحب الله، في قلوب من لم يكن لهم عهد بذلك. هذا هو التأثير الحقيقي، لا الذي يُقاس بالجدال والمناظرات، بل الذي يُقاس بتغير السلوك، وانبعاث النور في القلب، وصدق التوجه إلى الله. فليس القبول العام الذي حظوا به دليلًا على ضعفهم، بل هو شهادة على صدقهم، وعلى أن الرحمة هي المفتاح الذي يفتح القلوب، وأن اللين هو الجسر الذي يصل إلى النفوس، وأن الفظاظة لا تصنع إلا الجفاء، ولو كانت تحمل الحق.

فليتق الله من يطعن في نواياهم، وليعلم أن الدعوة ليست صراعًا، بل بناء، وليتأمل كيف أن النبي ﷺ كان يقبل عليه الناس من كل مكان، لا لأنه يسكت عن الباطل، بل لأنه كان رحيمًا، وكان الناس يرون فيه الأمان، فدخلوا في دينه، لا خوفًا، بل حبًا. وهذا هو ما يفعله أهل التبليغ، وهذا هو سر قبولهم، وهذا هو ما يجهله من لا يعرف أثر الرحمة في النفوس.

المبحث الرابع :للإنكار طرق عديدة وللتغيير طرق مختلفة ، لا يجوز حمل الناس على طريقتك :

وإن قال قائل : (**لا يجوز أصلا السكوت عن الباطل ولابد من إنكاره وقت حدوثه وإلا كنت راضيا به**)

فالرد عليه بأن القول بأن السكوت عن الباطل لا يجوز مطلقًا، وأنه لا بد من إنكاره في لحظته وإلا كان الإنسان راضيًا به، هو قول فيه تعميم غير منضبط، وتجاهل لاختلاف أحوال الناس، وطرق الإنكار، ومآلات الأفعال، وهو أيضًا تحميل للناس بمنهج واحد في الدعوة والإنكار، وكأن الحق لا يُقال إلا بصوت مرتفع، ولا يُنكر إلا بالأسلوب الصدامي، وهذا خطأ بيّن يخالف ما جاءت به الشريعة من التدرج والحكمة ومراعاة الأحوال، فالإنكار له طرق عديدة، والتغيير له وسائل مختلفة، وليس من الإنصاف أن يُحمل الناس جميعًا على طريقة واحدة، أو يُتهم من خالفها بأنه راضٍ بالباطل، فكم من منكر أُنكر بالحكمة فزال، وكم من منكر أُنكر بالغلظة فازداد، وكم من داعية لم يرفع صوته لكنه غيّر قلوبًا، وكم من خطيب ملأ الدنيا صراخًا ولم يغير شيئًا.

فليس كل منكر يُنكر في لحظته، وليس كل منكر يُنكر باللسان، بل قد يُنكر بالقلب، وقد يُنكر بالصبر، وقد يُنكر بالدعوة المستمرة التي تنتشل الناس من الباطل إلى الحق، وهذا ما يفعله أهل التبليغ والدعوة، فهم لا

يكتفون بالجلوس في المساجد للحديث عن المنكرات، بل يخرجون إلى الناس، ويخالطونهم، ويصبرون عليهم، ويأخذون بأيديهم، ويغيرون واقعهم، لا بالجدال، بل بالصحبة، لا بالصوت العالي، بل بالقدوة، لا بالتصادم، بل بالرحمة. فهل هذا يُعد سكوتًا عن الباطل؟ أم هو أعظم أنواع الإنكار؟ وهل الإنكار أن أصرخ في وجه الناس ثم أتركهم؟ أم أن أعيش معهم، وأصبر عليهم، وأغيرهم من الداخل؟

إن كثيرًا من السلفية العصرية يظنون أن مجرد الحديث عن المنكر في خطبة أو مقطع هو قيام بالواجب، بينما لا يسمع عنهم أحد، ولا يخالطون الناس، ولا يغيرون شيئًا في الواقع، ثم يتهمون من يخالفهم بأنه ساكت عن الباطل! وهذا من أعجب ما يكون، إذ كيف يُتهم من يخرج إلى الناس، ويصبر عليهم، ويغير حياتهم، بأنه ساكت؟ وهل الإنكار لا يكون إلا بالصوت المرتفع؟ وهل الدعوة لا تكون إلا بالأسلوب الحاد؟ وهل من لم يعجبك خطابه، ولم يستخدم ألفاظك، ولم يعش معك في التريندات التي تعيشها، يُعد متخاذلًا؟ هذا من ضيق الأفق، ومن قلة الفقه في الدعوة، ومن الجهل بمقاصد الشريعة.

كذلك يشهد العقل بأن الناس يختلفون في طبائعهم، فمنهم من يتأثر بالكلمة الرقيقة، ومنهم من ينفر من الصوت العالي، ومنهم من يحتاج إلى صحبة طويلة حتى يتغير، فهل يُطلب من الداعية أن يخسر هؤلاء جميعًا لأنه لا ينكر المنكر في لحظته؟ وهل يُطلب منه أن ينسف علاقته بالناس من أجل موقف واحد؟ إن الحكمة تقتضي أن يُنظر إلى المآل، وأن يُراعى حال المدعو، وأن يُختار الوقت المناسب، والأسلوب المناسب، وهذا ما فعله النبي ﷺ، وما سار عليه أهل الحكمة من العلماء والدعاة.

فلا يصح أن يُحمل الناس على طريقة واحدة في الإنكار، ولا يصح أن يُتهم من خالفها بأنه راضٍ بالباطل، بل يجب أن يُنظر إلى أثره، وإلى منهجه، وإلى تغييره الحقيقي، لا إلى صوته أو أسلوبه. وأهل التبليغ والدعوة لهم أثر واضح في تغيير الناس، وانتشالهم من الباطل، وإدخالهم في دائرة الطاعة، وهذا هو الإنكار الحقيقي،

لا مجرد الكلام في المساجد دون مخالطة الناس أو التأثير فيهم. فليُترك كلٌّ يعمل بطريقته، وليُحترم اختلاف الأساليب، ولينُظر إلى النتائج، لا إلى الانفعالات، فالدعوة ليست استعراضًا، بل بناء، والإنكار ليس صراخًا، بل إصلاح، والحق لا يُنصر بالغضب، بل بالحكمة والرحمة والمثابرة.

المبحث الخامس :دعوة كل الناس والرحمة بهم ومحاولة جلبهم ليست رضا بباطلهم :

وإن قال قائل : (**قوة المنهج ليس برضا أهل الباطل عن أهل التبليغ ولا بالرضا عن أهل المناهج الباطلة والسكوت عنهم وإقرارهم على ما هم عليه ، بل بالصراحة في وجوههم وأطرهم على الحق أطرا وقصرهم على الحق قصرا وإنكار المنكر في وجوههم رضوا بذلك أم لم يرضوا**)

فنقول إن القول بأن " قوة المنهج لا تكون إلا بالصراحة في وجوه أهل الباطل، وأطرهم على الحق أطرا، وقصرهم عليه قصرًا، وإنكار المنكر في وجوههم رضوا أم لم يرضوا" هو قول فيه غلط في الفهم، وغلو في التطبيق، وتجاهل لسنن الدعوة، ومآلات الأفعال، وظروف الزمان والمكان، بل هو اختزال لقوة المنهج في مجرد المواجهة والصدام، وكأن الدعوة لا تكون إلا بالتصريح والاحتكاك، وهذا خلاف ما دلت عليه النصوص، وخلاف ما سار عليه الأنبياء والدعاة الربانيون، وخلاف ما تقتضيه الحكمة في زمن الضعف والذل الذي نعيشه.

إن دعوة الناس جميعًا، والرحمة بهم، ومحاولة جلبهم إلى الحق، ليست رضا بباطلهم، بل هي أعظم صور الإنكار، وأصدق مظاهر القوة، لأن من رضي بالباطل لا يتحرك، ولا يدعو، ولا يصبر، ولا يخرج من بيته، ولا يترك أهله وراحته، ليذهب إلى الناس في أسواقهم وبيوتهم ومساجدهم، يدعوهم إلى الله، ويذكرهم بالآخرة، ويأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة. فأهل التبليغ ما دفعهم للحركة إلا عدم رضاهم عن حال الناس،

وعن بعدهم عن الله، وعن غفلتهم، ولو كانوا راضين عنهم لما تحركوا، ولما دعوهم، ولما أنفقوا أوقاتهم وأموالهم في سبيل دعوتهم. فهل يُعقل أن يُتهم من يدعو الناس إلى الله بأنه راضٍ عن باطلهم؟ وهل يُفهم من الرحمة أنها إقرار للباطل؟ هذا قلب للحقائق، وتشويه لمعاني الرحمة، التي هي أساس الدعوة، وجوهر الرسالة.

وأما رضا أهل الباطل عن أهل التبليغ، فليس رضا حقيقيًا، بل هو رضا ظاهري، لا يلبث أن يزول إذا أظهروا الحق، وهذا أمر ثابت في الدين ويظهر مع أهل التبليغ كثيرا ، قال الله تعالى" :وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ"، فكل من لم يتبع ملتهم، فلن يرضوا عنه، ولو ابتسم لهم، ولو عاش بينهم، لأن الرضا الحقيقي لا يكون إلا باتباعهم، وهذا ما لا يفعله أهل التبليغ، فهم يدعون إلى التوحيد، وإلى السنة، وإلى ترك البدع والمعاصي، فكيف يُقال إنهم يُرضون أهل الباطل؟ وهل من يدعو إلى ترك الباطل يُرضي أهله؟ أم أن من يواجههم بالغلظة، ثم يتركهم، هو الذي يُرضيهم لأنه لا يغيرهم؟

فالمسألة ليست في الرضا أو عدمه، بل في طريقة التعامل، وفي أسلوب الدعوة، وفي الحكمة التي تقتضي عدم التصادم مع المناهج المختلفة، خاصة في زمن الضعف والخور والذل، حيث لا نملك قوة المواجهة، ولا أدوات الصدام، بل نحتاج إلى كل وسيلة تحفظ الدين، وتُبقي جذوته مشتعلة، وتُبقي الناس على صلة بالله، ولو بأضعف الإيمان. فهل من الحكمة أن نصطدم مع كل مخالف؟ وهل من العقل أن نواجه كل منكر بالصوت والغضب؟ وهل من الفقه أن ننسى حالنا، ونظن أننا في زمن التمكين؟ إن الدعوة في زمن الاستضعاف تحتاج إلى رحمة، وصبر، ومثابرة، وتدرج، وهذا ما يفعله أهل التبليغ، فهم لا يواجهون الناس بالعداوة، بل بالحب، ولا يصرخون في وجوههم، بل يصبرون عليهم، ولا يطلبون منهم التغيير الفوري، بل يرافقونهم حتى يتغيروا.

والأدلة العقلية على ذلك كثيرة، منها أن الإنسان لا يتغير بالصراخ، بل بالصحبة، وأن القلوب لا تُفتح بالغلظة، بل باللين، وأن الناس لا يقبلون على من يحتقرهم، بل على من يحترمهم، وأن الدعوة لا تنجح إلا إذا شعر المدعو بالأمان، والثقة، والرحمة، وهذا ما يحققه أهل التبليغ، بخلاف من يظن أن القوة في المواجهة، ثم لا يغير شيئًا، ولا يؤثر في أحد، بل يكتفي بالإنكار النظري، ويظن أنه بذلك قد أدى الواجب.

فليُعلم أن الدعوة ليست صدامًا، بل بناء، وأن الرحمة ليست ضعفًا، بل قوة، وأن السكوت عن المواجهة ليس رضا، بل حكمة، وأن أهل التبليغ إنما تحركوا لأنهم لا يرضون بالباطل، ولو رضوا به لما دعوا الناس، ولما خرجوا إليهم، ولما صبروا عليهم، ولما أنفقوا أعمارهم في سبيل هدايتهم. فليتق الله من يطعن في نواياهم، وليفهم أن الدعوة لها أساليب متعددة، وأن الإنكار له صور كثيرة، وأن القوة ليست في الصوت، بل في الأثر، وأن الحق لا يُنصر بالغضب، بل بالحكمة والرحمة والمثابرة.

المبحث السادس :اللين مع الأفكار المختلفة ليس دليلا على الرضا بباطلهم بل دليل صريح على أخلاق أهل التبليغ الحسنة :

وإن قال قائل : (**انتشار منهج حركة التبليغ في بلاد العالم كله ليس دليلا على صحة منهجها لأنها ترضي جميع الأطراف وتستقطب كل الفئات والأفكار من غير إنكار ولا تغيير**)

فهذا الاعتراض القائل بأن " انتشار منهج حركة التبليغ والدعوة في بلاد العالم ليس دليلًا على صحة منهجها، لأنها – بزعمهم – ترضي جميع الأطراف وتستقطب كل الفئات والأفكار من غير إنكار ولا تغيير" هو اعتراض سطحي لا يصمد أمام النظر العميق في واقع هذه الحركة المباركة، ولا أمام التأمل في منهجها

وسيرتها وأثرها في الناس. بل هو اعتراض مبني على تصور خاطئ لمعنى اللين، وسوء فهم لطبيعة الدعوة، وجهل بأصول التغيير، وغفلة عن سنن الله في التأثير والقبول.

فاللين مع الأفكار المختلفة ليس دليلًا على الرضا بها، بل هو دليل على حسن الخلق، وعلى فقه الدعوة، وعلى فهم عميق لطبيعة النفوس، وكيفية الوصول إليها. وليس كل من لم يصطدم مع المخالفين راضٍ عنهم، بل قد يكون أكثر الناس إنكارًا للباطل، لكنه يختار طريقًا آخر للتغيير، طريقًا لا يقوم على الصدام، بل على الرحمة، ولا على التهييج، بل على الحكمة، ولا على إثارة العامة، بل على بناء القلوب وتزكيتها.

ومنهج التبليغ لم ينتشر في العالم كله لأنه يرضي الجميع، بل لأنه قائم على حركة دؤوبة، وعمل جاد، ومثابرة لا تعرف الكلل، فهم لا يجلسون في المساجد ينتظرون الناس، بل يخرجون إليهم، ويخالطونهم، ويصبرون عليهم، ويدعونهم إلى الله، ويذكرونهم بالآخرة، ويأخذون بأيديهم إلى طريق النجاة. وهذا الجهد المتواصل هو الذي أثمر هذا الانتشار، لا المجاملة، ولا التنازل، ولا الرضا بالباطل.

ومنهج التبليغ والدعوة العالمي ليس إلا منهج الإسلام العظيم، فهم لا يدعون إلى حزب، ولا إلى جماعة، ولا إلى فكر خاص ولا إلى شيخ معين ولا إلى طقوس معينة ، بل يدعون إلى الله تعالى وحده لا شريك له ، وإلى اتباع الرسول ﷺ، وإلى تعظيم الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وإلى إقامة الصلاة، وإلى ترك المعاصي، وإلى محبة الخير، وإلى تزكية النفس، وإلى الحركة من أجل الدين ، فهل هذا منهج مبتدع؟ أم هو عين منهج الإسلام؟ وهل من يدعو إلى هذه الأصول يُتهم بأنه يرضي جميع الأطراف؟ أم يُشكر على صدقه وإخلاصه؟

ومنهج التبليغ لا يرضي جميع الأطراف، بل هو منهج واضح في دعوته، ولكنه لا يتصادم مع الناس، ولا يفتعل المشاكل، ولا يثير الخلافات، ولا يهيج العامة، بل يدعوهم جميعًا إلى الله باللين والرحمة، كما أمر الله

نبيه ﷺ: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" ، وهذا لا يعني السكوت عن الباطل، بل يعني تغييره بالحكمة، فإن استطاعوا أن يغيروا فعلوا، وإن لم يستطيعوا فهم معذورون شرعًا، ولا يجوز لأحد أن ينكر عليهم، أو يحملهم فوق طاقتهم، وكأنهم مدعومون من حكومة أو لهم نفوذ وسلطة، وهذا ظلم بيّن، وجهل بأحكام الإنكار، التي ربطها الشرع بالاستطاعة، لا بالرغبة وحدها.

وانتشار أهل التبليغ والدعوة ومنهجهم في العالم كله، لهو دليل قاطع على أخلاقهم، التي أسروا بها قلوب الناس، وجاءوا بهم إلى الإسلام بلا حروب، ولا قتال، ولا مناظرات، بل بالرحمة، واللين، والصبر، والمثابرة، وهذا هو ما فعله النبي ﷺ، حين دخل الناس في دين الله أفواجًا، لا لأنه صرخ في وجوههم، بل لأنه رحمهم، وصبر عليهم، وأحبهم، ودعاهم بالحكمة، ففتح الله له القلوب، وبارك له في دعوته.

فليُعلم أن اللين ليس ضعفًا، وأن الرحمة ليست تنازلًا، وأن الانتشار ليس دليلًا على المجاملة، بل هو ثمرة للصدق، والإخلاص، والعمل، وحسن الخلق، وأن أهل التبليغ إنما نالوا هذا القبول لأنهم جسدوا أخلاق الإسلام، وساروا على منهج النبوة، فكان لهم الأثر، وكان لهم القبول، وكان لهم الحب في قلوب الناس، وهذا هو أعظم دليل على صحة منهجهم، وعلى صدق دعوتهم، وعلى أن الحق لا يُنصر بالصدام، بل بالحكمة والرحمة والمثابرة.

المبحث السابع :الصبر والمثابرة وحب الخير للناس هو مفتاح الانتشار والصمود العالمي :

وإن قال قائل : (لا يغرنك الكثرة في العدد فهي ليست دليل صحة وليست ميزة ، ولم تذكر الكثرة في القرآن إلا على سبيل الذم)

فيقال له إن الأخلاق الحسنة والتزام حركة التبليغ والدعوة بعدم التصادم مع الدعوات الأخرى من أهم العوامل التي مكنتها من فتح أبواب البلدان على مصراعيها، وتسهيل انتشار دعوتها في مشارق الأرض ومغاربها. في عالم مليء بالصراعات الفكرية والتوترات المذهبية، قدمت هذه الحركة نموذجًا فريدًا من الدعوة السلمية، مما ضمن لها القبول والاستمرارية حتى في أحلك الظروف.

ومن الشبهات التي يثيرها بعض المعترضين على حركة التبليغ والدعوة قولهم " إن انتشارها في بلاد العالم وكثرة أتباعها ليس دليلًا على صحة منهجها، بل هو – بزعمهم – نتيجة رضاها عن جميع الأطراف واستقطابها لكل الفئات دون إنكار أو تغيير " وهذا القول فيه مغالطة واضحة، وتجاهل لطبيعة الدعوة، وسوء فهم لمعنى الكثرة في الشرع، بل هو قلب للحقائق، إذ يجعل اللين والرحمة والخلق الحسن دليلًا على التنازل، ويجعل القبول العام علامة على المجاملة، بينما هو في الحقيقة ثمرة جهد صادق، وعمل دؤوب، ومثابرة لا تعرف الكلل، وأخلاق عالية أسرت بها القلوب، وجعلت الناس يقبلون على هذه الدعوة في مشارق الأرض ومغاربها.

فالكثرة في القرآن غالبًا ما تُذكر على سبيل الذم، لا لأنها كثرة في ذاتها، ولكن لأنها مقرونة بالصفات السلبية: الجهل، الضلال، الإعراض، الفساد، الكفر، وما شابه ذلك. ومن أبرز الأمثلة:

قوله تعالى "وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ " [1]

وقوله تعالى " وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [2]

---

[1] الأنعام: 116

[2] الأعراف: 187

وقوله تعالى "وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ" [1]

وقوله تعالى "وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ" [2]

وقوله تعالى "وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" [3]

فالكثرة هنا مذمومة لأنها تمثل الغالبية التي انحرفت عن الحق، لا لأن الكثرة في ذاتها مذمومة.

لكن هذا لا يعني أن كل كثرة مذمومة على الإطلاق، بل هناك إشارات إلى كثرة ممدوحة، وإن كانت نادرة نسبيًا، وتُفهم من السياق أو من السنة، مثل:

قول النبي ﷺ: "تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" وهذا يدل على أن كثرة أتباع النبي ﷺ يوم القيامة ممدوحة، لأنها كثرة مؤمنة.

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء" فهنا الكثرة في الاتباع ممدوحة لأنها على سنة حسنة.

إذن، الكثرة ليست معيارًا بذاتها، بل يُنظر إلى مضمونها: فإن كانت كثرة على باطل، فهي مذمومة ، وإن كانت كثرة على الحق، فهي ممدوحة .

---

[1] البقرة: 243

[2] هود: 17

[3] المائدة: 59

ولا يخفى عنك استشهاد العلماء بكثرة المصلين في الجنائز، أو كثرة المشيعين، يُعد من الكثرة الممدوحة، لا المذمومة، وذلك باتفاق أهل العلم، حيث يقولون : (بيننا وبين أهل البدع الجنائز) لما فيها من دلالة على صلاح الميت، وحسن أثره في الناس، وطيب سيرته، وانتشار محبته، وكلها معان شرعية معتبرة.

ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: "ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه". [1] وفي رواية أخرى: "إذا صلي على الجنازة مائة من المسلمين، شفعهم الله فيه".

وهذا يدل على أن كثرة المصلين على الجنازة ممدوحة شرعًا، لأنها علامة على قبول الناس للميت، ومحبتهم له، وطلبهم له الرحمة، وهي من مظاهر حسن الخاتمة، لا من علامات الضلال أو المجاملة.

وهذا يرد على من يطعن في انتشار حركة التبليغ والدعوة، ويقول إن كثرتهم ليست دليلًا على صحة منهجهم. فنقول له: إذا كانت كثرة المشيعين في الجنائز تُعد عندك علامة على صلاح الميت، فكيف لا تكون كثرة المنتسبين إلى دعوة قائمة على التوحيد، والاتباع، والخلق الحسن، والصبر، واللين، دليلًا على صلاح المنهج؟ أليست هذه الكثرة ناتجة عن أثر حقيقي في الناس؟ أليست ثمرة لصحبة طيبة، ودعوة صادقة، وأخلاق نبيلة؟

فإن كنت تعتبر كثرة المشيعين ممدوحة، فلتكن منصفًا، واعتبر كثرة المنتسبين إلى الدعوة ممدوحة أيضًا، إذا كانت على الحق، لا على الباطل.

---

[1] رواه مسلم

إذن، الكثرة ليست مذمومة في ذاتها، بل بحسب ما تدل عليه. وكثرة الاتباع في الجنائز دليل على القبول، وكثرة الاتباع في الدعوة دليل على الأثر، وكلاهما ممدوح إذا كان على منهج مستقيم.

فإذا كانت كثرة المشيعين في الجنائز تُعد عند العلماء علامة على صلاح الميت، فكيف لا تكون كثرة المنتسبين إلى دعوة قائمة على التوحيد، والاتباع، والخلق الحسن، والصبر، واللين، دليلًا على صلاح المنهج؟ أليست هذه الكثرة ناتجة عن أثر حقيقي في الناس؟ أليست ثمرة لصحبة طيبة، ودعوة صادقة، وأخلاق نبيلة؟ فإن كان المعترض يعتبر كثرة المشيعين ممدوحة، فليكن منصفًا، وليعتبر كثرة المنتسبين إلى الدعوة ممدوحة أيضًا، إذا كانت على الحق، لا على الباطل.

وحركة التبليغ والدعوة لم تنتشر لأنها ترضي الجميع، بل لأنها لا تتصادم مع أحد، ولا تفتعل المشاكل، ولا تثير الخلافات، بل تدعو الناس جميعًا إلى الله باللين والرحمة، كما أمر الله نبيه ﷺ: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"، وهذا لا يعني السكوت عن الباطل، بل يعني تغييره بالحكمة، فإن استطاعوا أن يغيروا فعلوا، وإن لم يستطيعوا فهم معذورون شرعًا، ولا يجوز لأحد أن ينكر عليهم، أو يحملهم فوق طاقتهم، وكأنهم مدعومون من حكومة أو لهم نفوذ وسلطة، وهذا ظلم بيّن، وجهل بأحكام الإنكار، التي ربطها الشرع بالاستطاعة، لا بالرغبة وحدها.

فالكثرة في أتباع حركة التبليغ والدعوة ليست مجرد رقم، بل هي أثر دعوي، وتحول حقيقي في حياة الناس، وانتشار للخلق الحسن، والدعوة الصادقة، والرحمة التي فتحت القلوب، وجعلت الناس يقبلون على الإسلام بلا حروب، ولا مناظرات، ولا صراعات، بل بالصحبة، واللين، والمثابرة، وهذا هو ما يُمدح، لا ما يُذم. فليُعلم أن الكثرة ليست مذمومة في ذاتها، بل بحسب مضمونها، وأن القبول العام إذا كان على الحق فهو نعمة، وأن الأخلاق الحسنة هي مفتاح الانتشار، وأن حركة التبليغ والدعوة إنما نالت هذا القبول لأنها

جسدت أخلاق الإسلام، وسارت على منهج النبوة، فكان لها الأثر، وكان لها القبول، وكان لها الحب في قلوب الناس، وهذا هو أعظم دليل على صحة منهجها، وعلى صدق دعوتها، وعلى أن الحق لا يُنصر بالصدام، بل بالحكمة والرحمة والمثابرة.

فليعلم أن الكثرة في الشرع ليست مذمومة على الإطلاق ، كما يظن بعضهم، بل هي بحسب مضمونها، فإن كانت على باطل فهي مذمومة، وإن كانت على الحق فهي ممدوحة

المبحث الثامن :الأخلاق الحسنة بوابات القلوب ومفتاح الترحيب :

فإن قال قائل : (**أخلاقهم حسنة مع من لا خطر منه على دعوتهم أو مع السذج ليستدرجونهم ويوقعون بهم في شراك دعوتهم ، أما إذا خالفهم أو كلمهم طالب علم فإنهم يكشرون عن أنيابهم**) نقول : في عالم تتعدد فيه الدعوات وتتنوع الأساليب، تبقى الأخلاق الحسنة التي يتميز بها أتباع حركة التبليغ والدعوة هي البوابة الأوسع إلى القلوب، والمفتاح الأصدق للترحيب والقبول. وقد أدركت حركة التبليغ هذا المعنى العميق، فجعلت من حسن الخلق جوهراً لمنهجها، وركيزة أساسية في دعوتها، مما جعلها محبوبة ومقبولة لدى فئات واسعة من الناس، مسلمين وغير مسلمين، متدينين وبسطاء، مثقفين وعامة.

و لأن "القدوة العملية تكون بدعوة الأفعال قبل الأقوال "فإن أفراد حركة التبليغ لا يكتفون بالكلام النظري، بل يُجسدون دعوتهم في سلوكهم اليومي، في تعاملهم مع الناس، في تواضعهم، في محبتهم، في إيثارهم، وفي التزامهم بالصدق واللين. هم لا يرفعون شعارات فارغة، بل يعيشون القيم الإسلامية النبيلة، ويُظهرونها في كل موقف. وهذا ما يجعل دعوتهم مؤثرة، لأن الناس حين يرون من يطبق ما يدعو إليه، تنفتح قلوبهم وتزول الحواجز النفسية. كما قال الله تعالى" :وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"، فحسن الخلق

هو أساس التأثير، وهو ما جعل التبليغيين قدوة عملية تُحبب الناس في الدين، وتُشعرهم أن الإسلام ليس مجرد شعارات، بل حياة وسلوك.

و لأن "الابتعاد عن التكفير والتنفير دعوة تجمع ولا تُفرق "فإن حركة التبليغ تبتعد عن قضايا التكفير والجدل العقائدي، وتتجنب السب والتشهير، وتُركز على نقاط الاتفاق بين المسلمين. هذا المنهج يُبعد عنها تهمة التشدد أو الإقصاء، ويخلق بيئة من الثقة والطمأنينة بين الداعية والمدعو. فحين يشعر الناس أن من يدعوهم لا يُدينهم ولا يُقصيهم، بل يُحبهم ويريد الخير لهم، فإنهم يقتربون، ويستمعون، ويقبلون. وهذا السلوك أسهم في تقليل الخلاف داخل الأمة، وفي جمع كلمة المسلمين على أساس الإيمان والعمل الصالح، بعيدًا عن التعصب والانقسام.

و لأن "التواضع ولين الجانب مفتاح القبول في كل الطبقات "فإن أفراد التبليغ لا يُقدمون أنفسهم كعلماء كبار أو مفكرين، بل كدعاة إلى الله يسعون لإصلاح أنفسهم قبل غيرهم. هذا التواضع يجعلهم قريبين من الناس، مقبولين لدى جميع الطبقات، من البسطاء إلى المتعلمين. فهم لا يتعالون، ولا يُشعرون الآخرين بالنقص، بل يُعاملون الجميع بلين ورحمة، مما يُسهل عليهم الوصول إلى شرائح واسعة من المجتمع، ويُزيل الحواجز النفسية التي قد تمنع الناس من الاستجابة للدعوة.

و لأن "تحسين صورة المسلمين أمام العالم يبدأ من حسن الخلق "فإن أفراد حركة التبليغ يُقدمون نموذجًا مختلفًا للمسلم: المتواضع، الرحيم، الصادق، الذي لا يُهاجم أحدًا، ولا يُثير الفتن، بل يُعامل الجميع بالحسنى. هذا النموذج ساهم في تحسين صورة الإسلام والمسلمين أمام غير المسلمين، وفتح أبواب الحوار والتفاهم، وأسهم في دخول كثير من غير المسلمين إلى الإسلام، حين رأوا فيه دين الرحمة والعدل، لا دين العنف والتشدد.

و لأن "الأخلاق هي الحجة التي لا تُرد في هداية غير المسلمين والمهتدين الجدد "فإن كثيرًا من المهتدين الجدد لم يدخلوا الإسلام عن طريق المحاضرات أو الكتب، بل عن طريق المعاملة الحسنة، والخلق الطيب، والرحمة التي وجدوها في المسلمين الذين تعاملوا معهم. وجماعة التبليغ كانت سببًا في هداية الكثيرين، لأنها تُقدم الإسلام في صورته العملية، لا الجدلية. فالأخلاق هي اللغة التي يفهمها الجميع، وهي الجسر الذي يعبر به الناس من الظلمة إلى النور.

و لأن "جمع كلمة الأفكار الإسلامية على قول واحد لا يتحقق إلا بالأخلاق الجامعة "فإن حركة التبليغ استطاعت أن تُقدم نموذجًا يوحد ولا يُفرق، يجمع ولا يُشتت. فهي لا تُعادي أي مذهب، ولا تُخاصم أي فكر، بل تُركز على المشتركات، وتدعو إلى الله من باب الإيمان والعمل، لا من باب الجدل والخلاف. وهذا المنهج أسهم في جمع كلمة المسلمين، وفي تقوية الروابط بينهم، وفي بناء جسور التواصل بين مختلف التيارات الإسلامية، على أساس الأخلاق والرحمة والنية الصادقة.

ولذلك فإن الأخلاق الحسنة ليست مجرد زينة للدعوة، بل هي جوهرها وروحها، وهي الوسيلة الأنجح للوصول إلى القلوب، وهي ما يجعل الإسلام حيًا في النفوس، مقبولًا في المجتمعات، مؤثرًا في العالم. وجماعة التبليغ، بمنهجها الأخلاقي، تُثبت أن الدعوة لا تحتاج إلى صراخ ولا إلى صدام، بل إلى صدق ورحمة، وتواضع وحكمة، وهذا هو سر نجاحها وانتشارها.

المبحث التاسع :عدم التصادم هو حصن الصمود وسبيل الانتشار العالمي :

وفي عالم يموج بالصراعات الفكرية والمذهبية والسياسية، حيث تتنازع الدول والتحالفات ، وكذا الجماعات وتتصادم الدعوات، برزت حركة التبليغ والدعوة بنموذج فريد في العمل الإسلامي، قائم على السلم واللين،

والبعد عن التصادم، مما جعلها تحظى بقبول واسع وانتشار عالمي غير مسبوق. هذا المنهج غير الصدامي لم يكن ضعفًا ولا تهاونًا، بل كان حصنًا منيعًا للصمود، وسببًا جوهريًا لتمكينها في الأرض، وفتح أبواب البلدان أمامها شرقًا وغربًا، في العجم والعرب، وفي بيئات شديدة الحساسية والتنوع.

ومن أبرز ما يميز هذه الجماعة المتحركة أنها لا تتدخل في السياسة الغربية ، ولا تسعى لتغيير الأنظمة الحاكمة، ولا ترفع شعارات سياسية، بل تركز على إصلاح الفرد، وبناء الإيمان، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، هذا الحياد السياسي جعلها بمنأى عن مطاردة الحكومات، التي غالبًا ما ترى في الحركات ذات الأجندات السياسية تهديدًا لأمنها واستقرارها ، وعندما لا تشكل الجماعة خطرًا على السلطة، تُمنح مساحة أكبر للحركة، ويُتاح لها العمل بحرية، مما يسهل انتشارها واستمرارها.

كذلك، تتجنب حركة التبليغ الدخول في الخلافات المذهبية والفقهية، فلا تخوض في دقائق العقائد، ولا تثير الجدل حول المسائل الخلافية، بل تجمع الناس على الفرائض المشتركة، وعلى حب الله ورسوله، وعلى الصلاة والذكر والدعوة ، هذا المنهج سمح لها بالعمل في بيئات متعددة المذاهب، كالهند وباكستان حيث تنتشر الطوائف المختلفة، أو المغرب ومصر حيث المالكية والشافعية، دون أن تثير حفيظة أي مذهب، بل استطاعت أن تجمع الناس من مختلف المشارب على هدف واحد، هو العودة إلى الله، وإحياء الإيمان، والالتزام بالعبادات.

وتميز الدعوة بمنهاج أهل التبليغ بمرونة عالية في التعامل مع الظروف المحلية، والقوانين المنظمة للعمل الدعوي في كل بلد، فلا تفرض رؤيتها الخاصة، ولا تصطدم مع القائمين على المساجد أو المؤسسات الدينية، بل تعمل ضمن الأطر المتاحة، وتتعاون مع الجميع، وتقدم نفسها كجهد إيماني لا يهدد أحدًا. هذا اللين والتعايش

مكنها من العمل في بيئات شديدة الحساسية، بل حتى في دول غير إسلامية، حيث استطاعت أن تنشر دعوتها دون أن تُغلق في وجهها الأبواب.

أما من حيث المحتوى، فإن أفراد التبليغ يركزون على الجوانب الإيمانية والعملية المشتركة، كالصلاة، والذكر، والدعوة، والأخلاق، ويبتعدون عن الجدالات الفكرية والسياسية التي تستنزف الطاقات وتثير الشقاق. هم يقدمون للمسلم العادي حلاً بسيطًا وعمليًا لإحياء دينه، دون تعقيد، ودون صراعات، وهذا ما يجذب الكثيرين، ويجعل دعوتهم سهلة القبول، وواسعة الانتشار.

وفي ظل وجود دعوات متشددة، وأخرى ذات طابع سياسي، تتعرض للهجوم والملاحقة، فإن منهج التبليغ السلمي وغير الصدامي يُشكل لها حصنًا منيعًا، يحميها من العداوات، ويقلل من خصومها، ويمنحها فرصة للاستمرار والصمود. فعندما لا تكون الجماعة عدوًا لأحد، فإن دائرة خصومها تضيق، ويُتاح لها أن تعمل وتنتشر، وتؤثر في الناس، وتبني النفوس، وتحيي القلوب، وهذا هو سر قوتها، وسر انتشارها، وسر بقائها رغم كل التحديات.

فمنهج التبليغ ليس تراجعًا ولا مجاملة، بل هو حكمة ورحمة، وصبر ومثابرة، ووعي عميق بسنن الدعوة، وفهم دقيق لواقع الأمة، وهو ما جعلها نموذجًا فريدًا في عالم الدعوة، يستحق أن يُدرس ويُحتذى، لا أن يُطعن فيه أو يُتهم بغير حق.

الفصل الخامس عشر: التدرج في الدعوة للإسلام لعموم الناس والرد على زعم "جمع وكَلّ ثم ثقف"

يُطرح أحياناً زعم مفاده أن منهج حركة التبليغ يعتمد على مبدأ باطل "**جمع وكَلّ ثم ثقّف**"، أي أنهم يركزون على جمع الناس في جماعات على غير منهج موحد ولا عقيدة واحدة صحيحة لأن هدفهم التجميع وتكثير السواد ثم يبدأون بتثقيفهم وتعليمهم ما يحبون بغض النظر عن كون ما يعلمونهم – هذا – صحيح أم غير صحيح ! ، وهذا الزعم يُراد به الإشارة إلى قصور في منهج الحركة ، أو إغفال لأولوية العلم. ولكن عند التدقيق، يتضح أن هذا القول لا يصور منهج الحركة بدقة، بل لابد من تصور أن الإسلام لعموم الناس، ويجب أن يكون هناك تدرج في التوعية والتعليم والتربية.

المبحث الأول : عموم الإسلام ومنهجية التدرج وتلازم الجمع والتثقيف :

1. الإسلام لعموم الناس باختلاف مستوياتهم ومشاربهم :

إن رسالة الإسلام موجهة إلى كافة البشر، بمختلف مستوياتهم التعليمية والفكرية. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا"[1] . فمنهم العالم والجاهل، والمثقف والأمي، ومنهم من هو بعيد عن الدين كل البعد، ومنهم من لديه بعض الالتزام. لا يمكن أن يُفرض على الجميع منهج دعوي واحد يبدأ بتفاصيل العقائد أو دقائق الفقه.

[1] (سبأ: 28)

ف "مخاطبة الناس على قدر عقولهم" قاعدة عظيمة من أصول الدعوة النبوية لأن مخاطبة الناس بما يناسب فهمهم ومستواهم الإيماني والتعليمي دليل فقه وعلم وحكمه . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قوم بما يناسبهم.

وفي زماننا أيضا نرى بأعيننا هذا المسلك العقلاني ، فعندما يمر الطبيب على أناس مرضى بمرض بسيط، فإنه لا يبدأ بإلقاء محاضرة في علم التشريح المعقد، بل يصف لهم الدواء المناسب لحالتهم البسيطة أولاً ، ولا يخاطبهم في غير مرضهم وما يهمهم .

2. منهج التدرج في الدعوة والتربية:

إن حركة أو حركة التبليغ تُطبق منهجاً تدرجياً في الدعوة، وهو منهج مستلهم من السيرة النبوية يهدف إلى :

- إيقاظ القلوب وتحريك الهمم (البداية العملية): فالخطوة الأولى لدعوة أي أحد هي إيقاظ الإيمان في قلوب الناس، وتحبيبهم في الدين، وتحريكهم نحو الالتزام بالعبادات الأساسية. فالكثير من الناس اليوم غافلون عن دينهم، ومجرد دعوتهم إلى الصلاة وذكر الله وحسن الخلق يعتبر إنجازاً عظيماً ، لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ"[1] . فالدعوة إلى ما يحيي القلب والإيمان هي البداية.
- التركيز على الأصول العملية: فلذلك تدعو تلك الحركة إلى الأصول الستة، وهي أصول عملية وسلوكية يمكن لأي مسلم تطبيقها بسهولة ، وهذه الأصول بمثابة نقطة بداية لإعادة بناء العلاقة مع الله ، ففي

[1] (الأنفال: 24)

حالة شخص لا يصلي ! والعياذ بالله ، فالأولوية هي تعليمه الوضوء والصلاة، وليس البدء بتصحيح كل خطأ عقدي نظري لديه غير ظاهر عليه قبل أن يبدأ بالصلاة ، فالصلاة عمود الدين وهي شعيرة ظاهرة وفريضة واجبة حالَّةٌ وهي أول ما يُحاسب عليه العبد.

- العلم والذكر كأصل من أصولهم: لأن العلم والذكر هو أحد الأصول الستة التي تدعو إليها تلك الحركة ، فهم لا يغفلون أهمية العلم، بل يحثون الناس على حضور حلقات العلم والاستماع إلى العلماء ، ولكنهم يضعون هذا في سياقه العملي والتدرجي، حيث يرون أن التعلم يجب أن يكون مصحوباً بالعمل، وأن العمل هو الذي يدفع لطلب المزيد من العلم ، لقوله تعالى: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"[1]. الحركة تشجع على العلم، ولكن بنظام يتناسب مع طبيعة دعوتها الشاملة.
- الحركة العملية لا النظرية البحتة: فيتميز منهج تلك الحركة الحركية بأنه يركز على العمل التطبيقي للدين، فالدعوة ليست مجرد محاضرة نظرية، بل هي تطبيق عملي للإيمان. فالخروج في سبيل الله هو في حد ذاته مدرسة عملية لتعلم الصبر، والإيثار، والتواضع، والدعوة بالحكمة ، وذلك انطلاقا من قاعدة "العلم النافع هو الذي يثمر عملاً": وقد أثر من أقوال السلف: "العلم الذي لا يتبعه عمل لا ينفع".

3. الجمع والتثقيف متلازمان:

ففي منهج حركة التبليغ، الجمع والتعليم ليسا بمنفصلين بل هما متلازمتان ، فالجماعات التي تخرج للدعوة تقوم بـ "التشكيل" (أي التجميع والتحفيز)، وفي هذا التجميع يكون هناك "التعليم" و"المدارسة" لأصول الدين

---

[1] (المجادلة: 11)

والقرآن والحديث ، فليس هناك "جمع" بلا "تثقيف"، ولكن التثقيف في بداياته يكون مبسطاً وعملياً وموجهاً لعامة الناس.

ولذلك فمنهج حركة التبليغ في التدرج بالدعوة، والتركيز على إحياء الأصول العملية للدين قبل الخوض في التفاصيل التي قد تفرق، يتناسب مع عموم الناس ومع طبيعة الإسلام كدين عالمي، وزعم أنهم "يجمعون ويكتّلون ثم يثقفون" هو تبسيط مخل لمنهجهم الذي يوازن بين الحركة والتعليم العملي، وهو منهج له أصله في التدرج الدعوي النبوي.

المبحث الثاني : الرد المفصل على مقولة البعض : "ثقّف ثم جمّع"

تُعد مقولة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (رحمه الله) "ثقّف ثم جمّع" من أشهر الانتقادات الموجهة للحركات الإسلامية العاملة في الساحة عامة ولحركة التبليغ والدعوة أيضا بصفة خاصة ، بل إنها أصبحت شعاراً لتيار معين – وهو السلفية المعاصرة - ينتقد منهج الحركة بل وكل الحركات المعاصرة ، وتعني هذه المقولة أن الأولوية في الدعوة هي لتعليم الناس وتثقيفهم بالعلم الشرعي الصحيح (خاصة في العقيدة والتوحيد والسنة) قبل جمعهم وتنظيمهم في جماعات أو حركات دعوية ، ولكن، عند تحليل هذه المقولة في سياقها الأوسع ومقارنتها بمنهج حركة التبليغ، يتبين أن هناك فرقاً في المنظور والأولويات الدعوية التي لا تلغي أحدهما الآخر بالضرورة.

فالقول "ثقف ثم جمع" أو "ثقف قبل أن تدعو" قد يكون مناسباً لفئة معينة من الناس (كطلبة العلم)، أو في سياقات معينة كمن يهدف إلى عمل حركة منظمة أو من يهدف إلى تكوين فريق معين ، ولكنه ليس منهجاً عاماً لكل الناس ، مثل حركة التبليغ التي لا تهدف إلى إنشاء حركة معينة ولا إلى تكوين حزب أو

تجميع فريق بل تهدف إلى تحرك كل المسلمين بالدين – كل بعلمه وبقدراته – كل في محيطه ومكان تواجده أولا ثم يتحرك حوله ويوسع الدائرة من غير تكلف ولا تحمل فوق طاقته ، فكم من الناس لا يمكنهم الحصول على تعليم شرعي معمق في بداية طريقهم نحو الالتزام؟ وكم من الناس يحتاجون أولاً إلى دفعة إيمانية وتحريك لسلوكي قبل أن يتلقوا العلم النظري؟ ولذلك نرى اختلافا جوهريا بين منظور حركة التبليغ الشامل العام الذي يستهدف كل أفراد المجتمع من المسلمين ومن غير المسلمين ومنظور الشيخ الألباني الذي لا يسعى لذلك الهدف الأسمى وإن كانوا يزعمونه ، فالهدف نفيس لا ينكر أحد من المسلمين قصده ولا اعتقاده ولكن المحك العملي هو الفيصل بين من يسعى للهدف ويتخذ خطوات عمليه وبين من يتكلم بلسانه وواقع حياته بعيدة كل البعد عن ذلك .

بين منظور الشيخ الألباني ومنظور حركة التبليغ العالمية :

الشيخ الألباني (رحمه الله) كان عالما من علماء الحديث والسنة، وداعية إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع، ومحاربة التقليد الأعمى ، وكانت أولويته الكبرى هي تصحيح عقائد الناس ومنهجهم وفق الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، لذا، رأى أن البدء بالتعليم والتثقيف هو الأساس الذي يبنى عليه أي عمل دعوي أو جماعي، فمن قبله وسار عليه صار منا واجتمع معنا ومن لم يقبله لم يكن منا ولا يجوز أن ينضم إلينا ، ولذلك فإنه يرى أن الجماعات والدعوات التي تتشكل دون أساس علمي متين قد تقع في البدع أو الانحرافات ، وهذا صحيح بنسبة لا بإطلاق ، فيستدل الشيخ الألباني بقوله تعالى: "فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ" 1 ، حيث قُدم العلم على العمل والاستغفار ، وهذا مما لا يخالف فيه مسلم ، فيرى الشيخ أن العلم الصحيح

---

[1] (محمد: 19)

هو مناط العمل الصالح، وأن أي حركة دعوية لا تُبنى على العلم الشرعي المتين، قد تضل أو تُضل، وتكون عرضة للانحرافات، خصوصاً في مسائل العقيدة والمنهج.

واما حركة التبليغ، كما سبق بيانه،فإنها تنطلق من واقع مختلف ، فإضافة إلى اعتقادها أن العلم هو الأساس الذي يبنى عليه الدين والعمل ولذلك جعلته أساسا من أسسها ومحورا هاما من محاور عملها ، فهي ترى أيضا أن هناك أعداداً هائلة من المسلمين في غفلة عن دينهم، لا يصلون، ولا يقرأون القرآن، ولا يعرفون أساسيات الإسلام. وهؤلاء الملايين لا وقت لتثقيفهم وتغيير أيدلوجياتهم ومعتقداتهم ، بل الأولى في تلك المرحلة هو والأولوية بالنسبة لهم هي تحريك هؤلاء الناس نحو الالتزام العملي، وإيقاظ الوازع الديني في قلوبهم ، وهذا بدوره سيغير كثيرا من قناعاتهم واعتقاداتهم ، فيرون أن تعليم أساسيات الإيمان والعبادات، وتحريك الناس للعمل بالدين، هو المدخل الصحيح لعامة الناس، ثم يأتي بعد ذلك التعمق في العلم الشرعي أو التخصص كل بحسبه.

تفنيد مقولة "ثقّف ثم جمّع" والرد عليها :

الواقعية والتدرج النبوي:

فالدعوة النبوية في عهد النبوة الفاضل لم تبدأ بتعليم كل التفاصيل الفقهية أو العقدية دفعة واحدة ، ولا يستطيع مسلم أن يدلل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ثقف الناس أولا ثم جمعهم على الإسلام ثانيا ، بل بدأت بالتوحيد ونبذ الشرك، وتجميع الناس على الإسلام ثم تدرجت في الأحكام والتشريعات على مدار ثلاثة وعشرين عاماً ، تطهر أدران القلوب وتذيب ما علق في الصدور وتبني صرحا عظيما لا تؤثر فيه الشبهات ولا الشهوات ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بما يناسبهم في كل أحواله . كما في حديث

عائشة رضي الله عنها في نزول القرآن: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً"[1]. وهذا يدل على أن التربية والتدرج أمر أساسي لا شيء فرعي ، فحركة التبليغ تستهدف شريحة واسعة من الناس، منهم الأميون، ومنهم من لا وقت لديه للتعلم الأكاديمي، ومنهم من يحتاج إلى دفعة إيمانية أولاً ومنهم من هو معترض أصلا على فكرة الإسلام وكثير ما هم ، فالبدء بـ "الجمع" أو "التحريك" يمكن أن يكون وسيلة فعالة لإيصال رسالة الإسلام إليهم، ثم يتم تعليمهم وتثقيفهم داخل هذا الإطار أو بعده.

مبدأ المؤلفة قلوبهم ينقد منهجية ثقف ثم جمع :

إن من يقول "ثقف الناس أولاً ثم اجمعهم على منهجك وجماعتك وفصيلك" يفترض أن الدعوة إلى الله لا تكون إلا بعد اكتمال البناء الفكري والمعرفي، وكأن القلوب لا تُفتح إلا بالمحاضرات والمناظرات، وهذا فيه تجاهل لطبيعة النفس البشرية وتعقيداتها، وفيه إغفال لمنهج النبوة في الدعوة، الذي كان يبدأ باللقاء، والمخالطة، والكلمة الطيبة، والهدية، والزيارة، قبل أن يبدأ بالتثقيف والتأصيل. إن كثيراً من الناس لا يدخلون إلى الدين من باب القناعة العقلية أولاً، بل من باب الألفة، أو الإعجاب، أو الحاجة، أو حتى الطمع والخوف، ثم تتدرج قلوبهم في الفهم واليقين. وهذا ما يفسره مفهوم "المؤلفة قلوبهم."

---

[1] (رواه البخاري)

فالمؤلفة قلوبهم هم أولئك الذين دخلوا الإسلام أو اقتربوا منه، لا عن قناعة راسخة، بل عن رغبة في مال، أو مكانة، أو دفع ضرر، أو مسايرة واقع، أو حتى مجاملة. وقد ذكرهم الله في مصارف الزكاة، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، أي أن الإسلام يعترف بأن هناك من تُستمال قلوبهم بالعطاء، وأن هذا ليس نقصاً في الدين، بل حكمة في الدعوة، وواقعية في التعامل مع الناس. فليس كل من دخل الإسلام كان مقتنعاً به تماماً، بل منهم من دخل خوفاً من السيف، ومنهم من دخل طمعاً في المال، ومنهم من دخل مجاراةً لقومه، ثم بعد ذلك استقرت قلوبهم، أو لم تستقر، لكنهم كانوا جزءاً من المجتمع المسلم، وكان النبي ﷺ يتعامل معهم بحكمة ورفق.

ومن الأمثلة البارزة على المؤلفة قلوبهم: صفوان بن أمية، الذي ظل كافراً بعد فتح مكة، ومع ذلك أعطاه النبي ﷺ من غنائم حنين مئة من الإبل، ثم مئة أخرى، حتى قال صفوان: "ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي"، فدخل الإسلام بعد ذلك. وكذلك عيينة بن حصن، الذي كان من المؤلفة قلوبهم، وكان يُعطى من الزكاة رغم ضعف إيمانه، بل إن بعضهم كان يُظهر الإسلام ويُبطن غيره، ومع ذلك كان النبي ﷺ يكرمه ويقربه، لا لأنه يرضى بالنفاق، بل لأنه يعلم أن القلوب تُفتح بالتدرج، وأن اللقاء والمخالطة والكرم قد تكون مفاتيح للهداية ، وكذلك العباس بن مرداس السلمي، وكان من شعراء العرب وفرسانهم، وقد شهد غزوة حنين، لكنه لم يُعطَ من الغنائم كما أُعطي غيره من المؤلفة قلوبهم، فأنشد شعراً يعاتب فيه النبي ﷺ، فاستدعاه النبي وأعطاه حتى رضي. وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يتعامل مع النفوس بما يرضيها ويؤلفها، حتى لو لم تكن دوافعها إيمانية خالصة، بل كان يراعي الطبائع، ويستميل القلوب، ويُشعر الناس بقيمتهم، ليكون ذلك مدخلاً إلى الهداية. وكذلك أبو سفيان بن حرب، زعيم قريش سابقاً، وكان من أشد الناس عداوة للإسلام، لكنه أسلم يوم فتح مكة، وكان إسلامه في ظاهره أقرب إلى الانقياد للواقع منه إلى القناعة،

ومع ذلك أكرمه النبي ﷺ، وقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"، وأعطاه من غنائم حنين، وأبقاه في مكانته، حتى صار بعد ذلك من المسلمين الصادقين، وشارك في الفتوحات، وكان له دور في نصرة الإسلام. فهذه الأمثلة تبين أن النبي ﷺ لم يكن ينتظر من الناس أن يبلغوا درجة اليقين قبل أن يضمهم إلى صف الدعوة، بل كان يفتح لهم الأبواب، ويؤلف قلوبهم، ويعاملهم بالحسنى، ليكون ذلك بداية الطريق، لا نهايته.

والدليل العقلي على مشروعية هذا المنهج أن الإنسان لا يُقنع عقله إلا إذا اطمأنت نفسه، ولا يطمئن قلبه إلا إذا شعر بالأمان، والقبول، والاحترام. فلو انتظرت حتى يقتنع الناس تماماً بمنهجك قبل أن تضمهم إليك، فلن تضم إلا القليل، وربما لا تضم أحداً. أما إذا بدأت باللقاء، والدعوة، والزيارة، والكلمة الطيبة، فإنك تفتح باباً في القلب، قد لا يُفتح بالمنطق وحده. إن كثيراً من الصحابة دخلوا الإسلام في البداية خوفاً أو طمعاً، ثم صاروا من أعمدة الدين، كخالد بن الوليد، الذي دخل الإسلام بعد أن رأى انتصارات المسلمين، لا عن قناعة فكرية، ثم أصبح سيف الله المسلول.

فمنهج "ادعُ الناس إلى الله وتلمّس أي مدخل إلى قلوبهم" هو منهج نبوي أصيل، لا يُشترط فيه أن يكون المدخل فكرياً أو عقدياً، بل قد يكون اجتماعياً، أو عاطفياً، أو حتى مادياً. فالمقصود أن تفتح باباً، ثم تدخل منه إلى القلب، ثم إلى العقل، ثم إلى الإيمان. وهذا لا يتناقض مع التثقيف، بل يسبقه، ويهيئ له، ويجعله مؤثراً. فالدعوة ليست معركة أفكار، بل رحلة قلوب، تبدأ باللقاء، وتنتهي باليقين.

التعليم في منهج التبليغ ليس غائباً:

ومما يجب ذكره أن حركة التبليغ لا تهمل التعليم في منهجها وطريقتها ، بل "العلم والذكر" هو أحد أصولهم الستة كما لا يخفى ، ففي كل خروج، هناك "تعليم" يومي و"مدارسة" لكتاب "رياض الصالحين" أو "منتخب أحاديث" أو كتاب "حياة الصحابة"، بالإضافة إلى قراءة القرآن وتفسيره المبسط ، وفي المقام لابد من تعليم في المسجد وتعليم في البيت ، وهذا التعليم موجه لعامة الناس البسطاء وغير المتخصصين ، ومبسط غاية التبسيط بما يناسبهم، ويهدف ابتداءا إلى ترسيخ الإيمان الصحيح في القلوب وتحفيز العقول وشحذ الهمم للعمل بالدين وللدين. وأما المتخصصون فأمامهم علوم الدين بحور لا ساحل لها ولا يستطيع بشر أن يحتويها ولا أن يحوزها ، ودونهم علماء الإسلام ينهلون من علومهم ما يشاؤون كما يشاؤون ، ولا يثبت أصلا ولا يصح ما يشيعه الخصوم - من السلفية المعاصرة – بأن أهل التبليغ لا يهتمون بالعلم ، فتلك فرية بلا مرية .

العلم والعمل متلازمان:

ففي الإسلام، العلم والعمل متلازمان ، لا قيمة لعلم بلا عمل، ولا استقامة لعمل بلا علم ، فحركة التبليغ ترى أن العمل بالدين والدعوة إليه هو خير سبيل لتحصيل العلم النافع الذي يُثمر عملاً.

عملا بقاعدة "العلم يطلب للعمل " وهي قاعدة من قواعد السلف الصالح مفادها أن العلم يُطلب للعمل به لا لمجرد الثقافة الذهنية ولا الشهادة العلمية ، قال الإمام مالك رحمه الله : "العلم لا ينفع ما لم ينفع" ،فالذي يخرج للدعوة يتعلم الصبر، والتواضع، وحسن الخلق، وكيف يوصل الكلمة الطيبة، وكيف يواجه الصعاب، وهي كلها علوم عملية لا تقل أهمية عن العلوم النظرية، وتهيئ النفس لطلب المزيد من العلم.

بين منهج التخصص ومنهج العموم:

إن منهج الشيخ الألباني رحمه الله هو منهج تخصصي يُعنى بتفاصيل علم العقيدة والسنة ويُخاطب شريحة معينة من طلبة العلم والدعاة ، وهذه اللغة لا تصح بحال مع عامة المسلمين ، بينما منهج حركة التبليغ الدعوي فهو منهج عام يُخاطب جماهير المسلمين بقضايا معينة وبطرق مناسبة ، فكلاهما له أهميته في ساحة الدعوة ولا يستغني بأحدهما عن الآخر ولا يجوز حمل أحدهما على طريقة الآخر ، فليس من الضروري أن يكون منهج واحد هو الأفضل لكل الناس وفي كل الظروف ، بل يجوز أن يعمل المنهجان معا ويتكاملان ، فلكل بيئة وحال ما يناسبها من المناهج الدعوية ، فعلى سبيل المثال لا يمكن أن يصف طبيب واحد نفس الدواء لجميع المرضى، فلكل مرض ومرضى علاج يناسبه. كذلك الدعوة.

الواقع أثبت نجاح منهجية التبليغ :

وبغض النظر عن الخلاف حول الأولوية، فإن واقع حركة التبليغ أثبت نجاحاً في إرجاع الكثير من المسلمين إلى الصلاة والمساجد وترك المنكرات، وأثبت جدارة منقطعة النظير في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، وهذا بحد ذاته خير عظيم ، فلو أن هؤلاء الناس انتظروا حتى "يتثقفوا" بالعمق الذي يريده البعض، لربما لم يلتزموا بالدين أبداً ولم يدخلوه.

فمقولة الشيخ الألباني (رحمه الله) "ثقف ثم جمع" هي رؤية منهجية لها وجاهتها في سياق معين، وتؤكد على أهمية العلم الشرعي ، ولكنها لا تلغي بالضرورة منهج حركة التبليغ الذي يرى في "التحريك" و"الجمع" بداية لعملية تربوية وعلمية متدرجة تناسب غالبية المسلمين الذين قد لا يتوفر لهم سبيل التعمق في العلم في بداية طريقهم. كلا المنهجين له دوره في إكمال بناء الأمة وتصحيح مسارها.

المبحث الثالث : التدرج في البناء الدعوي منهج عملي للجميع:

التدرج في البناء الدعوي ليس مجرد خيار تنظيمي، بل هو منهج عملي أصيل، أثبتت التجربة أنه الأكثر تأثيرًا ونجاحًا في الوصول إلى الناس وتغييرهم. فكل دعوة، بطبيعتها، تسعى إلى كسب المؤيدين ونشر أفكارها، ومنطق العمل الدعوي يقتضي أن تبدأ من حيث يفهم الناس ويشعرون، لا من حيث يُراد لهم أن يكونوا. وهذا يقتضي التدرج، بدءًا من الجمع، ثم التثقيف، ثم التمكين، كما دلّت عليه السيرة النبوية والعقل السليم.

في المرحلة الأولى، يكون الجمع الأولي هو المدخل الطبيعي. فالدعوة تبدأ بجمع الناس حول مبادئ عامة، أو قضايا مشتركة، أو أهداف واضحة بسيطة يسهل استيعابها والتعلق بها. هذا الجمع قد يكون عاطفيًا، أو عمليًا، أو روحانيًا، ويهدف إلى بناء قاعدة جماهيرية وكسر حاجز العزلة والخوف. فالناس ينجذبون في البداية إلى ما هو محسوس وبسيط ومباشر، لا إلى ما هو نظري ومعقد. وهذا ما فعله النبي ﷺ في أول دعوته، حين قال لقريش: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، دون أن يخوض معهم في تفاصيل الأحكام أو الرد على شبهاتهم العقدية، بل بدأ بما يجمعهم ويوحدهم.

وهذا عين ما تقوم به حركة التبليغ والدعوة، والتي تدعو الناس إلى الصلاة في المسجد، والخروج في سبيل الله، وذكر الله، وإكرام المسلم. هذه كلها أمور عملية، بسيطة، ومشتركة بين كل المسلمين، ولا تحتاج إلى عمق علمي في البداية. من خلال هذه الممارسات، يتم جمع الناس وتأليف قلوبهم حول عمل مشترك، ويُكسر الحاجز النفسي بينهم وبين الدين، ويُفتح لهم باب التغيير. وهذا يشبه ما فعله النبي ﷺ مع الأعراب، الذين كانوا يدخلون الإسلام أولًا، ثم يتعلمون أحكامه لاحقًا، كما في حديث وفد عبد القيس، حين قال لهم: "آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟"، ثم فصّل لهم بعد أن جمعهم على أصل الإيمان.

ثم تأتي المرحلة الثانية، وهي التثقيف المنهجي، بعد أن تكون القلوب قد أُلفت، والنفوس قد انخرطت، والعقول قد تهيأت. في هذه المرحلة، يُغرس الفهم العميق للمبادئ، وتُبنى الأصول الفكرية والعقدية، ويُعمق الالتزام بالمنهج الخاص للدعوة. يكون الناس حينئذٍ أكثر استعدادًا لتقبل التفاصيل، وأكثر قابلية للتغيير الحقيقي. وهذا ما فعله النبي ﷺ بعد الهجرة، حين بدأ بتفصيل الأحكام، وتنظيم المجتمع، وتأسيس الدولة، بعد أن قضى في مكة ثلاث عشرة سنة يرسّخ التوحيد والأخلاق.

وفي حركة التبليغ، بعد خروج الناس مع الجماعات المتحركة أو خالطوهم وجالسوهم ، واعتيادهم على الصلاة والذكر، يُعرض عليهم المزيد من التعليم الديني، وتُقدم لهم دروس في كتاب فضائل الأعمال وغيره، وتُعقد لهم "مشورات" و"مذاكرات" تُرسخ لديهم المبادئ الستة ومنهج الحركة في الدعوة. وهذا التدرج ليس ارتجالًا، بل هو سنة كونية في التعليم والتأثير، فالطفل لا يُعلمه أبوه دقائق العلوم قبل أن يُعلمه الحروف والكلمات البسيطة. وقد قال الإمام الشاطبي في الموافقات" :التدرج في التعليم من سنن المربين، وهو مقتضى الحكمة، لأن النفوس لا تحتمل دفعة واحدة ما يُلقى إليها من المعارف."

والرسول ﷺ نفسه بدأ دعوته في مكة بالتركيز على التوحيد المجمل والأخلاق، ولم يُفصِّل الأحكام الفقهية أو التشريعات الاجتماعية إلا بعد الهجرة وبناء الدولة. وهذا يدل على أن التدرج ليس ضعفًا، بل هو قوة في الفهم، وعمق في المنهج، وواقعية في التعامل مع الناس. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، أي أن التلقي يحتاج إلى استعداد نفسي وعقلي، ولا يكون بمجرد الإلقاء.

فمنهج "جمِّع ثم ثقِّف" ليس بدعة، ولا تساهلًا، بل هو سنة نبوية، وعقلية تربوية، وتجربة دعوية ناجحة، أثبتت قدرتها على تغيير الناس، لا تثبيتهم على ما هم عليه. ومن أراد أن يُصلح، فليبدأ من حيث يفهم الناس، لا من حيث يُريد لهم أن يكونوا.

المبحث الرابع : التعقيب على انتقاد السلفيين "جَمِّعْ ثم ثَقِّفْ" من خلال ممارساتهم:

من الانتقادات المتكررة التي يوجهها بعض المنتسبين للتيار السلفي المعاصر إلى حركة التبليغ والدعوةمتهمين إياهم بأنهم أتباع منهج منحرف مخالف لمنهج السلف وهو "جمِّع ثم ثقِّف"، معتبرين أن البدء بجمع الناس دون تحقيق التوحيد ومحاربة البدع يُعد تقصيرًا أو انحرافًا عن الأولويات الشرعية. ولكن المثير للتأمل أن هذا المنهج ذاته، أي التدرج في الدعوة، يُمارَس فعليًا في كثير من الأنشطة السلفية، وإن لم يُصرِّح به بنفس الاسم.

ففي المساجد والمراكز الدعوية، نجد أن كثيرًا من الدعاة السلفيين - ولاحظ أننا نقصد بعض توجهات المنهج السلفي المعاصر وليس كل توجهاته - يبدأون مع الشباب والعوام بدعوتهم إلى الصلاة، وحضور الخطب، والالتزام بالعبادات، دون أن يبدؤوا معهم مباشرةً بكتب العقيدة المتخصصة أو مسائل الولاء والبراء أو الردود على الفرق المخالفة. بل يُركّز في البداية على تأليف القلوب، وغرس حب الدين، ثم بعد أن يندمج الشاب في بيئة المسجد، يُوجَّه تدريجيًا إلى حلقات العلم، ودروس التوحيد، وشرح كتب المنهج السلفي المعاصر . وهذا التدرج في الدعوة هو عين ما يُمارسه أهل التبليغ، وإن اختلفت الوسائل أو العناوين. فلو بدأ الداعية مع المسلم الجديد بشرح نواقض الإسلام أو تفصيلات الصفات الإلهية، لانفضّ عنه الكثيرون، وهذا ما نتفاداه الحركات التي تسعى للانتشار والتأثير الواقع .

وفي مجال العمل الخيري والإغاثي، نجد أن بعض التيارات السلفية تُقيم مشاريع واسعة تحت مظلة "البر والإحسان"، فتجذب الناس من مختلف الخلفيات، دون اشتراط الالتزام الكامل بالمنهج السلفي منذ البداية. ومع مرور الوقت، ينشأ احتكاك بين العاملين والمتطوعين، وتُقدَّم لهم توجيهات دعوية، ويُدعون إلى حضور الأنشطة العلمية، فيتحول هذا الجمع العملي إلى مدخل للتثقيف والتأصيل. وهذا أيضًا تطبيق عملي لمنهج "جمِّع ثم ثقِّف"، وإن لم يُسمَّ بهذا الاسم ، وهذا ما يطبقه كل العاملين في مجالات العمل الخدمي ومنهم أهل التبليغ والدعوة وغيرهم .

أما في الدعوة العامة، كخطب الجمعة والمحاضرات المفتوحة، فإن الداعية السلفي المعتدل الوسطي غالبًا ما يركّز على القضايا التي تجمع الناس، كأهمية الصلاة، أو الإخلاص، أو التحذير من المعاصي، دون أن يبدأ بمسائل دقيقة في العقيدة أو التحذير من الحزبيات، إلا إذا كان يخاطب جمهورًا متخصصًا - بخلاف غلاتهم فإنهم على النقيض يبدؤون بمسائل دقيقة في العقيدة أو التحذير من الحزبيات - فهو يدعو الناس إلى الخير العام، ثم يُفرد لهم دروسًا خاصة للتثقيف العميق. وهذه أيضًا صورة واضحة من صور التدرج، حيث يُجمع الناس أولًا، ثم يُثقف من يقترب منهم أكثر.

فالمحصلة أن منهج "جمِّع ثم ثقِّف" ليس غريبًا عن الواقع السلفي المعاصر ، بل هو مطبّق فعليًا في كثير من أنشطتهم، وإن اختلفت التسميات. والاعتراض عليه من باب التنظير دون مراعاة الواقع العملي يُعد تناقضًا، لأن الدعوة لا تُبنى على المثاليات، بل على ما يُصلح الناس ويُقرّبهم من الحق، ولو خطوة خطوة.

المبحث الخامس : لماذا ينتقد أفراد السلفية المعاصرة ما يطبقونه؟

من المفارقات اللافتة في الخطاب الدعوي أن بعض المنتسبين للتيار السلفي يوجهون انتقادات حادة إلى حركة التبليغ، تحديدًا في منهجها متهمينه بأنه قائم على مبدإ "جمِّع ثم ثقِّف"، معتبرين أن هذا التدرج يُخالف الأولويات الشرعية، ويُقصّر في تحقيق التوحيد ومحاربة البدع. لكن عند التأمل في الواقع العملي، نجد أن كثيرًا من هذه الانتقادات تنطوي على تناقض واضح، إذ إن الممارسات الدعوية السلفية نفسها تتقاطع مع هذا المنهج، وإن لم يُصرّحوا بذلك.

فمن جهة، هناك فرق بين التنظير والتطبيق. فنظريًا، يُصرّ بعض السلفيين على أن تصفية العقيدة يجب أن تكون أول خطوة في أي دعوة، وأن البدع يجب أن تُستأصل قبل أي عمل جماهيري. ولكن عمليًا، حين ينزلون – وفي الحقيقة لا ينزلون الى المجال العملي ولكن نحن نتكلم عن تجارب بعهم - إلى أرض الواقع، ويواجهون تحديات الانتشار، والتعامل مع العوام، والمبتدئين، يضطرون إلى اتباع منهج التدرج ذاته، فيجمعون الناس أولًا على الصلاة، أو الأخلاق، أو حضور المسجد، ثم يُثقّفونهم لاحقًا. وهذا عين ما تفعله حركة التبليغ، بل هو ما فعله النبي ﷺ حين بدأ دعوته بالتوحيد المجمل، ثم فصّل الأحكام بعد أن استقرت القلوب.

ومن جهة أخرى، قد يكون النقد نابعًا من غيرة على المنهج، ورغبة في أن يكون هو الوحيد الذي يُتبع، فيُستنكر أي منهج آخر يُطبّق التدرج بأسلوب مختلف. وهذا التعصب لا يُبرر شرعًا، لأن الدعوة ليست ملكًا لفئة، بل هي واجب على الأمة كلها، ولكل حركة طريقتها في الوصول إلى الناس. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، فالمنافسة في الخير لا تعني إقصاء الآخر، بل تعني التعاون على البر والتقوى.

وقد يكون سبب النقد أيضًا الجهل بمنهج التبليغ في واقعه، إذ يظن بعض المنتقدين أن الحركة تكتفي بجمع الناس دون تثقيفهم، بينما الواقع يُثبت أن هناك مراحل تعليمية داخلية، ومذاكرات، ومشورات، ودروس تُقدّم لمن ينخرط في صفوفهم، تُرسّخ المبادئ وتُعمّق الفهم. وهذا التدرج ليس بدعة، بل هو سنة تربوية، وقد قال الإمام ابن القيم: "النفوس لا تُحمَل على الحق دفعة واحدة، بل تُؤخذ بالتدرج، كما يُربّى الطفل على اللبن قبل الطعام."

ولا يُستبعد أن يكون بعض النقد مدفوعًا بتخوفات أمنية أو سياسية، خاصة في البيئات التي تُراقب فيها الحركات الإسلامية، فيُبرَّر هذا التخوف بنقد منهجي، رغم أن نفس الممارسات تُطبَّق داخل التيارات السلفية، ولكن تحت مظلة مختلفة. وهذا يُشير إلى أن النقد ليس علميًا صرفًا، بل قد يكون مشوبًا باعتبارات خارجية.

وفي ضوء ذلك، يتضح أن التدرج في الدعوة ليس نقصًا، بل هو سنة إلهية، وطبيعة بشرية، ومنهج نبوي. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، أي أن البيان يأتي بعد الهداية، لا قبلها. فالدعوة تبدأ بالتقريب، ثم بالتفهيم، ثم بالتمكين. و حركة التبليغ تُطبّق هذا المنهج بوضوح، ومن ينتقدها فيه، إما يُناقض نفسه، أو يُغفل طبيعة الواقع، أو يُحرّكه دافع غير علمي.

المبحث السادس : الرد على الشبهة الخطيرة "جمع ثم ثقف" :

فإن قال قائل (إن منهج التبليغ قائم على مبدإ مبتدع ضال وهو "جمع ثم ثقف" ، فيه إقرار للباطل عند هؤلاء المتجمعين على غير مسار واحد فمنهم الصوفي ومنهم من يقول بوحدة الوجود ومنهم من يقول بالإرجاء الخ ، فلو جمعنا من واحد بدعة تحت راية واحدة لتجمع لدينا بدع الدنيا كلها ، وهذا ما ننكره)

نقول وهذه من الشبهات التي تُثار حول حركة التبليغ والدعوة ظاهرها الحرص على نقاء المنهج، لكنها في حقيقتها تفتقر إلى الفهم العميق لطبيعة الدعوة، ومراحل التغيير، ومنهج النبي ﷺ في التعامل مع الناس ، لعدة أمور نجملها في باختصار في أن " التجميع يهدف إلى تغيير الأشخاص لا إلى إقرارهم على ما هم عليه " و " تجميع الناس لا يهدف إلى تنفيذ بدعهم وقبولها بل تغييرها مع الأيام درجة درجة " و " لم يثبت أن انتشر في داخل التبليغ بدع ولا شطحات قادمة من خارجهم بل منهجهم ثابت على مدار عقود متعاقبه في كل دول العالم " و " لم تتأثر دعوة التبليغ ببيئة نشأتها وفيها ما فيها من البدع ولم تتأثر ببدع كثيرة موجودة في أكثر من 180 دولة حول العالم بل أثرت هي في كل تلك البيئات وغيرت كل من انخرط فيها " و " منهج التغيير بدعوة الناس بالمواعظ أكثر نفعا من دعوتهم بالمحاضرات العلمية الدقيقة أو المناظرات المتخصصة " و " هدف دعوة التبليغ هو إصلاح الناس بقدر معين ثم يتدرجون بهم إلى مستويات أعلى ولكن لا نقيس على منهجهم البسيط هذا أنه يبني خلافة راشدة ودولة ولكنه اللبنة الأساسية والخطوة الأولى وهي الفرد المسلم المستسلم لله المنقاد إلى شرعه " و " كل من انتقدوا أهل التبليغ في هذه المسألة انتقدوه نظريا لا واقعيا لأنه لا توجد أمثلة تعضد مذهبهم " و " من يعارض التبليغ في طريقته الدعوية يتكلم من باب التنظير لطلب الكمال لا يهدف إلى حل المشكلة القائمة ولا يهمه اهتدى الناس أم لم يهتدوا بل ما يهمه هو أن من يهتدي فليهتدي كاملا بدرجة 100 % خال من البدع والعيوب " و " مبدأ التدرج ثابت من خلال شرعية المؤلفة قلوبهم فهي ثابتة في الإسلام وهؤلاء المؤلفة قلوبهم معلوم أنهم لم يتثقفوا بل تجمعوا أولا "

فالتجميع في منهج التبليغ لا يهدف إلى تثبيت الناس على ما هم عليه، بل إلى تغييرهم. فالدعوة تبدأ باللقاء، ثم بالموعظة، ثم بالمرافقة، ثم بالتدرج في الإصلاح. فليس المقصود أن يُجمع الناس ليبقوا على بدعهم، بل

ليُنتشلوا منها شيئاً فشيئاً. وهذا منهج نبوي، فقد كان النبي ﷺ يضم إلى صفوفه من لم تكتمل عقيدته، ومن لم يترك الجاهلية تماماً، وكان يُربّيهم ويُهذبهم، ولم يكن يشترط في الداخل إلى الإسلام أن يكون خالياً من كل شائبة. بل كان يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، أي أن الناس كانوا على درجات، وهو يتممها.

وتجميع الناس لا يعني تنفيذ بدعهم أو قبولها، بل يعني احتوائهم تمهيداً لتغييرهم. وهذا ما فعله النبي ﷺ مع المؤلفة قلوبهم، الذين دخلوا الإسلام لأسباب دنيوية، ثم تغيرت قلوبهم مع الأيام. وقد قال ابن القيم رحمه الله: "كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم من المال، وهم حديثو عهد بالإسلام، ليُثبتهم عليه، ولم يكن ذلك إقراراً لما في نفوسهم من ضعف، بل علاجاً له". فالدعوة لا تبدأ بالتصفية، بل تبدأ بالتقريب، ثم التهذيب، ثم التصفية.

ولم يثبت أن حركة التبليغ قد انتشرت فيها بدع أو شطحات قادمة من خارجها، بل منهجها ثابت منذ نشأتها، في الهند، إلى اليوم، في أكثر من 180 دولة. لم تتغير أصول دعوتها، ولم تنحرف عن مسارها، رغم اختلاف البيئات، وتنوع الثقافات، وكثرة البدع في المجتمعات التي دخلتها. وهذا يدل على أن منهجها ليس هشاً، بل متيناً، قادراً على التأثير دون أن يتأثر. وقد شهد بذلك علماء كثر، منهم الشيخ ابن باز رحمه الله، الذي قال عنهم: "هم قوم فيهم خير كثير، يدعون إلى الله، ويحثون على الصلاة، وعلى الأخلاق، ولكن ينبغي أن يُكملوا دعوتهم بالعلم."

ولم تتأثر دعوة التبليغ ببيئة نشأتها، رغم أن الهند فيها من البدع ما فيها، ولم تتأثر ببدع إفريقيا، أو شرق آسيا، أو أوروبا، بل أثرت هي في تلك البيئات، وغيرت من دخل فيها، وأخرجت من بينهم من صاروا دعاة،

وعلماء، ومصلحين. وهذا يدل على أن منهجها ليس مجرد تجميع، بل تجميع يهدف إلى التغيير، لا إلى التعايش مع الانحراف.

ومنهج التغيير بالمواعظ، والرفق، والمخالطة، أكثر نفعاً من المحاضرات العلمية الدقيقة، أو المناظرات المتخصصة، التي لا تصل إلا إلى فئة محدودة. فالموعظة تخاطب القلب، وتُلين النفس، وتفتح باباً للهداية، بينما المناظرة قد تُغلق الباب على من لا يحسن الجدل. وقد قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، ولم يقل: بالمناظرة أو المحاكمة الفكرية.

وهدف دعوة التبليغ ليس بناء دولة، ولا إقامة خلافة، بل بناء الفرد المسلم، الذي يستسلم لله، وينقاد لشرعه، ويبدأ رحلة الإصلاح. فهي اللبنة الأولى، والأساس الذي يُبنى عليه، ولا يصح أن يُطلب منها ما هو فوق طاقتها، أو يُقاس عليها مشاريع سياسية أو فكرية كبرى. فلكل مرحلة رجالها، ولكل لبنة دورها، ولا يُستهان بالأساس، لأنه إن لم يُبنَ، لم يُبنَ عليه شيء.

وكل من انتقدوا أهل التبليغ في هذه المسألة، انتقدوهم نظرياً، لا واقعياً، لأنهم لم يأتوا بأمثلة حقيقية تُثبت أن التبليغ جمعوا البدع، أو نشروا الانحراف. بل الواقع يشهد بأنهم يُصلحون، ويُهذبون، ويُغيرون، ولو ببطء، ولكن بثبات. أما التنظير، فهو سهل، لكن لا يُغير الواقع، ولا يُهدي الناس، ولا يُنقذ الغارقين.

ومن يعارض التبليغ في طريقته الدعوية، يتكلم من باب طلب الكمال، لا من باب حل المشكلة. فهو لا يهمه أن يهتدي الناس، بل يهمه أن يهتدوا بنسبة 100%، خالين من كل شائبة، وهذا غير واقعي، ولا يتفق مع طبيعة البشر، ولا مع منهج النبي ﷺ، الذي كان يتدرج في الإصلاح، ويصبر على النقص، ويُكمل النقص بالتربية، لا بالإقصاء.

ومبدأ التدرج ثابت في الإسلام، ومن أبرز أدلته المؤلفة قلوبهم، الذين لم يُثقفوا أولاً، بل جُمعوا، ثم تغيروا. وقد قال الإمام النووي: "المؤلفة قلوبهم هم من يُعطون ليُستمالوا إلى الإسلام، أو ليُثبتوا عليه، وهم درجات، وليس في ذلك إقرار للباطل، بل هو سياسة شرعية". فالتدرج سنة، والتجميع أول خطوة، والتثقيف يأتي بعد أن تُفتح القلوب، لا قبلها.

وهكذا، فإن منهج التبليغ ليس إقراراً للباطل، بل احتواءً له تمهيداً لتغييره، وهو منهج نبوي، واقعي، مؤثر، أثبت نجاحه في كل بيئة دخلها، ولم يُثبت عليه انحراف، بل أثبت عليه أثر، وهدى، وتغيير. ومن أراد أن يُنكر، فليأتِ بالواقع، لا بالتنظير.

الفصل السادس عشر: أهل التبليغ ليست جماعة حزبية بل أفراد من عامة المسلمين :

من الادعاءات التي توجه أحياناً ضد حركة التبليغ الدعوية أنها "جماعة متحزبة لرؤسائها فقط" أو أنها تنظيم مغلق يعمل بمعزل عن عموم المسلمين. هذا الادعاء لا يعكس حقيقة طبيعة أهل التبليغ، فهم ليسوا جماعة حزبية بالمعنى السياسي أو التنظيمي الضيق، بل هم جزء لا يتجزأ من عامة المسلمين، ويتعاونون معهم، ودعوتهم موجهة لعامة المسلمين قاطبة.

توطئة : ماذا تعني "الجماعة الحزبية" ؟

عادة ما تُعرف الجماعة الحزبية بأنها كيان له أهداف سياسية أو دينية ، أو يسعى للوصول إلى السلطة، أو يتميز بانغلاق على أعضائه وأفراده ورموزه فقط ، وولاء مطلق لقياداته، ومناهج محددة يفرضها على المنتسبين إليه ، ولا يتعاون مع الجماعات الأخرى ، ويُبدع أو يُكفِّر أو يأخذ موقفا صارما لا يقبل مرونة ممن يخالفها أو يعاصرها ، ويسعى لبناء ما يسمى "دولة داخل الدولة" ، وهذا التوصيف غير متحقق في حركة التبليغ .

والتحزم بهذا الوصف مذموم في الشريعة الإسلامية ، والدليل على ذم التحزب المذموم قول الله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ" [1] فهذه الآية تبين بوضوح ذم الفرقة والتحزب والتشرذم الذي يؤدي إلى التنازع والعداوة والاقتتال بين المسلمين .

---

[1] (الأنعام: 159).

المبحث الأول : مظاهر بعد فكر التبليغ عن الحزبية المقيتة :

وللإجابة على سؤال هام هو : لماذا لا يجب أن نصف حركة التبليغ الدعوية بأنها جماعة حزبية؟ نقول :

هدفهم دعوي بحت لا سياسي:

من المهم معرفة أنه لم تُعرف حركة التبليغ يوماً ولم يؤثر عنها أي نشاط سياسي أو سعي للحكم أو السلطة ، فمنذ نشأتها في مطلع القرن الماضي ، أكد رعيها الأول وعلى رأسهم الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي أن دعوتهم دعوة إيمانية، إصلاحية، تربوية، لا علاقة لها بالسياسة. فحافظوا على مسارهم من غير انحراف مع كثرة المغريات والأسباب التي واجهتهم وواجهة مجتمعاتهم في كل البلاد التي تواجدوا فيها ، فثبتوا على مبادئهم بأنهم لا يتدخلون في شؤون الحكم، لا بالمشاركة ولا بنصرة فريق على فريق ، ولا ينتقدون الحكام، ولا يدعون إلى تغيير الأنظمة. ولكن تركيزهم ينصب بالكامل على إصلاح الفرد المسلم، وإعادته إلى طريق الله.

وهذا سير على قاعدة "الإصلاح يبدأ من الداخل": فحركة التبليغ تؤمن بأن إصلاح الفرد يؤدي إلى إصلاح المجتمع، وهو منهج نبوي أيضاً حيث بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببناء الفرد المسلم.

فبدلًا من الخوض في قضايا الحكم والسياسة التي قد تثير الفتن، يركز دعاة التبليغ على دعوة الشاب الذي لا يصلي، وإخراجه معهم في سبيل الله ليتعلم دينه ويصلح نفسه ومن ثم ينصلح عقله وبوصلة حياته ، فيصلح هو في موطن وجوده أيا كان هو وزيرا أو غفيرا ، فلا اهتمام لهم بالقادة والساسة وأصحاب الرياسات والنفوذ بل اهتمامهم بالفرد المسلم عامة يستوى في ذلك الساسة مع العامة والقادة مع الأفراد وأصحاب النفوذ مع الدهماء وأصحاب الأموال مع الفقراء ، فبانصلاح الفرد المسلم في موطنه ينصلح المجتمع .

لا ولاء مطلق للرؤساء في أمر الدين ، إنما الطاعة في المعروف:

على الرغم من وجود قيادات ومشايخ للجماعة، إلا أن العلاقة بين الأفراد والمشايخ لا تقوم على الولاء المطلق الأعمى. فالمنهج التبليغي يعتمد على "المشورة" و"الشورى" في اتخاذ القرارات، وعلى "التشكيل" الذي يتم بالتراضي والمحبة. فأي فرد يمكن أن يشارك في الدعوة ، كما يمكن أن يترك الدعوة متى شاء ، وليس هناك شروط معقدة للانضمام، ولا ضوابط محددة ، ولا مبايعات سرية أو طقوس خاصة بالانتماء ، بل هي جامعة عالمية ظاهرة في العلن تفتح أبوابها لعامة الخلق وتدق عليهم أبوابهم وتفتح لهم الطرق للانخراط في العمل الدعوي .

وفي قول الله تعالى: "وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ" [1] دليل صريح على حدود العمل الإسلامي بين القادة والعامة ، ومعلوم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طاعة المخلوق في معصية الخالق فهو أظهر من أن يشرح وأوضح من أن يفسر.

دعوتهم موجهة لعامة المسلمين:

إن دعوة التبليغ ليست موجهة لفئة معينة من المسلمين، بل هي موجهة "لجميع المسلمين" دون استثناء. فهم يدعون الملتزم وغير الملتزم، العالم والجاهل، الغني والفقير، العربي والأعجمي، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم. هذا يُبرز بوضوح أنهم لا يعملون كـ "حزب" يسعى لضم أفراد محددين، بل يعملون على تحريك

---

[1] (الشورى: 38).

الأمة كلها ، امتثالا لأمر الله تعالى: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" [1] وهذه الدعوة لابد أن تكون عامة لكل الناس لا تقصد أفرادا معينين دون أفراد ولا مجتمعات دون مجتمعات ، إلا إذا كان على سبيل الترتيب والمنهجيه وتوزيع الأدوار فهذا أمر آخر لا بأس به كما هو واضح.

التعاون مع عامة المسلمين:

من الواضح والظاهر لدى العامة أن أهل التبليغ لا ينعزلون عن بقية المسلمين، بل يسعون للتعاون معهم. فيدخلون المساجد العامة، ويصلون خلف جميع الأئمة أياً كان مذهبهم، ويدعون الناس في الأسواق والأماكن العامة. فهم لا يطلبون من الناس الانضمام إلى "تنظيم" معين، بل يدعونهم إلى الالتزام بالإسلام العظيم كافة . أي أن "داعية التبليغ" ببساطة "مسلم يمارس الدعوة". كما قال تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ"[2] ، هذا التعاون يدل على أنهم لا يسعون لبناء حزب أو جماعة منغلقة عن المسلمين ، بل يسعون لبناء حركة عامة تعم المجتمع كله ، كل يعمل في مكانه يؤدي ما يجب عليه .

عدم فرض مذهب أو عقيدة:

وكما ذُكر سابقاً، فإن حركة التبليغ الدعوية العالمية لا تفرض مذهباً فقهياً واحدا ولا منهجا عقدياً معيناً ولا طريقة سلوكية محددة على مشايخها أو دعاتها أو أتباعها أو المدعوين أو عامة المسلمين ، بل تدعوا الناس إلى الدين عامة بما اتفق عليه المسلمون ، وهذا يختلف كثيرا عن الجماعات الحزبية التي عادة ما تتميز بمنهج

---

[1] (النحل: 125).

[2] (المائدة: 2)

فكري واحد وعقدي معين صارم يفرض على أعضائها، ويُطلب منهم الولاء الكامل له ، ومعنى هذا أن حركة التبليغ ليست متحزبة ولا متعصبة لمنهج معين ولا تهدف لبناء جماعة حزبية .

المبحث الثاني : الحرج المترتب على استراتيجية التبليغ :

ولأن حركة التبليغ تُتهم بأنها مفرخة للجماعات الأخرى، فإن هذا الاتهام ينقلب إلى شهادة نجاح لا إلى مذمة. فكثيرًا ما يُوجَّه إلى حركة التبليغ نقدٌ من بعض المنتسبين إلى الحركات الإسلامية الأخرى، مفاده أن أفرادًا من جماعة الإخوان أو السلفيين أو الجهاديين أو حتى الصوفية كانوا يومًا ما في صفوف التبليغ، ثم انتقلوا إلى جماعاتهم الجديدة بعد أن "تابوا" أو "استفاقوا"، وكأن التبليغ لم تستطع أن تحتضن هؤلاء الشباب أو أن تقدم لهم ما يشفي غليلهم من الطموح الفكري أو الحركي، مما يجعلها في نظرهم مجرد محطة عبور أو مفرخة للجماعات الأخرى. لكن هذا النقد، عند تحليله بعين العقل والإنصاف، يتحول إلى شهادة نجاح؛ إذ لو كانت التبليغ بلا أثر، لما خرج منها أحد، ولما كانت محطة عبور مؤثرة في حياة آلاف الشباب. فأن تكون الجماعة مؤثرة في التكوين الروحي والسلوكي، ثم يخرج منها أفراد يخدمون الإسلام في مجالات أخرى، هو فضل لا يُنكر، لا عيب يُعاب.

ولأن الوسطية في الدعوة لا تعني السطحية، فإن التبليغ لا تهدف إلى إنتاج مفكرين منظرين فقط، بل إلى إحياء القلوب وتزكية النفوس. فالتبليغ اختارت أن تخاطب عامة الناس، لا النخب الفكرية أو الحركية. فهي لا تسعى إلى التنظير السياسي أو الفقهي، بل إلى إحياء القلب، وتزكية النفس، وربط الإنسان بربه من خلال العمل الصالح، والذكر، والصلاة، والدعوة إلى الله. وهذا لا يُعد نقصًا، بل هو اختيار منهجي يخدم الأمة من زاوية مختلفة. الوسطية التي تتبناها التبليغ ليست ضعفًا، بل هي حكمة في مخاطبة الجماهير، وتجنبًا

للغلو أو التصادم. ومن الخطأ أن يُطلب منها أن تكون مدرسة فكرية أو حركة سياسية، وهي قد اختارت أن تكون مدرسة إيمانية تربوية، تُصلح ما أفسدته الغفلة، وتُعيد الإنسان إلى فطرته، وتُهيئه ليكون صالحًا في أي مجال يخدم فيه الإسلام لاحقًا.

ولأن التبليغ تُخرّج الكوادر الدعوية التي تخدم الإسلام في جماعات أخرى، فإن لها منة لا تُنكر على تلك الجماعات. فمن ينظر في تاريخ الجماعات الإسلامية المختلفة، يجد أن عددًا كبيرًا من أفرادها تربّوا في بيئة التبليغ، وتعلموا فيها الإخلاص، والانضباط، والجدية، ثم انتقلوا إلى مجالات أخرى. وهذا يعني أن التبليغ ساهمت في بناء الكوادر التي تخدم الإسلام في مجالات متعددة، سواء في الفكر أو السياسة أو الجهاد أو التربية أو الإعلام. وإنكار هذا الفضل يشبه إنكار الطالب الجامعي لدور المدرسة الابتدائية في تعليمه، وهو كفر بالنعمة وجحود للجميل. فلو أن كل من انتقل من التبليغ إلى جماعة أخرى خدم الإسلام بوسطية واعتدال، فإن للتبليغ منة عليه وعلى جماعته، لأنها كانت السبب في إيقاظه وتوجيهه، وهي التي أخرجته من الغفلة إلى العمل، ومن السكون إلى الحركة، ومن الانشغال بالدنيا إلى التعلق بالآخرة.

ولأن التبليغ تؤسس ولا تُنظّر، فإنها تمثل المرحلة التمهيدية التي لا غنى عنها في البناء الإسلامي. فهي ليست جماعة تنظير سياسي، ولا جماعة صدام مع الواقع، بل جماعة إحياء وتجديد للصلة بالله، وهذا أساس لا يُستغنى عنه في أي مشروع إسلامي. فهي تمثل المرحلة التأسيسية التي تُعدّ النفوس وتُهذبها، لتكون جاهزة للعمل في مراحل لاحقة. ومن الخطأ أن يُطلب منها أن تكون جامعة شاملة، وهي قد اختارت أن تكون مدرسة ابتدائية تُخرّج طلابًا مؤهلين للانتقال إلى مراحل أعلى. وكما لا يُحتقر التعليم الأساسي لأنه لا يُخرّج مهندسين وأطباء، فكذلك لا يُحتقر التبليغ لأنها لا تُخرّج مفكرين ومنظرين، بل تُخرّج عبادًا مخلصين، ودعاة صادقين، ومصلحين في مجالات متعددة، وكلٌّ بحسب ما فتح الله له من باب.

ولأن بناء الدولة الإسلامية يحتاج إلى مراحل متكاملة، فإن التبليغ تمثل المرحلة الأولى التي تُهيئ النفوس وتُصلح القلوب. فلا يمكن بناء مشروع إسلامي متكامل دون وجود جماعات تهتم بالتربية الروحية والسلوكية، وهذا هو دور التبليغ. فهي تُهيئ النفوس، وتُصلح القلوب، وتُعيد الإنسان إلى فطرته، ليكون جاهزًا للعمل في مجالات الفكر والسياسة والجهاد والإعلام. ومن الخطأ أن يُنظر إليها على أنها جماعة ناقصة، بل هي جماعة متخصصة في مجالها، تؤدي دورًا لا يستطيع غيرها أن يؤديه بنفس الكفاءة والانتشار. وفي مشروع بناء الدولة الإسلامية، التبليغ تمثل المرحلة التأسيسية التي تُعدّ النفوس وتُهذبها، لتكون جاهزة للعمل في مراحل لاحقة، تمامًا كما تُعدّ المدرسة الابتدائية الطالب للانتقال إلى الإعدادية والثانوية ثم الجامعة، وكل مرحلة لها دورها، ولا يُستغنى عن أي منها.

ولأن الإنصاف يقتضي الاعتراف بالفضل، فإن من انتفع بالتبليغ ثم انتقل إلى جماعة أخرى لا يجوز له أن ينكر الجميل. فمن انتفع بجماعة التبليغ، ثم انتقل إلى جماعة أخرى، لا يجوز له أن يحتقر المرحلة التي كانت سببًا في يقظته، وهدايته، وتوجهه. فالإنصاف يقتضي الاعتراف بالفضل، والشكر للنعمة، والتقدير للجهد. وإنكار هذا الدور هو إنكار للجميل، وكفر بالنعمة، وتقصير في فهم طبيعة العمل الإسلامي المتكامل، الذي يحتاج إلى مراحل متعددة، وجماعات متنوعة، وتخصصات مختلفة، وكلها تخدم الإسلام من زوايا متكاملة، لا متعارضة. ومن لم يدرك ذلك، فقد ظلم نفسه، وظلم الجماعة التي كانت سببًا في خروجه من الظلمات إلى النور، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن السكون إلى الحركة، ومن التعلق بالدنيا إلى التعلق بالله.

المبحث الثالث : الفرق بين "الجماعة" و"الحزب":

الفرق بين "الجماعة" و"الحزب "في الفكر الإسلامي ليس مجرد تمييز لغوي، بل هو تمييز جوهري في المنهج والغاية والوسيلة. فـ"الجماعة" تطلق على كل تجمع للمسلمين على الحق، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : "فإن يد الله على الجماعة"، وهي بذلك تعبير عن وحدة الأمة في أصلها، وتماسكها حول العقيدة والعمل الصالح، دون تعصب أو تحزب أو انغلاق. أما "الحزب"، حين يُذم، فإنما يُذم حين يتحول إلى ولاء ضيق، وتعصب لفكرة أو شخص أو تنظيم، على حساب وحدة المسلمين، وعلى حساب الحق الذي يجب أن يُتبع مهما كان قائله.

وحركة التبليغ، في هذا السياق، لا ترى نفسها حزبًا ولا تنظيما مغلقًا، بل تعتبر نفسها جزءًا من الجماعة الكبرى للمسلمين، تلك الجماعة التي تسعى إلى إحياء الدين في القلوب، وتذكير الناس بالله، والدعوة إلى الخير، دون أن تربط ذلك بانتماء تنظيمي أو ولاء حزبي. فهي لا تُظهر أيًا من علامات الحزبية السياسية أو التنظيمية الضيقة، ولا تتبنى خطابًا صداميًا أو إقصائيًا، بل تنفتح على كل مسلم، وتدعوه إلى أن يكون داعية إلى الله، في نفسه وأهله ومجتمعه، دون أن يُطلب منه تغيير انتمائه أو تبني فكر معين.

إنها حركة شعبية جماهيرية، لا تُفرّق بين الناس على أساس الانتماء، ولا تُشترط فيها بيعة ولا ولاء تنظيمي، بل يكفي أن يكون المسلم راغبًا في الخير، محبًا للدعوة، مستعدًا لأن يخرج في سبيل الله ليُذكّر الناس بالصلاة، ويحثهم على الذكر، ويُحيي فيهم روح الإيمان. وهذا ما يجعلها أقرب إلى مفهوم "الجماعة" في الإسلام، لا إلى مفهوم "الحزب" الذي يُفرّق ويُصنّف ويُقصي.

فمنهج التبليغ يقوم على التذكير، لا على التنظير، وعلى الإحياء، لا على الصراع، وعلى العمل الفردي والجماعي في آنٍ واحد، دون أن يُفرض على الفرد مسار فكري أو سياسي معين. وهذا ما يجعلها جماعة جامعة، لا مفرقة، ومُذكّرة، لا مُصنّفة، ومُحيية، لا مُحزّبة. وهي بذلك تُجسد المعنى النبوي العميق" :فإن يد الله على الجماعة"، لأنها تسعى إلى جمع المسلمين على أصل الدين، لا على فروع الخلاف، وعلى روح الإسلام، لا على شعاراته، وعلى العمل الصالح، لا على الجدل العقيم.

ومن هنا، فإن من ينظر إلى حركة التبليغ بعين الإنصاف، يدرك أنها ليست مفرخة للأحزاب، ولا محطة عبور نحو الحزبية، بل هي محطة إحياء، ومنبع تذكير، ومدرسة روحية تُعيد المسلم إلى فطرته، وتُهيئه ليكون نافعًا في أي مجال يخدم فيه الإسلام، سواء بقي في صفوفها، أو انتقل إلى مجال آخر. فهي لا تُنافس على السلطة، ولا تُنازع على الزعامة، بل تُنافس على القلوب، وتُنازع الغفلة، وتُجاهد في سبيل الله بما تملك من دعوة وكلمة وخلق.

وهذا هو الفرق الجوهري بين "الجماعة" التي تُجمع ولا تُفرّق، وتُحيي ولا تُقصي، و"الحزب" الذي يُذم حين يُفرّق ويُعلي الولاء على الحق، ويجعل التنظيم فوق الأمة. وجماعة التبليغ، في هذا الميزان، أقرب إلى روح الجماعة الإسلامية الكبرى، التي يد الله عليها، والتي بها يُرجى صلاح الأمة، لا إلى الحزبية الضيقة التي بها تُفتن الأمة وتتنازع.

المبحث الرابع : نموذج حركة التبليغ والدعوة الفريد في التمويل الذاتي لا الخارجي :

نموذج حركة التبليغ والدعوة في التمويل الذاتي يُعدّ من أبرز ملامح فرادتها بين الحركات الإسلامية المعاصرة، بل هو من أعظم ما يُعبّر عن روحها المستقلة ومنهجها التربوي العميق. ففي الوقت الذي تتجه فيه معظم

الجماعات المنظمة إلى بناء هياكل مالية معقدة، تعتمد على التبرعات الكبيرة، أو الدعم المؤسسي، أو حتى التمويلات الخارجية من جهات رسمية أو غير رسمية، ترفض حركة التبليغ هذا النمط كليًا، وتؤسس وجودها الدعوي على مبدأ "نفقات أهل الطريق"، وهو تعبير صادق عن فلسفة الاعتماد على النفس، والتكافل الأخوي، والإنفاق في سبيل الله دون انتظار مقابل أو دعم من جهة.

فأفراد حركة التبليغ لا ينتظرون تمويلًا من الخارج، ولا يطلبون مساعدات من داخل بلادهم أو خارجها، بل كل واحد منهم يُموّل نفسه بنفسه، ويُموّل دعوته، ويُكرم إخوانه، ويُشارك بما يستطيع من مال وجهد ووقت، وكأنهم يُحيون في واقعنا المعاصر سنة الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا ينفقون على أنفسهم في الغزو والدعوة، امتثالًا لقوله تعالى" :انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله."

هذا النموذج لا يُعبّر فقط عن استقلالية مالية، بل يُجسد روحًا تربوية عالية، تُعلّم المسلم أن الدعوة إلى الله ليست وظيفة تُموّل، بل عبادة تُحتسب، وأن الإنفاق في سبيل الدعوة هو جزء من تزكية النفس، وتطهير القلب، وتربية الروح على البذل والعطاء. فحين يخرج أحدهم في سبيل الله، لا يُفكر في من سيدفع له ثمن طعامه أو تنقلاته، بل يُعدّ نفسه لذلك، ويُكرم من معه، ويُشاركهم مما رزقه الله، دون أن يُشعر أحدًا بثقل أو منّة.

ولعل هذا النموذج هو أحد أسرار انتشار حركة التبليغ في العالم، دون أن ترتبط بجهة أو دولة أو تمويل خارجي. فهي لا تُقيّد نفسها بشروط الممولين، ولا تُغيّر خطابها لتُرضي جهة معينة، بل تبقى على صفائها وبساطتها، لأنها لا تحتاج إلا إلى صدق أفرادها، وبذلهم، وتوكلهم على الله. وهذا ما يجعلها حركة دعوية

شعبية، لا تنظيمًا سياسيًا، ويجعلها قريبة من الناس، لا متعالية عليهم، ويجعلها قادرة على الوصول إلى القرى والمدن والأسواق والمنازل، دون أن تُثقل كاهلها بهياكل مالية أو إدارية.

إن التمويل الذاتي في حركة التبليغ ليس مجرد وسيلة، بل هو جزء من الرسالة، وجزء من التربية، وجزء من الإيمان بأن الدعوة إلى الله لا تحتاج إلا إلى صدق النية، وحسن التوكل، وبذل الجهد، كما كان يفعل الصحابة والتابعون، الذين لم ينتظروا دعمًا من خزائن، بل خرجوا بما في أيديهم، ونصرهم الله بما في قلوبهم.

فمن أراد أن يفهم سر هذه حركة ، فليتأمل في هذا النموذج الفريد: هي حركة لا تُموّل من الخارج، ولا تُموّل من الداخل، بل يُموّلها أفرادها، كلٌّ بحسب طاقته، وكلٌّ بحسب ما فتح الله له، وكلٌّ يُنفق على نفسه وعلى دعوته وعلى إخوانه، في مشهد من التكافل والتراحم والبذل، يُعيد إلى الأذهان صورة المجتمع الأول، حين كانت الدعوة مسؤولية فردية وجماعية، لا وظيفة ولا منصب، بل عبادة وسلوك، وسبيل إلى رضا الله.

التمويل الذاتي فلسفة ومنهج:

يُعدّ نموذج حركة التبليغ والدعوة في التمويل الذاتي من أبرز مظاهر استقلالها وتميزها عن سائر الحركات الإسلامية المعاصرة، بل هو تجسيد عملي لفلسفة تربوية عميقة، تُعيد إلى الأذهان صورة الصحابة رضي الله عنهم وهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، دون أن ينتظروا دعمًا من خزائن أو مؤسسات. فالجماعة لا تعتمد في أنشطتها الدعوية على أي تمويل خارجي أو دعم مؤسسي، بل تُؤسس وجودها على مبدأ أصيل: أن كل من يخرج في سبيل الله هو المسؤول عن نفقاته الشخصية بالكامل، وهذا ليس مجرد إجراء تنظيمي، بل هو جزء من منهج تربوي يُعلّم المسلم أن الدعوة عبادة يُنفق فيها، لا وظيفة يُنتظر منها العطاء.

نفقات الخروج الشخصية:

فعندما يخرج أفراد حركة التبليغ في رحلاتهم الدعوية، سواء كانت قصيرة لثلاثة أيام، أو طويلة لأربعين يومًا، أو حتى لعدة أشهر، فإن كل فرد منهم يُعدّ نفسه ماليًا لهذا الخروج. فهو مسؤول عن طعامه وشرابه ومواصلاته ومبيته، ولا يُنتظر من أحد أن يُموّله أو يُعيله. بل يُشجَّع على أن يستدين إن لم يكن لديه مال، أو أن يُشارك بما يستطيع، أو أن يُكرمه أحد إخوانه من أهل السعة، ولكن الأصل هو تحمل المسؤولية الذاتية. وهذا يُربي في النفس روح الاعتماد على الله، والتجرد، والبذل، ويُزيل عنها التواكل والانتظار. فالدعوة هنا ليست رحلة مدفوعة التكاليف، بل هي خروج في سبيل الله، يُحتسب فيه كل درهم وكل خطوة وكل تعب، كما كان يفعل الصحابة في غزواتهم، حين كانوا ينفقون من أموالهم، ويُكرمون إخوانهم، ويُجاهدون بأنفسهم.

عدم جمع الأموال من الناس:

ومن القواعد الصارمة التي تلتزم بها حركة التبليغ، والتي تُميّزها عن كثير من الحركات الأخرى، أنها لا تجمع الأموال من الناس، ولا تطلب التبرعات من المدعوين، ولا تُظهر أي رغبة في الحصول على دعم مالي من خارج صفوفها. فالدعاة يخرجون للإنفاق لا للأخذ، ويُقدّمون الدعوة على أنها هدية لا تُشترى، ونصيحة لا تُباع، وكلمة حق لا تُقايض. وهذا يُعزز مصداقية الدعوة، ويُبعد عنها أي شبهة مادية أو استغلال للناس، ويجعلها أقرب إلى القلوب، وأبعد عن الريبة. فالمدعو يرى أمامه رجالًا خرجوا من ديارهم، وأنفقوا من أموالهم، وجاؤوا ليُذكّروه بالله، دون أن يطلبوا منه شيئًا، وهذا من أعظم أسباب التأثير والقبول.

تمويل المراكز والمقرات:

أما المراكز الكبرى للحركة، مثل مركز نظام الدين في دلهي، أو المراكز المنتشرة في أنحاء العالم، فإنها تُبنى وتُدار وتُصان من تبرعات الأفراد المنخرطين في العمل، أو من المحبين للدعوة، ولكن دون وجود لجان مالية منظمة، أو حملات جمع تبرعات، أو ارتباطات مؤسسية. فالتبرعات غالبًا ما تكون ذاتية، نابعة من حب الدعوة، ورغبة في خدمة هذا العمل، وليست جزءًا من بنية مالية ثابتة أو منظومة تمويلية معقدة. وهذا يُحافظ على روح البساطة، ويُجنّب الجماعة الدخول في تعقيدات إدارية أو محاسبية، ويُبقيها حركة شعبية جماهيرية، لا مؤسسة مالية أو تنظيم بيروقراطي.

إن فلسفة التمويل الذاتي في حركة التبليغ ليست مجرد خيار تنظيمي، بل هي منهج تربوي يُعلّم المسلم أن الدعوة إلى الله مسؤولية فردية، وأن الإنفاق في سبيلها هو من أعظم القربات، وأن الاستقلال المالي هو طريق إلى الاستقلال الدعوي، وأن من خرج في سبيل الله، فقد خرج ليُعطي لا ليأخذ، وليُكرم لا ليُكرم، وليبذل لا ليُطالب. وهذا النموذج، في زمن كثرت فيه الاعتمادات والتمويلات والارتباطات، يُعدّ من أعظم صور الإخلاص والتجرد، ومن أصدق ما يُعبّر عن روح الدعوة النبوية، التي كانت تُبنى على الصدق والبذل، لا على الدعم والتمويل.

الفرق الجوهري بين التمويل الذاتي والتمويل الخارجي أو المنظم:

يُعدّ اعتماد حركة التبليغ والدعوة على التمويل الذاتي أحد أبرز الفوارق المنهجية التي تُميزها عن كثير من الجماعات الإسلامية المنظمة، بل هو من أعظم ما يُعبّر عن روحها المستقلة، ونقائها الدعوي، وتجردها عن المصالح والارتباطات. فبينما تتجه معظم التنظيمات إلى بناء شبكات تمويلية تعتمد على التبرعات الكبيرة، أو الدعم المؤسسي، أو التمويلات الخارجية من دول أو منظمات أو رجال أعمال، ترفض حركة

التبليغ هذا النمط كليًا، وتؤسس وجودها الدعوي على مبدأ أصيل: أن الدعوة إلى الله مسؤولية شخصية، وأن من خرج في سبيل الله، فعليه أن يُنفق من ماله، كما يُنفق من وقته وجهده، دون أن ينتظر دعمًا أو تمويلًا من أحد.

الاستقلالية وعدم التبعية :

الاعتماد على التمويل الذاتي يمنح حركة التبليغ استقلالية تامة عن أي جهة خارجية، سواء كانت حكومات، أو منظمات، أو أفراد لهم أجندات خاصة. فهم لا يتلقون تمويلًا مشروطًا، ولا يُساومون على مبادئهم، ولا يُعدّون أنفسهم تابعين لأي جهة، بل هم دعاة لله، خرجوا ابتغاء وجهه، لا طلبًا لرضا جهة أو دعم مؤسسة. وهذا ما يُحافظ على نقاء توجههم، ويُبعدهم عن شبهات التبعية، ويجعلهم أحرارًا في خطابهم، وفي تحركهم، وفي اختيار أساليب دعوتهم. أما الجماعات المنظمة، فإنها غالبًا ما تعتمد على مصادر تمويل خارجية، سواء من دول أو منظمات أو رجال أعمال، مما يجعلها عرضة للتأثر بأجندات الممولين، أو يُحدّ من حريتها في الحركة، أو يثير حولها شبهات تتعلق بدوافعها وأهدافها، خاصة إذا ارتبط التمويل بشروط أو توجيهات.

المصداقية والقبول الجماهيري:

من أعظم ما يُميز حركة التبليغ في أعين الناس، هو أنهم لا يطلبون شيئًا، ولا يسألون مالًا، ولا يُظهرون رغبة في جمع التبرعات. فهم يأتون إلى الناس ليُذكّروهم بالله، ويحثوهم على الصلاة والذكر والعمل الصالح، دون أن يُطالبوهم بشيء. وهذا يُعزز من مصداقيتهم، ويجعل الناس يتقبلون دعوتهم بقلوب مفتوحة، لأنهم يرون أن هؤلاء الدعاة جاءوا خالصين لله، لا لجمع الأموال أو تحقيق مكاسب مادية. أما الجماعات المنظمة، فإن بعضها يُتهم بأن هدفه مادي، أو أنه يسعى لجمع التبرعات، أو أنه يُوظف الدعوة لأغراض مالية، مما

يُؤثر سلبًا على صورتها، ويُضعف من قبول دعوتها لدى فئات من الناس، خاصة في المجتمعات التي تُعاني من الفقر أو من فقدان الثقة في المؤسسات.

التحرك السريع والمرونة:

من مزايا التمويل الذاتي في حركة التبليغ، أنه يمنحها قدرة عالية على التحرك السريع، والمرونة في الانتشار، دون الحاجة إلى انتظار تمويل مركزي، أو موافقات مالية، أو ميزانيات معتمدة. فكل فرد مسؤول عن نفقاته، وكل مجموعة تُدير أمرها بما تيسر، مما يُمكّنهم من الوصول إلى القرى والمدن والأسواق والمنازل، دون أن يُعيقهم نقص التمويل أو تعقيدات الإدارة. وهذا يُعطيهم قدرة على التوسع، وعلى التواجد في أماكن لا تصل إليها الجماعات المنظمة. أما تلك الجماعات، فإنها غالبًا ما تكون مقيدة بالإجراءات المالية، وبمصادر التمويل، وبالميزانيات المحددة، مما يُبطئ من حركتها، ويُقلل من مرونتها، ويجعلها أقل قدرة على التفاعل السريع مع الواقع الدعوي المتغير.

الحماية من المساءلة الخارجية:

كون حركة التبليغ لا تعتمد على تمويل خارجي، يجعلها أقل عرضة للمساءلة القانونية أو الأمنية من قبل الحكومات التي تضع قيودًا على تمويل الجماعات، أو تتخوف من الأموال مجهولة المصدر. فهم لا يتلقون دعمًا من الخارج، ولا يُحوّلون أموالًا عبر الحدود، ولا يُثيرون الريبة في مصادر تمويلهم، لأنهم ببساطة يُنفقون من جيوبهم، ويُكرمون إخوانهم، ويُديرون أمورهم ببساطة وشفافية. أما الجماعات المنظمة، فإنها تُفرض عليها رقابة شديدة على مصادر تمويلها، وعلى كيفية إنفاقها، وقد تتعرض للملاحقة أو التحقيق في حال وجود شبهات حول هذه الأموال، أو ارتباطات خارجية تُثير القلق لدى الجهات الرسمية.

إن الفرق الجوهري بين التمويل الذاتي والتمويل الخارجي لا يقتصر على الجانب المالي، بل يمتد إلى الجانب التربوي، والدعوي، والأخلاقي، والسياسي. فجماعة التبليغ، باعتمادها على التمويل الذاتي، تُجسد روح الدعوة النبوية، وتُعيد إلى الواقع المعاصر صورة الصحابة الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، دون أن ينتظروا دعمًا أو تمويلًا، بل خرجوا بما في أيديهم، ونصرهم الله بما في قلوبهم.

وعليه فإن اعتماد حركة التبليغ والدعوة على التمويل الذاتي ليس مجرد آلية مالية، بل هو جزء لا يتجزأ من فلسفتها الدعوية التي تركز على التضحية والبذل والاستقلالية. هذا النهج مكنها من الانتشار الواسع في مختلف دول العالم دون الارتباط بأجندات خارجية، وحافظ على مصداقيتها في أعين الناس، وجعلها حصينة إلى حد كبير ضد التهم التي تُوجه للجماعات ذات التمويل المنظم أو الخارجي. هذا الفرق الجوهري يُفسر جانبًا كبيرًا من قدرتها على الصمود والاستمرارية في بيئات شديدة التعقيد والتنافس.

المبحث الخامس : حركة التبليغ العالمية بين التجاهل الإعلامي الرسمي والاحتضان الشعبي الواسع :

من أبرز الظواهر التي تُميز حركة التبليغ والدعوة في العصر الحديث ذلك التناقض اللافت بين موقف الإعلام الرسمي والمؤسسات الدينية الحكومية من جهة، وبين القبول الشعبي الواسع الذي تحظى به الجماعة من جهة أخرى. ففي كثير من الدول، خاصة في العالم العربي، تُقابل حركة التبليغ إما بالتجاهل التام في الخطاب الإعلامي والديني، أو بالتحذير منها وشيطنتها، واتهامها بأنها حركة هامشية أو صوفية مبتدعة أو حتى تهديد للأمن الفكري. وفي المقابل، نجد أن هذه الحركة العالمية تلقى احتضانًا شعبيًا واسعًا في مختلف بقاع الأرض، من أقصى آسيا إلى قلب أفريقيا، ومن أوروبا إلى أمريكا، حيث تنتشر دعوتهم في المساجد والأسواق والمنازل، ويقبل عليهم الناس من مختلف الطبقات والأعمار.

هذا التناقض يدعو إلى التأمل العميق في الأسباب الحقيقية وراءه، ويكشف عن فجوة بين الخطاب الرسمي الذي يُراد له أن يُوجّه الناس، وبين الواقع الميداني الذي يُعبّر عن حاجاتهم وتطلعاتهم. فالتجاهل أو الشيطنة الرسمية لا تنبع غالبًا من تقييم علمي موضوعي، بل من اعتبارات سياسية وإدارية ومصلحية، تتعلق بطبيعة الجماعة واستقلالها وانتشارها.

فغالبًا ما تُعرض حركة التبليغ في الإعلام الرسمي أو في خطب بعض المؤسسات الدينية على أنها حركة ساذجة، أو أنها تمثل نمطًا من التدين غير المنضبط، أو أنها تُهدد وحدة الخطاب الديني. وقد يُمنع أفرادها من النشاط العلني في بعض الدول، أو تُضيق عليهم في مساجدهم، أو تُفرض عليهم قيود تنظيمية تمنعهم من ممارسة دعوتهم بحرية. وهذا الموقف الرسمي ينبع من عدة دوافع، أولها الخوف من الحركات الشعبية المستقلة، فكل حركة لا تخضع لسيطرة الدولة، وتتمتع بانتشار جماهيري واسع، تُنظر إليها بعين الريبة، حتى لو كان منهجها سلميًا خالصًا. فالدولة بطبيعتها تُحب أن تُمسك بخيوط الخطاب الديني، وتُوجهه بما يخدم مصالحها، وأي خروج عن هذا الإطار يُعتبر تشويشًا أو تهديدًا.

وثاني هذه الدوافع هو الرغبة في توحيد الخطاب الديني تحت مظلة واحدة، بحيث لا يُسمح بتعدد الأصوات أو تنوع الأساليب، بل يُراد للدعوة أن تكون محصورة في نمط معين، يخدم التوجه الرسمي، ويُعبّر عن رؤية الدولة للدين والمجتمع. ومن هنا، فإن جماعة التبليغ، بمنهجها البسيط، وخطابها الشعبي، واستقلالها عن المؤسسات، تُعتبر خروجًا عن هذا النسق، مما يُثير القلق لدى الجهات الرسمية.

أما ثالث الأسباب، فهو النقد المنهجي الذي يُوجَّه إلى الجماعة، والذي يُضخّم أحيانًا ويُستخدم لتبرير الموقف الرسمي منها. فبعض المنتقدين يرون أن التبليغ تُغفل الجوانب العلمية، أو أنها لا تُعطي أهمية كافية

للفقه، أو أنها تُركّز على فضائل الأعمال دون بناء معرفي متين. وهذه الانتقادات، وإن كانت قابلة للنقاش، إلا أنها تُستخدم أحيانًا كذريعة لتهميش الجماعة، دون النظر إلى أثرها الإيجابي في الواقع، أو إلى الحاجة التي تُلبيها لدى الناس.

وعلى النقيض من هذا الموقف الرسمي، نجد أن حركة التبليغ تحظى بقبول شعبي هائل، واحتضان واسع من قبل عامة المسلمين في مختلف أنحاء العالم. فالمساجد تمتلئ بحلقاتهم، والشباب والعوام يخرجون معهم، والنساء والرجال من مختلف الطبقات يُقبلون على دعوتهم، ويجدون فيها ما يُحيي قلوبهم، ويُعيدهم إلى بساطة الدين وروحه.

ويُفسر هذا الاحتضان الشعبي بعدة عوامل، أولها البساطة واليسر في منهج التبليغ، فهم لا يُعقدون الأمور، ولا يدخلون في تفاصيل خلافية، بل يدعون الناس إلى أركان الإسلام الأساسية: الصلاة، والذكر، والأخلاق، وهي أمور يتقبلها عامة الناس بسهولة، دون أن يشعروا بثقل أو تعقيد.

وثاني هذه العوامل هو التركيز على العمل لا التنظير، فدعوة التبليغ حركة عملية بامتياز، لا تُقدم نظريات معقدة، ولا تُنظّر في السياسة أو الفكر، بل تدعو الناس إلى تطبيق الدين في حياتهم اليومية، وهذا ما يفتقده الكثيرون في الخطاب الديني الرسمي الذي قد يكون جافًا أو نخبوياً، أو بعيدًا عن واقع الناس.

وثالث العوامل هو الأخلاق الحسنة التي يتحلى بها أفراد الدعوة الحركية ، من التواضع، والإيثار، والبعد عن الشقاق، والحرص على خدمة الآخرين، مما يجعلهم محبوبين وموثوقين، ويُشعر الناس بأنهم أمام دعاة صادقين، لا طلاب شهرة أو سلطة.

ورابعًا، التمويل الذاتي الذي يُميز دعاة الحركة، فهم لا يطلبون المال من الناس، ولا يجمعون التبرعات، بل يُنفقون من جيوبهم، ويُكرمون إخوانهم، ويُظهرون أن دعوتهم خالصة لوجه الله، لا تبتغي منها الجماعة أطماعًا مادية، وهذا يُعزز من مصداقيتهم، ويُشعر الناس بالاطمئنان تجاههم.

وخامسًا، الملاءمة لكل المستويات، فالأمي والجاهل يجد مكانه في التبليغ، يتعلم الصلاة والوضوء، ويستمع إلى فضائل الأعمال، دون أن يُشعر بالنقص أو الغربة، كما قد يحدث في الحلقات العلمية المتخصصة أو الخطاب الأكاديمي الذي لا يُناسب الجميع.

وسادسًا، غياب الأجندات السياسية، فبما أن الحركة لا تتدخل في السياسة، ولا تُوظف دعوتها لأهداف حزبية أو تنظيمية، فإن الناس يشعرون بالراحة والاطمئنان، ولا يخشون أن يكونوا أدوات في صراع سياسي أو مشروع سلطوي.

وهذا التناقض بين الموقف الرسمي، أو موقف بعض التيارات المنظمة، وبين القبول الشعبي، يُبرز حقيقة مهمة: أن الدعوة الإسلامية لا يمكن حصرها في إطار واحد، ولا يُمكن اختزالها في خطاب رسمي أو تنظير فكري. بل إن بساطة المنهج، وحسن الخلق، والبعد عن التصادم، قد تكون أكثر فعالية في الوصول إلى قلوب وعقول عامة الناس، من المناهج الأكثر تعقيدًا، أو ذات الأبعاد السياسية. وهذا ما تُجسّده جماعة التبليغ، في حضورها العالمي، وفي أثرها العميق، وفي قدرتها على إحياء الدين في النفوس، دون ضجيج، ودون صدام، ودون انتظار اعتراف رسمي.

المبحث السادس : مفهوم "الجهد الدعوي" في مقابلة "الجهاد القتالي" و"الجهاد السياسي"

من الفروقات الجوهرية التي تُميز حركة التبليغ والدعوة، وتُسهم في استمرارها وانتشارها العالمي، هو تركيزها الكامل على ما يُسمى بـ"الجهد الدعوي" باعتباره المحور الأساسي لعملها، لا باعتباره بديلاً عن "الجهاد القتالي" أو "الجهاد السياسي"، وإنما باعتباره المتاح والمستطاع والأولى في المرحلة الراهنة من تاريخ الأمة، التي تمر بحالة ضعف شديد وتفكك داخلي وتربص خارجي. هذا التوجه ليس إنكارًا للجهاد القتالي أو السياسي، بل هو اختيار مرحلي واقعي، يُجنّب الجماعة الدخول في صراعات دامية أو مواجهات سياسية معقدة، ويُتيح لها العمل بحرية في بيئات متعددة، دون أن تُصنّف كتهديد أو تُلاحق كجماعة متطرفة.

الجهد الدعوي الشامل:

في نظر حركة التبليغ، فإن "الخروج في سبيل الله" هو نوع من الجهاد، ولكن بمعناه الأوسع والأصلي، الذي يشمل بذل الجهد والوقت والمال والنفس في سبيل الله، دون أن يكون مقصورًا على القتال أو المواجهة. وهذا الجهد لا يقتصر على الوعظ والخطابة، بل يتضمن مجموعة من الأعمال التربوية والسلوكية التي تُعيد بناء الإنسان من الداخل، وتُهيئه ليكون نافعًا في مجتمعه، ومنها:

- الهجرة المصغرة :وهي ترك الأوطان والأهل لفترة قصيرة، من أجل الدعوة إلى الله، في صورة تُشبه هجرة الصحابة، ولكن دون سيف أو صدام، بل بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة.
- الصحبة والتربية :حيث يتعلم الفرد من خلال مخالطة الدعاة، ومشاهدة سلوكهم، والتأثر بأخلاقهم، في بيئة تربوية عملية، لا نظرية.

- التضحية بالمال والوقت :فكل فرد يُنفق من ماله الخاص، ويُخصص من وقته وجهده، دون انتظار دعم أو تمويل، مما يُربي فيه روح البذل والإخلاص.
- الصبر على الأذى :فالدعوة ليست سهلة، بل فيها مشقة السفر، ومواجهة الرفض، ومجاهدة النفس، وتحمل الأذى، وكل ذلك يُعد من صور الجهاد.
- إحياء سنة النبي ﷺ :بالدعوة الفردية والجماعية، وبالتركيز على فضائل الأعمال، وإحياء السنن المهجورة، وربط الناس بسيرة النبي وأخلاقه.
- إصلاح النفس قبل الغير :فالخروج ليس فقط للدعوة إلى الآخرين، بل لتزكية النفس، ومحاسبتها، وتربيتها، وهذا من أعظم صور الجهاد الداخلي.

تجنب حركة التبليغ للجهاد القتالي والعمل السياسي:

بخلاف العديد من الحركات الإسلامية التي نشأت في القرن العشرين، والتي تبنّت أفكارًا جهادية قتالية أو سياسية، لم تتبنَّ حركة التبليغ أي فكر قتالي أو ثوري، لا لأنها تُنكر الجهاد، بل لأنها ترى أن الحالة الإسلامية الراهنة لا تسمح بذلك، وأن الأمة في مرحلة ضعف لا تؤهلها للمواجهة، وأن ما يمكن تقديمه الآن هو الجهد الدعوي، الذي يُصلح القلوب، ويُعيد الناس إلى الدين، ويُهيئ الأرضية لأي مشروع إصلاحي مستقبلي.

فهم لا يُعارضون الحركات الأخرى، ولا يُهاجمونها، ولا يُناقشونها، بل يتركونها وما ذهبت إليه، فلعلها تُحرز تقدمًا، وتُفيد الأمة في مجالها، ولكنهم اختاروا لأنفسهم طريقًا آخر، يرونه أكثر أمنًا، وأوسع قبولًا، وأعمق أثرًا في النفوس.

فلسفتهم في التغيير:

يرى أفراد حركة التبليغ أن إصلاح المجتمع لا يبدأ من القوانين أو الأنظمة، بل من الأفراد، وأن التغيير الحقيقي يجب أن ينبع من القلوب والعقائد والسلوكيات، قبل أن يُترجم إلى نظم سياسية أو اجتماعية. لذلك، فإن جهدهم مُنصبٌّ على الدعوة إلى الله، بالكلمة الطيبة، وبالحكمة، وبالقدوة، لا بالسيف أو الصراع على السلطة. فهم يؤمنون أن التغيير القسري لا يُثمر إلا الفتنة، وأن البناء البطيء العميق هو الذي يُنتج مجتمعًا صالحًا مستقرًا.

أثر تجنب الجهاد القتالي والسياسي كمقارنة مع حركات أخرى:

وقد ترتبت على هذا التوجه نتائج إيجابية كثيرة، منها:

1. **السلامة من الملاحقة الأمنية** :فعدم تبنيهم لأي فكر سياسي أو قتالي جعلهم بمنأى عن العداء المباشر من قبل الأنظمة، وسمح لهم بالعمل في بلدان مختلفة، دون أن يُصنفوا كتهديد أمني أو جماعة تخريبية، وهذا مكّنهم من الانتشار العالمي، والوصول إلى مجتمعات لا تسمح بوجود الحركات الإسلامية الأخرى.
2. **البعد عن التنازع والفرقة** :فبتجنبهم الدخول في الصراعات السياسية أو المذهبية، حافظوا على وحدتهم الداخلية، وتجنبوا الانقسامات التي تُعاني منها كثير من الجماعات، مما مكّنهم من التركيز على هدفهم الأساسي، دون تشتيت أو صراع.

3. **القبول العالمي** :هذا التوجه جعلهم مقبولين في بيئات متنوعة، بما في ذلك الدول الغربية، حيث تُرحب السلطات بوجود جماعات لا تُشكل خطرًا على الأمن القومي، وتُعنى بالجانب الروحي والأخلاقي، مما فتح لهم أبوابًا للدعوة في أماكن يصعب على غيرهم الوصول إليها.

عند المقارنة، نجد أن بعض الحركات الإسلامية ذات التوجهات الجهادية أو السياسية واجهت تحديات هائلة، من الملاحقة الأمنية، إلى الحظر، إلى الاتهام بالإرهاب، بسبب تبنيها هذه الأشكال من الجهاد، حتى وإن كانت نواياها صادقة، وأهدافها نبيلة. بينما استطاعت حركة التبليغ تجاوز هذه العقبات، بفضل تركيزها على الجهد الدعوي الخالص، خاصة في ظل حالة الضعف الهائلة التي تعانيها الكيانات الإسلامية، على المستوى السياسي والعسكري والاجتماعي. فمن غير المعقول أن تُواجه الأمة المجتمع الدولي كله، وهي في هذه الحالة الهزيلة، بل الأولى أن تُعيد بناء نفسها من الداخل، وتُصلح أفرادها، وتُحيي دينها، وتُهيئ الأرضية لأي مشروع نهضوي قادم.

وهكذا، فإن مفهوم "الجهد الدعوي" في حركة التبليغ ليس هروبًا من الجهاد، ولا تخليًا عن المسؤولية، بل هو اختيار واقعي حكيم، يُراعي ظروف الأمة، ويُقدّم الممكن على المتعذر، ويُركّز على ما يُصلح النفوس، ويُعيد الناس إلى الله، تمهيدًا لأي تغيير حقيقي في المستقبل. ومن فهم هذا التوجه، أدرك أن الدعوة ليست أقل من الجهاد، بل هي جهاد من نوع آخر، قد يكون في بعض المراحل أكثر نفعًا، وأوسع أثرًا، وأعمق جذورًا.

إنكار الجهاد ! في منهج التبليغ :

هل معنى هذا أنهم ينكرون الجهاد ؟ سواء كان جهاد دفع كما في فلسطين المحتلة من اليهود أو جهاد طلب لفتح بلاد غير المسلمين كما هو المأثور في الشريعة ؟

الجواب قطعا لا، فحركة التبليغ كغيرها من باقي الحركات الإسلامية المعتدلة السنية التي تتحرك في حدود المساحة المتاحة لها أو التي تستطيع أن تقدم فيها شيئا للأمة ، فهي لا تُنكر الجهاد الشرعي، لا تنكر جهاد الدفع كما في فلسطين الواجب على أهل البلد والأقطار الإسلامية المحيطة عليها بل على كل مسلم ، ولا تنكر جهاد الطلب الواجب كفائيا على عموم الأمة كما هو مأثور في كتب الفقه والسيرة. بل هم يُقرّون به كأصل من أصول الدين، ويؤمنون بأنه فريضة عظيمة من فرائض الإسلام، وأنه ماضٍ إلى يوم القيامة كما جاء في الحديث الشريف. لكنهم لا يتبنّونه كمنهج عملي في دعوتهم، ولا يُمارسونه كوسيلة للتغيير أو الإصلاح، وذلك لأسباب تتعلق بالمرحلة، والقدرة، والاختصاص، لا بالإنكار أو الرفض.

فهم يرون أن الأمة اليوم تمر بمرحلة ضعف شديد، وتفتت داخلي، وتسلّط خارجي، وأن الدخول في المواجهات المسلحة أو الصراعات السياسية في هذه الحالة قد يُفضي إلى مزيد من التدمير والفتنة، لا إلى النصر والتمكين. ولذلك اختاروا لأنفسهم طريقًا آخر، وهو طريق "الجهد الدعوي"، الذي يُصلح النفوس، ويُحيي القلوب، ويُعيد الناس إلى الله، تمهيدًا لأي مشروع جهادي أو سياسي مستقبلي يكون على أساس متين من الإيمان والتزكية والوحدة.

كما أنهم لا يُعارضون من اختار طريق الجهاد القتالي أو السياسي، ولا يُهاجمونهم، ولا يُنكرون عليهم، بل يتركونهم وما اختاروه، ويُحسنون الظن بهم، ويُدركون أن الأمة تحتاج إلى جهود متعددة، وأن كل جماعة

تُكمل الأخرى، وأنه لا تعارض بين من يُجاهد بالسلاح، ومن يُجاهد بالكلمة، ومن يُجاهد بالنفس والمال في سبيل الدعوة.

فجهاد الدفع، كما في فلسطين، يُعدّ من أعظم صور الجهاد المشروع، وهم يُحبّون المجاهدين هناك، ويدعون لهم، ويُشجعون الناس على نصرتهم، ولكنهم لا يُمارسون هذا النوع من الجهاد بأنفسهم، لأنه ليس من اختصاصهم، ولا من قدراتهم، ولا من طبيعة دعوتهم. وكذلك جهاد الطلب، الذي هو جزء من تراث الأمة، لا يُنكرونه، بل يُقرّونه نظريًا، ولكنهم يرون أن الأمة ليست في حال يُمكّنها من تطبيقه، وأن الأولوية الآن هي لإصلاح الداخل، وبناء الإنسان، وتزكية النفوس، حتى تكون الأمة مؤهلة للجهاد بمعناه الكامل.

فالمسألة ليست إنكارًا للجهاد، بل هي ترتيب للأولويات، وتقدير للمرحلة، وتحديد للمجال الذي يُمكن العمل فيه دون فتنة أو تصادم. ومن فهم هذا التوجه، أدرك أن حركة التبليغ تُجاهد بطريقتها، وأنها تُقدّم للأمة ما تستطيع، دون أن تُنكر على غيرها، أو تُخاصمهم، أو تُنافسهم، بل تُكملهم، وتُهيئ الأرضية التي يحتاجها كل مشروع إصلاحي أو جهادي ناجح.

العلاقة بين حركة التبليغ وبين الحركات الإسلامية الأخرى :

هل تعادي حركة التبليغ الحركات الإسلامية الأخرى العاملة على الساحة ، كمن يتبنون الجهاد كمن هم في فلسطين ، أو من ينخرطون في العمل السياسي ؟ وما هي حدود العلاقة بين التبليغ وبين المعاصرين ؟

إن حركة التبليغ لا تُعادي الحركات الإسلامية الأخرى العاملة على الساحة، سواء كانت تلك التي تتبنى خيار الجهاد القتالي كالمقاومة في فلسطين، أو التي تنخرط في العمل السياسي أو تسعى إلى التغيير عبر أدوات

الدولة. بل إن من أبرز سمات حركة التبليغ أنها لا تدخل في خصومات فكرية أو صراعات تنظيمية مع أحد، ولا تُصنّف الناس بحسب توجهاتهم، ولا تُناقشهم في اختياراتهم، بل تتركهم وما اختاروه، وتُركّز على ما تراه واجبًا عليها في هذه المرحلة: الدعوة إلى الله، وتزكية النفوس، وإحياء الإيمان في القلوب.

هذا الموقف لا ينبع من جهل بالواقع، ولا من تجاهل لما تمر به الأمة، بل من تقدير عميق للمرحلة، ومن فهم دقيق للقدرات والوسائل المتاحة. فالتبليغ ترى أن الأمة تمر بضعف شديد، وتفتت داخلي، وتسلّط خارجي، وأن الدخول في الصراعات السياسية أو العسكرية في هذه الحالة قد يُفضي إلى مزيد من الفتنة والانقسام، لا إلى النصر والتمكين. ولذلك اختارت طريقًا آخر، لا يُنكر على غيره، ولا يُنافسه، بل يُكمله ويُهيئ له الأرضية.

فهم لا يُنكرون الجهاد القتالي، بل يُقرّونه كأصل شرعي، ويُحبّون المجاهدين، ويدعون لهم، ويُشجعون الناس على نصرتهم، خاصة في قضايا الأمة الكبرى كفلسطين، ولكنهم لا يُمارسون هذا النوع من الجهاد بأنفسهم، لأنه ليس من اختصاصهم، ولا من طبيعة دعوتهم. وكذلك لا يُنكرون العمل السياسي، ولا يُهاجمون من اختار هذا المسار، بل يرون أن الأمة تحتاج إلى جهود متعددة، وأن كل جماعة تُكمل الأخرى، وأنه لا تعارض بين من يُجاهد بالسلاح، ومن يُجاهد بالكلمة، ومن يُجاهد بالدعوة والتربية.

أما حدود العلاقة بين حركة التبليغ والمعاصرين، فهي علاقة احترام وتقدير، لا خصومة ولا تبعية. فهم لا يُدخلون دعوتهم في التقييمات السياسية، ولا يُعلّقون على الأحداث الجارية، ولا يُصدرون بيانات أو مواقف، بل يُركّزون على إصلاح الفرد، وبناء الإنسان، وتزكية النفس، ويُرحّبون بكل من أراد أن يُشاركهم في هذا

الجهد، بغض النظر عن خلفيته الفكرية أو التنظيمية. وقد تجد في صفوفهم من كان سابقًا في جماعة سياسية أو جهادية، ثم اختار أن يُركّز على الدعوة والتربية، دون أن يُطلب منه التبرؤ من ماضيه أو تغيير قناعاته.

إن حركة التبليغ تُقدّم نموذجًا فريدًا في التعامل مع الواقع الإسلامي المعقّد، فهي لا تُخاصم أحدًا، ولا تُنافس أحدًا، ولا تُصنّف أحدًا، بل تُركّز على ما تراه واجبًا عليها، وتُحسن الظن بالجميع، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتُؤمن أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من القلب، وأن التغيير لا يُفرض بالقوة، بل يُبنى بالصبر والبذل والصدق. ومن فهم هذا التوجه، أدرك أن التبليغ ليست جماعة انعزالية، ولا ساذجة، بل جماعة اختارت طريقًا هادئًا عميقًا، يُعيد بناء الإنسان، ويُهيئ الأمة لما هو قادم.

المبحث السابع : منهج التبليغ هو الالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة ،فهي ليست فرقة عقدية مستقلة :

من الأخطاء الشائعة والاتهامات المتكررة الموجهة لجماعة التبليغ والدعوة أنها "فرقة عقدية مختلفة" أو "مذهب جديد" يخرج عن إطار أهل السنة والجماعة. ولكن بتحليل عميق لمنهجها العملي وأصولها الدعوية، يتضح أن هذه الدعوى لا تستند إلى أساس قوي. فحركة التبليغ والدعوة تُعد من أبرز الحركات الإسلامية الدعوية التي التزمت بمنهج أهل السنة والجماعة، ولم تنشأ كفرقة عقدية مستقلة أو كمذهب جديد يُخالف أصول الدين المتفق عليها بين جمهور المسلمين. ومن الأخطاء الشائعة والاتهامات المتكررة التي تُوجَّه إليها أنها تمثل تيارًا عقديًا مختلفًا أو أنها تتبنى منهجًا خاصًا بها يخرج عن إطار أهل السنة، غير أن النظرة المتأنية في منهجها العملي وأصولها الدعوية تُبيّن أن هذه الاتهامات لا تستند إلى أساس علمي متين، بل تنبع غالبًا من سوء فهم لطبيعة عمل الجماعة وأولوياتها.

لحركة التبليغ لا تُعنى بالخلافات العقدية الدقيقة، ولا تُدخل نفسها في جدالات علم الكلام أو المسائل الفقهية التفصيلية، بل تُركّز دعوتها على ما يُجمع عليه المسلمون من أصول الدين الكبرى، وتُقدّم نموذجًا دعويًا يُعلي من شأن المشتركات ويُعرض عن المختلفات. ومن هنا جاءت أصولها الستة التي تُشكّل جوهر دعوتها: الكلمة الطيبة (الشهادتان)، وإقامة الصلاة، وطلب العلم وذكر الله، وإكرام المسلم، وإخلاص النية، والخروج في سبيل الله. وهذه الأصول لا تُثير خلافًا بين أهل السنة، بل تُعبّر عن روح الإسلام العملية التي تُقرّها جميع المدارس السنية.

ولأن الحركة الدعوية تُركّز على إصلاح الفرد وجذب الناس إلى الدين، فإنها لا تُطالب من ينضم إليها بتغيير مذهبه العقدي أو الفقهي، بل ترحب بالجميع، سواء كانوا من الأشاعرة أو الماتريدية أو السلفية أو من أتباع المذاهب الأربعة الفقهية. وهذا الانفتاح لا يعني تمييع العقيدة، بل هو إدراك عميق لطبيعة العمل الدعوي الذي يخاطب العوام ويُراعي واقع الأمة وتنوعها.

كما أن دعوة التبليغ لا تمتلك عقيدة خاصة بها تُميزها عن أهل السنة، ولا تُصدر بيانات عقدية رسمية، ولا تُعلّم أتباعها مذهبًا معينًا يُخالف ما عليه جمهور المسلمين. وعندما يُسأل أفرادها عن عقيدتهم، فإنهم يُحيلون إلى ما جاء في الكتاب والسنة، أو إلى عقيدة أهل الحديث، أو إلى المدارس السنية الكبرى التي ينتمون إليها بحسب بلدانهم، مثل العقيدة الأشعرية أو الماتريدية في شبه القارة الهندية، أو السلفية في بعض البلاد العربية.

الخلاف الذي قد يظهر بين دعوة التبليغ وبعض التيارات السلفية لا يتعلق بأصول العقيدة، بل بأولويات العمل الدعوي. فالسلفيون يرون أن البدء بتحقيق التوحيد النظري ومحاربة البدع هو الأساس، بينما يرى

التبليغيون أن جذب الناس إلى الشعائر الظاهرة، وإحياء الدين في القلوب، هو المدخل الصحيح، وأن التفاصيل العقدية تأتي لاحقًا بعد ترسيخ الإيمان العملي. وهذا اختلاف في المنهج، لا في العقيدة، ولا يُبرّر إخراج الجماعة من دائرة أهل السنة.

أما كتاب "فضائل الأعمال" للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، الذي يُعد من أكثر الكتب تداولًا في مجالس التبليغ، فهو كتاب ترغيب وترهيب، يُركّز على فضائل العبادات والسير النبوية وقصص الصحابة، ولا يتضمن مسائل عقدية خلافية. والانتقادات التي وُجّهت إليه تتعلق بضعف بعض الأحاديث أو ذكر بعض الحكايات، وهي أمور شائعة في كتب الفضائل، ولا تُشكّل أساسًا لاتهام الجماعة بانحراف عقدي.

وبناءً على ما سبق، فإن حركة التبليغ لا تُعد فرقة عقدية خارجة عن أهل السنة والجماعة، بل هي حركة دعوية عالمية تسعى إلى إحياء الدين في النفوس، وتُركّز على المشتركات، وتتجنب الخوض في الخلافات التي تُفرّق ولا تُجمّع. وهذا المنهج جعلها مقبولة لدى فئات واسعة من المسلمين، ومؤثرة في حياة الملايين، دون أن تُدخلهم في صراعات فكرية أو تنظيمية، بل تُقرّبهم إلى الله بأسلوب بسيط، صادق، ومؤثر.

الفصل السابع عشر: دعوة إسلامية أصيلة بعيدة عن الانحرافات الصوفية والرد على دعوى "صوفية عصرية":

دعوى أن حركة التبليغ والدعوة "صوفية عصرية" أو أن لها ميولاً صوفية من أبرز الانتقادات الموجهة إليها، خاصة من قبل بعض التيارات السلفية العصرية ، ومع أن بعض الأفراد من مشايخها قد يكونون قد تأثروا ببعض جوانب التصوف بطبيعة نشأتهم وظهر ذلك في بدايات نشأة الحركة الدعوية (كما هو حال غالبية المسلمين في شبه القارة الهندية)، إلا أن النظر إلى منهج الحركة العام وأهدافها الرئيسية يوضح أنها دعوة إسلامية أصيلة، بعيدة كل البعد عن الصوفية المنحرفة أو البدعية، ولو كانت صوفية بالمعنى المذموم لما تحرجت من إظهار ذلك والاستعلان به كما بينا سابقا .

المبحث الأول : فهم التصوف والفرق بينه وبين منهج التبليغ:

التصوف في أصله، هو علم يهتم بتزكية النفس، وتربية القلب، والارتقاء الروحي، والزهد في الدنيا، والإقبال على الله تعالى ، وهذا الجانب من التصوف مقبول في الإسلام بل مطلوب، وهو ما يُعرف بـ "علم الإحسان" أو "السلوك" ، لحديث جبريل المشهور عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، فأجاب: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" [1] .

ولكن هذا التصوف المتوارث قد تطور عبر التاريخ، وظهرت فيه طرق صوفية متعددة، بعضها التزم بالكتاب والسنة، وبعضها الآخر انحرف كثيرا عن الجادة والموروث وظهرت فيه بدع خطيرة مثل:

---

[1] (رواه مسلم)

- الاعتقاد بالقطب والأولياء الذين يتصرفون في الكون.
- البدع في العبادات (الذكر الجماعي بصوت عالٍ بطرق غير مشروعة، الرقص في المساجد، الطرق البدعية).
- التوسل الشركي بالقبور والأولياء والاستغاثة بهم.
- عقيدة الوحدة الوجودية أو الحلولية.
- إهمال العلم الشرعي تمام ومحاربته والاكتفاء بالوجد والذوق.
- التحزب للطرق ومشايخها والولاء لها دون علماء الإسلام .

إلى غير ذلك من الشطحات والمخالفات التي لم تؤثر في كتاب ولا سنة ولا إجماع ، وهي الصوفية الغالية ، ولذلك وجب على المسلم أن يفرق بين الصوفية الموروثة عن الصحابة الكرام وهي المعتدلة ، والصوفية الغالية وهي ما زاده الغلاة عبر التاريخ وأدخلوا في الدين الإسلامي ما ليس منه وهو بدع متفاوتة بعضها هين وبعضها شنيع وكل بقدره .

المبحث الثاني : حركة التبليغ والدعوة لا علاقة لها بالصوفية بالمعنى المنحرف :

إن وصف حركة التبليغ العالمية بأنها "صوفية عصرية" هو تبسيط مخل، وقد يكون نابعاً من سوء فهم لطبيعة الحركة وعملها الجماعي الدعوي أو ناتجا عن أحكام مسبقة ، وإلا فهي حركة دعوية إسلامية وسطية سنية واسعة الانتشار، تركز على العمل بالدين وإحيائه في قلوب وعقول المسلمين، بعيداً عن أية انتماءات حزبية أو

مذاهب عقدية محددة أو انحرافات صوفية لا تتفق مع السنة ، وأدلة انتفاء علاقتها بالتصوف الغالي والشطحات المعروفة أكثر من أن تذكر ، نذكر منها على سبيل المثا ل:

- **التركيز على السنة والبعد عن البدع الصوفية الظاهرة:**

فمنهج حركة التبليغ يركز على إحياء سنة النبي صلى الله عليه وسلم في حياة الناس، وعلى الالتزام بالصلاة، والذكر المأثور، وقراءة القرآن، والأخلاق الفاضلة ، فلا توجد في منهجهم دعوة إلى بدع صوفية ظاهرة كـ "الرقص" أو "الموالد البدعية" أو "الأذكار البدعية المخترعة" أو "الوساطة بالقبور والأولياء" أو "الاستغاثة بغير الله". بل على العكس، فهم يدعون إلى التوحيد الخالص لله وإتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"[1]. وهذا يشمل كل بدعة صغيرة كانت أو كبيرة ، وعملهم الدعوي كله قائم على الدعوة إلى السنة وإحيائها ونبذ البدع والبعد عنها .

- **عدم التحزب للطرق الصوفية أو مشايخها:**

فدعوة التبليغ لا تدعو الناس أبدا للانضمام إلى طريقة صوفية معينة أو التتلمذ على شيخ صوفي محدد ، فأفرادها ينتمون إلى مذاهب فقهية متنوعة ومذاهب أهل الإسلام العقدية الثابتة المنقولة بالتواتر المتفق عليها وليس فيها اعتقاد غال ولله الحمد ، وليس لهم شيخ طريقة واحد ، فهم يدعون إلى الالتزام بالإسلام بشكل عام، والابتعاد عن الفرقة والتحزب.

---

[1] (متفق عليه)

- **منهجهم هو المنهج العملي لا الوجداني:**

فالتصوف غالباً ما – كما لا يخفى - يركز على الجانب الوجداني والتجربة الروحية أكثر من غيره ، بينما حركة التبليغ تركز على الجانب العملي والحركي ، فالخروج للدعوة إلى الله ، وتعليم الناس أساسيات دينهم، وإحياء شعائر الإسلام هو منهجهم الواضح والظاهر . وهذا عمل دعوي واضح للجميع وملموس للقاصي والداني ، وهو عمل يختلف تماما عن المنهج الصوفي الذي يغلب عليه السلوك الفردي والتزكية الباطنية المنفصلة عن العمل ، فالداعية المبلغ يطلب منك الخروج معه للصلاة في المسجد وزيارة البيوت للدعوة والحركة لنشر الدين وتطبيقه في نفسك وفي أهلك ، بينما الداعية الصوفي قد يدعوك إلى حلقات ذكر معينة أو تلاوة أوراد خاصة، أو الجلوس في الخلوة إلى غير ذلك مما هو مشهور عند دعاة التصوف .

- **لو كانت دعوة التبليغ صوفية لما تحرجت من إظهار ذلك:**

اعلم رحمك الله أنه لو كانت حركة التبليغ دعوة صوفية - بالمعنى المذموم الذي فيه بدع وانحرافات - لكانت قد أعلنت ذلك صراحة، ورفعت راية الطرق الصوفية كما يفعل الكثيرون بلا تحرج ولا خوف ، ولدعت الناس إلى الانضمام إليها ، لكنها لم تفعل ذلك أبداً، بل وصفت نفسها بأنها "حركة للدعوة والتبليغ"، وأن هدفها هو إحياء الدين في الأمة كلها، بغض النظر عن انتماءات الأفراد المذهبية أو الصوفية ، وهذا دليل قاطع وواضح على أنها ليست جماعة صوفية بالمعنى الحزبي أو البدعي.

- **تأثر المؤسسين بجوانب تزكية النفس من التصوف السني لا البدعي:**

صحيح أن المؤسس الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله ومن معه من كبار شيوخ الدعوة والذين شاركوه بدايت هذه الحركة الدعوية المباركة كان له ولهم اتصال ببعض مشايخ التصوف (خاصة في طريقة شيخهم رشيد أحمد الكانكوهي) في جانب تزكية النفس والتربية الروحية، وهو جانب لا بأس به في أصله (كنوع من التصوف السني الملتزم بالكتاب والسنة). ولكن هذا التأثر لم يجعله يؤسس طريقة صوفية جديدة، بل أسس حركة دعوية شاملة تستفيد من الجانب التربوي السلوكي الإيجابي دون الانجراف إلى البدع ، فلا يجوز مطلقا لعاقل أن يذم الحركة الدعوية ولا فردا من أفرادها لمجرد أن أول من أحيا هذه الحركة كانت له علاقة بشيوخ التصوف ، ومن يفعل ذلك يقع في الغلو التبديعي الذي انتشر مؤخرا في فرقة غالية فيه نسأل الله العافية .

المبحث الثالث : دعوة التبليغ سلفية أصلية لا صوفية عصرية :

تُثير طبيعة حركة التبليغ والدعوة جدلاً واسعاً بين من يصفها بأنها "صوفية عصرية" وبين من يراها حركة دعوية عامة ، إلا أن التدقيق في منهجها وممارساتها الأساسية يُظهر أنها أقرب إلى **المنهج السلفي في حركته البدائية الأولى أكثر من أدعياء السلفية من المعاصرين** ، وذلك من حيث التركيز على الأصول العملية للدين ونبذ التعقيدات، والحركة الأكثر تشابها مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أكثر من كونها حركة صوفية بالمعنى الاصطلاحي المعاصر، أو حتى متأثرة بـ "الشطحات" التي قد تُنسب لبعض الطرق الصوفية في التاريخ أو الوقت الراهن ، والدعوى بأنها تخفي صوفيتها دعوى باهتة لا تستقيم مع طبيعتها أو تاريخ التصوف نفسه.

التبليغ ومنهج السلف في الحركة الدعوية الأولى:

عند الحديث عن "المنهج السلفي" كمنهج عام ، لا يجب ولا يجوز حصره في التفسير الاصطلاحي المتأخر الذي يركز بشكل أساسي على "التصفية والتربية" العقائدية الدقيقة ومحاربة البدع بشتى أنواعها (خاصة ما يعتبره بدعة في جوانب التصوف). بل إن المنهج السلفي في صورته الأصلية - أي منهج الصحابة والتابعين في القرون الأولى - كان يتميز إضافة لما سبق من التصفية والترية ونبذ البدع والانحرافات بـ:

1. **التركيز على العمل والتطبيق:** كان الصحابة والتابعون يركزون على تطبيق ما تعلموه من النبي صلى الله عليه وسلم، والاجتهاد في العبادة والدعوة إلى الله، وتحمل المشاق في سبيل ذلك. لم يكن همهم الأول هو تقعيد دقائق علم العقيدة أو الفقه بشكل نظري معقد ، وهذا يشبه ما تقوم به حركة التبليغ التي تُجسد هذا الجانب بشكل كبير. فهي تركز على "الحركة" و"الخروج في سبيل الله" وتطبيق الشعائر الظاهرة كالصلاة والذكر والدعوة الفردية والجماعية. هذا المنهج العملي التطبيقي هو جوهر عملهم، ويُذكّر بمنهج الصحابة في الدعوة والانتشار.
2. **الشمولية والبساطة في الدعوة:** كانت الدعوة الأولى تتسم بالبساطة والعمومية في مخاطبة الناس، والتركيز على المشتركات التي تجمع القلوب قبل الخوض في التفاصيل الدقيقة ، وهو يشبه لحد كبير ما تقوم به حركة التبليغ التي تتبنى منهجاً مبسطاً يعتمد على الأصول الستة، وهي أصول عامة لا تثير خلافاً كبيراً، وتركز على إيقاظ الفطرة وربط الناس بالمساجد. هذا التبسيط والشمولية يُشبه بساطة الدعوة في العصور الأولى التي كانت تخاطب الفطرة مباشرة.

3. **العناية بالباطن والظاهر ونبذ التكلف:** فقد كان السلف الصالح رحمهم الله يهتمون بسلامة القلب والإخلاص لله، مع المحافظة على الظاهر والسنة ، كما تفعل حركة التبليغ التي تُركز على "إخلاص النية" كأصل من أصولها، وتهتم بتزكية النفس وتنقيتها من خلال الذكر والدعوة، مع المحافظة على الشعائر الظاهرة.

ولذلك فوصف التبليغ بأنها "سلفية" لا يعني أنها تتبنى المنهج السلفي الاصطلاحي المعاصر بجميع تفاصيله (خاصة في التصفية العقدية ومحاربة البدع بشكل صارم)، بل يعني أنها **تُحاكي روح المنهج السلفي الأول في حركته ودعوته وبساطته وتطبيق الشريعة عملياً.**

التبليغ ليست صوفية بالمعنى المزعوم :

إن الزعم بأن التبليغ صوفية عصرية، أو أنها تُخفي مسلكها الصوفي، لا يجد سنداً قوياً في الواقع للأسباب التالية:

1. **الاختلاف الجوهري عن الطرق الصوفية التقليدية:**

- **لا يوجد بيعة لشيخ طريقة:** فالطرق الصوفية تقوم على "البيعة" لشيخ حي، والانتساب إلى سلسلة نسب روحية تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وحركة التبليغ ليس لديها نظام البيعة لشيخ أو قائد روحي بالمعنى الصوفي، ولا يطالبون أتباعهم بالانتساب إلى طريقة معينة.
- **لا يوجد أوراد خاصة بالطرق:** فلكل طريقة صوفية أورادها وأذكارها الخاصة التي تُلزم بها أتباعها. وحركة التبليغ تشجع على الذكر العام المأثور من السنة، لكن ليس لديها أوراد خاصة بها غير الأذكار النبوية.

- **الخروج للدعوة لا للخلوة:** فجوهر عمل دعوة التبليغ هو "الخروج في سبيل الله" ومخالطة الناس لدعوتهم. وهذا يتناقض مع بعض الممارسات الصوفية التي تركز على "الخلوة" و"العزلة" و"الاعتكاف" في زوايا خاصة كمنهج أساسي للسلوك.
- **غياب الكرامات والشطحات:** فلا تُعرف حركة التبليغ بالترويج لكرامات مشايخها أو لظهور شطحات من أتباعها، وهو ما قد يوجد في بعض الطرق الصوفية.

2. **لا دافع لإخفاء الصوفية لأن الصوفية سبيل مفخرة لا خزي:**

- **لو كانت دعوة التبليغ صوفية، لأعلنت ذلك وافتخرت به :** كما ذكرت سابقًا، ففي الهند وباكستان وبنغلاديش ومصر والعديد من بلدان المسلمين، التصوف عند أهله ومحبيه ومريديه ليس خزيًا ولا وصمة عار، بل هو سبيل يُفتخر به وله جماهيرية واسعة في تلك البلاد. فلو كانت حركة التبليغ تتبع طريقة صوفية معينة، لكان من المنطقي أن تعلن ذلك صراحة لتستفيد من القبول الشعبي الواسع للتصوف في هذه المناطق.
- **لا مصلحة في الإخفاء:** ما الدافع لحركة دعوية عالمية، تتسم بالبساطة والوضوح، أن تُخفي عقيدتها أو منهجها الصوفي لو كانت صوفية؟ فلا توجد مصلحة دعوية أو سياسية معتبرة تُبرر هذا الإخفاء، بل على العكس، الإخفاء قد يثير الشكوك ويوفر مادة للمنتقدين.
- **الشفافية في الدعوة:** فمنهج التبليغ يقوم على الدعوة الشفافة المباشرة للناس، وهذا يتنافى مع مبدأ "الإخفاء" أو "السرية" في العقيدة أو المنهج.

وعليه فإن القول بأن حركة التبليغ صوفية عصرية تُخفي مسلكها زعم يفتقر إلى الدليل الواقعي والمنطقي. بينما يُمكن تتبع بعض التأثيرات الروحية العامة من بيئة نشأتها (كدولة ديوبند التي لها جانب تزكوي

معتدل)، إلا أنها لم تتبنَّ الطرق الصوفية بمعناها الاصطلاحي أو تُمارس طقوسها الخاصة ، بل إنها في جوهرها أقرب إلى العودة للمنهج السلفي الأول في حركته ودعوته وبساطته وتركيزه على العمل والتطبيق الظاهر والإصلاح السلوكي. غياب مظاهر الطرق الصوفية الواضحة من ممارساتهم، وعدم وجود أي دافع معقول لإخفاء هذا الجانب لو كان موجودًا، يُعد دليلاً قوياً على أن التبليغ حركة دعوية قائمة بذاتها، تختلف عن الطرق الصوفية المنظمة، وتُحاكي روح الدعوة الإسلامية في فجرها الأول.

المبحث الرابع : غياب التمدن ومواكبة العصر في وسائل التبليغ ، يناقض وصفها بـ "الصوفية العصرية":

إن غياب مظاهر العصرنة والتمدن عن حركة التبليغ يُعد دليلاً قويا آخر على بُعدها عن الوصف بأنها "صوفية عصرية" ، وهو ما يجعله وصفًا متناقضًا يفتقر إلى الدقة، لا سيما عند مقارنتها بالعديد من الطوائف المعاصرة (بما في ذلك بعض الاتجاهات السلفية المعاصرة) التي تتميز بقدر من التمدن ومواكبة العصر، أو حتى عند مقارنتها بالطرق الصوفية الأصيلة التي لم تتأثر بحداثة العصر.

دعوة التبليغ سلفية أصلية لا صوفية عصرية :

إن المتتبع لمنهج وسلوك حركة التبليغ يلحظ بوضوح غياب التمدن ومواكبة العصر بكل أشكاله ، فهم لا يتبنون أي نوع من أنواع التمدن أو مواكبة العصر بالمعنى الذي نجده في غالبية الحركات والجماعات المعاصرة، حتى تلك السلفية منها. وهذا يتجلى في عدة جوانب:

- **الزهد في المظاهر العصرية والتكنولوجيا (نسبياً):** فبينما تستخدم غالبية الجماعات الإسلامية المعاصرة (سلفية، إخوانية، صوفية، إلخ) وسائل الإعلام الحديثة والتكنولوجيا المتقدمة لنشر دعوتها (مواقع إلكترونية متطورة، قنوات فضائية، منصات تواصل اجتماعي، تطبيقات ذكية، استوديوهات إنتاج مرئي وسمعي)، فإن حركة التبليغ لا تزال تعتمد بشكل شبه كلي على الأساليب التقليدية البدائية في الدعوة ، وهذا يؤكد سلفيتها الحركية أكثر من عصرانيتها المزعومة .
- **الدعوة الفردية المباشرة:** باللقاءات الشخصية في المساجد والبيوت وهذا سير على سنن السلف في تبليغ الدين ونشره ، لا كما يفعل الإسلاميون المتعصرنون الذين يواكبون كل صغيرة وكبيرة في العصر ، وهذا لا شك أنه ممدوح إن كان في مصلحة الدعوة ولكننا نسوقه كدليل على غلط من يرمي التبليغ بأنها صوفية عصرية وكان أولى به أن يسميها سلفية أصلية .
- **الخروج والسفر (الجولات):** لحركتهم من مكان لآخر سيراً على الأقدام أحياناً، أو بالوسائل التقليدية قدر الإمكان يؤكد أنهم أقرب الشبه بالسلف الصالح رحهم الله تعالى وليسوا عصرية كما يزعم البعض عنهم .
- **الكلمة والموعظة:** فدعوتهم بالحديث المباشر والشفوي مثلما كانت دعوة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين ، وليسوا أصحاب قنوات وصوتيات وصفحات ومؤسسات وأشرطة وفيديوهات إلى غيرها من الوسائل العصرية المباحة ! .
- **الكتب التقليدية المحدودة:** فكتبهم التي يعتمدونها هي الكتب المعتمدة والتي تُركز على الجانب الوعظي والترغيب وغيرها من الكتب في المكتبة الإسلامية أيضا ولا تفتح الباب على مصراعيه لكل ما هو

جديد في التكنولوجيا ولا تنبهر به ولا تقبله بقوة كما يفعل المتعصرنون ، وهذا يدل أنهم أقرب إلى طريقة السلف شكلا وموضوعا من غيرهم .

- الترتيب والتنظيم : فيستحيل أن تجد لحركة التبليغ "متحدثًا رسميًا" يظهر على الفضائيات، أو "مكتبًا إعلاميًا" يُصدر بيانات صحفية، أو "حملات إعلانية" منظمة على الإنترنت ، فاستخدامهم للتكنولوجيا يكاد يقتصر على الضرورات القصوى للاتصال الشخصي، وليس كمنصات دعوية متطورة في الغالب ، ولذلك فهي دعوة الأمة كلها ، وهي أقرب الدعوات المعاصرة إلى طريقة السلف الصالح وليست صوفية عصرية كما يزعم بعض السلفية العصرية الذين تمدنوا وأخذوا بكل صغيرة وكبيرة من أدوات العصر المباحة ، وكما أسلفنا فإننا لا نسوق هذا على سبيل الاعتراض ةلكن على سبيل التدليل على أن حركة التبليغ أقرب ما تكون إلى طريقة السلف وأبعد ما تكون عن الصوفية العصرية كما زعم الزاعمون.
- **الابتعاد عن** الخطاب **التجديدي أو الفكري المعاصر:** فلا تُعرف حركة التبليغ العالمية بتقديم أطروحات فكرية جديدة، أو مناقشة قضايا التحديث والعصرنة، أو المساهمة في الخطاب الإسلامي المعاصر حول التحديات العالمية. فخطابهم يظل **تقليدياً، وعظياً، ومحوره الأساسي هو الأصول الستة** والتحريض على الخروج في سبيل الله ، ولذلك فهم أصوليون بشكل واضح غير عصريين كغيرهم من الدعوات الأخرى ، وليس معنى ذلك أنهم يخاطبون الناس بعقول وطريق القرون الأولى بل يخاطبونهم بلسان اليوم ولكن طريقتهم الحركية أصلية بالقدم والدعوة والحركة واللفظ الهين اللين والطريقة السلفية الأولى .
- بعدهم عن المناظرات والمناقشات العصرية : فهم لا يسعون للانخراط في المنقاشات الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية المعاصرة، ولا ينخرطون فيها بقليل ولا بكثير ، وكل شغلهم هو تبليغ الدين

لكل البشر بقدر ما يستطيعون ، يحمل الراية المتواجد فيهم ويسلمها لمن استعد وقام لله تعالى بنفسه وماله ، وهكذا تسير الدعوة منذ القدم ، فدعوتهم أصلية لا عصرية .

- **البساطة في المظهر والعيش:** يُعرف أفراد التبليغ بالتزامهم بالبساطة الشديدة في المظهر والعيش، والبعد عن التكلف أو مظاهر البذخ، أو حتى مواكبة صيحات الموضة أو التمدن في اللباس والمأكل والمشرب، وهو ما يتسق مع زهدهم في الدنيا وميلهم إلى التقلل من متاعها ، في حين تجد كثيرا من المتصوفة يضاهون الموضات العالمية مع مزاعمهم التصوف وربما غلوهم فيه وعيشهم اللحظة ليل نهار ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر ، فدعوة التبليغ في الحقيقة دعوة سلفية صوفية أصلية تراثية قريبة للسلف الصالح في دعوتهم وعيشهم وفهمهم وحركتهم ، فليست كالسلفية العصرية ولا كالصوفية العصرية الذين يواكبان العصر في كل حركاتهم وسكناتهم.

التناقض في وصف حركة التبليغ والدعوة بالصوفية العصرية :

إن وصف أهل التبليغ بـ "الصوفية العصرية" يُفترض أن ينطبق عليها إذا سعت إلى:

- **تحديث خطابها :** لتناسب العصر وتخاطب الجيل الجديد بلغة معاصرة غير اللغة التي درج عليها أهل الإسلام والسلف الصالح من الحركة والمواجهة واللقيا والزيارات والجولات ، فلما لم توجد في التبليغ دل ذلك على أنها دعوة أصلية وليست عصرية .
- **استخدام وسائل العصر التكنولوجية :** فلو سعت الحركة الدعوية لاستخدام قنوات فضائية، مواقع إلكترونية، مؤتمرات عالمية منظمة، إلخ في الدعوة والانتشار والتأثير لكان وصفها بصوفية عصرية مناسا ! ولكنها لا تعتمد هذه الوسائل في دعوتها أصالة بل تعتمد على الطرق السلفية التي ذكرناها والتي هي

مبثوثة في كتب السير والتراجم ودواوين الإسلام ! فاستحقت لقب دعوة سلفية أصلية ، واستحق ناقدها أن يكون هو السلفي العصراني الذي يلهث وراء كل جديد بدعوى مواكبة العصر ! .

- **الانخراط في قضايا المجتمع المعاصرة:** فلا تجد في دوة التبليغ من ينخرط تماما في القضايا العصرية كالعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان، والحوار بين الأديان، وغير ذلك. بل تجد كل دعاتها مهتمون غاية الاهتمام بهداية الانسان وإصلاحه وتبليغه الرسالة أصلية كما وردت في دواوين الإسلام ، ولذلك فهي دعوة أصلية لا عصرية .

ومن الأمثلة للطوائف الصوفية المعاصرة التي ينطبق عليها الوصف بأنها صوفية عصرية : بعض الطرق الصوفية الكبرى في مصر أو المغرب أو الشام ، نجد لها قنوات فضائية، ومؤتمرات دولية، وصفحات على وسائل التواصل الاجتماعي، ومؤسسات تعليمية حديثة، وتنخرط في الحوارات المجتمعية والوطنية ، فهذه بالفعل ينطبق عليها وصف "صوفية عصرية" بمعنى أنها لم تعد حبيسة الزوايا التقليدية زلا الدعوة الصوفية القديمة ، بل تعدت ذلك وعاصرت الواقع وحورت دعوتها واستخدمت كل عصراني فيها ، بخلاف ما يقوم به أهل التبليغ والدعوة الذين إذا ما رأيتهم حسبتهم من أهل الكهف عادوا .

فبالنظر إلى مظاهرها السابقة، يتضح أن التبليغ بعيدة كل البعد عن أي مظهر من مظاهر "العصرنة" أو "التمدن". فهي حركة تحافظ على نمط دعوي تقليدي وبدائي يكاد يكون غير متغير منذ نشأتها وهذا يؤكد أن دعوة التبليغ ليست "عصرية" ، وكما بينا في الفصول السابقة، افتقار دعوة التبليغ إلى المظاهر الجوهرية للطرق الصوفية (شيخ الطريقة، البيعة، الأوراد الخاصة، السلاسل الروحية، إلخ)، والتي هي علامات فارقة للطوائف الصوفية سواء كانت قديمة أو معاصرة ، وهو ما يثبت أن حركة التبليغ ليست "صوفية" بالصورة الطُّرقية.

مواكبة العصر في الدعوة مدح لا ذم :

اعلم رحمك الله أن مواكبة العصر في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ دينه صفة مدح وكمال لا نقص وذم ، ولكن الناقد قصد ذم أهل التبليغ حينما قال (صوفية عصرية) لأنه قصد استحضار الصورة الذهنية البغيضة المرسومة في أذهان أبناء فصيله وجماعته وحزبه وإسقاطها على حركة دعوية معاصرة هي حركة التبليغ ، لكي يستحضر المستمع شناعة الغلاة من الصوفية ثم يسقطها على من يشاهده أو يقابله من أهل التبليغ والدعوة ، فوصف حركة التبليغ بـ "الصوفية العصرية" هو وصف متناقض. ف **"العصرية" تقتضي مواكبة للزمن والتمدن الذي تفتقده التبليغ تمامًا.** أما "الصوفية" فهي تقتضي مظاهر طرقية لا تُعرف عن التبليغ.

لذلك، فالأدق أن نقول إن حركة التبليغ هي **حركة دعوية " أصلية " أو "تقليدية" أو "بدائية" في أسلوبها ومنهجها، ومتحفظة جداً على أي شكل من أشكال العصرنة في الدعوة والتمظهر** ، هذا يجعلها مختلفة تمامًا عن الطوائف الصوفية المعاصرة التي تبنت التمدن والعصرنة كوسيلة للدعوة والبقاء ، فدعوة التبليغ هي حركة فريدة من نوعها، تحاول العودة إلى بساطة الدعوة في عهد السلف الأول، دون الدخول في تعقيدات العصر أو مظاهر التمدن التي قد تراها مشتتة أو غير ضرورية لعملها الأصيل.

ونحن ندعو كل المسلمين بمن فيهم دعاة التبليغ إلى الأخذ بكل أسباب التحضر والعصرنة التي تفيد دعوتهم وتساعد في انتشارها ، ولا شك أن هذا مفيد بشكل كبير لا يشك في ذلك عاقل ، وأما الثبات على أشكال الأصولية التي تحافظ عليها دعوة التبليغ قد يؤخر بعض السرعة التي كانت ستستفيد منها الدعوة لو أنها واكبت العصر بكل مستجداته ، أو قد يفوت عليها فرصا كثيرة مفيدة لو أنها اعتمدت على كل ما يقع لها من وسائل

حديثة ، وهذا لا يخرجها أيضا عن كونها دعوة سنية تدعوا إلى السنة المحمدية كاملة ، سلفية في مفاهيمها ، صوفية في تربيتها ، معتدلة في خطابها .

المبحث الخامس : صراع الصور الذهنية الخاطئة لدى السلفية العصرية سبب لاتهام التبليغ بالصوفية :

إن اتهام حركة التبليغ والدعوة بأنها "صوفية"، وإلصاق هذا الوصف بها رغم عدم انطباقه عليها بالمعنى الاصطلاحي للطرق الصوفية، هو تكتيك يُستخدم لأسباب عدة، أهمها الاستفادة من الصورة الذهنية السلبية التي رُسِخت لدى قطاع واسع من الشعوب الإسلامية وأتباع بعض التيارات السلفية المعاصرة بأن "الصوفية مذمومة". هذا التكتيك يهدف إلى تنفير الناس من دعوة التبليغ من خلال ربطها بمفهوم يُنظر إليه بسلبية في أذهان الكثيرين.

الصورة الذهنية السلبية للصوفية ودورها في التشويه :

رغم أن التصوف في أصوله هو من صميم الدين، إلا أن الصورة الذهنية المنتشرة عنه في أوساط معينة (خاصة لدى أتباع السلفية المعاصرة) غالباً ما تكون سلبية للغاية ، هذه الصورة تتكون من عدة مكونات:

1. **ربط التصوف بالبدع والشركيات:** يروج العديد من المنتقدين أن التصوف – كله - قد انحرف مع مرور الزمن ليُدخل في الدين بدعاً لم تكن من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته (مثل الاحتفالات المبالغ فيها بالموالد، تقديس القبور، التبرك المبالغ فيه، التوسل بغير الله، التغالي في شيوخ الطرق) وهذا غير صحيح فليس كل التصوف منحرف ولا مذموم ، بل فيه ما هو ممدوح ومنه ما هو مذموم ، ومنه ما هو معتدل ومنه ما فيه غلو ، والعدل يقول بأن تقبل الحق وترد الباطل وتعمل القاعدة على كل شيء .

2. **الشطحات والغيبيات المبالغ فيها:** تُربط الصوفية بـ "الشطحات" الكلامية التي قد تبدو غريبة أو مخالفة للشريعة، أو بادعاءات الكرامات الخارقة والمبالغة في الغيبيات، مما يجعلها تبدو بعيدة عن العقل والمنطق الشرعي ، وهذا من الغلو الذي نحذر منه كما نحذر من غلو المتصوفة وشطحاتهم .
3. **العزلة عن الدنيا والعمل:** تُتهم بعض الطرق الصوفية بالدعوة إلى الانقطاع عن الحياة، والكسل عن العمل والكسب، والاتكال المبالغ فيه ، وهذا فيه بعض التهويل ، فالتصوف لا يدعوا إلى الكسل ولكنه يدعوا إلى عدم اللهث وراء متع الدنيا وزهرتها وتقديم الآخرة على الدنيا .
4. **الخضوع الأعمى للشيخ:** فيُنظر إلى علاقة المريد بالشيخ في بعض الطرق الصوفية على أنها علاقة خضوع تام تصل إلى درجة إلغاء العقل، مما يتنافى مع مبدأ التفكير الحر والاتباع للدليل ، وهذا لا وجود له مطلقا في الصوفية المعتدلة التي يتنباها أهل السنة والجماعة .

فبسبب هذه النقاط وغيرها ، أصبحت كلمة "صوفي" أو "تصوف" في أذهان الكثيرين من المعاصرين خاصة من لهم توجهات سلفية عصرية مرادفاً لـ "مبتدع" أو "مُنحرف" أو "متخلف". لذلك، عندما يُراد تشويه صورة دعوة كبيرة سنية كدعوة التبليغ، يُلصق بها هذا الوصف مباشرة، لأن ذلك يُحقق هدف التنفير دون الحاجة إلى تقديم أدلة قوية أو نقاش علمي مفصل. فبمجرد إطلاق وصف "صوفية" على التبليغ، تتفاعل الصورة الذهنية السلبية لدى المتلقي، وينصرف عن الحركة والدعوة ، وهذا ما قصده القائل عن أهل التبليغ : (هي صوفية عصرية) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الصوفية السنية جوهرها من الدين وليست مبتدعة ولا مذمومة :

من المهم جداً التفريق بين الصورة المشوهة للتصوف، وبين التصوف الحقيقي الذي هو من صميم الدين وجزء لا يتجزأ من الإحسان والإسلام. فالتصوف في جوهره هو علم تزكية النفوس، وتربية القلوب، وتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، وتعميق الإحساس بمراقبة الله تعالى في السر والعلن.

فمفهوم "الإحسان" التصوفي الذي جاء في حديث جبريل المشهور أن الإحسان هو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1]. وهذا هو جوهر التصوف الحقيقي، وهو السعي لترجمة الشريعة الظاهرة إلى واقع حي في القلب والسلوك ، فالمتصوف الحقيقي هو الذي يصل إلى هذه الدرجة من المراقبة لله تعالى ثم المشاهدة .

والزهد المشروع الذي يمثل التصوف الحقيقي هو الذي يدعو إلى الزهد في الدنيا، لا بمعنى تركها كلياً، بل بمعنى ألا تكون أكبر الهم، وأن يكون القلب متعلقاً بالله تعالى، وأن تُستخدم الدنيا وسيلة للآخرة لا غاية.

والأخلاق الفاضلة في التصوف السني هي التي تركز على الأخلاق الحسنة، مثل الصدق، والإخلاص، والتواضع، والصبر، والشكر، والمحبة لله ولرسوله وللناس.

والاهتمام بالباطن في التصوف السني يركز على صلاح الباطن، وهو ما يكمل الفقه ولا يناقضه ، بينما يركز الفقه على الأحكام الظاهرة.

---

[1] (رواه مسلم)

فالخلاف ليس على جوهر التصوف كـ "تزكية للنفس وإحسان في العبادة"، فهذا من صميم الدين. ولكن الخلاف ينشأ حول بعض الممارسات والاعتقادات التي تسربت إلى بعض الطرق الصوفية المتأخرة، والتي قد تخالف السنة أو توصل إلى الشرك أو الغلو. وهذا لا يعني أن التصوف كله مذموم فانتبه .

المتصوفة المعتدلين الذين هم أئمة الإسلام:

ولقد كان هناك على مر التاريخ الإسلامي أئمة كبارا وعلماء أفذاذا جمعوا بين العلم الشرعي الدقيق والتصوف الحقيقي، وكانوا منارات هدى للأمة ، وهؤلاء يُعتبرون جزءاً لا يتجزأ من تراث الأمة، ومن يذمهم يُذم كل التصوف وذلك بسبب انحرافات بعض المنتسبين إليه ، ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ :

1. **الإمام سفيان الثوري رحمه الله (ت 161 هـ):** الذي كان يُعتبر من أئمة الحديث والفقه، وكان زاهداً وعابداً. يُنسب له كثير من الأقوال في الزهد والتصوف بمعناه النقي السني .
2. **الإمام الفضيل بن عياض رحمه الله (ت 187 هـ):** كان لصًا ثم تاب وأصبح من كبار الزهاد والعباد المعتبرين، وله أقوال مؤثرة مشهورة في الإخلاص والورع والخشية وليس من المبتدعة .
3. **الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله (ت 505 هـ):** يُلقب بـ "حجة الإسلام". كان فقيهاً، وأصولياً، ومتكلماً، وفيلسوفاً، ثم اتجه إلى التصوف ونقد فلسفته. كتابه "إحياء علوم الدين" موسوعة ضخمة تُعرف بكتاب "إحياء الدين" ويجمع بين الفقه والعقيدة والتصوف، ويُعد من أهم كتب التربية وتزكية النفس، وهو من الكتب التي تُدرس في العديد من المعاهد الإسلامية حول العالم.

4. **الإمام الجنيد البغدادي رحمه الله (ت 298 هـ):** يُلقب بـ "سيد الطائفتين" (طائفة الفقهاء وطائفة الصوفية). كان فقيهاً مالكياً، وعالماً، وإماماً في التصوف. تُنسب إليه مقولة: "علمنا هذا مُقيَّد بالكتاب والسنة". كان من أشد الناس تمسكاً بالشريعة، واعتبر التصوف "مذاهب صحيحة في السلوك".
5. **الإمام القشيري رحمه الله (ت 465 هـ):** صاحب "الرسالة القشيرية"، وهي من أهم الكتب في التصوف السني المعتدل. كان فقيهاً شافعياً، ومحدثاً، ومفسراً. أوضح في رسالته أن التصوف الحقيقي لا يمكن أن ينفك عن الشريعة.

وكثيرون غيرهم مثل إبراهيم بن أدهم، وذو النون المصري، وغيرهم، كانوا أئمة في العلم والعمل والورع، وجمعوا بين الفقه والحديث وتزكية النفس، وهم من أبرز المتصوفة المعتدلين الذين لا يختلف على إمامتهم غالبية علماء المسلمين.

الفصل الثامن عشر: الجهود العالمية لحركة التبليغ والدعوة لإحياء الإسلام :

تُعدّ حركة التبليغ والدعوة نموذجاً فريداً للتفاعل العالمي مع عامة المسلمين في كل دول العالم. حيث إن جهودهم لإحياء الإسلام في قلوب المسلمين في مختلف أنحاء المعمورة، وامتداد نشاطهم لنشر دعوة الإسلام بين غير المسلمين في بلاد الغرب، لهو دليل ساطع وواضح على عالمية رسالتهم وعظم تأثيرهم في الناس ، فحركة التبليغ والدعوة على بساطة منهجها وسلاسة عملها بجهودها الدؤوبة والمستمرة في كل مكان أدت دوراً محورياً في الحفاظ على الهوية الإسلامية لأعداد غفيرة من المسلمين في عالم تسوده العولمة والتحديات الفكرية المختلفة ، كما أسهمت في إيصال رسالة الإسلام النقية إلى غير المسلمين بطريقة عملية وبسيطة من غير تكلف ولا ضجيج أو جلبه . هذا التفاعل العالمي، والذي يعبر عن التزامهم بقوله تعالى: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" [1]، يجعلهم قوة دعوية عالمية قوية مؤثرة لا يستهان بها في المشهد الإسلامي المعاصر.

المبحث الأول : أثر دعوة التبليغ في إصلاح المجتمعات الإسلامية .

تُعد حركة التبليغ الدعوية من أبرز الحركات الدعوية التي ظهرت في العصر الحديث، والتي اتسمت بمنهج عملي نشط ميداني، بعيد عن التنظير المجرد أو الجدل العقدي أو الفقهي ، وركزت في دعوتها على إصلاح الفرد والمجتمع من خلال الدعوة إلى الله تعالى من خلال أصول الدين الإسلامي وثوابته المتفق عليها ، والتذكير بالآخرة وما بعد الموت ، وإحياء السنن والتمسك بها ، وتحفيز الناس على الالتزام بالعبادات. وقد

[1](يوسف: 108)

أثمرت هذه الدعوة آثارًا ملموسة في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، مما يستدعي دراسة هذه الآثار في ضوء النصوص الشرعية، لتبيين مدى انسجامها مع منهج النبوة، ومقاصد الشريعة.

أولًا: الوصول إلى الجماهير العريضة.

من أبرز ما يُميز دعوة التبليغ قدرتها الفائقة على الوصول إلى شرائح واسعة من المسلمين، لا سيما البسطاء والعامة، وخاصة هؤلاء الشباب الذين قد يكونون بعيدين عن مظاهر التدين ولا يأبه لهم أحد من أصحاب الفضائيات ولا القنوات والتآليف . فهم يتحركون بأنفسهم على هؤلاء الناس في أماكنهم ويحركونهم معهم من أماكن الغفلة إلى أماكن الطاعة ، وقد تحقق ذلك من خلال أسلوبهم المباشر، القائم على الزيارات الميدانية الفردية والجماعية للمساجد والبيوت والشوارع والنواصي والحانات ، مما أتاح لهم التواصل الفعّال مع الناس في بيئاتهم الطبيعية، دون تكلف أو تصنع ، وهذا المنهج لا يقوم به غيرهم من المناهج الدعوية المعاصرة مطلقا .

هذا المنهج الحركي الدعوي يتسق تمامًا مع التوجيه الرباني في قوله تعالى :﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [1]، فالدعوة الحكيمة هي التي تراعي أحوال الناس جميعا ، وتصل إليهم بما يفهمونه ويؤثر فيهم، لا بما يُنفرهم أو يُثقل عليهم. وقد كان النبي ﷺ يخرج إلى الأسواق، ويزور القبائل، ويخاطب الناس بلغتهم، ويُراعي طبائعهم، وهو ما جسدته دعوة التبليغ في العصر الحديث.

[1] النحل: 125

ثانيًا: التكيف الثقافي مع المجتمعات المختلفة.

من خصائص هذه الدعوة المباركة أنها لا تُلزم الناس بزي معين، أو لغة محددة، أو مذهب فقهي خاص، بل تتكيف مع كل ما هو مقبول شرعا من الثقافات والمذاهب والعادات والتقاليد المحلية لكل بلد، فما دام ذلك لا يُخالف نصًا شرعيًا فلا بأس به مطلقا . وهذا التكيف يُسهل عليهم الاندماج في المجتمعات المختلفة، وكذلك يجعل دعوتهم أكثر قبولًا لدى الناس، ويُزيل الحواجز النفسية بينهم وبين الناس التي قد تُعيق التفاعل مع الدعوة وقبولها.

وهذا المنهج ينسجم مع قاعدة "التيسير ورفع الحرج"، التي تُعد من مقاصد الشريعة، فقد قال النبي ﷺ : "إن الدين يسر، ولن يُشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا "[1]، فالدعوة التي تُراعي التيسير على الناس ، وتدفع الحرج عنهم ، بل وتُخاطب الناس على اختلاف عقولهم ودرجاتهم في الفهم بما يُناسبهم، هي الأقرب إلى روح الإسلام، والأقدر على التأثير فيهم للحديث الشريف {خاطبوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله}.

ثالثًا: إحياء المساجد وتجديد الروح الإيمانية.

لقد أسهمت دعوة التبليغ بشكل كبير في إحياء المساجد المهجورة، وإعادة الحياة إليها بحلقات العلم والذكر والصلاة، وذلك في كثير من الدول الإسلامية وغير الإسلامية ، وقد حفزت الدعوة الملايين من المسلمين

---

[1] *رواه البخاري*

على الالتزام بالصلوات الخمس، وقراءة القرآن، والتحلي بالأخلاق الإسلامية، والإقبال على المساجد وعمارتها مما أحدث تحولًا إيجابيًا في حياة الكثيرين.

وقد تحقق بذلك وعد الله في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [1]، فمن عمّر المساجد بالإيمان والعمل، فقد أحياها بحق، وأحيا بها قلوبًا كانت ميتة. فإحياء المساجد بحلقات العلم والذكر هو الطريق لإحياء الإسلام في كثير من مناطق العالم الإسلامي، وهو ما ينبغي فعله من أجل أن يقوم هذا الأمر على كماله وتمامه .

« هناك اتجاهين في فهم قوله تعالى: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الأول أن هؤلاء متفرغون للعبادة. والثاني: أنهم لا يلهيهم العمل مع وجوده عن القيام بالواجبات الدينية.

قال ابن كثير رحمه الله : (قال هشيم عن شيبان قال: حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوما من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة. فقال عبد الله بن مسعود: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الآية. وهكذا روى عمرو ابن دينار القهرماني عن سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق، فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم، ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: ما يسرني أني قمت على هذا الدرج أبايع عليه،

[1] التوبة: 18

أربح كل يوم ثلاثمائة دينار، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

أقول: هذا يدل على أن أبا الدرداء قد فهم النص على أن المراد به التفرغ للعبادة، والأكثرون على غير ذلك، قال عمرو بن دينار الأعور: كنت مع سالم بن عبد الله، ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ثم قال: هم هؤلاء. وكذا قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها. وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ يقول: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال مقاتل بن حيان، والربيع بن أنس. وقال السدي: عن الصلاة في جماعة. وقال مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا علي مواقيتها وما استحفظهم الله فيها » [1] ومن خلال حركة التبليغ نقول إنهم قد جمعوا بفضل الله تعالى بين التفرغ للعبادة أحيانا وعمارة المساجد حيث يخرجون في سبيل الله تعالى لفترات ومدد مختلفة ويخرجون الناس معهم في سبيل الله ، وبين القيام بحياتهم الشخصية والدنيوية ، فلا يطغى جانب على جانب .

---

[1]«الأساس في التفسير» (7/ 3790): سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ)

رابعًا: بناء الأخوة والترابط بين المسلمين.

من أهم إنجازات حركة التبليغ والدعوة بناء جسور الأخوة والترابط بين المسلمين من مختلف الأعراق والجنسيات واللغات . فالخروج في سبيل الله يجمع أفرادًا من مشارق الأرض ومغاربها في دعوة واحدة تعتمد على الثوابت والأصول التي لا يختلف عليها مسلم في شرق الدنيا مع أخيه المسلم في غربها ، يُعلمهم التعاون، والإيثار، والصبر، والتواضع، ويُعزز فيهم روح الجماعة، ووحدة الصف، وتراحم الأمة.

وقد قال الله تعالى :﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1]، وقال النبي ﷺ" :المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره[2] "، فالدعوة التي تُحيي هذه المعاني، وتُجسدها في الواقع، هي دعوة تُعيد للأمة وحدتها، وتُزيل عنها ما تراكم من فرقة واختلاف، وتُعيد بناء جسد الأمة الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

« لقد أصبحت الأمة الآن غثاء من النفايات البشرية، تعيش على ضفاف مجرى الحياة الإنسانية كدويلاتٍ متناثرة بل متصارعة متحاربة، تفصل بينها حدودٌ جغرافية مصطنعة، ونعرات قومية جاهلية، وترفرف على سماء الأمة رايات القومية والوطنية، وتحكم الأمة قوانين الغرب العلمانية، إلا ما رحم ربك جل وعلا.

---

[1] الحجرات: 10

[2] رواه مسلم

وتدور بالأمة الدوامات السياسية فلا تملك الأمة نفسها عن الدوارن، بل ولا تختار لنفسها حتى المكان الذي تريد أن تدور فيه، ذلت بعد عزة، وجهلت بعد علم، وضعفت بعد قوة، وأصبحت في ذيل القافلة بعد أن كانت الأمة بالأمس القريب جداً تقود القافلة كلها بجدارةٍ واقتدار.

وأصبحت الأمة الآن تتسول على موائد الفكر العلمي والإنساني، بعد أن كانت الأمة بالأمس القريب منارةً تهدي الحيارى والتائهين ممن أحرقهم لفح الهاجرة القاتل، وأرهقهم طول المشي في التيه والظلام، بل وأصبحت الأمة الآن تتأرجح في سيرها، بل ولست مبالغاً إن قلت: ولا تعرف طريقها الذي ينبغي أن تسلكه وتسير فيه، بعد أن كانت الأمة بالأمس القريب جداً الدليل الحاذق الأرب في الدروب المتشابكة، والصحراء المهلكة التي لا يهتدي للسير فيها إلا المجربون، لقد أصبحت الأمة الآن قصعة مستباحة لأحقر وأخزى وأذل أمم الأرض، وصدق في الأمة قول الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود من حديث ثوبان: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: كلا.

ولكنكم يومئذٍ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، وليوشكن الله أن ينزع المهابة من قلوب عدوكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)» [1] هذا التوصيف الدقيق العميق لحال الأمة المحمدية يستحث عقولنا وقلوبنا للتحرك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك الأمة المكلومة لإعادتها إلى الريادة والسيادة مرة ثانية كما كانت ، ولهذا تقوم حركة التبليغ والدعوة بجهدها – لا نقول هو

---

[1] «دروس الشيخ محمد حسان» (5/ 3 بترقيم الشاملة آليا): الشيخ محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن حسان .

الجهد الأمثل ولكنه جهد المقل – لوحدة الأمة وربط المسلمين في كل بقعة من بقاع العالم بعضهم ببعض بطريقة يسيرة هادئة ، وقد نجحت بفضل الله تعالى في ذلك .

خامسًا: التأثير على مستوى الأفراد والأسر.

لقد أحدثت دعوة التبليغ تحولًا عميقًا في حياة الكثير من الأفراد والأسر، ممن كانوا يعيشون في غفلة عن الدين، ثم عادوا إلى طريق الالتزام، بفضل الله تعالى ثم بجهود الدعاة الذين خاطبوا القلوب قبل العقول، وركزوا على تقوية الإيمان، وتصحيح العبادات، وتزكية النفوس.

وهذا التغيير الداخلي هو جوهر الإصلاح، وهو ما دعا إليه النبي ﷺ حين قال" :ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب[1] "، فدعوة التبليغ تُخاطب هذه المضغة، وتُصلحها، لتُصلح بها حياة الإنسان كلها، وتُعيده إلى فطرته، وتُخرجه من ظلمات الغفلة إلى نور الطاعة والعبادة.

لقد جاء الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بدعوة، قلبت حياة البشر رأسا على عقب، ولم تكن تلك الدعوة تتناول عقيدتهم وحدها، بل شملت حياتهم في جميع مظاهرها: في السياسة، وفي الاجتماع، وفي المال، وفي البيت ، ولهذا تقدم كل حركة إسلامية جهدها لإكمال الصورة التي كانت محققة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ليتحقق من ذلك التأثير الكامل على الفرد والمجتمع ، ومن ذلك ما تقوم به حركة التبليغ ،

---

[1]رواه البخاري ومسلم

يتضح مما سبق أن دعوة التبليغ ليست مجرد حركة دعوية عابرة، بل هي منهج إصلاحي شامل، استطاع أن يُعيد الناس إلى المساجد، ويُحيي فيهم روح الإيمان، ويُبني جسور الأخوة، ويُحدث تحولًا في حياة الأفراد والأسر، بأسلوب بسيط، قائم على الحكمة والموعظة الحسنة، دون تعقيد أو تصنيف. وهي دعوة تنسجم مع مقاصد الشريعة، وتُجسد في الواقع العملي ما دعا إليه القرآن والسنة من إصلاح، وتزكية، وتراحم، وتعاون على البر والتقوى.

المبحث الثاني : جهود دعوة التبليغ في نشر الإسلام وأثرها على المسلمين في الغرب .

وفي ظل التحديات الثقافية والدينية والمجتمعية والسياسية التي تواجه جاليات المسلمين والمنتمين للإسلام في بلاد الغرب، برزت حركة التبليغ كواحدة من الحركات الدعوية التي استطاعت أن تُقدم نموذجًا عملياً في نشر الإسلام بين غير المسلمين، بأسلوب يتسم بالحكمة الشديدة ، والرحمة الحقيقية ، والواقعية الملموسة ، بعيدًا عن الجدل العقيم أو التصادم الثقافي. وقد أثمرت جهودهم بفضل الله تعالى في تثبيت حال كثيرين من أبناء الجاليات العربية والمسلمة في بلاد الغرب ممن كان على وشك الانخراط في دين الغرب فضلا عن ثقافته وحياته ، كذلك أدت حركتهم إلى دخول أعداد غفيرة من غير المسلمين إلى الإسلام، وتكوين صورة إيجابية عن الدين في المجتمعات الغربية، مما يستدعي دراسة منهجهم الدعوي، وتحليل أثره في ضوء الكتاب والسنة.

أولًا: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

يختلف الأمر كثيرا في المجتمعات الغربية عن المجتمعات العربية المسلمة ، حيث تُعد الأقليات المسلمة هناك جزءًا من نسيج متعدد الثقافات والأديان، وهنا تُظهر دعوة التبليغ منهجًا منضبطًا في الدعوة إلى الإسلام

وتعاليميه ، قائمًا على اللين، والرفق، وحسن المعاملة والحكمة والعقلانية . فهم لا يدخلون في جدالات لاهوتية معقدة، ولا يُخوضون في مسائل فلسفية أو كلامية، ولا ينخرطون في مناظرات مع غير المسلمين ، بل يُعرّفون الناس بالإسلام من خلال القدوة الحسنة، والسلوك النبيل، والتعامل الراقي، الذي يُجسد مكارم الأخلاق التي جاء بها النبي ﷺ.

إن دعوة التبليغ تراعى في دعوتها أن يكون الوقت مناسباً، والطرف الآخر متهيئاً ويتجنَّب ما يثير انزعاج الخصم، ويُتعامل معه باللين وأنه باحث عن الحق ، ويمنع التهجم على ما يعتقده، فإن هذا ليس من الحكمة، وقد يؤدي إلى إصراره على باطله وخصوصاً إذا كان زميلا في العمل أو جارا في المسكن .

وقد أمر الله تعالى بذلك فقال :﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [1] وهذا التعامل من لوازم الحكمة والموعظة الحسنة ، والشدة والعنف والخطاب الصارم المعادي للآخر ينقض هذه الحكمة ويخالفها تماما خاصة في بلاد هي غير مسلمة ولا تعتقد اعتقادك ، وقال سبحانه أيضًا :﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [2]، وهذا يدل على أن الدعوة إلى الله تعالى لا تكون نافعة إلا إذا اقترنت بالحسنى، والرفق، والرحمة، لا بالغلظة أو التنفير والتعنيف والتعيير والتكفير .

كما قال النبي ﷺ" :إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق[3] " فالدعوة التي تُجسد الأخلاق النبوية هي الأقدر على التأثير، والأقرب إلى القلوب، خاصة في بيئات يغلب عليها الحساسية تجاه الدين.

---

[1] النحل: 125

[2] البقرة: 83

[3] رواه البخاري في الأدب المفرد

ثانيًا: الوصول إلى فئات متنوعة من غير المسلمين.

من أبرز ما يُميز حركة التبليغ في الغرب، قدرتهم على الوصول إلى فئات متعددة من غير المسلمين، من خلال ما يُعرف بـ"الجولات الدعوية" في الشوارع والطرق والملاهي الليلية وأماكن تجمع الناس في الحدائق العامة وغيرها ، حيث يخرج أفراد الجماعة المتحركة إلى الأماكن العامة، كالحدائق، والأسواق، والجامعات، ويلتقون بالناس بلطف، ويُقدمون لهم بطاقات تعريفية بالإسلام، أو يدعونهم لزيارة المساجد للتعرف على الدين عن قرب.

وفي شوارع لندن، ونيويورك، وباريس، وغيرها، يُلاحظ وجود أفراد من تلك الجماعة المتحركة يُخاطبون الناس بلغاتهم، ويُقدمون لهم نبذة عن الإسلام بأسلوب بسيط، غير عدائي، يُراعي السياق الثقافي، ويحترم خصوصية الآخر، دون فرض أو إكراه.

وهذا الأسلوب يُجسد قول الله تعالى :﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [1] فالداعية الذي يُخاطب الناس برحمة، ويُراعي مشاعرهم، هو الأقرب إلى التأثير، والأبعد عن النفور.

ثالثًا: التركيز على القيم الإنسانية المشتركة.

منهج حركة التبليغ في الغرب لا يقوم على عرض الأحكام الفقهية ولا المسائل العقدية ابتداءً، بل يُركز على القيم الإنسانية التي يُعليها الإسلام، كالسلام، والرحمة، والعدل، وحسن الخلق، وهي قيم تُعد مدخلًا طبيعيًا

1آل عمران: 159

للحوار، والتعريف بالإسلام بطريقة محببة ومقبولة ، إضافة إلى مخاطبة العقل بذكر الخطاب الذي أخذ به النبي صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش وهو دعوتهم بمظاهر الربوبية .

إن مظاهر الربوبية في الكون هو الشيء الذي أقر به الكفار بديهة فيجب الإقرار به وتكراره لهم ، واما ما يجب التصديق به مما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو الألوهية وغيره ، ولكن العناية تكون بقسم توحيد العبادة – الاصطلاحي - الذي خلقت من أجله الخليقة وأرسلت من أجله الرسل، والله عز وجل يقول: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [1]أي: ليؤمروا وينهوا ، وقول الله عز وجل: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [2]، وقوله سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [3]، فهذا هو الذي يجب أن يعتنى به وهو أشد إثباتا من الربوبية ، ولكن لا مدخل له إلا من الحديث عن توحيد الربوبية أولا ثم التعريج منه إلى إثبات الألوهية والعبادة ، كما أن الكفار الذين كانوا مقرين بالربوبية كان يأتي تقرير توحيد الربوبية من أجل إلزامهم بتوحيد الإلهية، أي: كان يأتي تقرير الربوبية ثم يأتي بعده إنكار وجود إله مع الله، ويبين لهم أنه كيف تعتقدون بأنه كذا وكذا مع ذلك؟

فأهل الدعوة يُظهرون للغرب أن الإسلام ليس دينًا خاصًا بجماعة أو عرق، بل هو دين عالمي، يُخاطب الفطرة، ويُعزز القيم التي يتفق عليها البشر، مما يُزيل الحواجز النفسية، ويُفتح آفاقًا للتواصل والتأثير وقد قال

---

1 [الذاريات:56]

2 [النحل:36]

3 [الأنبياء:25]

الله تعالى :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [1]، فالإسلام رحمة، والدعوة إليه يجب أن تُجسد هذه الرحمة، وتُظهرها في التعامل، والسلوك، والخطاب.

رابعًا: بناء المساجد والمدارس الإسلامية :

للمسجد في الإسلام أهمية عظمى ، ولذلك كان أو ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حينما وصل المدينة المنورة أن (بني المسجد النبوي حيث بركت ناقة النبي - صلى الله عليه وسلم - حين وصل إلى المدينة قادما من مكة، وكان هذا المكان ليتيمين يقوم على تربيتهما أسعد بن زرارة، وكان أسعد قد أقام في هذا المكان قبلا مكانا صغيرا للصلاة، وحين أراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتخذ هذا المكان مسجدا، رفض الغلامان اليتيمان أن يأخذوا قيمة الأرض، وأرادت قبيلة بني النجار أن يسمح لها بدفع قيمة الأرض، فأبى النبي - صلى الله عليه وسلم - وابتاعه من الغلامين بعشرة دنانير، ودفع الثمن أبو بكر الصديق، ثم سويت الأرض وبنى عليها المسجد، وكان طوله مائة ذراع ، وشارك النبي - صلى الله عليه وسلم - في بناء المسجد فكان يحمل الطين والحجارة ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة 2

وكان الصحابة أيضا ينقلون الحجارة ويرتجزون هذا الشعر:

---

[1] الأنبياء: 107

[2] صحيح البخاري عن أنس، كتاب الصلاة

لئن جلسنا والرسول يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

وكان ارتفاع المسجد الذي بنيت جدرانه من الطين اللبن ثلاثة أذرع، وكانت أعمدته جذوع النخيل وسقفه من السعف.

وقال الصحابة ألا نسقفه؟ فقال النبي: لا، هكذا أفضل كعريش موسى ، وكان السقف إذا نزل المطر يتقطر منه الماء فيسقط الطين على أرضية المسجد، وكان المسلمون المؤمنون بربهم يسجدون فوق هذا الوحل) 1

ولمن يبني المسجد في الإسلام أجر عظيم وفضل عميم ، فعن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده، عن النبي -صلي الله عليه وسلم -، قال: "من بني لله مسجدًا بُني له بيتٌ أوْسَعُ منه في الجنة" 2 وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ عُثْمَانَ، لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ كَرِهَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقَالَ عُثْمَانُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا، بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ» 3

ومن مظاهر جهود أهل التبليغ في الغرب أن انتشرت المساجد حتى بلغت عشرات الآلاف في بلاد الغرب في الأمريكتين وأوروبا واستراليا إضافة إلى بلاد روسيا والصين وغيرها . فلا تكاد تجد بلدا غربيا أو غير

---

[1] «رحمة للعالمين» (ص180): محمد سليمان المنصورفوري (ت ١٣٤٨هـ) ، ترجمه من الأردية إلى العربية: د. سمير عبد الحميد إبراهيم .

[2] مسند أحمد 7056

[3] مسند الدارمي 1432

مسلم إلا وقد أنشأ وأقام فيه الدعاة من أهل التبليغ أو من أسلم على أيديهم أو من اهتدى بسببهم إلى طريق الدعوة والعمل الإسلامي قام ببناء مسجد أو القيام على مسجد ، وهذا جهد لو تعلمون عظيم .

خامسا: دخول أعداد من غير المسلمين في الإسلام.

بفضل الله تعالى، ثم بجهود دعاة التبليغ، أسلمت أعداد لا بأس بها من غير المسلمين في بلاد الغرب، بعد أن تعرفوا على الإسلام من خلال التعامل المباشر مع أفراد الجماعة، أو من خلال المحاضرات البسيطة التي تُلقى في المساجد، أو اللقاءات المفتوحة التي تُنظم للتعريف بالدين.

وقد شهدت المساجد في أوروبا وأمريكا دخول الملايين من الرجال والنساء إلى الإسلام، بعد أن لمسوا صدق الدعاة، وطيب أخلاقهم، وبساطة خطابهم، وواقعية منهجهم، مما يُثبت أن الدعوة بالحسنى، والقدوة، والتواصل الإنساني، هي من أنجح وسائل الدعوة في العصر الحديث.

وهذا يُجسد حقيقة قول الله تعالى :﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [1]، فالدعوة الصادقة، المقرونة بالعمل الصالح، هي التي تُثمر الهداية، وتُحقق المقصود الشرعي من البلاغ.

يتضح من هذا العرض أن جهود حركة التبليغ في الغرب ليست عشوائية أو ارتجالية، بل هي جهود منظمة، قائمة على منهج نبوي، يُراعي الحكمة، والموعظة الحسنة، والرحمة، والواقعية، ويُركز على القيم المشتركة، ويُخاطب الناس بما يُلامس فطرتهم، ويُزيل عنهم التصورات السلبية عن الإسلام. وقد أثمرت هذه الجهود

---

[1] النصر : 2

دخول أعداد من غير المسلمين في الإسلام، وتكوين صورة إيجابية عن الدين، مما يُعد من أعظم صور البلاغ في هذا العصر، ويُثبت أن الدعوة بالحسنى هي السبيل الأقوم لنشر الإسلام في المجتمعات غير المسلمة.

المبحث الثالث : الكثرة والقلة بين المدح والذم في الخطاب السلفي المعاصر.

من الملاحظات المنهجية التي تستحق التأمل في الخطاب السلفي المعاصر ، ما يتعلق بتعامل بعض المنتسبين إليه مع مفهومي "الكثرة" و"القلة"، حيث يُلاحظ تناقضٌ واضحٌ في توظيف هذين المفهومين بين المدح والذم، تبعًا للانتماء أو الموقف، لا بناءً على معيار شرعي ثابت. فالكثرة تُمدح حين تكون في صالحهم، وتُذم حين تكون في صالح غيرهم، مما يُظهر اختلالًا في الميزان، ويُشير إلى أن الأحكام قد تتأثر بالولاء المنهجي، أكثر من استنادها إلى قواعد شرعية مجردة.

الكثرة كميزان متأرجح في الخطاب السلفي المعاصر .

مدح الكثرة في جنائز رموزهم:

عندما يتعلق الأمر بجنائز العلماء أو الشخصيات المحسوبة على التيار السلفي المعاصر ، تُعد الكثرة في الحضور دليلاً على الصلاح، والقبول الرباني، وعظيم المنزلة، وحب الناس لهم. وتُذكر الأعداد الغفيرة كبرهان على أن هؤلاء العلماء كانوا على الحق، وأن دعوتهم مباركة ومؤثرة. ويُستدل بذلك على صحة المنهج، ونجاح المسيرة الدعوية، ويُقال إن "المشهد المهيب" و"جموع غفيرة" صلى عليها الناس، دليل على مكانة الفقيد عند الله.

معتمدين على أقوال عن بعض علماء السلف ، قال أبو عبد الرحمن السلمي: حضرت جنازة أبي الفتح القواس مع الدارقطني، فلما نظر إلى الجمع قال: سمعت أبا سهل بن زياد، سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل سمعت أبي يقول: " قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز " ، وهذا التفسير، وإن كان له وجه من حيث دلالة القبول العام، إلا أنه لا يُعد دليلاً شرعيًا قاطعًا على صلاح الميت، إذ إن الكثرة لا تُثبت وحدها القبول عند الله، كما قال تعالى :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1]، فالمعيار الحقيقي هو التقوى، لا عدد المشيعين. فكم رأينا من علماء ثقات لم يشيعهم أحد ولم يحفل بل ولم يعرف أحد بموتهم ، وكثير من الأتقياء الأخفياء لم يحدثوا ضجة ولا جلبة ، وربما الأثر العددي الكبير في غالب الجنائز الكبرى يرجع إلى الشهرة الواسعة التي يحظى بها الفقيد ! .

ذم الكثرة في جنائز غيرهم:

وفي المقابل، إذا كانت الجنازة لشخصية جماهيرية لا تنتمي إلى التيار السلفي، كالسلاطين أو السياسيين أو حتى علماء الدين ممن ليسوا على طريقتهم ولا منهاجهم ، فإن الكثرة تُذم، وتُربط بالدنيا، والجهل، واتباع الهوى. ويُقال إن هذه الجموع دليل على غفلة الأمة، وانحرافها عن الدين، ولا تُعتبر دليلاً على صلاح الميت أو قبوله.

---

[1] الحجرات: 13

وقد يُستشهد في هذا السياق بقول الله تعالى :﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1]، وقوله :﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [2]، وهذه الآيات تُبيِّن أن الكثرة ليست دائمًا دليلاً على الحق، بل قد تكون علامة على الغفلة والضلال.

ولكن الإشكال لا يكمن في الاستشهاد بهذه النصوص، بل في التناقض في توظيفها، حيث تُمدح الكثرة حين تكون في صالح الذات، وتُذم حين تكون في صالح الآخر، دون معيار ثابت.

ازدواجية المعايير بمدح وذم قلة الأتباع لدي الخطاب السلفي المعاصر .

كما ظهر التناقض في توظيف مفهوم الكثرة، يتكرر المشهد ذاته في التعامل مع مفهوم القلة، حيث تُمدح حين تكون في صالح الذات، وتُذم حين تكون في صالح الآخر، مما يُظهر خللًا في الميزان، وانحرافًا عن المعيار الشرعي الموضوعي.

مدح القلة في أتباعهم:

حين يكون أتباع التيار السلفي في مرحلة ما أو في منطقة معينة قلة، يُوظف هذا الواقع في سياق المدح، ويُربط بمفهوم "الغُربة" الذي ورد في الحديث النبوي الشريف" :بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء[3] "، ويُقال إن قلة السالكين طريق الحق دليل على صعوبة المنهج، ونقاء المسار، وأن "أهل

---

[1] الأعراف: 187

[2] الأنعام: 116

[3] رواه مسلم

الحق هم أهل القلة"، ويُستشهد أحيانًا بقصة نوح عليه السلام، الذي آمن معه قليل، ومع ذلك كان على الحق المبين.

ويُقال في هذا السياق: "نحن أهل الحق رغم قلتنا، فالحق لا يُقاس بالكثرة"، وهذا التوظيف يمنح القلة شرعية معنوية، ويُعزز من مكانة التيار، ويُضفي عليه صفة التميز والاستقامة في زمن الفتن.

ذم القلة عند غيرهم:

في المقابل، إذا كانت حركة دعوية أخرى – كحركة التبليغ أو غيرها من الحركات الإصلاحية – تعاني من قلة الأتباع في سياق معين، أو لم تحقق الانتشار المأمول، فإن هذه القلة تُذم، وتُربط بضعف الدعوة، وهزال البراهين، وقلة التأثير، ويُقال إن هذا دليل على عدم صحة المنهج، أو عدم قبوله عند الناس.

ويُسمع في هذا السياق: "انظروا، دعوتهم ضعيفة، لم يتبعهم إلا القليل، وهذا دليل على أن منهجهم غير سليم"، وهنا تُصبح القلة علامة على الفشل، لا على الغربة النبوية، ولا على صفاء المنهج، مما يُظهر تناقضًا صارخًا في توظيف المفهوم ذاته.

التناقض واختلال الميزان الشرعي.

إن هذا التناقض في التعامل مع الكثرة والقلة يُظهر اختلالًا في الميزان الشرعي، ويُشير إلى أن الأحكام قد تُبنى أحيانًا على الانتماء لا على الاستقامة، وعلى الولاء لا على الدليل. وهذا يُخالف المنهج القرآني الذي يُقرر أن الكثرة ليست معيارًا للحق، ولا القلة دليلًا على البطلان، بل يُحكم على الأشخاص والأفعال وفق موازين الشرع:

- الاستقامة على الدين
- العمل الصالح
- الإخلاص لله تعالى

وقد قال الله تعالى في مواضع متعددة :﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [1]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [2]، وهذا يدل على أن الكثرة لا تُغني عن الحق شيئًا، وأن القبول عند الله لا يُقاس بعدد الأتباع أو المشيعين، بل يُقاس بصدق الإيمان، وصلاح العمل.

وفي المقابل، قد تكون الكثرة دليلًا على انتشار الخير، كما في قوله تعالى :﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [3]، لكن هذا لا يُثبت صلاح كل فرد، بل يُثبت انتشار الدعوة، وظهور الدين، وهو أمر متعلق بالعموم لا بالأفراد.

فالمنهج الشرعي لا يُقرر أن القلة دليل على الحق، ولا أن الكثرة دليل على الباطل، بل يُحكم على الدعوة وأتباعها بناءً على مدى التزامهم بالكتاب والسنة، واستقامتهم على المنهج الصحيح، وإخلاصهم لله تعالى.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يُثبت أن القلة قد تكون على الحق، كما في قوله تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [4]، وفي المقابل، قد تكون الكثرة على الباطل، كما في قوله تعالى :﴿وَإِن تُطِعْ

---

[1] المؤمنون: 70

[2] الأنفال: 23

[3] النصر: 2

[4] هود: 40

أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [1]، وهذا يدل على أن العدد لا يُعد معيارًا للحكم، بل يُنظر إلى جوهر الدعوة، ومضمونها، ومدى موافقتها للشرع.

وقد قال النبي ﷺ" :عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد[2] "، فحتى الأنبياء قد يُبعثون ولا يتبعهم أحد، ومع ذلك فهم على الحق، وهذا يُثبت أن القلة لا تُعد مذمة، ولا الكثرة فضيلة مطلقة.

المنهج الصحيح في تقييم الكثرة والقلة.

«وقد يفهم البعض أن معنى بيننا وبينكم الجنائز كثرة عدد المشيعين في جنازة الموحدين، وقلة العدد في جنازة غير الموحدين، ولكن ليس هذا هو المقصود، وإنما بيننا وبينكم الجنائز، معناها أن تنظر في جنازة الصالح فلا تجد إلا الصالح، وأن تنظر في جنازة الظالم فلا تجد إلا الظالم، يعني: لا يشيع جنازة الصالح إلا أهل الصلاح، وليس المقصود العدد؛ لأنه يوم أن مات العندليب الأسمر شيّع جنازته مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف، وكلهم يبكي، ولكن الذي مشى خلفه هم الملحنون والهابطون والراقصون والممثلون، وكل أهل الظلم والفسق، وما وجدت رجلاً ملتحياً صالحاً يسير خلفه، وهذه مصيبة كبيرة جداً، ويوم أن يموت العالم تجد في جنازته العلماء والأئمة وأهل القرآن والصلاح، فجنازة أهل الصلاح لا يسير فيها إلا أهل الصلاح، وجنازة

---

[1] الأنعام: 116

[2] رواه البخاري ومسلم

الظلمة لا يسير فيها إلا الظلمة، فليس المقصود كثرة العدد، وهناك جنازات كبيرة للظلمة يسير فيها الملايين، ولكن الذين يشيعونها لا علاقة لهم بالدين من بعيد ولا من قريب» [1]

إن المنهج الشرعي يقتضي أن يُنظر إلى الكثرة والقلة باعتبار السياق، لا باعتبار الانتماء. فالكثرة قد تكون خيرًا، وقد تكون شرًا، والقلة قد تكون علامة على صفاء المنهج، وقد تكون علامة على ضعف التأثير. ولا يصح أن يُمدح أو يُذم العدد بذاته، بل يجب أن يُربط بالحق والباطل، وبالعمل الصالح والانحراف.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : " بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء " [2]، فالغربة لا تُعد مذمة، والكثرة لا تُعد فضيلة مطلقة، بل يُنظر إلى جوهر الدعوة، ومضمون العمل، ومدى موافقته للشرع.

يتبين مما سبق أن التعامل مع مفهومي الكثرة والقلة في الخطاب السلفي المعاصر يحتاج إلى مراجعة منهجية، تُعيد ضبط الميزان الشرعي، وتُبعد الأحكام عن التحيز والانتماء، وتُقرّبها من النصوص والمقاصد. فالكثرة ليست دليلًا على الحق، ولا القلة دليلًا على الباطل، بل يُحكم على الأشخاص والأفعال وفق معيار الاستقامة، والإخلاص، والعمل الصالح. وهذا هو الميزان الذي يُرضي الله، ويُحقق العدل، ويُبعد الدعوة عن التناقض والتشويه.

---

[1] «شرح صحيح البخاري - أسامة سليمان» (15/ 7 بترقيم الشاملة آليا): أسامة علي محمد سليمان .

[2] رواه مسلم

اختلال الموازين والمعايير المزدوجة .

إن هذا التناقض في التعامل مع مفهومي الكثرة والقلة لدى الأتباع والخصوم في ذات القضية والمسألة يُظهر أن الحكم لا ينطلق من معيار شرعي ثابت ومجرد، بل يتأثر بعوامل غير موضوعية، منها:

الولاء المنهجي حيث يُقدّم الولاء للتيار أو الجماعة على المقياس الشرعي، فتُصبح الكثرة أو القلة حسنة أو سيئة بناءً على انتماء من تنطبق عليه، لا بناءً على معيار الاستقامة أو الإخلاص أو العمل الصالح.

الرغبة في التفوق الدعوي حيث يسعى كل تيار لإثبات أنه على الحق، وأنه الأكثر تأثيرًا، فيُوظف أي دليل – سواء الكثرة أو القلة – لخدمة هذا الهدف، حتى لو كان ذلك يتطلب تناقضًا في المعيار، وتبديلًا في الحكم.

ضعف الإنصاف والعدل حيث أن الميزان المختل يُفقد الحكم الموضوعية، ويُضعف الإنصاف الذي يجب أن يتصف به أهل العلم والدعوة، ويُؤدي إلى إصدار أحكام متناقضة تخدم أجندات معينة، بدلًا من خدمة الحق وحده ، وقد قال الله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [1]، فالعدل هو أساس الحكم، والإنصاف هو ميزان الدعوة، ومن فقدهما فقد المصداقية، وأفسد النقد، وأضر بوحدة الأمة.

ولهذا نقول إن التعامل مع مفهومي القلة والكثرة في الخطاب السلفي المعاصر يعاني من ازدواجية في المعايير، وتناقض في التوظيف، مما يُضعف من مصداقية النقد، ويُعمق الشقاق بين المسلمين، ويُحول الدعوة إلى ساحة تنافس لا إلى ميدان إصلاح. والمنهج السليم يقتضي أن يُحكم على الدعوات والأفراد وفق معيار

---

[1] النساء: 135

الاستقامة على الكتاب والسنة، لا وفق عدد الأتباع، ولا بناءً على الانتماء، بل وفق العدل والإنصاف، الذي هو جوهر الدين، وميزان الحق، ومفتاح القبول عند الله.

الفصل التاسع عشر : الرد على بعض دعاة التبليغ ممن يزعم بأن أهل التبليغ يجب أن يكونوا أشعرية وماتريدية المعتقد أو صوفية المشرب والسلوك أو حنفية التفقه:

كما أسلفنا سابقا فإن دعوة التبليغ نشأت في الهند على يد الشيخ العلامة محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله ، ولم تكن في نشأتها متحزبة لحزب معين ولا اختيار معين في مذهب فقهي ولا في منهج عقدي ولا طريق سلوكي ، ولذلك لم تنغلق على نفسها في جماعة منغلقة تدعوا الى الجماعة فقط كما يزعم أو يظن أو يتصور البعض ، ومن الواضح والثابت تاريخيا أنه لم يثبت يوما عن أحد من شيوخها القدامى والمعاصرين أنه قال إن دعوتنا هذه أشعرية أو ماتريدية أو حنفية أو طرقية ! بل كل ما يؤثر عنهم هو الدعوة إلى الله وتعريف الناس بالله تعالى ودلالتهم على طريق الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ولما بدأ ينتشر مؤخرا من بعض دعاة التبليغ أنفسهم والذين لم يستقيموا حق الاستقامة على توجيهات المشايخ الكبار حينما أصلوا لهم أصولا وقالوا لا تتدخل في المسائل الخلافية ولا الفقهية ولا الاختلافات العقدية ولا الجماعات المعاصرة ولا المسائل السياسية ! فخالفوا في بعض تلك الأصول وتأثروا بطريقة دعوات معاصرة ، فلما أرادوا خلافهم ومناغشتهم ومناقشتهم وقعوا في خطأ نسبة " الانتساب إلى منهج عقدي أو مذهب فقهي أو طريقة سلوكية" إلى حركة الدعوة التبليغ ! ، من باب المقابلة والمخالفة لما يجدون من خصومهم المعاصرين ، وبعض حاشية هؤلاء المشايخ يتأثرون بهم تأثرا كبيرا كما هو معتاد فيأخذون نفس النهج ويُستدرجون لنفس المعترك وهو النقاشات والخلافات مع الجماعات المعاصرة بل وتحزيب دعوة التبليغ العالمية المحايدة وجعلها في طرف أحد الفريقين المتخاصمين المختلفين ! وهذا لم يقل به شيوخنا ولم نسمع به قط قبل هذه السنوات ! ولهذا وجب علينا أن نفرد هذا الموضوع بفصل خاص ، ليكون أصرح

وأوضح للقارىء ، ولكي لا يلتبس على أهل التبليغ أنفسهم منهجهم الذي أتاهم من أفواه المشايخ لا من الكتب والمنشورات .

المبحث الأول: حيادية مشايخ ورموز التبليغ في التوجه العقدي والفقهي.

من الأمور الثابتة أن شيوخ أهل التبليغ والدعوة لم يعرف عنهم تعصب لمنهج عقدي ولا مذهب فقهي ولا طريقة سلوكية ولا حزب سياسي ولا جماعة تنظيمية ، بل ولائهم الكامل للحق مع حفظ قدر كل مسلم ووسطية واعتدال في تناول المسائل ، ومع الأخذ في خاصة أنفسهم بمنهج أو مذهب أو طريقة إلا أنهم لا يتبنوا ذلك نخطاب عام لحركتهم الدعوية ، لأن الحركة الدعوية اختطت لنفسها خطا خاصا لم تحد عنه ولم تنحرف ولم تتأثر بالمعاصرة ولا المناغشة .

أولًا: لم يُعرف عن شيوخ التبليغ أنهم أعلنوا انتماءهم العقدي أو الفقهي في أثناء الدعوة ولا دعوا إليه .

فمنذ نشأة دعوة التبليغ في شبه القارة الهندية، لم يُسجل عن مؤسسها فضيلة الشيخ العلامة محمد إلياس الكاندهلوي، ولا عن كبار تلامذته ولا أولاده ولا المقربين منه ولا حتى عن كبار المشايخ المعتمدين في الدعوة في الهند وباكستان وبانجلاديش وكذلك في باقي دول العالم فيما بعد سواء في الدول العربية أو الأعجمية على حد سواء ! لم يعرف قط يوما عن أحدهم ، أنهم أعلنوا انتماءهم إلى مذهب عقدي معين كالأشعرية أو الماتريدية ودعوا الناس إليه وحثوهم عليه !، ولا إلى مذهب فقهي محدد كالحنفية السائدة في ديوبند أو غيره من المذاهب الفقهية المعتمدة في غير ديوبند كالشافعية والحنبلية والمالكية وغيرها ولا دعوا الناس إليها ولا أفتوهم بفتاواهم التي تفقهوا عليها ! ، وكذلك لم يعهد عنهم أنهم أعلنوا للناس أن طريقة

التبليغ السلوكية هي الطريقة الفلانية أو البيعة على الطريقة السلوكية الفلانية أو ما شابه ذلك ! حتى ولو كان بعض هؤلاء المشايخ صاحب بيعة سلوكية لأحد أشياخه إلا أن هذا أمر مختلف تماما عن كونه يتبنى ذلك في دعوة التبليغ العالمية المعروفه . بل كانوا حريصين كل الحرص على أن تبقى دعوتهم إلى الله تعالى خالصة لله، بعيدة عن التصنيفات والتحزبات والاختلافات التي قد تُحدث فرقة في الأمة أو تثير جدلًا بين المسلمين. وقد انعكس هذا الحرص في خطبهم وكلماتهم، التي كانت تركز على الإيمان والعمل، لا على الجدل العقدي أو الفقهي ، فلم يثبت يوما عنهم شيئا مما ذكرنا ، وهذا يؤكد تأكيدا واضحا أن دعوة التبليغ عالمية على ما تفق عليه سواد المسلمين الأعظم باختلاف ألوانهم ومشاربهم ، لأنها دعوة تجمع الأمة لا تفرقها ، وتوحد الأمة على كلمة سواء لا تزيدها تناحرا واختلافا .

ثانيًا: لم يُسجل عنهم أنهم دعوا إلى الأشعرية أو الماتريدية أو الحنفية أو غيرها .

فلم تكن دعوة التبليغ يومًا من الأيام وسيلة لنشر مذهب معين، سواء في العقيدة أو الفقه أو السلوك . فالدعوة العالمية لم تُستخدم لترويج الأشعرية أو الماتريدية على أنها مذهب أهل السنة العقدي الأوحد في مقابلة باقي من خالفهم ! ، رغم أن بعض مشايخها نشأوا في بيئات تتبنى هذه المذاهب ويتعبدون الله تعالى بها فالدعوة تحترم النشأة التي نشأ فيها دعاتها ما دامت تلك النشأة قد اعتمدتها الأمة وتلقتها بالقبول مهما يكن من اختلاف بين علماء الأمة ! . وكذلك لم تُستخدم تلك الدعوة لترويج مذهب الحنفية الفقهي في مقابلة المذاهب الفقهية الأخرى ! بل قبلوا المذهب الذي تفقهوا عليه وقبلوا غيره وإذا سئلوا عن فتوى وهم سائحون في الدعوة إلى الله في بلد أحالوا على مفتي البلد المعتمد حتى لا تكون فتنة أو أفتوا بفتوى المذهب المعتمد في تلك البلد ، رغم أن الهند كانت بيئة يغلب عليها المذهب الحنفي إلا أنه لم يؤثر على منهجية الدعاة

وسعة صدورهم وعقولهم . بل كانت الدعوة موجهة إلى عموم المسلمين، دون تمييز أو تفضيل، مما جعلها مقبولة في مختلف البيئات التي دخلتها والمجتمعات التي انتشرت فيها سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية .

ولمن يزعم أن منهج التبليغ العقدي أو الفقهي أو السلوكي كذا ! استنباطا من عند نفسه بأن الشيخ المؤسس لتلك الحركة والمجدد لها كان متفقها أو متعلما على هذه المدرسة نقول : - لم يُعرف عن شيوخ التبليغ مطلقا أنهم أعلنوا انتماءهم العقدي أو الفقهي في اثناء الدعوة ولا دعوا الناس إليه ولا حملوهم عليه بل تركوا كل أهل بلد على حسب ما نشئوا وتعلموا وتفقهوا ، فلم يُسجل عنهم أنهم دعوا إلى الأشعرية أو الماتريدية أو الحنفية أو طريقة سلوكية أو بيعة صوفية أو غير ذلك سوى ما هو معلن في أصول الدعوة التي يعلمها القاصي والداني والتي هي مشهورة عن أهل التبليغ .

ثالثًا: تركيز أهل الدعوة منصب على الدعوة إلى الله، لا على التنظير العقدي أو الفقهي .

إن من أبرز ما يميز حركة التبليغ والدعوة هو تركيزها العميق على جوهر الدين، لا على أطرافه، وعلى إحياء الإيمان في القلوب، لا على التنظير العقدي أو الفقهي. فهي دعوة عملية ميدانية، لا تنظيرية، تهدف إلى ربط الناس بالله، وتحفيزهم على التوحيد والصلاة، والذكر، والخروج في سبيل الله، والتخلق بالأخلاق الإسلامية، وانتشالهم من بيئات المعصية والغفلة إلى بيئات الطاعة والهداية. وقد أثمرت هذه الدعوة في تحويل البيوت إلى بيوت إسلامية حقيقية، ونشر السنة في الرجال والنساء والمجتمع بأسره، دون أن يكون همها تصنيف الناس أو إدخالهم في دوائر الجدل العلمي أو الخلافات الفكرية. ولهذا كانت دعوة شعبية، تصل إلى عامة الناس، وتؤثر فيهم ببساطة وصدق، بعيدًا عن التعقيد أو التعصب.

ومن المؤسف أن بعض الخصوم يرمون أهل التبليغ بالتحزب والتعصب لعقيدة الماتريدية، أو الانغلاق على المذهب الحنفي، أو الانتماء إلى طرق سلوكية وبيعات صوفية، وكذلك يزعم هذا بعض أبناء التبليغ ممن تعصب للنشأة الهندية ولم ينظر إلى جوهر الدعوة وخطاب علماءها ، وهي اتهامات ومزاعم لا تصمد أمام التحقيق، ولا تنسجم مع طبيعة الدعوة التي عرف بها أهل التبليغ. فالحركة لم تنشأ لنشر مذهب معين أو عقيدة محددة، ولم يكن هدفها ترسيخ الانتماء إلى مدرسة كلامية أو فقهية، بل كانت دعوتها موجهة إلى عموم المسلمين، تدعوهم إلى الإيمان والعمل، وتحثهم على إصلاح أنفسهم وأهليهم، دون أن تلزمهم باعتقاد أو مذهب أو طريقة. نعم، قد يكون بعض أفرادها من خلفيات ماتريدية أو حنفية أو صوفية، كما هو الحال في بيئتهم الأصلية، لكن ذلك لا يُعد من منهج الحركة الدعوية العالمية ، ولا يُفرض على المنتسبين، ولا يُعتبر شرطًا في القبول أو الخروج أو المشاركة.

إن حركة التبليغ لا تدعو إلى بيعة، ولا إلى أوراد خاصة، ولا إلى شيخ معين، بل تدعو إلى الله وحده، عبر أعمال ظاهرة بسيطة، تُحيي الإيمان وتُصلح الحال، وتُعيد المسلم إلى جو الطاعة والذكر والصلاة. وهي دعوة مفتوحة لكل من أراد أن يقترب من الله، بغض النظر عن مذهبه أو طريقته أو خلفيته العلمية. وقد أثبتت التجربة أن هذه الدعوة، ببساطتها وصدقها، استطاعت أن تؤثر في الناس تأثيرًا عميقًا، وأن تُحدث تحولًا في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، دون أن تدخلهم في دوامة التصنيف أو الجدل أو التحزب.

ومن هنا، فإن من يصف أهل التبليغ بالتعصب أو التحزب إنما يخلط بين الخلفية الشخصية لبعض الأفراد، وبين المنهج الجماعي الذي تسير عليه الدعوة. فالدعوة في أصلها لا تنتمي إلى حزب، ولا تدعو إلى مذهب، ولا تروج لعقيدة، بل هي دعوة إيمانية تربوية، تهدف إلى إحياء الدين في القلوب، وربط الناس بالله،

وتحفيزهم على العمل الصالح، بعيدًا عن الخلافات الفكرية أو العقدية. وهذا ما جعلها دعوة جامعة، مؤثرة، قريبة من الناس، لا تفرق بينهم، ولا تصنفهم، بل تحتضنهم وتوجههم إلى الله، برفق وحكمة ومحبة.

فمن أراد الحكم بالإنصاف، فليتأمل في واقع الدعوة، لا في ظنون الخصوم، ولينظر في أثرها في الناس، لا في خلفيات أفرادها، فإن الحق يُعرف بالمنهج والمقصد، لا بالأسماء والانتماءات.

رابعًا : غلط الاستقراء والاستنباط والنظرة القاصرة المؤدلجة في تقيم منهج التبليغ وتصنيفه :

كثيرًا ما يقع بعض الناس في خطأ التعميم حين يقيمون حركة التبليغ العوية من خلال عدسة ضيقة لا تتجاوز ما تلقوه من شيوخهم أو ما عرفوه من بيئتهم العقدية، فيظنون أن كل من ينتمي إلى هذه الدعوة يسير على نفس النهج الذي نشأ عليه شيوخ الهند أو باكستان في مدارسهم ومقرراتهم التعليميه، أو يعكسون الصورة فيظنون أن أولئك الذين هم في الهند مجرد انعكاس لأتباعهم في البلاد العربية ، فالعرب يرمون أهل التبليغ بأنهم صوفية قبورية مشركون لأنهم يقيسونهم على طوائف منحرفة في الهند ! والتبليغ منهم جميعا براء ، وأهل الهند يرمون أهل التبليغ هناك بأنهم وهابية مجسمة تكفيريون لأنهم وسطيون محبون لجميع المسلمين ليسوا بالغلاة ولا بالمتشددين وهم براء من فكر التبديع والتكفير والتفسيق والتجهيل ! ، وهذا التداخل في التصور يغفل الفروق الجوهرية بين البيئات والنشآت، فلكل بلد خصوصيته في التكوين والتأثر، وإن اتفق الجميع على أصول الدعوة التي تقوم على اللين وسعة الصدر والدعوة إلى مبادىء الإسلام وشمول الدعوة لكل البشرية بكل أشكالها وألوانا حبا في نشر الخير وتحملا للمسئولية العظيمة التي وقعت على كاهل كل فرد في الأمة المحمدية وقبول الآخر دون تشنيع – من غير سبب قوي مبرر - أو مناظرة – لمجرد المناظرة من غير هدف - أو جدال – سطحي أو بيزنطي لا طائل من وراءه - ! .

ثم إن البعض يجنح إلى تصنيف أهل التبليغ من خلال كلماتهم البسيطة وخطبهم وبياناتهم المتكررة ، فيتوقف عند كل لفظة، ويجعلها محورًا للحكم، ويؤولها بحسب فهمه الخاص، دون مراعاة لسياقها أو مقصد قائلها ، وهذا المسلك لا يراعي طبيعة الخطاب الدعوي الذي قد يختلف في التعبير بحسب الداعي والمتلقي والموقف والحال ، ولا يضع في اعتباره أن الملفوظات لا تعكس بالضرورة منهجًا عقديًا أو فقهيًا متكاملًا، بل قد تكون مناسبة لحال الخطاب الدعوي العام أو اجتهادات فردية أو تعبيرات عفوية لا تستحق أن تُبنى عليها أحكام قاطعة.

وكذلك منهم من يعتمد في حكمه على أقوال مشايخهم – أي مشايخ حركتهم وجماعتهم وفكرهم لا يتعدونه - في حركة التبليغ الدعوية العالمية ، خصوصًا في أوساط السلفيات المعاصرة التي تتعدد أطيافها ومشاربها وأيدلوجياتها وتوجهاتها واهتماماتها وتأثرها ومنطلقاتها ولذلك فهي تتناقض في توجهاتها وتوجيهاتها ، حتى إن بعضها يبدّع بعضًا ويخرجه من السلفية ومن السنة رغم أنهم جميعًا يدّعون ذات الدعوى ويأخذون من ذات المصادر . فهؤلاء لا يتجاوزون فتاوى شيوخهم، ويجعلونها معيارًا وحيدًا للحكم، دون أن يتحققوا من الواقع أو يستمعوا إلى الطرف الآخر، وكأنهم أوكلوا عقولهم إلى غيرهم، واكتفوا بالتلقي دون تمحيص أو نظر وتلك طامة كبرى وداهية عظمى .

ومع كل هذا فإن هناك فريق من الناس يسلك طريقًا أكثر اتزانًا ووسطية ، فينظر إلى حركة التبليغ الدعوية العالمية المقصد الهندية النشأة من خلال مجموع المعطيات: فيأخذ في اعتباراته نشأتهم بكل ملابساتها ، وطرق تفقههم، وطريقتهم الدعوية ، واعتقادهم، وكتاباتهم، وبياناتهم، ومؤلفاتهم، ورسائلهم، وصوتياتهم، ومرئياتهم، وتأثيرهم، وكلام أقرانهم وخصومهم، وفتاوى العلماء – كل العلماء وليس علماء فصيله هو فقط - فيهم ، وهذا هو المسلك الصحيح الوسطي المتكامل، لأنه لا يكتفي بجزء من الصورة، بل يسعى إلى

تكوين رؤية شاملة متزنة، لا غلو فيها ولا تفريط، ولا شطط فيها ولا تعصب، بل إنصاف وعدل وتفهم لطبيعة الدعوة ومقاصدها.

ومن هنا يتضح أن الحكم على منهج التبليغ لا يصح أن يكون من خلال زاوية واحدة أو توجه معين مؤدلج ، بل يجب أن يكون شاملاً متزنًا، يراعي تنوع البيئات واختلاف الأساليب، ويبتعد عن التعميم المخل أو التصنيف المؤدلج. كما لا يصح لأتباع التبليغ في أي بلد أن يجزموا بأن للدعوة منهجًا محددًا في الاعتقاد أو الفقه أو السلوك، لمجرد وجود شيوخ في الهند أو باكستان يتبنون توجهًا معينًا، فالدعوة أوسع من أن تُحصر في قالب واحد، وهي بطبيعتها مرنة تستوعب التنوع وتحتفي بالاختلاف ما دام في إطار الأصول الجامعة.

خامسا : عالمية الدعوة التي تتجاوز التصنيفات وتخاطب الأمة جمعاء بهذا الحياد يعكس روح الوسطية .

كذلك من أبرز ما يميز دعوة التبليغ والدعوة هو ذلك الحياد العميق الذي اختاره شيوخها ورموزها في منهجهم ، ففي الإعلان عن خلفياتهم العقدية والفقهية كانوا وسطيين مسالمين غير سلطويين ولا فوضويين ، لا عن ضعف في التأسيس العلمي، بل عن وعي ناضج وفهم دقيق لما هم عليه وللواقع، وحرص صادق على وحدة الأمة وتماسكها. ولقد كان في وسعهم، كما يفعل كثيرون، أن يجعلوا من مناهجهم العقدية والفقهية محورًا للدعوة، وأن يصدروا ما نشأوا عليه إلى كل مكان تطؤه أقدامهم، وأن يربطوا الناس بما تعلموه هم، لا بما يحتاجه الناس. لكنهم لم يفعلوا، بل اختاروا طريقًا وسطًا، يجمع الأمة ولا يفرقها، ويخاطب المسلم كمسلم، لا كمذهبي أو طائفي، ويُحيي روح الأخوة والانتماء إلى الإسلام، لا إلى الفرق والجماعات.

لقد أدرك علماء التبليغ أن المخاطب بالدعوة الإسلامية هو العالم كله، عربًا وعجمًا، من كل الأطياف والتوجهات، لا طائفة واحدة ولا مذهب واحد. فكان لابد من خطاب جامع، وكلمة سواء، لا يختلف عليها أحد، ولا تنفر أحدًا، ولا تثير في النفوس حواجز الانتماء أو حساسيات التصنيف. ومن هنا جاءت دعوتهم نقية من التعصب، خالية من الجدل، بعيدة عن التصنيف، قريبة من الفطرة، تخاطب القلب قبل العقل، وتدعو إلى الله لا إلى الأشخاص أو الجماعات أو المذاهب.

وهذا الحياد لم يكن فراغًا، بل كان امتلاءً بالإيمان، وصدقًا في التوجه، وحرصًا على أن تصل الدعوة إلى كل قلب، دون أن تُعاق بجدل فكري أو خلاف مذهبي. فالدعوة التي تتجاوز التصنيفات، وتخاطب الناس بما يجمعهم لا بما يفرقهم، هي دعوة عالمية بحق، وهي التي تستحق أن تُحمل إلى الناس كافة، كما حملها النبي ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها، وكما أمر الله تعالى بقوله : " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا."

ولذلك انتشرت دعوة التبليغ في أرجاء العالم، وتقبلتْها القلوب من مختلف المشارب، لأنها لم تأت لتفرض مذهبًا، ولا لتروج لعقيدة، ولا لتصنف الناس، بل جاءت لتذكرهم بالله، وتدعوهم إلى الصلاة، والذكر، والخروج في سبيل الله، والتخلق بالأخلاق الإسلامية، والعودة إلى بيئة الطاعة، في بساطة وصدق، دون تعقيد أو تصنيف. وهذا ما جعلها دعوة جامعة، تُحيي الإيمان، وتُعزز الانتماء إلى الإسلام، وتُعيد للمسلم شعوره بأنه جزء من أمة واحدة، لا من فرقة أو جماعة.

إن حيادية دعوة التبليغ ليست تنازلًا عن الحق، ولا تفريطًا في العلم، بل هي اختيار واعٍ لمنهج جامع، يُراعي حال الناس، ويُدرك طبيعة العصر، ويحرص على أن تبقى الدعوة إلى الله نقية من شوائب التصنيف، صافية من تعقيدات الجدل، قريبة من الناس، مؤثرة فيهم، جامعة لهم على كلمة التوحيد، لا مفرقة لهم على

تفاصيل الخلاف. وهذا هو سر قوتها، وسبب انتشارها، ومصدر قبولها في القلوب، في مشارق الأرض ومغاربها.

المبحث الثاني: منهج التبليغ دعوة عملية ليست مذهبية نظرية .

إن دعوة التبليغ ليست كمثيلاتها من الدعوات المعاصرة ، فهي عملية في المقام الأول وليست نظرية ، وتعتمد على تفعيل مبدأ الحركة والجهد بالنفس والمال قبل الإجهاد الذهني ! فلا تشابه بينها وبين مثيلاتها من الدعوات الإسلامية المعاصرة .

أولًا: كل من انخرط في منهج التبليغ لم يتلق منهم تمذهبًا معينًا من مذاهب الفقه أو العقيدة .

من أبرز ما يميز دعوة التبليغ أنها لا تُلقن أتباعها مذهبًا فقهيًا معينًا، كأن يُطلب منهم الالتزام بالحنفية أو الشافعية أو المالكية أو الحنبلية أو اجتهادات علماء ديوبند كمذهب فقهي ، ولا تُلزمهم بمنهج عقدي محدد كالأشعرية أو الماتريدية ولا تفرض على أحد منهم بل ولا توجهه – مجرد توجيه – لسلوك طريقة صوفية معينة ، بل إن الداخل في هذه الدعوة، سواء كان من عامة الناس أو من طلبة العلم، لا يُعرض عليه إلا العمل الدعوي، والتذكير بالله، والحث على الصلاة، والخلق الحسن، دون الدخول في تفاصيل المذاهب أو الخلافات العقدية. وهذا ما جعلها دعوة جامعة لكل الأمة ، لا تفرق بين الناس على أساس المذهب أو الانتماء العقدي أو الفكري أو السلوكي أو النشأة أو الجنسية ! بل هي دعوة عالمية وسطية خرجت لتجمع كل مسلم في العالم تحت راية واحدة هي راية الإسلام العظيم بفهمه النقي الصافي الوسطي المعتدل الشامل .

ثانيًا: منهجهم الدعوي هو المعلن ولا شيء في الخفاء .

ولعل من ميزاتهم أيضا أن المنهج الذي يُنقل في مجالس التبليغ عبر شيوخهم في كل اجتماعاتهم في أي بلد من بلدان العالم ، أو في الخروج الدعوي، هو منهج عملي بسيط، ثابت في عمومه لا يتغير كثيرا من بلد إلى بلد إلا بما تحتاجه الضرورة فقط ، فيركز على إصلاح القلب لكل مسلم ، وإحياء الإيمان فيه ، والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة لا إلى فلان أو فلان ولا إلى جماعة أو حزب أو جمعية أو بلد أو توجه . فلا تُطرح فيه مطلقا مسائل الخلاف العقدي ، ولا تُناقش فيه تفاصيل الفقه المقارن، بل يُركز على الأمور التي تجمع المسلمين، وتُحيي فيهم روح العمل الصالح. فالمتلقي لا يخرج من هذه الدعوة بمذهب فقهي أو عقدي، بل يخرج منها بروح دعوية، وسلوك إيماني، وحرص على الطاعة.

وهذا فيه ميزة جمع الأمة وتحريكها لتبليغ الدين الإسلامي في بقاع الأرض بمنهج أهل السنة والجماعة من غير تطاحن ولا تضارب ، ومن غير مناقشات ولا مناظرات ، وبلا استثارة لغضب المخالفين ، وما عدا ذلك فله أماكنه ومظانه يطلب فيها ، ولكل ما اختار من طريق ، ولا حجر على أحد فيما اختار .

ثالثًا: لا يُعرف عن حركة التبليغ أنها تُدرّس منهجًا عقديًا أو فقهيًا معينًا .

وهنا نلاحظ أيضا أنه في حلقات التعليم أثناء الرحلات الدعوية للتبليغ، لا يُدرّس فيها كتاب معين في العقيدة بل يشرح فيها المتفق عليه من اعتقاد أهل الإسلام النقي الصافي من القرآن والسنة إجمالا من غير تطرق إلى مسائل دقيقة أو اختلافات بين العلماء قديما أو حديثا في بعض مسائله ! ، ولا يُشرح في أثناء حلقات التعليم في الخروج الدعوي متن فقهي معين ولا كتب فقهية معينة تنتسب إلى مذهب فقهي بل يترك أهل كل بلد إلى ما نشأوا عليه ، ويُقرأ كتاب "فضائل الأعمال" أو "فضائل الذكر" أو رياض الصالحين أو رياض

الأحباب أو الأحاديث المنتخبة ونحوها، وهي كتب تُعنى بترقيق القلب، وتحفيز النفس على الطاعة. وهذا يؤكد أن الحركة الدعوية لا تسعى إلى التنظير أو التأسيس العقدي التمذهبي الانغلاقي ، بل تسعى إلى إحياء الإيمان، وتحريك الهمم، وتوجيه الناس إلى العمل الصالح، بغض النظر عن خلفياتهم الفكرية أو الاعتقادية أو الفقهية.

وهذا له وجه قوي في جمع عامة توجهات أهل السنة على كلمة سواء ! وهي الخطوة الأولى في جمع الأمة ! فلا تمنى جمع الأمة على كلمة واحدة من غير أن تبدأ بتلك الخطوة التي بدأ بها أهل التبليغ وهو أن يجتمع الجميع على ما اتفقوا عليه ، وأن يضعوا نصب أعينهم حلولا واقعية للمشكلات القوية الحالّة على الأمة ، ومن ثم جمع كلمتها في المختلف فيه ! ولكن الأفكار التقليدية المتعصبة لآرائها تضع حجر عثرة قبل الجلوس مع مثيلاتها ، فتضع اعتقاداتها وأفكارها على أنها الحق الأوحد الذي لا حق معه وما دونه باطل ، وتشترط للاجتماع مع غيرها من الفئات أو الطوائف أن تتخلى عن مبادئها وأفكارها أولا وتذعن لما تعتقد تلك الفرقة ثم بعد ذلك يلتقون !! وهذا والله أمر بعيد المنال ، ولن يحدث إلا في الأحلام ، فهو أشبه بالأوهام ، ولا أرى طريقة تجمع المسلمين على اختلافاتهم إلا طريقة أهل التبليغ التي تنبني على أصول الإسلام المتفق عليها مع عدم التعرض للخلافيات السائغة أو المعتبرة ، وغض الطرف مؤقتا عن الخلافيات الكبيرة لحين جمع العلماء الثقات في ساعة ما لحلها أو للالتقاء برأي وسطي فيها ، وهو آت لا محالة إن شاء الله .

رابعًا: هذا المنهج العملي هو سر انتشار الدعوة وقبولها في مختلف البيئات .

ولأن دعوة التبليغ لا تُلزم الناس بمذهب معين ولا تجبرهم على سلوك طريقة معينة ، ولا تُدخلهم في جدالات فكرية، فقد وجدت قبولًا واسعًا في مختلف البلدان، وبين مختلف الطبقات الاجتماعية وأثرت فيهم جميعا بكل خير وغيرت طبائع كثير من المتشددين والمنحرفين فكريا وعقديا . فهي دعوة تصل إلى

قلب المسلم، وتُخاطب وجدانه، دون أن تُلزمه بما لا يُطيق من الخلافات أو التصنيفات. وهذا ما جعلها تنتشر في بلاد الشرق والغرب على حد سواء ، وتُقبل عليها القلوب من كل المشارب ، وترسخ في الناس اعتقاد أهل السنة من غير جدال ولا مناظرة ، بل تخاطب فيه فطرته السوية وعقله الرزين بعدما تجعل جوارحه مستسلمة لقبول الأمر والنهي والامتثال الكامل للتوجيه الإلهي والنبوي ! وهنا لا يبقى لدى المسلم تبعية لفلان أو لفلان بل يلتمس العذر لكل أحد ويعرف له قدره ، فلا شطط ولا غلو ولا إفراط ولا تفريط .

المبحث الثالث: بين النشأة الهندية المتصوفة والمنهج الدعوي، وتفكيك الخلط الشائع .

من المعروف لدى الجميع أن بيئة الهند وباكستان كانت مشبعة بالتصوف والمذاهب العقدية المتأثرة بالاتجاهات الكلامية كالماتريدية والأشعرية ، وكان كثير من العلماء يتلقون علومهم في مدارس ديوبندي وبعضهم فيها لهم طرق سلوكية كالنقشبندية وغيرها . ولكن هذا المنشأة العلمي لا يعني أن كل ما نشأوا عليه أصبح جزءًا من منهجهم الدعوي من حيث التبني أو الدعوة . فالنشأة هناك لا تُلزم الدعاة المنتمين للحركة الالتزام بالمنهج العلمي أو التربوي هناك ، كما أن الخلفية العلمية والنشأوية الشخصية لكل فرد من علماء الدعوة هناك لا تُعد بالضرورة مرجعية دعوية لفكر التبليغ العالمي ، وهذا واضح من خلال مشاركتهم في الدعوة والانخراط معهم سنين طويلة هناك وفي كل بلاد العالم ، إذ لا أثر لنشأتهم في دعوتهم التي وضعوا لها أصولا ووسائل وطرقا وآدابا وهدايات معينة تصب في مصلحة الإسلام وتحافظ على سير العمل الدعوي بلا قلاقل ولا مشاكل .

وهنا نلمس على وجه الحقيقة الفرق بين الخلفية الشخصية لكل داعية سواء كان من العرب أو العجم والمنهج العام المتبع في الدعوة العالمية ، فالتمييز بين ما يتبناه الفرد في حياته الخاصة، وبين ما يدعو إليه في منهجه العام، هو أمر بالغ الأهمية. وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى يجب أن تكون جامعة، شاملة لا مذهبية ولا حزبية ، وهذا ما حرص عليه مشايخ التبليغ، إذ لم يُدخلوا التصوف أو المذاهب الكلامية في صلب الدعوة، بل ركزوا على الإيمان، والعمل، والتزكية، دون إلزام أو تصنيف.

ويتفرع عما سبق أيضا أن دعوة التبليغ العالمية لا تقوم على البيعة على طريقة معينة أو لأشخاص معينين أو التعبد بأوراد معينة أو أخذ أذون خاصة في شيء من تلك الأوراد ! ، وهذا عامة لا وجود له في الدعوة العالمية وإن كان له وجود كثير بين متصوفة التبليغ في الهند وباكستان وبنجلاديش وكذلك في بلاد العرب ، ، فمن المهم جدا أن نعرف أنه لم يُعرف عن حركة التبليغ الدعوية العالمية أنها تُلزم أتباعها ببيعة صوفية، أو أوراد خاصة، أو تدرج في المقامات كما هو الحال في الطرق الصوفية المعروفة ، بل إن منهجها يقوم على الخروج للدعوة، والتذكير، والصلاة، والخلق الحسن، وهي أمور لا ترتبط بالتصوف الطرقي، بل هي من صميم السنة النبوية.

المبحث الرابع: تفنيد دعوى التمذهب العقدي في التبليغ والرد على بعض منتسبي الدعوة .

النقطة الأولى: مجدد حركة التبليغ والدعوة لم يدعُ إلى الماتريدية أو الأشعرية.

كما بينا مرارا بأن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله ، مجدد جهد الحركة للدين في العصر الحديث ، لم يُعرف عنه أنه دعا إلى مذهب عقدي معين، بل كان تركيزه على إصلاح العامة، وإحياء الإيمان، والدعوة إلى الله. ولم يُسجل عنه أو عن خلفائه أنهم ألزموا الناس بمنهج ديوبند أو غيره لا في العقيدة ولا في الفقه

ولا في التعبد والسلوك ، وما لم يفعله الشيخ إلياس لم يكن عن ضعف بل كان عن نظرة ثاقبة وفهم للواقع ويقين بما يفعل ، وعلى هذا سار ولده الشيخ العلامة محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله ، وتبعه من بعده من العلماء الكبار ! وحتى اليوم لم يخرج عن تلك القاعدة والمنهج أحد من علماء التبليغ وعلى رأسهم حفيد بيت العلم والدعوة فضيلة الشيخ العلامة محمد سعد الكاندهلوي حفظه الله تعالى ، ومن ذلك تعلم تمام العلم أن من يزعم أن منهج التبليغ هو نفس منهج ديوبند فهو مخطىء تمام الخطأ .

النقطة الثانية: تفنيد دعاوى الخصوم من غلاة التبديع الزاعمين ذلك .

لا يخفي على بصير حجم الهجمة الشعواء والحرب الضروس التي أقامها وابتدئها أتباع بعض توجهات السلفية العصرية من الفرق التابعة للمدخلية والجامية ، وتفرعت عنها فرقا كثيرة نتفق أحيانا وتختلف أحيانا ، غير أنهم جميعا متفقون على بغض أهل الإسلام العاملين للإسلام ! فديدنهم التبديع ومنهجهم التفسير والتهجير ، ولم يسلم منهم أحد من العاملين على الساحة حتى من هم معهم على ذات المنهج وربما كانوا أقرانا وأصحابا وأصدقاء وإخوة ، ولكن المنهج المشوة الغالي نحى بهم منحى شديد التطرف ، فكان نتيجته ما نراه من اختلاف كبير بين أبناء دعوة السلفية العصرية .

ولم ينج منهم أهل التبليغ بل كان لهم نصيب الأسد في ذلك ، فلم يسلم أحد من هؤلاء الغلاة من الوقوع في أهل التبليغ ، معتمدين على نقول بعضهم من بعضهم ، حتى ربا نتاج فتاواهم وكتبهم ومؤلفاتهم ومطوياتهم وخطبهم عن أهل التبليغ والتحذير منهم ورميهم بالباطل والبدع والكفر والزندقة ما يزيد على خمسمائة منتج ! ظاهره علمي وباطنه تهارش وحقد وبغض وكره وتكفير وتبديع .

وليس هذا الموطن موطن استطراد في الرد على شبهات الخصوم ، فقد رددنا بفضل الله تعالى على تلك الشبهات وغيرها في كثير من كتبنا ورسائلنا ، ونخص بالذكر هنا الكتاب الجامع (**كشف الأستار وتبرئة الدعاة الأخيار بالذب عن سبيل الواحد القهار**) الذي تتبعنا فيه كل تلك الشبهات من مظانها ورددنا عليها جميعا ، فانظره إن شئت ، وحاجج به من يتقول على أهل التبليغ ويرميهم بما هم منه براء ، والله الموفق والمستعان .

النقطة الثالثة: تفنيد داعوى مزاعم بعض المنتسبين لأهل التبليغ .

ولم نستفق – حتى – من الرد على شبهات الخصوم الذين أرهقونا بشبهاتهم وآذونا بتبديعهم وتكفيرهم ، حتى خرج من بين أظهرنا شباب تربوا في دعوتنا وتعلموا فيها وأخذوا مبادئها ، ولكنهم خالفوا منهاج المشايخ في بعض الأصول ، فوقعوا في شراك الشطط والغلو وسوء الفهم أحيانا ، ومن ذلك أنهم أرادوا الرد على خصوم التبليغ من السلفية المعاصرة – غلاة التبديع – فوقعوا في تبرير ما يتهم به الخصوم أهل التبليغ بل ووقعوا في أكثر من ذلك بأن تبنوا الدعوة إلى تلك التوجهات والمسائل الخلافية التي كانت سببا في الخلافيات بين التوجهات الإسلامية ! ولم يطبقوا منهاج مشايخ التبليغ في البعد عن تلك الخلافيات أو عدم تناولها ! ولو أنهم تناولوها في المجالس العلمية كمدارسة علمية بحته بآداب وأصول أهل العلم لكان حسنا ، ولكنهم أقحموها في منهج التبليغ وهو ما لم يفعله علماء ومشايخ التبليغ عبر العقود المنصرمه !! ودعوا الناس إليها وأصلوا لها أصولا وأنشأوا مدارس علمية تخرج دعاة التبليغ بنفس مناهج بلاد أخرى كالهند ! ولقد كان بمقدور هؤلاء المتحمسين أن يتخذوا المناهج الرسمية لبلادهم دون استيراد مناهج أهل الهند أو التمحك فيهم ! ونحن إذ لا

نكر على أهل الهند مناهجهم التعليمية فلن ننكر على غيرهم ، ولذلك فمنهج التبليغ أنه لا يصدر مناهج تعليمية من بلد إلى بلد ، بل لكل بلد منهج وطريقة أهلها .

ومما أدى لذلك تأثر هؤلاء الشباب بخلفيات بعض المشايخ الذين تتلمذوا على أيديهم ، دون الرجوع إلى النصوص الأصلية للدعوة التي نسير فيها ، أو إلى الواقع العملي لأتباعها المتفق عليه . وهذا منهج غير سديد فهو يُسقط تأثير مناهج بلاد المنشأ على المنهج العالمي ، ويُغفل الفارق بين التأثر الشخصي لهؤلاء العلماء وبين الدعوة العامة التي لها أصولها وآدابها المتفق عليها ، والتي حافظت على قوتها طيلة عقود

ومن ذلك نخرج بأن هؤلاء الشباب لم يصيبوا في فعلهم بل خالفوا أصول دعوة التبليغ التي يزعمون اتباعها أو الدعوة إليها ، ومهما حاولوا إلصاق حنفية وماتريدية وسلوكية ديوبند بدعوة التبليغ لأن المؤسسين تخرجوا من ديوبند فلن يستطيعوا وسيكون لفعلهم أثر بالغ في تفرقة العمل الدعوي لا جمعه ! فكيف سيجمع الخصوم ، وأنى له أن يحمل الرحمة للعالمين ؟!.

والواقع العملي لحركة التبليغ العالمية يُثبت حيادية الدعوة في هذا الأمر كما بينا قبل ذلك ، ففي مختلف البلدان، يُلاحظ أن دعوة التبليغ لا تُميز بين المذاهب، ولا تُلزم الناس بتمذهب معين، بل تُركز على العمل والسلوك. وهذا الواقع يُفند مزاعم من يؤدلج الدعوة وينحاز بها إلى عصبية معينة أو طريقة عقدية معينة أو مذهب فقهي محدد ، ويُثبت أن الدعوة ليست مذهبية، بل جامعة عالمية ، وسطية ، وعلى هذا عاش الدعاة عقودا متتابعة لم يؤثر عنهم خلافه ، فتنبه .

المبحث الخامس: دعوى الكتاب والسنة عند حركة التبليغ في مقابلة حركة السلفية.

في مقابلة بين الحركتين ومقارنة دعواهما تجد دعاوى الدعوتين متماثلة ، ولا فرق بين الهدف الذي تعلنه حركة التبليغ والهدف الذي تعلنه حركة السلفية ، وهذا رد على من يشغب على دعوة التبليغ لمجرد اختلافها عن دعوة السلفية في الوسائل فقط .

النقطة الأولى: التصريح بالالتزام بالكتاب والسنة :

فمن خلال كتاب "وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة" الذي يعد حوارا صحفيا مع كبار مشايخ التبليغ في بلاد العجم وليس كتابا من كيس كاتبه ، وكذلك من خلال كتاب " لسان الدعوة والتبليغ فضيلة الشيخ محمد عمر البالمبوري رحمه الله " وكتابنا " إظهار الحق البليغ من لسان الدعوة والتبليغ " وغيرها من الكتب يتضح أن كبار مشايخ حركة التبليغ يصرحون بمنهجها وهو مطابق تماما للمنهج السني، وتُعلن الدعوة التزامها بالكتاب والسنة، لا بالمذاهب الكلامية أو الطرق الصوفية. وهذا التصريح يُعد وثيقة منهجية تُثبت التوجه السني العملي للحركة ، إذ لا تتبنى منهجا مختلفا عن منهج أهل السنة والجماعة في التلقي والعمل .

النقطة الثانية: دعوة التبليغ العالمية تُركز على العمل لا الجدل .

فحركة التبليغ لا تُعنى بالجدل العقدي أو الفقهي، بل تُركز على إصلاح القلب، وإحياء الإيمان، والدعوة إلى الله. وهذا المنهج العملي يُعيد الناس إلى جوهر الدين، ويُحيي السنة في حياتهم اليومية، دون الدخول في خلافات أو تصنيفات.

النقطة الثالثة: ثناء العلماء على منهج الدعوة .

حيث من خلال تناول كثير من العلماء في العالم الإسلامي منهج تلك الحركة بالتقييم فقد أثنوا على منهج حركة التبليغ، واعتبروا دعوتها إصلاحية، تُعيد الناس إلى الدين، وتُحيي السنة، وتُبعدهم عن البدع. وهذا الثناء يُعد شهادة على سلامة المنهج، وصدق التوجه.

النقطة الرابعة : واقع أهل التبليغ في بلاد المسلمين .

وذلك من حيث الالتزام بالسنة في الحياة العملية ، ففي مصر، والأردن، والسعودية، واليمن، وغيرها، يُلاحظ أن أهل التبليغ يُحافظون على شعائر الدين وسننه ويدعون الناس إلى الدين كاملا ويركزون على التوحيد العملي وإقامة الصلاة، ويُحيون السنن، ويُكرّمون العلماء، ويُشجعون الناس على الطاعة، دون أن يُلزموا أحدًا بمذهب معين أو طريقة خاصة وهذا كله يبين أنهم سنيون حقا وصدقا لا زعما ولا ادعاءا .

وكذلك من حيث عدم الشذوذ عن منهج السلف الصالح من لدن الصحابة الكرام ومن تبعهم من التابعين وصالح علماء الأمة وعلى رأسهم أئمة المذاهب الفقهية والعقدية ، فيجمعون الناس ولا يفرقونهم ويحفظون لكل عالم قدره ويعطونه حقه من التبجيل والتوقير والترحم ، فأهل التبليغ في هذه البلدان لا يُعرف عنهم مخالفة لمنهج السلف الصالح ، ولا شذوذ عن أهل السنة والجماعة ، بل هم ملتزمون بالقرآن والسنة، ويحرصون على الاتباع، ويُحذرون من الابتداع ، ويُظهرون الاحترام لأهل العلم في أي اتجاه إسلامي أو حركة دعوية ولا يناغشون أحدا ولا يقدحون في دعوته بل يدعون له بالتوفيق والسداد .

وكذلك من حيث القبول الشعبي للدعوة ، نجد أن تلك الدعوة قد لاقت قبولا عاما وحققت انتشارا واسعا لأن هذه الدعوة لا تُميز بين الناس، ولا تُلزمهم بما لا يُطيقون، فقد وجدت قبولًا واسعًا في مختلف البيئات، وأصبحت وسيلة فعالة لإحياء الدين في القلوب، دون إثارة خلاف أو جدل.

مما سبق يتبين أن دعوة التبليغ دعوة سنية أصلية وليست صوفية عصرية كما يزعم بعض المتحزبين .

المبحث السادس : ملخص تقرير الصحفي الشيخ خالد بن عبد الرحمن في لقاءه بمشايخ التبليغ.

كما لا يخفى عليكم فقد قام أحد أتباع دعوة التبليغ المصريين واسمه (خالد بن عبد الرحمن) بتسجيل شهادته للقائه مع كبار مشايخ التبليغ والدعوة في باكستان أثناء تواجده هناك في اجتماع سنوي للدعوة ، فقام الكاتب بتسجيل حواراته مع هؤلاء المشايخ في كتاب أسماه (وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ومنهاج جماعة التبليغ في ذلك) ودفعه لكتابة ذلك ما رآه من واقع دعوة التبليغ ومطابقتها تماما لدعوة السلفية ، فراى أن يرد على غلاة التبديع بحقيقة منهج التبليغ من خلال نقله آراء كبار مشايخ التبليغ في بلاد العجم ، وقد أحسن الرجل صنعا ، إذ يُعد كتابه هذا من أبرز المؤلفات التي تناولت حقيقة دعوة التبليغ بصدق من غير تحريف وذلك من منظور سلفي وبلغتهم ومن وجهة نظرهم ، حيث سعى فيه إلى بيان أن الدعوة التي تقوم بها الجماعة لا تتعارض مع منهج أهل السنة والجماعة، بل تتكامل معه في كثير من الجوانب العملية والسلوكية ، وبغض الطرف عما حدث من استدراج للكاتب (خالد) من بعض غلاة التبديع فيما بعد فما كتبه في كتابه ليس كلامه إنما كان عمله في هذا الكتاب في جزئين ، الجزء الثاني هو نقله وعمله كصحفي ومحقق مع مشايخ التبليغ ونقل ما قالوه بأمانة ، والجزء الأول من الكتاب هو تفسير وشرح وإسقاط لما سمعه منهم على حال أهل التبليغ الذين رآهم ، فجل عمله لا يعد كونه صحفيا ومحللا ،، ثم دارت الأيام واستدرجه بعض غلاة التبديع ، فانتكس عن دعوة التبليغ وخرج منها ، ولكنه لم يدخل السلفية الوسطية المعتدلة ! بل خرج منها كالسهم من الرمية فوقع في حبائل السلفية المدخلية والجامية ، فصار يبدع المسلمين ومنهم السلفين أيضا ، وهذا موضوع كبير يطول شرحه وتناوله .

قام الشيخ خالد بن عبد الرحمن بزيارة ميدانية إلى مراكز دعوة التبليغ، والتقى بعدد من كبار مشايخها في الهند وباكستان. ولم تكن اللقاءات سطحية أو عابرة، بل كانت حوارات معمقة، امتدت لساعات، وتناولت مسائل المنهج، العقيدة، والسلوك الدعوي ، حرص فيها السائل (خالد بن عبد الرحمن) على أن يسألهم مباشرة عن موقفهم من العقيدة، وعن مدى ارتباطهم بالمذاهب الكلامية أو الطرق الصوفية.

وأما أبرز ما نقله عن الصحفي خالد بن عبد الرحمن عن المشايخ:

نفي الانتماء العقدي المحدد: فمعظم المشايخ الذين التقاهم نفوا أن تكون دعوة التبليغ قائمة على الأشعرية أو الماتريدية، أو أنها تُلزم المنتسبين إليها بمذهب معين، بل أكدوا أن الدعوة مفتوحة لكل مسلم، وأنها تركز على العمل لا على التصنيف.

التركيز على إصلاح القلب والسلوك: فقد شدد المشايخ على أن هدفهم هو إحياء الإيمان في القلوب، وتحفيز الناس على الصلاة، والذكر، والدعوة، دون الدخول في جدالات فكرية أو مذهبية.

الاحترام لمنهج السلف: فقد عبر كثير من مشايخ الدعوة عن احترامهم لمنهج السلف الصالح، وأكدوا أن دعوتهم لا تتعارض مع فهم السلف، بل تتقاطع معه في كثير من الجوانب العملية.

التحفظ من الجدل العقدي: فقد أبدى المشايخ تحفظًا من الدخول في نقاشات عقدية معمقة، معتبرين أن ذلك يُشغل الناس عن العمل، ويُحدث فرقة، وهو ما يتناقض مع روح الدعوة التي تهدف إلى جمع القلوب.

مطابقة كلامهم لتفسيرات السلف في الأسماء والصفات : حيث كانت إجابات مشايخ التبليغ في بعض المسائل الخلافية مطابقة لمذهب أهل الحديث في تلك المسائل الخلافية العقدية .

فلقاءات الشيخ خالد بن عبد الرحمن بمشايخ التبليغ كشفت عن روح حركة التبليغ الدعوية العملية، وأنها تُركز على إصلاح الفرد والمجتمع، دون إلزام بمذهب أو طريقة. وقد أظهر المشايخ احترامًا لمنهج السلف، ونفوا أن تكون دعوتهم متحزبة أو مذهبية. والكتاب يُعد وثيقة مهمة لفهم جماعة التبليغ من الداخل، بعيدًا عن التصورات النمطية أو الاتهامات العامة.

المبحث السابع : دعوة التبليغ بين الإنصاف والاتهام ، تدقيق في طبيعة الدعوة وموقفها من التمذهب.

كما هو معلوم أن دعوة التبليغ من أبرز الحركات الدعوية التي نشأت في القرن الرابع عشر الهجري، على يد الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله، في بيئة هندية يغلب عليها الطابع الحنفي والتأثر بالتصوف. ومع انتشار الدعوة في العالم الإسلامي، ظهرت تساؤلات وشبهات حول طبيعتها العقدية والفقهية، وهل هي دعوة ماتريدية أو صوفية أو حنفية؟ وهل تلتزم بمنهج ديوبند؟ وهل تُلزم أتباعها بتمذهب معين؟ هذه الدراسة تسعى إلى تفكيك هذه التصورات، من خلال تحليل علمي دقيق، واستعراض أقوال رموز الدعوة، وواقع أتباعها، ومقابلات موثقة مع مشايخها.

وكما أسلفنا بتفصيل، فإن دعوة التبليغ لا تنغلق على مذهب فقهي أو عقدي، ولا ترتبط بجماعة متحزبة تدعو إلى ذاتها، بل هي دعوة عالمية تدعوا إلى الله تعالى وإلى اتباع سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقوم على التذكير بالأعمال الصالحة والقيام عليها ، وتحث على الخروج في سبيل الله للدعوة وتحريك الناس لهذا الغرض ، وتجعل العمل الصالح أهم أولوياتها ، دون إلزام الناس بتمذهب أو تصنيف. ولم يُعرف عن شيوخها، قدامى أو معاصرين، أنهم نسبوا دعوتهم إلى الأشعرية أو الماتريدية أو الحنفية أو الطرق الصوفية، بل كانوا يحرصون على أن تبقى الدعوة نقية من التصنيفات، قائمة على العمل لا على الجدل، وعلى التزكية لا على التنظير. ومن

هنا، كان من الضروري تخصيص هذا المبحث لتوضيح هذا الأصل، حتى لا يقع اللبس عند بعض المنتسبين إلى الدعوة العالمية المتكلمين باسم التبليغ ، والذين ربما تأثروا بنشأة بعض المشايخ أو بيئاتهم، دون أن يدركوا أن المنهج الذي تلقوه إنما جاء من أفواه العلماء والدعاة ما قد يحمل توجهات خاصة أو بعض النزعات النفسية ، لا من الكتب أو المنشورات.

إن دعوة التبليغ دعوة جامعة، لا تُلزم الناس بمذهب معين، ولا تُدخلهم في جدالات فكرية، بل تُعيدهم إلى جوهر الدين، وتُحيي فيهم روح الإيمان والعمل. وهي دعوة تُخاطب المسلم كمسلم، وتُعزز الانتماء إلى الإسلام، لا إلى الفرق أو الجماعات. فلم يُعرف عن شيوخها أنهم نسبوها إلى الأشعرية أو الماتريدية أو السلفية ولا حصروها في الحنفية ولا الحنبلية ولا المالكية ولا الشافعية ، ولم ينسبوها إلى سلوكية أو طرقية أو بيعات أو أذون خاصة ، بل حرصوا على أن تبقى دعوة نقية بعيدة عن التصنيفات والتحزبات والتكتلات ، قائمة على العمل الحقيقي على الأرض لا على مجرد الجدالات، وداعية إلى الاتباع لا إلى الابتداع.

ورموز التبليغ، سواء في الهند أو باكستان أو الشرق الأوسط، لم يُعرف عنهم أنهم أعلنوا انتماءهم إلى مذهب عقدي أو فقهي معين. ولم يُسجل عنهم أنهم دعوا إلى الأشعرية أو الماتريدية أو الحنفية، بل كان تركيزهم الأكبر منصبًا على الدعوة إلى الله، لا على التنظير العقدي أو الفقهي وقد كان ميسورا عليهم فعل ذلك والدعوة إلى ما نشأوا عليه . هذا الحياد يعكس روح الدعوة التي تتجاوز التصنيفات، وتُخاطب الأمة جمعاء، وتُعيد الناس إلى بساطة الدين، دون تعقيد في الدعوة أو تصنيف.

وكل من انخرط في دعوة التبليغ، سواء في الشرق أو الغرب، يعترف ويعلم ويقر في قرارة نفسه أنه لم يتلق منها تمذهبًا معينًا، لا في الفقه ولا في العقيدة، بل تلقى منهم روح الدعوة، وأدبها، وسلوكها العملي وطريقتها

الحركية واهتمامها البالغ بكل البشرية طمعا في هدايتهم ودلالتهم على طريق الرشاد . فالحركة لا تُدرّس منهجًا عقديًا أو فقهيًا، ولا تُلزم الناس بمذهب معين، بل تُركز على إصلاح القلب، وإحياء الإيمان، والدعوة إلى الله. وهذا المنهج العملي هو سر انتشار الدعوة، وقبولها في مختلف البيئات، وبين مختلف الطبقات الاجتماعية.

ومن الشائع أن يُربط منهج التبليغ بالتصوف أو الطرقية، استنادًا إلى أن بعض مؤسسيها أو رموزها نشأوا في بيئات صوفية، أو كانوا منتسبين إلى طرق معينة. لكن هذا الربط غير دقيق، لأن هناك فرقًا جوهريًا بين النشأة الشخصية وبين المنهج العام الذي تُبنى عليه الدعوة. فدعوة التبليغ لم تُؤسس على البيعة الصوفية، ولا على الأوراد الخاصة، بل تأسست على الدعوة إلى الله، والتذكير بالآخرة، والخروج في سبيل الله، والتخلق بالأخلاق النبوية، وإن كان بعض المشايخ هناك قد تأثروا بالتصوف في سلوكهم، فإنهم لم يجعلوا ذلك جزءًا من المنهج الدعوي، ولم يُلزموا به أحدًا من أتباعهم ولم يدعوا إليه في بياناتهم أو خطبهم أو مذاكراتهم ولا حتى في مجالسهم الخاصة ، وعلى هذا النهج الوسطي سار الرعيل الأول من أهل التبليغ في بلاد العرب وانتشرت الدعوة بهذا الشكل ولم يكن منهم داع إلى حزبية أو عصبية ولم يخرج منهم من يناظر ويناغش الدعوات الأخرى ! كما هو حال بعض الإخوة اليوم الذين يحاولون إلصاق منهج حركة التبليغ ببلد النشأة وأشخاصها ومدارسها متجاهلين تماما توجيهات مشايخ الدعوة على مدار العقود ! ظانين أنهم بذلك يعودوا إلى الأصل ! وهم في الحقيقة يحاولون التقول على المشايخ أو تفسير كلامهم بما لم يفسروه .

ولذلك فإن مزاعم وادعاءات بعض الإخوة المنتسبين إلى دعوة التبليغ في بلاد العرب الذين يزعمون أن الحركة الدعوية مبنية على العقيدة الماتريدية والمذهب الحنفي وطريق التصوف السلوكي ، وأنها امتداد لمنهج ديوبند العقدي والفقهي لا تستند إلى أدلة علمية، بل جلها استنتاجات غير دقيقة ، واستنباطات من ملفوظات بعض شيوخ الدعوة ، مبنية هذه الاستنتاجات على خلفيات بعض المشايخ لا على منهج الدعوة

نفسه الذي تلقيناه أبيضا ناصعا ، مدفوعة تلك الاستنباطات بدوافع الحمية للرد على الخصوم المشنعين الغلاة المجرحين ، فقابلوا الباطل بباطل مثله ، والغلو بغلو ، والشطط بشطط ، والحزبية بحزبية ، وما هكذا كان التبليغ يوما ولم تكن تكن دعوته ، بل كانت دعوة التبليغ عامة شمولية بعيدة كل البعد عن الحزبيات والنقاشات والردود والمناظرات والسباب لأي عالم من علماء المسلمين مهما كان توجهه والبعد كل البعد عن الجدالات التي هي أصل من أصول الإسلام وترك الخوض في الخلافات كلها عقدية وفقهية والبعد عن كل السياسات الغربية المسطيطرة على الحكومات وعدم الانخراط فيها ولا مناصرة أحزاب على أحزاب والبعد عن تناول أمراض الأمة ابتداءا أو إفرادها بالدعوة والإكثار منها بل بقدر الحاجة وبطريقة ما بال أقوام وعدم مناغشة الحركات الدعوية الأخرى ! ، تلك هي دعوة التبليغ التي يعرفها القاصي والداني ، فالرد إن كان ولابد كائنا يكون بإبراز النصوص الأصلية للحركة الدعوية بالحكمة والموعظة الحسنة ، والسير على طريقة مشايخها والمنتسبين إليها في مختلف البلدان، وهم الذين لا يُعرف عنهم التمذهب أو التصنيف، بل يُعرف عنهم الدعوة إلى الله، والعمل الصالح، والخلق الحسن.

ومن أهم ما يُثبت أن دعوة التبليغ ليست خارجة عن منهج أهل السنة، أنها تُصرّح في كتبها وكلمات مشايخها بأنها تدعو إلى الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة الأول . ومن أبرز الكتب التي تُعبر عن هذا التوجه، كتاب وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة الذي كتبه أحد شباب التبليغ ، والذي يُعد وثيقة منهجية تُظهر التزام الحركة بمنهاج النبوة النقي الصافي في الفهم والتطبيق ، بغض الطرف عما سطر الكاتب من عند نفسه قبل أو بعد ، وبقطع النظر عن ثباته على الدعوة أو انتكاسته عنها ! ، فقد قام بعمل جليل وهو إثبات شهادات كبار علماء التبليغ في بلاد العجم وبثها للناس ، فالدعوة لا تبتدع في الدين، ولا تُخالف السنة، بل تُحييها في القلوب، وتُعيد الناس إلى بساطتها، بعيدًا عن التعقيد والتنظير.

وإذا نظرت إلى الواقع العملي لأهل التبليغ في مصر، والأردن، والسعودية، واليمن، وغيرها من بلاد الشرق الأوسط وإفريقيا، لتحققت أنه يُثبت بما لا يدع مجالًا للشك أنهم من أهل السنة والجماعة، وأنهم ملتزمون بمنهج السلف الصالح في العقيدة والسلوك. فهم يُصلّون في المساجد، ويُحافظون على الجماعة، ويُحيون السنن، ويُكرّمون العلماء، ويُشجعون الناس على طلب العلم، دون أن يُلزموا أحدًا بمذهب معين أو طريقة خاصة. وهذا الواقع هو خير شاهد على أن الحركة الدعوية ليست متحزبة، ولا منحرفة، بل هي دعوة إصلاحية عالمية شمولية ، تُعيد الناس إلى الدين، وتُحيي فيهم روح الإيمان، دون أن تُدخلهم في التصنيفات أو الخلافيات.

فمن يزعم أن حركة التبليغ تتبنى منهجًا عقديًا واحدًا، كالماتريدية أو الأشعرية، بناءً على تأثر مؤسسها أو بعض مشايخها بمنهج ديوبند، فهو واهم، يُسقط النشأة على المنهج، ويُغفل الفارق بين التلقي الشخصي وبين الدعوة العامة. فلم يُؤثر عن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله تعالى ، ولا عن كبار رموز الدعوة، أنهم دعوا إلى منهج ديوبند العلمي ، أو ألزموا الناس به، بل كانوا يُركزون على الدعوة، والعمل، والتزكية، دون الدخول في تفاصيل المذاهب أو العقائد. ومن يستشهد ببعض أقوال المشايخ المتأثرين بالمذهبيات، فهو يُغالط نفسه ويدلس على غيره ، لأن هذا التأثر لا يُمثل منهج الجماعة، بل يُمثل اجتهادًا شخصيًا، لا يُلزم أحدًا، ولا يُعبّر عن الدعوة في جوهرها.

الفصل العشرون : الخاتمة

مستخلصات البحث والتوصيات:

في ضوء التحليل السابق للاختلافات والمواقف المتباينة بين التيارات الإسلامية، وخاصة جماعات السلفية المعاصرة وجماعة التبليغ (أو حركات السلفيات المعاصرة وحركة التبليغ)، فإن تحقيق وحدة الكلمة وجمع صفوف الأمة يتطلب جهداً واعياً ومدروساً من علماء الأمة ومشايخ السلفية المعاصرة على وجه الخصوص. هذه التوصيات تهدف إلى تعزيز التفاهم، ونبذ الخلاف، وتوجيه الطاقات نحو ما يُفيد الأمة جمعاء ووحدة الصف وجمع الكلمة:

1. التركيز على المشتركات والأصول الجوهرية للدين .

فيجب على العلماء والمشايخ، في خطاباتهم ومناهجهم التعليمية والدعوية، تركيز الاهتمام على أصول الدين المتفق عليها بين جميع طوائف أهل السنة والجماعة. وهذا يشمل أركان الإيمان والإسلام، والمقاصد الكلية للشريعة، والقيم الأخلاقية الإسلامية السامية كالإخلاص، والصدق، والتعاون، وحسن الخلق ، ومما يعين على ذلك تقليل الخوض في المسائل الخلافية الفرعية التي تُفرق ولا تجمع، يمكن بناء قاعدة صلبة من التفاهم والتعاون، وتجاوز الجدالات العقيمة التي تستنزف طاقات الأمة وتُبعدها عن قضاياها الكبرى.

2. الاعتراف بالتنوع المنهجي المشروع في وسائل الدعوة إلى الله.

فيجب على جميع طوائف أهل السنة والجماعة الإقرار بأن الرسالة الإسلامية واسعة وشاملة، وأنها تستوعب تنوعًا في الأساليب والمناهج الدعوية، فليس كل منهج لا يسير على طريقة الآخر منهج باطل أو منحرف. فلكل بيئة وجمهور وبلد وثقافة وحقبة ، ما يناسبها من وسائل وطرق دعوية. وهذا التنوع، متى كان منضبطًا بضوابط الشرع، فهو مصدر قوة وإثراء للعمل الدعوي الشامل، ويُمكن من الوصول إلى شرائح مختلفة من الناس قد لا يستوعبها منهج واحد.

3. ضرورة التفريق بين الخلاف السائغ والخلاف المذموم.

من الضروري لعلماء الأمة وفقهاءها تعليم الأجيال وطلبة العلم والعامة الفرق الدقيق بين الخلاف الفقهي أو المنهجي الذي يدخل في دائرة الاجتهاد السائغ والمقبول، والذي لا يُفسد الود بين المسلمين، وبين الخلاف العقدي في المسائل العظمى الجوهرية أو الأصول الكلية للدين الذي يُخرج عن أهل السنة والجماعة أو يمس بأصول الدين وثوابته. فهذا التمييز يُحصّن الأمة من الوقوع في فخ التبديع أو التكفير بسبب مسائل فرعية، ويُعزز من روح التسامح والقبول.

4. العمل على تعليم وتطبيق آداب الاختلاف الشرعية.

فيجب على المؤسسات التعليمية والدعوية التابعة للحركات الإسلامية أو الرسمية غرس آداب الخلاف والاعتذار للمخالف في طلاب العلم وعامة الناس. وهذا يشمل احترام الرأي الآخر، وعدم الطعن في النوايا، والتركيز على الأدلة بدلاً من الأشخاص. فالتدريب العملي على كيفية التعامل مع الاختلافات دون بغضاء أو تقاطع هو أساس بناء مجتمع إسلامي متراحم.

5. ضرورة تحكيم الإنصاف والعدل في النقد والتقييم.

فيجب على المشايخ والعلماء في جميع حركات أهل السنة والجماعة الدعوية الالتزام بالإنصاف والعدل في تقييم الحركات والجماعات الإسلامية الأخرى. وهذا يعني البعد عن التشهير أو التشويه الذي لا يستند إلى دليل قاطع، وعدم تعميم أخطاء الأفراد على الجماعة بأكملها. فالنقد البناء القائم على الأدلة والحجة هو ما يُصلح ويُقوم، أما النقد القائم على الهوى أو المظنونات فإنه يُفسد ولا يبني.

6. نبذ التعصب المنهجي واحتكار الحق.

فينبغي لعلماء الأمة والمشايخ العمل على كسر حدة التعصب للمنهج الخاص المنحصر في جماعتهم أو فكرتهم أو رؤيتهم أو حزبهم أو منهجهم ، والتخلص من فكرة أن "الحق محصور في طائفتي أو جماعتي فقط". فالحق مُتعدد المظاهر والاجتهادات، ولا يمكن لأي جماعة مهما عظمت أن تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة بمفردها. هذا النبذ للتعصب يفتح الأبواب للحوار البناء والتعاون المثمر.

7. تحصين الأمة من فكر الإقصاء والإفراط في التكفير.

فينبغي على علماء الأمة بكل قوتهم محاربة فكر الإقصاء والبعد عن كل ما يؤدي إلى الغلو في التكفير والتبديع ، فالخطاب المبالغ فيه أصبح يزرع العداوة والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة. وهذا الفكر يُضعف الصف الداخلي، ويُعطي الذرائع لأعداء الإسلام للنيل من المسلمين وتشتيت شملهم.

8. تقديم المصالح الكبرى للأمة على المصالح الضيقة

فيجب أن يُقدم علماء الأمة والمشايخ في فتاواهم وتوجيهاتهم مصالح الأمة العليا (تجمع الكلمة والتآلف ومواجهة التحديات المشتركة من الأعداء والتعاون على البر والتقوى ومدح الآخر ومعاونته) على المصالح الضيقة للطوائف أو الجماعات أو الأفراد. فالمصلحة العامة تُقدم على المصلحة الخاصة عند التعارض.

9. تشجيع التواصل والحوار المباشر بين الأفراد والقيادات في الجماعات والأفكار.

إذ يجب على العلماء والمشايخ تشجيع الأتباع من الصف الأول ومن تحتهم على التواصل المباشر والحوار الهادئ والبناء مع إخوانهم المسلمين في كل طوائف أهل السنة والجماعة ، وكذا على مستوى القيادات وممثلي الجماعات الإسلامية الأخرى. فكثير من سوء الفهم ينبع من النقد من بعيد أو الاعتماد على معلومات غير دقيقة، بينما الحوار المباشر يُزيل الشبهات ويُقرب وجهات النظر.

10. الاعتراف بالجهد المبذول من الآخرين وتقديره.

إذ ينبغي على علماء كل تيار من تيارات طوائف أهل السنة والجماعة أن يعترفوا ويُقدروا الجهد الذي تبذله الجماعات أو الأفكار الأخرى في دعوة الناس إلى الله أو سد ثغر أو تقديم مصلحة أو القيام بواجب إلخ ، حتى لو اختلفت في المنهج أو الطريقة أو الوسيلة ، أو كانت لديهم بعض الملاحظات، فالاعتراف بالجميل وتقدير العمل الصالح يُعزز من روح التعاون والأخوة بين العاملين للإسلام.

11. تجنب تضخيم الخلافات الفرعية وتصويرها كأصول.

فيجب على العلماء عدم تضخيم الخلافات في المسائل الجزئية أو الفروع الفقهية، وتصويرها كأنها أصول تهدم الدين أو تُخرج من الملة، فهذا التضخيم يُفتت الأمة، ويفرق جمعها ، ويشتت شملها ، ويُحدث الشقاق بين أبنائها ، ويُشغل المسلمين ببعضهم ويذهب قوتهم ويشغلهم عن قضاياهم المصيرية.

12. ضرورة الفصل بين الأبعاد الدعوية والسياسية في التقييم.

فيجب حث ودعوة الحكومات والمؤسسات الدينية الرسمية إلى الفصل الواضح بين الدور الدعوي الخالص للجماعات وما تقوم به من خدمات جليلة للإصلاح المجتمعي وما تقدمه من تكافل بين أبناء الإسلام وبين أي مخاوف سياسية أو أمنية. إذ يجب معالجة كل بُعد على حدة، وعدم خلط الأوراق، حتى لا تُظلم جماعات دعوية ليس لها أجندات سياسية ولا يمنع خير من حركات أخرى لمجرد خلافات سياسية .

13. تفعيل دور المجامع الفقهية والمؤسسات العلمية الكبرى.

فجيب تفعيل دور المجامع الفقهية والمؤسسات العلمية الكبرى واستثمار ذلك في حسم المسائل الخلافية الموسمية أو التي يمكن حسمها، أو – حتى - على الأقل استخدام سلطتهم في بيان أوجه الخلاف السائغ وتأطيره شرعياً، لمنع عوام الناس ومحبي العلم من الخوض فيه بلا علم منعا لآثاره السيئة من التعالم المؤدي إلى الغلو الناتج عن سوء الفهم .

14. محاربة ظاهرة "القطيع" والتبعية الفكرية.

فيجب العمل في جميع طوائف أهل السنة والجماعة على كسر ظاهرة "القطيعية" التي تجعل أتباع كل تيار لا يرون الدين والمجتمع والآخرين ولا يحكمون عليهم إلا بعين شيوخهم أو جماعتهم، ولا يقبلون نقداً أو تقييماً محايداً من أحد كائنا من كان إلا ممن هو في فصيلهم وجماعتهم وفرقتهم وفكرهم وحزبهم . وهذا يتطلب تشجيع التفكير النقدي البناء داخل الطائفة نفسها والبحث عن سبل الإلتقاء وقطع كل سبل الفرقة والاختلاف .

15. تعليم النشأ النظرة الشمولية للإسلام وتعدد طرقه.

فيجب تعليم الأجيال الجديدة في جميع طوائف أهل السنة والجماعة أن الإسلام رسالة شاملة جامعة كاملة محكمة تتسع لتنوع الطرق والأساليب في الدعوة، قد خدمت من عشرات ومئات الآلاف من العلماء المتقنين المعتبرين عبر القرون ، فلا جديد ينتظر إلا كما يرجع مع المخيط إذا أدخل البحر ، وأن هذا التنوع في الوسائل الدعوية هو مصدر قوة وتكامل للأمة ، وليس مظهر ضعف أو فرقة، متى كان منضبطًا بالضوابط الشرعية.

16. إعادة التركيز على تزكية النفس والأخلاق كأولوية.

فيجب إعادة التركيز على جوانب تزكية النفس، وتطهير القلوب من الأمراض، والتحلي بالأخلاق الفاضلة كأولوية قصوى في الدعوة والتربية. فهذا الجانب هو ما تتفق عليه كل التيارات ويُعد من صميم الإحسان .

17. التحذير من المغالطات المنطقية في الحوار بين الأفكار والنقد للآخرين.

فيجب توعية الناس في جميع طوائف أهل السنة والجماعة والمشايخ بمغالطات منطقية مثل "الاستنتاج الخاطئ"، و"القياس مع الفارق"، و"الشخصنة" و " عدم سماع حجة الآخر " و " الحجر على الأتباع سماع الآخرين " و " التذبب قبل التحصرم" و " نقل الكلام من غير تثبت " و " فهم الكلام بعيدا عن سياقه " و " تحميل الكلام ما لا يحتمل وإلزامه ما لا يلزم " و " عدم حمل الكلام على أحسن المحامل " إلخ ، التي تُستخدم بكثرة في نقد الآخرين وتؤدي إلى أحكام غير منصفة.

18. إعمال مبدأ التعاون على البر والتقوى في المشاريع المشتركة.

وذلك بتفعيل الآية الكريمة: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"، وذلك بالبحث عن سبل التعاون المشتركة بين الجماعات المختلفة في المشاريع الخيرية، والإغاثية، والتربوية وطلب التعاون منهم وعدم انتظارهم حتى يبادروا هم بالمعاونة ، لجمع جهود الأمة والاستفادة من مقدراتها لمواجهة التحديات والغزو الفكري .

19. بناء الجسور بين جميع طوائف أهل السنة والجماعة لا هدمها في سبيل وحدة الصف.

فيجب أن يكون الهدف الأسمى لجميع العاملين للإسلام هو بناء جسور التواصل والتفاهم بين التيارات المختلفة، بدلاً من هدمها بالاتهامات المتبادلة والطعن في النوايا، فهذا يُفتت قوة الأمة ويذهب ريحها ويضعف قوتها .

20. تذكير الأمة بالمقاصد العليا للشريعة.

فتذكير الأمة والأتباع في جميع طوائف أهل السنة والجماعة باستمرار بأن من مقاصد الشريعة الكبرى حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ وحدة الأمة واجتماع كلمتها. وأن الخلاف المذموم والشقاق يُعارض هذه المقاصد الجليلة يؤدي في النهاية إلى جمع الصف وحدة الكلمة ، نسأل الله تعالى القبول .

رسالة البحث : رؤية أمل في وحدة الأمة

وفي ختام هذا البحث المتواضع، وبعد الغوص في ثنايا مواقف بعض التيارات الإسلامية المعاصرة من حركة التبليغ والدعوة العالمية ، وما يكتنفها من تباينات واتهامات، يحدوني الأمل في أن تكون هذه السطور قد نجحت في إلقاء الضوء على حقيقة هذه الجماعة - من حيث العمل الجماعي - الحركية، وفك الاشتباك بين واقعها ومنهجها وبين التصورات المسبقة التي تُلقى عليها من كثير من معاصريها.

فلم يكن الغرض من هذا البحث الدفاع عن جماعة بعينها، بقدر ما كان سعيا حثيثاً نحو تأصيل قيم العدل والإنصاف في الحكم على الآخر، وبيان أن التنوع في الأساليب الدعوية هو ثراء لا ضعف، وقوة لا فرقة. ولقد أردتُ أن أحمل للأمة رسالة مفادها أن (الأمة الإسلامية، في ظل التحديات الجسام التي تواجهها، أحوج ما تكون إلى جمع الكلمة، وتوحيد الصفوف، وتوجيه الطاقات نحو البناء لا الهدم، والتعاون لا التنازع.)

ولقد رأينا كيف أن حركة التبليغ الدعوية العالمية ، رغم الملاحظات التي قد تُسجل عليها، استطاعت - بجهدها الدعوي البسيط، وتمويلها الذاتي، وأخلاق أفرادها الحسنة - أن تُحرك الملايين وتُعيدهم إلى بيوت الله. وهذا النجاح المشاهد بالأعين لا يمكن إنكاره، ولا يجب أن يُشوه باتهامات لا تستقيم مع الحقائق أو بمنطلقات لا ترتكز على ميزان الشرع القويم.

إننا بحاجة ماسة إلى أن يتفهم علماء الأمة في جميع طوائف أهل السنة والجماعة ، وعلى وجه الخصوص مشايخ السلفية المعاصرة ، أن التعصب المنهجي واحتكار الحق لا يُقدمان الأمة خطوة واحدة إلى الأمام، فالمطلوب هو النظر بعين العدل، والعمل بروح الأخوة، وتقديم مصالح الأمة الكبرى على المصالح الضيقة

للطوائف. فالقلوب والأجساد متى تلاقت على الأصول، وتسامحت في الفروع، وتناصحت برفق وتزاورت بحب فإنها تُشكل سداً منيعاً في وجه كل من يُريد بالأمة سوءاً.

أسأل الله العلي القدير أن يُلهمنا جميعاً الرشاد، وأن يُعيد للأمة وحدتها وعزتها، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وسببا لهداية العالمين وجمع كلمة المسلمين إنه ولي ذلك ومولاه ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وصلى الله تعالى على نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبارك وسلم تسليما كثيرا .

وكتبه

د. - أبو إلياس - طه بن إبراهيم القلموشي

القاهرة - مصر

الأربعاء ، 20– " أغسطس " 8 – 2025 ميلادي ، 26 – 2 " صفر " - 1447 هجري

فهرس الموضوعات :

Table of Contents

الغلاف الأيسر

كتابنا هذا :

حركة التبليغ دعوة عالمية

ليست فرقة عقدية ولا طريقة سلوكية ولا جماعة حزبية

إحدى إصدارات المشروع العلمي

إقرأ حتى لا تزيغ

مع غلاة تبديع وتفسيق وتكفير

حركة الدعوة التبليغ □

د/ أبو إلياس طه بن إبراهيم القلموشي